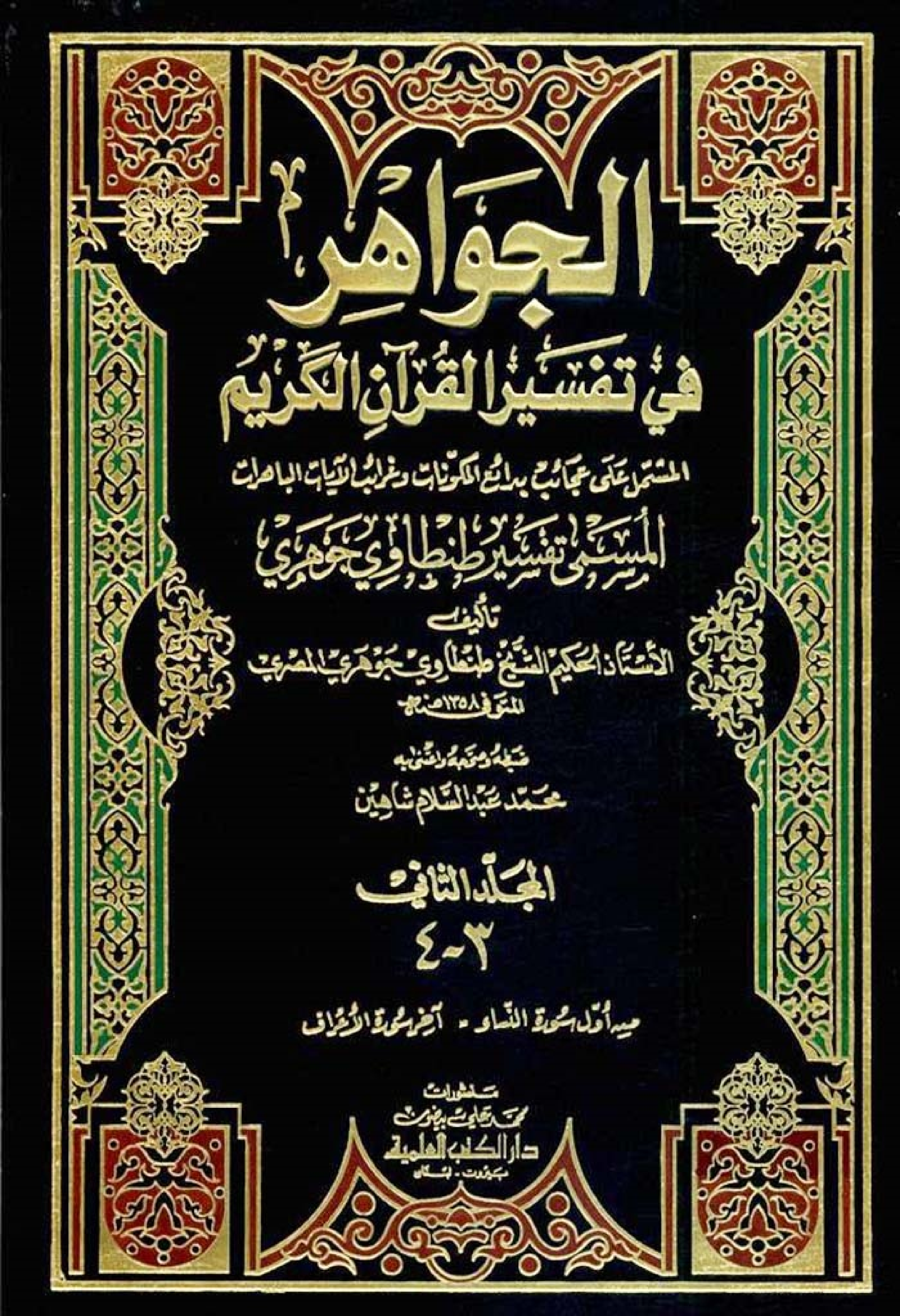

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الثاني
٣-٤
من أول سورة النساء - آخر سورة الأعراف
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

٣ ـ ٤

المحتوى :

من أول سورة النساء ـ إلى آخر سورة الأعراف

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت ـ لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[ق: ٣٧]

سورة النساء

مقاصدها تسع

المقصد الأول: من قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَنِسَآءً ﴾[الآية: ١].

المقصد الثاني: في صلة الأرحام والوصية على اليتامى من قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [الآية: ١] إلى قوله: ﴿ حَسِيبًا ﴾[الآية: ٦].

المقصد الثالث: في قسم التركات والمعاملات المالية من قوله: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾[الآية: ٧] إلى قوله: ﴿ وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[الآية: ١٤].

المقصد الرابع: في صلة الصنفين الذكر والأنثى وأحكام ارتباطهما بعقد أو بغير عقد، من قوله: ﴿ وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾[الآية: ١٥] إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾[الآية: ٣٥].

المقصد الخامس: في طاعة الله والرسول وأولياء الأمور وإكرام الوالدين واليتامى والعبادات والإنفاق وتأدية الأمانات، من قوله: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾[الآية: ٣٦] إلى قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾[الآية: ٧٠].

المقصد السادس: في القتال والجهاد، من قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الآية: ٧١] إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[الآية: ١٠٤].

المقصد السابع: في أحكام القضاة والمحامين، ولوم القضاة إذا قصروا في التحقيق، وذمّ المحامين إذا زوروا، من قوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [الآية: ١٠٥] إلى قوله: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[الآية: ١١٣].

المقصد الثامن: في العدل في النساء وذم أتباع الشيطان ومدح الإخلاص لله والقيام بالقسط لليتامى وفي ترك مصادقة أعداء المسلمين ونحو ذلك، من قوله: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ ﴾[الآية: ١١٤] إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[الآية: ١٥٢].

المقصد التاسع: في الجدال مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى وتقريعهم على ذنوبهم مثل الربا، وعلى جهلهم مثل المغالاة في الدين وختام السورة بجواب الفتيا، من قوله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾[الآية: ١٥٣] إلى آخر السورة.

ملخص هذه السورة

كأن الله عزّ وجلّ يقول في القسم الأول: يا أيها الناس أنتم من أب وأم، والأب أصل لكم، والأم فرع، ومنهما كان رجال ونساء، فالوحدة في الكثرة؛ أوَلا ترون أنكم كرجل واحد؟ وكيف لا يكون كذلك وأنتم جميعاً يعين بعضكم بعضاً؟ فالشرقي يلبس ما نسجه الغربي، والغربي ينسج ما

زرعه الشرقي، وأنتم تتبادلون جميع المنافع، فإذا اتحدتم أصلاً فهاأنتم أولاء اتحدتم عملاً، فالأصل واحد والعمل متحد؛ أولا ترون أن الإنسان الواحد يده تعمل غير عمل عينه؟ وعينه تعمل غير عمل الكبد؟ والكبد يخالف الرئة؟ وكلها متعاونة، لو اختل واحد منها لهلك الإنسان؟ هكذا مجموع الناس كشخص واحد، فاتقون ولا تعصون أيها الناس.

وكأنه يقول في القسم الثاني: فلماذا إذن أيها الناس لا تتواصلون ولا تتراحمون ولا يعطف بعضكم على بعض؟ وإذا كان الناس كلهم شرقاً وغرباً كأسرة واحدة، فبالأجدر يكون الأقارب والأرحام فواسوهم، ثم اليتامى فلا تأكلوا أموالهم، وإياكم والإسراف في التزوج وكثرة النساء، واقتصروا على أربع إن عدلتم، وواحدة إن خفتم الظلم، وأعطوا النساء مهورهن ولا تضيعوا أموالكم بإعطائها لمن لا يحفظها، وأعطوهم ما يقيمهم، وحافظوا على أموال اليتامى وكونوا أعفاء.

وكأنه يقول في القسم الثالث: واقسموا التركات بالحق الذي بينته، فالذكر كالأنثيين، وللبنت المنفردة النصف، وإن كانت بنتان فلهما الثلثان، ولكل من الأب والأم السدس إن كان للميت ورثة، فإن لم تكن ذرية فلأمه الثلث، وإن كان له إخوة فلأمه السدس، وللزوج نصف تارة وربع أخرى، وللزوجة ربع تارة وثمن أخرى، ومن مات ولا ولد له ولا والد، يكون لأخيه من أمه السدس، فإن زاد عن واحد فلهم مهما كان عددهم الثلث، والذكر هنا كالأنثى.

وكأنه يقول في القسم الرابع: عاشروا النساء بالمعروف، وأشهدوا على اللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم بعد استيفاء الحد، فلا يتعرضن لما وقعن فيه حتى يتزوجن، وللتوبة منزلة شريفة في الإسلام ما لم يكن الاحتضار، ولا تتخذوا النساء سلماً للميراث، ولا تحبسوهن عليكم من غير ريبة فيهن لأجل أن تأخذوا بعض ما أخذن منكم من المهر إلاَّ في أحوال خاصة، ولتكن المعاشرة بالمعروف، وإياكم أن تأخذوا منهن ما أعطيتموهن فإن ذلك عار، وكيف يكون هذا الشقاق بعد الوفاق والخلطة؛ ولقد حرمت عليكم نساء آبائكم وكثيراً من القريبات كالأم والأخت الخ، وجميع المتزوجات، كل هؤلاء حرام عليكم، واحذروا السفاح ولا تتزوجوا بالإماء اللاتي ملكهن غيركم إلاَّ أن تخافوا الفتنة، واحذروا الشهوات والميل في الأموال كما تحذرونه في الأعراض، ولقد أعفو عن الصغائر إذا اجتنبتم الكبائر، وهذه الأموال والنساء عاريات مردودات فلا يقل امرؤ لم استمتع غيري بالنساء والأموال وأنا محروم؟ فارجعوا إلى الله، والله هو المعطي، وإذا أعطيت المرأة نصف ما للرجل فليس لها اعتراض وليأخذن كل وارث ما استحقه، فلا يحسدن أحد أحداً على ما قسم له وليسأل كلٌّ الله؛ وإذا أخذ الرجل ضعف المرأة فإنما ذلك لكونه قوّاماً عليها فله فضل ذلك، كما أن له تأديبها بالأنواع التي أباحها له الشرع، فإذا خفتم الشقاق فابعثوا الحكمين.

وكأنه يقول في القسم الخامس: اعبدوا الله وبروا الوالدين وصلوا الأرحام وافعلوا المعروف مع اليتيم الخ، وإياكم والرياء، والله لا يظلم، وإن رسولي شهيد عليكم فاحذروا أن تظهروا أمامه مشوهي الصور الروحية، فتخجلوا وتفضحوا فضيحة عظيمة، فلتكن الصلاة بقلوب حاضرة لا بمجرد أقوال وأفعال، ولتكن على نظافة، لتبتهج أفئدتكم وتكون أرواحكم مشرقة، ويكون الظاهر معراج الباطن، فالصلاة بلا حضور قلب ولا طهارة لا تفيد، بل تبطل، وذلك يناسب ما يفعله اليهود من تحريف الكلام

في التوراة حفظاً للرياسة وكذباً؛ ألا وإن الظهور بالمظهر الكاذب يورث القلوب النفاق والخلال الدنية، وتصبح مجبولة على الأكاذيب والخداع، وتغطى عنها الحقائق، ألا وإن بعض أهل الكتاب باستدامة هذه الخلال أخذوا يؤمنون بالأصنام ويفضلونها على دين الإسلام لكثرة الأكاذيب، حتى صارت سجية فلا يبالون بنتائجها، أفليس ذلك يستوجب اللعنة لهم؛ ولو أن الملك لهم لبخلوا وهم يحسدون الناس، لأن المعاصي يجر بعضها بعضاً، فليؤد الناس الأمانة، وليطيعوا أولي الأمر منهم، وليرضوا بقضاء قضاتهم العادلين، ولتعظوا الجاهلين، ولتعلموا أن المطيعين منكم مع الأنبياء والصديقين.

وكأنه يقول في القسم السادس: فلا تكونوا أيها المؤمنون ذوي نفاق تثبطون عن القتال وتكونون كمن يعبد الله على حرف، فإن رأوا خيراً أقبلوا وإن رأوا شراً أدبروا، فقاتلوا في سبيل الله وأنقذوا المستضعفين من أهل مكة الذين ظلمهم الكفار. عجباً لقوم أحبوا القتال فلما أمروا به هابوه وكرهوه مع أن الحياة متاع والموت مطاع، وهم ينسبون أكثر ما يقضى عليهم من الشر لك، وينسبون الخير لله، بل الشر من أنفسهم لأنفسهم، وهم يظهرون خلاف ما يبطنون في طاعتهم لك، ويفشون الأسرار ويشيعون الأخبار في الحرب والسلم بلا هدى ولا كتاب منير؛ فقاتل ولو وحدك، وحرّض المؤمنين واحذر المنافقين، ولا يقتل مسلم مسلماً عمداً، وللخطأ الدية، وجزاء العمد جهنم، ومن أسلم فدمه حرام، والمجاهدون في سبيل الله لهم فضل عظيم، ولا يقعد قادر راضياً بظلم الكافرين فليهاجر، وللمسافر صلاة القصر، وإذا صليتم في أوقات الحرب فاحذروا الأعداء وأقيموها وقت السلم، وكونوا أقوياء على الأعداء.

وكأنه يقول في القسم السابع: إياكم أيها القضاة والتهاون في القضايا، ولا يسلبن ألبابكم المحامون عن المدعى عليهم بذلاقة ألسنتهم.

وكأنه يقول في القسم الثامن: خير المناجاة ما كان للبر والصدقة والصلح، وفيه ذم اتباع الشيطان والمرء مجزيّ بأعماله فليخلص لله وليعط كل ذي حق حقه لا سيما الضعفاء، ولا تظلموا النساء، ولتصلحوا بين الرجال وبينهن، وعلى الرجل أن لا يميل كل الميل عن المرأة، وإن الظالمين منكم أستبدل بهم غيرهم، فأقيموا الشهادة حقاً، ولا تضلنكم الأهواء. وفيه ذم المنافقين وذم من يتخذ بطانة من الأعداء.

وفي القسم التاسع: ذم اليهود لنقضهم الميثاق وتبجحهم بأنهم قتلوا المسيح، واليهود والنصارى سيؤمنون بأن المسيح عبد الله ورسوله عند الاحتضار، ولقد ضيقنا على اليهود في دينهم لأنهم ظالمون آكلون أموال الناس باطلاً، إلاّ فحول العلماء منهم، وأنت ومن قبلك مبشرون ومنذرون، فلا تتغالوا يا أهل الكتاب في الدين، فالمسيح لا يتعالى أن يكون عبداً لله ولا الملائكة الخ. انتهى القول في جمل من معاني هذه السورة.

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد قدمنا أن سورة البقرة مسوقة لأحوال بني إسرائيل، وأن آل عمران كأنها متممة لها، ذلك أن عيسى عليه السلام من بني إسرائيل، وقد جاء بدين لإصلاح ما أفسده الدهر من الدين القديم، وعنوان السورة يشهد بذلك.

وقد قدمنا أن سورة آل عمران مبدوءة بالنظر العلمي مختومة بالعلمي والعملي، ابتدئت بالنظر في السماوات والأرض، واختتمت بالابتهاج بجمال العالم العلوي والسفلي، وأن من لم تكشف له الحقائق كانت فضيحته وعاره عظيمين، وقد جاء في خلال ذلك الكلام في غزوة أحد والتلميح إلى غزوة بدر؛ فكأن تاريخ بني إسرائيل أعقبه تاريخ المسيح بالترتيب الزماني، هكذا بعض تاريخ الأعمال الإسلامية في غزوة بدر وأحد.

ولما كان ما ورد في آل عمران من أحوال الإسلام لا يعدو في مجموعه جهاد الأعداء، ودفعهم عن الأوطان، والذبّ عن حياض الدولة وحراسة الملة، ناسب أن يؤتى عقبها بما يصون البلاد في داخلها من القوانين المسنونة، لصيانة الأموال والأعراض ونظام الأسرات، من قسم التركات وحفظ الزوجات، وتبيان المحرمات، وحفظ الأنفس من القتل ونظام القضاة والقضايا والمحامين المدافعين عن المدعى عليهم، والصلح بين الأزواج، والصدق والشهادات وأداء الأمانات، وإغاثة المستضعفين، وما أشبه ذلك مما قرأته مجملاً وستعرفه مفصلاً، فكان تسميتها بالنساء أقرب، لأن المسألة ترجع إلى أمر الأسرات والأحوال المنزلية وحفظ العائلات، والنساء أسّ المنازل، كما أن الرجال أساطين الحروب والأعمال الخارجية؛ فلنبتدئ في تفسير هذه المقاصد التسعة:

المقصد الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾

التفسير اللفظي

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ هذا الخطاب عام لجميع نوع الإنسان ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ هو آدم ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء ﴿ وَبَثَّ ﴾ نشر ﴿ مِنْهُمَا ﴾ من تلك النفس والزوج المخلوقة منها ﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ بنين وبنات كثيرة اهـ.

اعلم أن الله عزّ وجلّ لما فرغ من سورة آل عمران وقد حث في أولها وآخرها على النظر العلمي والتفكر في خلق السماوات والأرض وذكر الله باللسان والقلب وكان ذلك أشبه بالنظام العلمي في فن الحكمة، أخذ يكمله في أول هذه السورة بالنظام العملي، فهناك العلم وقوة الأبدان، وهنا نظام الأسرات وحفظ العائلات، فأخذ يمهد لذلك بمقدمة لطيفة تدل على أن اتحادنا منشأ وتشابهنا خلقة.

واعلم أن خلق آدم وحواء ليس هناك دليل قطعي على كيفيته، والقرآن أتى به مجملاً على مقتضى ما تقبله العقول وتفهمه النفوس؛ فأما التفصيل فليس للكتب السماوية وإنما هذه مقدمات يؤتى بها للمقاصد. فأما التفصيل فقد قام به علماء الأمم من عجم وعرب. ومن عجب أنهم لم يهتدوا للحقائق ولم يصلوا إلى أصل الخلق؛ ألا ترى كيف قال آباؤنا السابقون: إن الحيوانات أول ما خلق منها البحرية، لأن البحر قبل البر، ثم كانت البرية، وكل حيوان أنقص خلقة مقدم على ما هو أكمل، وقالوا: إن الحيوانات التامة الخلقة لم تكن من البحر بل خلقت تحت خط الاستواء، وكل منها

تناسل من ذكر وأنثى والحرارة هناك كافية للتوليد، فلما أن انتشرت تلك الحيوانات كالبقر والغنم والآساد والنمور في الأرض، حفظت تلك الحرارة في الأرحام لتستأهل لنمو الأجنة، والإنسان أيضاً كتلك الحيوانات، وأبونا آدم وزوجه حواء خلقا كما خلق من كل نوع زوجان تحت خط الاستواء، وتفرقت الذرية في الأرض كسائر الحيوانات، ثم آباؤنا نقلوه عمن قبلهم من الأمم ولذلك تجد جزيرة سيلان «سرنديب» التي هي قرب خط الاستواء مذكور في كتبهم أنها فيها خلق آدم، ومن هذا جعلت كل الأمم أن آسيا منبع الجنس البشري وأهل أوروبا يقولون: إن أكثرهم من آسيا، وإن أمماً نزحت قديماً وهاجرت إلى تلك الأقطار الباردة منها، وعلى ذلك شاع وذاع لفظ «يأجوج ومأجوج» أي أهل تلك الأقطار، وهم التتر والمغول ـ هكذا رأيتها في كتب الجغرافيا القديمة ـ وإنهم يفسدون في الأرض، فكلما كثروا نزحوا إلى أوروبا وغيرها، كما تقرؤه عن أمة «الهون» وغيرها قبل العصور الحاضرة، وقد هاجروا إلى أوروبا، وكما تقرؤه في أخبار جنكيز خان ـ الذي ستقرأ خبره وتخريبه لبلاد الإسلام في آخر سورة الكهف وترى هناك معجزات النبوة واضحة ـ وهولاكو ومن نحا نحوهما ممن أزالوا دولتنا العربية ببغداد وذهبوا إلى الروسيا واستوطنوا شواطئ نهر فولجا، وهم الآن مسلمون، كل هذا مذكور في التاريخ. والسر الأصلي فيه أن الناس قديماً يرون أن مهد الجنس البشري في الشرق، وسره الأكبر ظنهم تولد الأبوين الأصليين من كل حيوان في خط الاستواء، أما الفرنجة فإنهم لا يزالون يتخبطون وليس لأقوالهم نهاية، ففريق يرى أن الحيوانات البحرية مقدمة على البرية، والأنقص قبل الأكمل، مثل قدمائنا ولكن يرون أن الحيوانات التامة الخلقة مسلسلة من ناقصة الخلق حتى الإنسان، وهذا المذهب قد سار شوطاً بعيداً في القرن الماضي، ولكن علماء العصر الحاضر حقروه ونبذوه ظهرياً وذموا قائله وقابلوه بالنكران وكفروا به، وهم لا يزالون في البحث الجدين ولا يزالون مختلفين، أما القرآن والتوراة فإنهما نصا على أن آدم خلق من التراب وحواء خلقت منه. هذا هو كلام الديانات وهذه علوم الناس قد أحضرتها بين يديك على سبيل الإجمال. ويا ليت شعري إذا كان القرآن والكتب السماوية أجملت المقال، والفلاسفة والحكماء تفرقوا شيعاً، فأين السبيل؟.

أقول: اعلم أن الكتب السماوية إنَّما تذكر هذا لغرض أسمى من معرفة أصل الأبوين، وماذا نجني من وراء معرفة أصلهما؟ نعم البحث في العوالم كلها مرق للعقول، ولكن كل ما يعرفه البشر في هذا المقام لا يصل للحقيقة الواقعة ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾[الكهف: ٥١] إن الناس لم يشهدوا مبدأ العالم ولا مبدأ أنفسهم، وإنّما المقام هنا الدلالة على الوحدة العامة الإنسانية فلئن ذكر الله اتحادنا في المنشأ والتشابه في الأحوال، فإنّما ذلك ليدلنا بطريق الكناية على الوحدة العامة الإنسانية والنظام الشامل لهذا الوجود، والكناية هنا هي المقصودة بالذات كما يقول علماء البيان؛ ألا ترى إلى قول الخنساء وقد خطبها دريد بن الصمة:

معاذ الله يرضعني حبركي قصير الشبر من جشم بن بكر

تقول: أنا أستعيذ بالله أن يرضعني قصير القامة ضئيل الجسم من هذه القبيلة، ولم يكن ذم الإرضاع مقصدها، ولا الولد القصير الشبر عدواً لها، وإنّما تريد ما هو أهم لها في زواجها، وهو أن يكون الزوج طويل القامة عظيم الهامة من قبيلة شريفة، فإنها لو تزوجت ناقص الخلق ضئيل الجسم،

حملت منه فوضعت ولداً يشبه أباه، فانتقلت من المعلول إلى العلة، ومن الفرع إلى الأصل، فكانت النتيجة هكذا، أنا لا أتزوج رجلاً ضئيلاً قصيراً حقير المنظر لا يملأ القلوب مهابة، ولا العيون إجلالاً، وليس من الملأ الشرفاء، ولا من السادة العظماء. هذا هو الذي يفهمه الرجال والنساء والعامة والعلماء فهكذا هنا لم يقصد الخلق ومبدؤه لذاته، وإنّما يراد منه الاتحاد والوحدة العامة الإنسانية في هذا الوجود وكأنه بعد أن أبان تناسب المادة وتناسقها في آخر آل عمران، أخذ يبين تناسب الجنس البشري واتحاده النظري، ورتب عليه التراحم والمودة وصلة الأرحام وحفظ مال الأيتام والعدل في قسم التركات والقضايا والدعوات وأداء الشهادات؛ وإذا كانت الحكمة تثبت أن هذا العالم الحيواني والإنساني متشابهان في الخلق متناسقان في الوضع، حتى إنك لترى أن النبات أدناه يقرب من المعادن كخضراء الدمن، أي: النباتات التي تراها أيام الربيع بالغداة حتى إذا حميت الشمس ذبل النبات وصار هباء منثوراً، فإذا كان اليوم الثاني طلع كالذي قبله، ثم يرتقي النبات طبقاً عن طبق، حتى يكون أعلاه ما يعيش على غيره كنبات يسمى الكشوثي، فإنه لا ساق له وإنّما يعيش على غيره ويمتص من عصاراته كما تمتص الدودة من الرطوبات، وكالنخل لأنه تميز ذكره من أنثاه وهكذا إذا قطعت رأسه مات، فصفات النخل وصفات الكشوثي أشبه بصفات الحيوان، ويلي هذين وأشباههما الحيوان وله أدنى وأعلى، فالأدنى أشبه بالنبات كما هو معلوم في محله، وشرحته في كتاب الفلسفة مما يعيش في القواقع على شاطئ البحار، ثم يرقى طبقاً عن طبق كالآساد والنمور والقرود، بحيث ترى الأدنى يتلوه الأعلى فذوات البيض أقل من التي تحمل وتلد وترضع أولادها، وهكذا تصل إلى المتوحشين من بني آدم، ويرتقي نوع الإنسان إلى العلماء والأنبياء ويليهم الملائكة على تفصيل في ذلك، وعالم الحيوان وعالم النبات كمملكة واحدة تدبرها نفس واحدة، وكأنها جسم تدبره نفس واحدة، يشير لذلك: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[لقمان: ٢٨].

فإذن علمت مما قدمناه في هذا التفسير أن هذه العوالم كلها متضامنات بينها مناسبات كأنها أسرة واحدة لمنظم واحد، أفلا تكون الأسر الإنسانية أقرب إلى التعاطف والتراحم لاقترابها، وقد قضت الحكمة أن الاتحاد أعم منها فكيف يكون أمرها؟ وإذا كان الاتحاد العام والنظام الشامل بحسب الحكمة يدعوانا أن نرحم الحيوان وننظم هذه الكرة الأرضية، فكيف بالإنسان وهو أخو الإنسان؟.

يقول الله: أيها الناس تراحموا وتوادوا فأنتم أسرة واحدة من أب واحد. وقال سقراط لتلاميذه وقد أنكر بعضهم العبادة والقربان لله، وأنكر وجود عقول غير عقل الإنسان لأنه لم يره: ألست ترى أن صورة الإنسان من المواد الهوائية والمائية والأرضية، قال: بلى. قال: فإذن أنت تؤمن أن جسمك المركب من مواد ضئيلة صغيرة جداً من العوالم الكبيرة المحيطة بنا له عقل، ولا تؤمن بأن هذه العوالم الكبيرة فيها عقل، أي: أن مادة الهواء والماء والجسم الأرضي التي اشتمل عليها جسمك تحظى بعقل وفهم، فأما الأرض ذات الفجاج والهواء ذو الرياح والبحر ذو الأمواج، فكل هذه محرومة من العقل، أي: إن العقل يناله القليل الضئيل، ويحرم منه العظيم الكبير الكلي؛ إن العقل يكذب هذه القضية وهذا العالم منظم بعقل كلي.

هذا تقرير ما قاله سقراط في محاوراته مع تلاميذه، ويستدلون على ذلك أيضاً بأن كل معدن

كالملح والنطرون والشب والمغنيسيا والأسرب والنحاس والذهب له عمل غير عمل الآخر، وهكذا النبات والحيوان والماء، فإنا نراها مختلفة النتائج متحدة الوجهة لغرض واحد، ونرى الشمس تمتزج حرارتها بالماء وبالتراب وبالهواء ويكون أنواع النبات، ثم إن المعادن تتعاون معها فتكون منافع للناس تتبعها أخرى، ورتبوا على ذلك ما يقال له:

النفس الكلية

وجعلوا أن الشمس والقمر والكواكب والماء والهواء بالنسبة إليها كآلات النجار والحداد، فالحرارة آلة والبرودة آلة والهواء آلة والماء آلة، وبهذه الآلات وتحريكها تصور هذه الصور بإذن الله تعالى، هذا ما يقوله الحكماء، فتلك العناصر والقوى في العالم أشبه بالأعضاء والآلات التي يستعملها الإنسان، وتكون أنفسنا لتلك النفس الكلية أشبه بالعين والسمع والبصر والشم بالنسبة لأنفسنا؛ فالعالم مدبر بنفس واحدة أبدعها الله، وهذه النفس مستمدة قواها من العقل الأول الذي هو اللوح المحفوظ عند علماء الشريعة، ونفوسنا أشبه بالأسماع والأبصار لها، وكما أن نفوسنا تسمع وتبصر وتبطش وتتكلم وتهضم بالأذن والعين واليد واللسان والمعدة والنفس واحدة والقوى والأعمال مختلفة، هكذا هذا العالم كله مدبر بنفس واحدة كنفوسنا، وهذه النفس لها قوى مختلفات تدبر العالم، فالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والكهربائية والمغناطيس كل واحد منها له عمل مخالف للآخر، والنفس واحدة والأعمال منتشرة تبع القوى، وكما أن اختلاف الأعين والآذان والأيدي في الأعمال لا يمنع أن النفس واحدة، هكذا لا يمنع اختلاف النبات والحيوان والماء والهواء والحرارة والبرودة أن النفس المدبرة لها واحدة، فالله واحد، والنفس المدبرة الكلية واحدة لها آلات وقوى يدبر بها العمل تدبيراً منظماً متجهاً إلى نتائج منتظمة كما تتجه أغراض الإنسان لما يريد من حوائج لغرضه الأصلي.

هذا تحقيق المقام في النفس الواحدة عند الحكماء، فإذا صح هذا تكون النفس الواحدة التي عبر عنها بآدم تذكرة للنفس الواحدة المنظمة للعالم ولهذه الوحدة المنظمة ترى الناس يخدم بعضهم بعضاً وإن لم يعلموا.

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وعلى هذه القاعدة ترى جميع نوع الإنسان على الأرض يخدم بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون والمرء لا يقدر أن يخبز ويحرث ويزرع ويخيط ويأتي بالحديد والنحاس من الجبال، ولا يصنع المراكب في البحار ولا القطرات فوق القضب الحديدية ولا يزرع جميع أنواع الزرع. إن حاجات الناس تزداد كلما زاد العمران وتعظم كلما ارتقى نوع الإنسان، وهنا يقال: إن كل امرئ محتاج لغيره في ضروريات معيشته كالمأكل والملبس، وفي كمالياته كالزينة والعطر، فغيره هو المكمل له، فمن كره غيره فقد كره من يكون سبب ضرورياته وكمالياته، ومن كره من هو سبب كمالياته وضرورياته فقد كره كمال نفسه وحياتها، ومن كره نفسه وحياتها فهو فاقد العقل متخبط في براهينه، لأن القضية العقلية الصادقة هكذا كل امرئ يحب نفسه وكمال نفسه، ولكن من يكره الناس تكون نتيجة كراهته لهم هكذا أنه يكره كمال نفسه وحياتها فتكون النتيجة أنه يحب حياة نفسه وكمالها، وأنه يكره حياة نفسه وكمالها.

فأما القضية الأولى فهي بالبداهة، وأما الثانية فبالبرهان لأنه يكره الناس، فالإنسان في الصين وفي أوروبا جميعاً يعين بعضه بعضاً، حتى إنك ترى أن أوروبا لما أرادت أن تستغني عن دولة البلشفيك في الروسيا، طلبت بعد سبع سنين ودّها، لأنها رأت ألا مناص من مصادقتها، فكل عالم في الشرق ينفع الغرب، وكل صانع في الغرب يصل أثره للشرق، فالعالم الإنساني كجسم واحد، والأمم أعضاؤه وأفراد الناس ذراته، وإذا كره زيد عمراً، وأبغضت دولة دولة، فما ذلك إلاّ من عوارض خلقت لمصلحة التنافس والتسابق؛ فالمحبة أصل الوجود والعداوة طارئة، لأن العالم بني على الرحمة والجمال والحب، وكل ما طرأ عليه فهو زائل، ونهاية كل شيء الجمال والرحمة والبهاء والنعمة، لأن الله رحيم والرحمة وسعت كل شيء، ولا يبقى في غضب الله إلاّ من سبق عليهم القضاء.

ذكرى

أيها الذكي هذا مقام عزيز المنال شريف المغزى، فإذا أنست في نفسك قبولاً لما تقول وفهمته فذاك، وإن وجدت حرجاً في صدرك وعاقك عن قبوله ما ورثته من الأقوال وظواهر الكلمات، فأنا أنصحك أن تجلس دقائق كل يوم، وتوجه قلبك لمبدع هذا العالم وتجعل قلبك متجهاً إليه، وتطلب منه بالقلب واللسان أن يفتح لك الباب، وهناك ترى منه فتوحاً متى أخلصت في الإقبال عليه مع الطاعة والإخلاص والنشاط، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النور: ٤٦].

لطيفة: في تناسب السورتين

قال الله في آخر السورة السابقة: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران: ٢٠٠] وأعقبها بأول سورة النساء بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ كأنهما سورة واحدة، والخطاب عام للناس كلهم، كما قال في سورة أخرى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[الحجرات: ١٣] وهنا يقول: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾. انتهى المقصد الأول.

المقصد الثاني

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ (٣) وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا (٤) وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٥) وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا (٦) ﴾

التفسير اللفظي

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ ﴾ أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها، عطفاً على لفظ الجلالة، أو والأرحام بالجر معطوفاً على الضمير، أي: تسألون به والأرحام. تقول العرب: سألتك بالله وبالرحم، وناشدتك بالله وبالرحم، والرحم القرابة وهي إما من الرحمة وإما من الرحم، لأنهم خرجوا من رحم واحدة، في البخاري ومسلم، قال عليه الصلاة والسلام: «الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»، وروي أيضاً: «من سره أن يبسط عليه من رزقه وينسأ في أثره فليصل رحمه»، وقوله: «ينسأ في أثره»، أي: يؤخر له في أجله، ويروى: «لا يدخل الجنة قاطع» ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ حافظاً مطلعاً ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ﴾ أي إذا بلغوا الرشد، واليتيم هو الصبي الذي مات والده ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ أي ولا تستبدلوا الخبيث الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم، يقول: ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ مضمومة ﴿ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴾ ذنباً عظيماً؛ نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم كان في حجره، فلما بلغ اليتيم طلب المال الذي له فمنعه عمه، فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، فلما سمعها العم قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، نعوذ بالله من الحوب الكبير، ودفع إلى اليتيم ماله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فإنه يحل داره» يعني جنته، فلما قبض الصبي ماله أنفقه في سبيل الله.

إن الناس كثيراً ما ينحازون إلى جهة من الدين ويتركون الأخرى، والحياة لا قوام لها إلاَّ بالكمال ومراعاة القضايا الدينية من سائر أطرافها، بل ما مثل الناس في أمورهم الدينية إلاَّ كمثل التلاميذ في المدارس النظامية أو كمثل الحكومات الرسمية، فلو أن تلميذاً قرأ النحو والصرف والحساب وترك العلوم الطبيعية في المدرسة لحرم الشهادة التي يعطيها له المدرسون، ولو أن حكومة غفلت عن نظام الري وحفظ الجسور وهي ذات عناية تامة بتحصيل الضرائب وأجرة الخفراء وتعليم التلاميذ وارتقاء الجند لكانت آيلة إلى الزوال، ذاهبة إلى النكال، يحل بها البوار في سنين معدودات، فالنظام الاجتماعي هيكل منظم كهيكل جسم الإنسان، متى أصيب أحد أعضائه الأصلية سرى الخلل إلى سائر الأطراف، فتعطلت أعضاؤه وذهب كأمس الدابر، ولات حين مناص.

هكذا هنا في هذه الآية يقول الله تعالى ما معناه: ما لكم لما سمعتم الوعيد على من لم يقم لليتيم بحقه هلعتم من عذاب الله والحوب الكبير وأنتم مع ذلك لم تحترسوا من الزنا وهو حوب كبير، فهل أنتم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ فعليكم أن تحترسوا من سائر الكبائر على السواء، فكما خفتم من أكل مال اليتامى فخافوا من الزنا الذي هو اعتداء على حقوق غيركم بل فيه اعتداء على حقوق من هم كاليتامى، وكيف لا يكون كذلك؟ والزانية قد تلد ولداً لا أب له فتسرع بإلقائه في الطرقات، فيؤخذ لقيطاً فيربيه غير والده، فهاهو ذا يتيم، أنتم كنتم سبب وجوده وبقائه وشقائه الأبدي، فكيف تحرجتم من أكل حق اليتيم المشاهد، ولم تتحرجوا من هضم حق اليتيم الغائب والأخير من نسلكم، وأمره ومبدؤه منكم، فانكحوا ما تحبون من النساء على شريطة العدل والمساواة اجتناباً للزنا، فإذا كان الزنا لقضاء الشهوات البهيمية أفلا يكفيكم أن تتزوجوا من واحدة إلى أربع، وإياكم والظلم في القسم

بينهن فاعدلوا وهو أقرب للتقوى، فإذا كنا حرمنا عليكم أكل مال اليتامى وحرمنا الزنا وأمرناكم أن تتزوجوا فاحترسوا من الظلم وعدم العدل عند التعدد، فإن وجدتم من أنفسكم ضعفاً فعجزتم عن العدل بينهن فتزوجوا زوجة واحدة، ولا مانع من كثرة السراري والإماء، فهؤلاء يحل لكم الإكثار منهن، فهذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ أي إن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا معهم فما لكم ظلمتم بالزنا ﴿ فَانكِحُوا ﴾ الخ.

وللآية وجه آخر وهو إن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن، فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن، إذ كان الرجل يجد يتيمة ذات مال وجمال فيتزوجها ضناً بها، فربما يكون عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن، وهذا يقدمه علماء التفسير عادة، وقوله: ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أي اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، والواو هنا بمعنى أو، كما تقول: تزوج اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، ولو كانت على حالها لصار المعنى أنه يضم هذا العدد كله.

واعلم أن الآية ليس فيها ما يمنع الزيادة على أربع، ألا ترى أنك لو قلت لرجل: تمتع في بستان أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة من بساتيني وانزل في رحب وعيش رغد هني، لم يكن ذلك مانعاً من التمتع بغير الأربعة، وإباحة شيء لا تقتضي منع سواه، ولكن السنة والإجماع هما اللذان عينا الأربع. ألا ترى إلى ما روي عن ابن عمر: «أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعاً». وهكذا روي: «أن قيس بن الحارث قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: اختر منهن أربعاً». وإنَّما الزيادة من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم، والعبد له أن يتزوج بأربع على إحدى روايتين عن مالك، وأكثر العلماء أنه على النصف من الحر ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ أيها الأزواج بين الأربع ﴿ فَوَاحِدَةً ﴾ أي فتكفيكم واحدة على الرفع، أو فانكحوا واحدة على النصب ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ سوّى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السراري لخفة مؤونتهن وعدم وجوب القسم بينهن ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التقليل منهن أو اختيار الواحدة أو التسري ﴿ أَدْنَىٰ ﴾ أقرب من ﴿ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أي أقرب من ألا تميلوا، يقال: عال الميزان، إذا مال، وعال الحاكم إذا جار ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ ﴾ مهورهن ﴿ نِحْلَةً ﴾ عطية، يقال: نحله كذا نحلة ونحلاً، إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض فليس للأزواج منع المهر ولا للأولياء الاستيلاء عليه، لأنهم كانوا يأخذون مهور مولياتهم ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا ﴾ أي فإن طابت نفوسهن ووهبن لكم من الصداق شيئاً ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ فخذوه وأنفقوه حلالاً لا تبعة فيه، وهنيئاً طيباً، ومريئاً سائغاً ﴿ وَلَا تُؤْتُوا ﴾ أيها الأولياء والآباء ﴿ السُّفَهَاءَ ﴾ الذين تحت وصايتكم ونساءكم وأطفالكم ﴿ أَمْوَالَكُمُ ﴾ التي تتصرفون فيها بطريق الولايات والتي تملكونها لأنفسكم ﴿ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ أي تقومون بها ﴿ وَارْزُقُوهُمْ ﴾ أي أطعموهم ﴿ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ عدوهم عدة جميلة تطيب بها نفوسهم، والمعروف ما عرفه الشرع والعقل بالحسن ﴿ وَابْتَلُوا ﴾ اختبروا ﴿ الْيَتَامَىٰ ﴾ قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين وحسن ضبط المال والتصرف ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ أي حد البلوغ بأن يحتلم أو يستكمل خمس عشرة سنة عند الشافعية، وثمان عشرة سنة عند أبي حنيفة، ولقد كنى ببلوغ النكاح

عن البلوغ، لأنه يصلح للنكاح عنده ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم ﴾ أبصرتم ﴿ مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ في المعاملات ﴿ فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ من غير تأخير عن البلوغ، فلا يجوز أن يدفع لهم مالهم قبل الرشد. وقال أبو حنيفة: إذا زادت على سن البلوغ سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير الأحوال، لأن الطفل يميز بعدها ويؤمر بالعبادة، دفع إليه المال وإن لم يؤنس منه الرشد ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ أي مسرفين ومبادرين كبرهم ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ من أكلها ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ بقدر حاجته وأجرة سعيه. وللعلماء في هذا المقام ثلاثة أقوال: فمنهم من منع أخذ شيء من مال اليتيم فقيراً كان أو غنياً، ومنهم من قال: يأخذ بقدر أجره بالمعروف إن احتاج، ومنهم من قال: إن احتاج يقترض ثم يرده إذا أيسر، وإذا أعسر فلا شيء عليه. وأرى أن الأمة الإسلامية يجب أن يكون التعليم فيها عاماً محبباً في الإخلاص، وبعد ذلك يقوم بأمثال هذه الأعمال الأغنياء متبرعين، فلا حاجة إذاً للفقراء، فالمهم التفكر والعلم، وأما الأحكام فإنّما هي للضرورات التي أوجبها شح الناس وعدم الإخلاص في الأعمال ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ بأنهم قبضوها فإنه أنفى للتهمة فلا يصدق في دعواه أنه سلمها لليتيم إلاّ بالبينة عند الشافعي ومالك خلافاً لأبي حنيفة ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ محاسباً ومجازياً فلا تخالفوا أمره. انتهى التفسير اللفظي.

يقول الله تعالى: يا أيها الناس أنتم أسرة واحدة أو كجسم واحد، لأن أباكم واحد، وكل امرئ منكم كعضو من أعضاء الجمعية الإنسانية، أوَلا ترون أن فيكم من هو كالسمع والبصر من العقلاء؟ وفيكم من هم كاليد والرجل من العمال؟ وفيكم من هم كالطابخين والخابزين كالمعدة والأمعاء؟ أفلا تتقون وتخافوني وأنتم تذكرون الرحم مقرونة باسمي؟ فأنا الرحيم وهي الرحم، فالقرابة التي بينكم المشتقة كلمتها من اسمي أجدر بالمراعاة والمحاباة فضلاً عن الإنسانية العامة، أي عبادي إني عليكم رقيب أرقب ما تصنعون بأرحامكم، وكيف لا أرقب ذلك والرحمة صفتي؟ فمن قطع الرحم قطعته، ومن وصلها وصلته، فأنا الرحيم أحب الرحيم سيما إذا كان ذلك على القرابة الأدنين. أنا سائلكم أيها الناس عن البعيد كما أسألكم عن القريب، بل إني أسألكم عن كل ما تقدرون عليه، فإني لا أكلف نفساً إلاّ وسعها، فالرحمة أنتم عنها مسؤولون، فإذا كان فيكم فضل قوة على رعاية اليتامى من الناس فلا تجعلوا مالهم غنيمة لكم، ولا تأكلوا أموالهم، ولكم أن تأخذوا قدر عملكم بما هو المتعارف المألوف، وإن كنتم أغنياء فخير لكم أن تستعفوا ولتعملوا في أموالهم بلا أجر إلى آخر ما تقدم، وفي هذا القسم أربع لطائف:

اللطيفة الأولى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

اللطيفة الثانية: تعدد النساء في الإسلام.

اللطيفة الثالثة: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾.

اللطيفة الرابعة: ﴿ فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾.

اللطيفة الأولى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

وهذه اللطيفة واضحة فيما تقدم فلا نطيل فيه.

اللطيفة الثانية: تعدد النساء في الإسلام

اعلم أنه قد كثر لغط الفرنجة ومن نحا نحوهم ممن خالطهم من المسلمين في تعدد أزواج المسلمين وزوجات النبي صلى الله عليه وسلم، فلهم أربع وله صلى الله عليه وسلم أكثر. فاعلم أني قد ألفت رسالة تسمى السر العجيب، وقد محضت هذا المقام تلخيصاً بسائر أطرافه، وهذا المقام لا يسع الإفاضة فيه خيفة السأمة، ولكني أدلي إليك بيسير من القول لتقف على ما تيسر فأقول: لقد حسد الفرنجة المسلمين وغيرهم على تناسلهم، حتى إنهم في أفريقيا الجنوبية لما رأى الإنكليز أن رجلاً يتزوج عشراً من النسوة وهن يسعين لرزقه، وهو يأكل ويشرب فيلد بنين وبنات كالديك مع الدجاجات، ساءهم ذلك لأن النسل يكثر وهم يريدون تقليله، فعمدوا إلى إيجاب الضرائب على هذا النوع من الزواج، وهكذا لما رأوا الأمم الإسلامية تتكاثر وتتناسل أثاروا هذه المسألة، ولقد بحث الباحثون فوجدوا أن الذين يتزوجون أكثر من واحدة في الإسلام، لا يزيدون عن خمسة في المائة ولا ينقصون عن ثلاثة في المائة، وهذا العدد القليل لا جرم يغتفر في جانب العدد العظيم. واعلم أن الله سبحانه جعل للذكور والإناث قانوناً لا يتعدونه، فالذكور والإناث في دفاتر المواليد في كل قرية ومدينة وأمة، وفي الكرة الأرضية كلها متساويان تقريباً لحسن النظام وجمال الإتقان وبديع الصنع، فقل لي رعاك الله: هل سمعت أن أمة من الأمم ولدت إناثاً فقط أو ذكوراً فقط في سنة أو شهر أو يوم؟ كلا، فالله خلقهما متساويي العدد غالباً؛ فلو أن المسلم أراد أن يتزوج اثنتين وكان ذلك عاماً فأين النساء ولا نساء فلكل رجل نظيرة منهن، وكأن الخرافة التي جرت على ألسنة العامة أشبه بهذا، إذ يقولون إن لكل رجل قرينة من الجان يقولونها وهم لا يعقلون معناها، يتلقفونها عن الدجالين بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، وإنّما أجراها الله على ألسنتهم.

وسرها أن لكل رجل امرأة من الناس تخلق مقارنة له، فعند أهل القرى والأمصار تجد هذه القاعدة مطردة، ومن هذا السر العجيب الذي وضعه الله في الطبيعة التي نظمها ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣] أي تناقض واختلال، ولو أنه خلق في مقابل الرجل امرأتين أو بالعكس لاختل النظام، فيا ليت شعري كيف يمكن أن يتزوج المسلمون كلهم أو كثير منهم بأكثر من واحدة، والله لم يخلق ذلك، وإنّما جعل الله في كل أمة قوماً ضعافاً لا قدرة لهم ولا مال، فهؤلاء لا يتزوجون وآخرين لهم قوة ومال وهم ذو طباع حادة، ولا تكفيهم زوجة واحدة بل يذهبون للزنا، وهذا شر مستطير، فأباح الله لهم أن يتزوجوا بأكثر من واحدة إكثاراً للنسل، ومنعاً لانتشار الزنا وقتل أولاد السفاح ورميهم في الطرقات؛ ولعمري إن هؤلاء خير من أغنياء الأوروبيين الذين يصاحبون أكثر من واحدة سراً، فهم وإن لم يتزوجوا أكثر من واحدة جهراً فقد تزوجوا سراً، ولقد ذمهم علماؤهم وأذكر منهم العلامة جوستاف ليبون، وأخبر أن التعدد آت لا ريب فيه، ولقد أوضحت الحرب العامة هذه المسألة أيّما إيضاح، فإن الرجال توفي كثير منهم في الحرب وأصبحوا قليلاً وكثرت النساء، فمن ذا يعولهن ومن ذا يقوم بأمرهن، فأباحت بعض الدول تعدد الزوجات.

فأما المسلمون فإني أرى أن يكون الأمر موكولاً لذوي الحل والعقد منهم، وليكن التعدد على مقدار الحاجة، وليحصوا الرجال والنساء في البلاد، ولينظروا العدد الذي لم يتزوج من الفريقين،

وليأمروا كل شاب بلغ سناً معينة مثل ٢٠ أو ١٨ بالتزوج ، فإن لم يتزوج أوجبوا عليه مالاً معيناً يدفعه للحكومة تنفقه على فقير ذي عيال ، والنساء اللاتي لم يتزوجن تبحث عن رجال يتزوجونهن منفردات وإلاّ كان ذلك مثنى وثلاث ورباع للقادرين الأقوياء الأغنياء ، فإذا فعلت الأمم الإسلامية ذلك فليكن بأمر أهل الحل والعقد منهم لا بأمر الفرنجة ، فإن الفرنجة يقصدون تقليل النسل وتقليل الزواج وإكثار السفاح والفساد في الإسلام ، فاحذروهم أيها المسلمون ، فليحذر المسلمون الذين يحكمهم الفرنجة أن يوحوا إليهم بأمر من هذا ، فإنهم يريدون الزنا وقلة النسل وضياع البلاد ، فأما أهل الحل والعقد منكم فلهم أن ينظروا في المصالح وهم أعلم بما يناسب حياتهم .

تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

لقد أجمع المسلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم من خصوصياته أن له الزيادة على أربع ، ومع هذا الإجماع ترى أنه اختار من نسائه أربعاً أذكر منهن عائشة وحفصة ، فأما الباقيات فإنهن رضين أن يكنّ أمهات المؤمنين ، وسامحن في أمر المبيت عندهم ، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم اقتصر على أربع في الحقيقة فأصبح كالأمة ، وإن لم يطلق الباقيات ، لأسباب أوضحتها في الكتاب المذكور . انتهى المقصود من ذلك الكتاب ملخصاً ، فاقرأ هذا الكلام مفصلاً في سورة الأحزاب ، ففيها تلك الرسالة كاملة .

اللطيفة الثالثة : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

نهى الله الأوصياء والآباء أن يؤتوا اليتامى أموالهم قبل بلوغ سن الرشد وحسن التصرف ، وهكذا النساء والأطفال ، فإن قلة عقل الطفل والمرأة تجعلهما يسرفان ويبذران في الأموال ، فيصبح الرجل حسيراً . هذا ما في هذه الآيات .

ومن عجب أن الأمم الإسلامية تعطي أموالها سفاهة للأوروبيين ، إما كرهاً بالاحتلال كأهل جاوة وما والاها من الجزائر ، وكأهل المغرب وتونس والجزائر ومراكش ، وكأهل السودان ، كل هؤلاء يدفعون المال للفرنجة قهراً ، وإما طوعاً بأن يدفعوا أثمان البضائع التي تصنع في بلادهم ، فأصبح المصري والهندي والمغربي جميعاً يعملون ويكدحون ، والغربي هو الذي يستنزف ثروتنا ، وهذا سفاهة دولية لأمة الإسلام ، ولعمري لا تبلغ أمة الإسلام الرشد حتى تصنع ما تحتاج إليه من الصناعات ملبساً ومأكلاً وآلات ، فإن لم يفعلوا وسيفعلون فذلك ضياع مدنهم وذهاب دولتهم ، ويا ليت شعري إذا كانت الدريهمات التي يعطيها الإنسان لابنه الصغير أو لزوجته يتصرفان فيها بلا عقل ، قد نهانا الله عن التفريط فيها ، فما بالك بأموال الأمة والأسرات التي يمتصها الفرنجي بملابس نحن نقدر أن نصنع غيرها ونستغني عنها ، ويكون الثمن في أيدي أبناء البلاد ، أليس هذا أدعى إلى النهي ، وإذا كان الله يقول لنا فيما نعطيه للأطفال : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ فجعل هذه الأموال قياماً لنا تحفظ كياننا ونعيش بها ، فما بالك بما نراه في بلادنا المصرية من تلك القناطير المقنطرة من الذهب ، وهي تبلغ كما في إحصاء الماليين نحو(٧٠ مليوناً) من الجنيهات ، وأكثرها بلا ربح في المصارف الإفرنجية وهم ينتفعون بتلك النقود والمسلمون لم يأخذوا ربا لأنه حرام ، والفوائد قد ذهبت إلى أوروبا يصنعون بها الطيارات والمدافع ، ويقذفونها على أبناء المسلمين في الجزائر وتونس ومراكش والهند ومصر ، كل

ذلك والمسلمون غافلون نائمون، فلا يصدقون أن مصارف البلاد التي أنشئت حديثاً تقوم مقام المصارف الإفرنجية، ويتركون الأموال عند الفرنجة ولا ينتفعون بها في تجارة أو شركة أو زراعة، بل يتركون أنفسهم عالة على أوروبا التي تأخذ مالهم كأنهم قاصرون، والأجانب يريدون أكل مال هؤلاء الأيتام، ولكن الآن قد ظهرت بوادر الإصلاح في الهند ومصر وأكثر البلاد الإسلامية.

حكاية: قابلت شاباً هندياً منذ أيام وهو لابس ملابس كلها قطن مغزول غزلاً بلدياً من رأسه إلى قدميه وليس مما ينسجه الأوروبيون، فقلت: أغزل بلادكم هذا؟ فقال: نعم، ولو أنني خالفت هذا ولبست ما ينسجه الأوروبيون لعدوني خارجاً عن الوطن، ولرموني بأقبح التهم، ولقتلوني، وذلك من تعاليم الزعيم العظيم غاندي، تلك التعاليم التي حرمت على جميع الهنود الملابس الإفرنجية.

وأقول: ومن كلامه الذي ذكرته في سورة آل عمران، أن أوروبا اليوم لا تمثل روح الله ولا روح المسيح بل تمثل روح الشيطان، وما أعظم نجاح الشيطان إذ ظهر ولسانه يردد اسم الله، وقال أيضاً: إن الولوع بالمنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وما هو أقبح من هذا، وهو العار على كثير من العائلات.

اللطيفة الرابعة: ﴿ فَادْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

لقد رأى الشافعي رضي الله عنه أن تصرف الصبي قبل البلوغ وهو مميز بإذن وليه غير صحيح، وصححه أبو حنيفة؛ فاختباره بالبيع والشراء والأخذ والعطاء عند الحنفية، وبالنظر في أحواله وعقله وإدراكه عند الشافعي، ويبلغ بالإنزال كل من الصبي والجارية سواء أكان بالاحتلام أم بالجماع. فأما بالسن فأكثر أهل العلم أن بلوغ الغلام والجارية بخمس عشرة سنة، وجعل له أبو حنيفة ثماني عشرة سنة ولها سبع عشرة سنة، ويختص النساء بالحيض والحبل، فإذا حاضت الجارية بعد استكمال تسع سنين حكم ببلوغها، وكذلك إذا ولدت حكم بلوغها قبل الوضع بستة أشهر، لأنها أقل مدة للحمل، ثم إذا بلغ الصبي وهو صالح للتصرف في ماله وإن فسد دينه سلم له المال عند أبي حنيفة خلافاً للشافعي فجعل الصلاح في الدين أيضاً شرطاً، فإن كان مفسداً لماله أيضاً لم يسلم له المال حتى يبلغ خمساً وعشرين سنة كما تقدم فيسلم له ولو لم يكن صالحاً في ماله. انتهى.

عظة واعتبار

لقد تبين في هذا المقام كيف جعل الله المال قياماً لنا، وأمرنا ألا نعطيه للسفهاء من النساء والأطفال، جعل الله المال قياماً لنا أي قياماً لحياتنا الدنيوية والأخروية، وهاأنت أيها الذكي ترى كلام علماء الإسلام والأئمة رضي الله عنهم، وكيف دققوا في أموال اليتامى وفي الرشد. وكيف يقول الإمام مالك: إن الجارية إذا بلغت رشيدة لا يدفع المال إليها إلا إذا تزوجت، فإذا تزوجت دفع إليها مالها ولا ينفذ تصرفها إلا بإذن الزوج ما لم تكبر وتجرب، فهذا التشديد والتقييد في المال والدقة في البحث توجب يقظة المسلمين وانتباههم، فيا عجبا كل العجب، يجعل الله المال قياماً لنا، ويشدد علماء الإسلام ويدخل الفرنجة بالمنسوجات الديار المصرية، وبلاد الغرب في تونس والجزائر ومراكش وسوريا، ويأخذون الأموال ويضحكون على العقول ويلهوننا بالفسوق والفجور والزخارف، كما فعلوا بالأندلس لما أمضوا معاهدة للصلح بينهم وبين أمراء الإسلام، وأقيمت الأفراح، وكانت نعال خيل

بعض الأمراء من ذهب، وكانت هكذا حرية التجارة وحرية التعليم وحرية الدين، فقال قائل من المسلمين: هذه المعاهدة لا تدفع عاراً ولا تذكي ناراً ولا تنفع جاراً، وسيأتي زمان قريب يحقر فيه تاريخ الإسلام، وينسى فيه مجد الآباء الأعلام، ويشرب فيه الخمر جهاراً، ويلبس أبناء البلاد عاراً وشناراً، وتكون الملابس إفرنجية، وتزول من الرؤوس الحمية، فردوا عليه هازئين، وسمعوا له ساخرين وقالوا والله إنك لست من السياسيين، ثم عملوا أفراحهم، وأولموا ولائمهم، ودخل الخمر في البلاد، وقلدوا الفرنجة في العادات، ومشى في الشوارع الشبان مع الغادات جهاراً، وهم يظهرون العصيان نهاراً، واستدان المسلمون وظهر الربا، وهجرت مدارس الإسلام، وعمرت مدارس الإسبان، وأدخلوا في عقولهم تحقير أسلافهم، وسقوهم الخمر وهم غافلون، حتى إن راهباً إسبانياً كان يعلم التلاميذ في قرطبة، اشترى عنبها جميعاً، وحلف ألا يبيعه إلاَّ لأبنائه وتلاميذه المسلمين، حباً في رقيهم، وسعياً لإسعادهم، وغراماً بفرحهم، لأنهم أحبابه المخلصون، وأصدقاؤه الأقربون، وقد كثر لبس الحرير، والترف والنعيم والكسل، وحب الإفرنج، واحتقار الآباء ودينهم وتاريخهم، وهكذا حتى أزالهم الملك فرديناند والملكة إيزابله من بلاد الأندلس، ورموهم في البحر بعد أن قتلوا أكثرهم، ومن تنصر منهم وهم قليل جداً، حقروا تنصرهم وسموهم مرتدين، وزال ملكهم وهم جاهلون، هكذا نرى اليوم أبناء العرب لم يتوبوا ولم يثوبوا لرشدهم، ولم يرجعوا عن غيهم، والفرنجة يطاردونهم ويستعملون رؤساء الدين في مراكش وتونس والجزائر، والأمراء في مصر وبلاد العرب شبكة لصيدهم وسيفاً مسموماً ورمحاً جارحاً، يغدقون عليهم النعم، ويغمسونهم في الترف ويزجونهم في سجن الشهوات، وهؤلاء هم الذين يجرون هذه الشعوب الغافلة إلى الرزايا، ويضعون الأغلال في أعناقهم والسلاسل، يسحبون في حميم الذل وفي نار الاستعباد، ورؤساؤهم هم المسيطرون عليهم سواء أكانوا من الشرفاء أم من الأمراء، ألا ساء مثل القوم المغفلون؟ ويكون ذلك سبب جلب الشقاء واستنزاف الثروة ونقلها إلى الفرنجة بما فعل هؤلاء الشرفاء والأمراء، وهم جميعاً في جهنم الاستعباد مصفدون، حتى إذا وقعت الواقعة وقرعت القارعة ونزعت النازعة واقترب الوعد الحق للقصاص، وقع أولئك الرؤساء في الذل كأممهم ولات حين مناص، فنزلوا عن مراتبهم وأودعوا سجن المذلة والهوان، ويقولون: ﴿ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٩٧].

أيها الأمراء المسلمون، ويا رؤساء الدين، قد آن أن يلاقي بعضكم حتفهم، وهذا يوم مصرعكم والله قد حكم أنكم في هذه الأيام تسامون سوء العذاب جزاء بما كنتم تكسبون، لبستم ملابس الظالمين، وقنعتم بعيش الغافلين، ورضيتم بإذلال شعوبكم أجمعين، ألم تروا إلى قيصر الروس كيف كان عند المسيحيين يمثل حضرة المسيح، وإلى كثير من الملوك كيف طردتهم أممهم وأذلتهم جيوشهم فصرعوا وهم ظالمون. هكذا عما قريب ستقطع تلك الرؤوس الظالمة الفاجرة في الأمم الإسلامية، تلك الرؤوس الفاسقة الفاجرة التي خضعت أمام الفرنجة، ألا قطعاً لتلك الرؤوس وموتاً لتلك النفوس.

يا أبناء الإسلام قد تنبه الهنديون، واستيقظ الروسيون، وحرمت المنسوجات الفرنجية في بلاد الهند، وزالت الغفلة عن كثير إلاَّ أبناء العرب. يا أبناء العرب إن الدين دينكم، والمجد مجدكم، وما ضركم إلاَّ رؤساء السوء، تارة بالكيد لكم وفتح البلاد للفرنجة، وتارة بكتم العلم عن المستحقين، هذا

القرآن يقرأ صباحاً ومساءً، وفيه أن المال قيام لنا، وعلماؤنا قد حققوه تحقيقاً، وما تركوا شاردة ولا واردة إلاَّ أحصوها، فما بال العلماء يغفلون عن النصيحة، بل ما بال العالم ينقاد لآراء الجهلاء، ألم يأن للمصريين ولأبناء المغاربة وسوريا والعراق وأضرابهم أن يثوبوا إلى رشدهم، ألم يأن لرجال مصر أن يعلموا نساءهم أن الملابس الأوروبية خربت ديارهم، وجعلت الأغلال في أعناقهم، ألم يعلموا أن هناك حركة سرية مدبرة لاقتناص الأموال وفساد العائلات، وأن هناك خائطات فرنجيات يخطن الملابس للغانيات، ويدبرون المكائد للآنسات، ويبتدعن كل يوم بدعة جديدة، فيغيرن الطراز في يوم أو بعض يوم، ويبطلن عادة ويجددن أخرى، والرجال غافلون والأمراء نائمون بل راضون، وكل حزب بما لديهم فرحون، وريع الأطيان ونقود الموظفين والتجار جميعها في هذا السبيل مصروفة، فذل العزيز وعز الذليل، وتقربت أشرف السيدات أصلاً، وأعرقهن مجداً، وأعلاهن فرعاً، وأرفعهن رأساً، إلى خادمة إفرنجية أصبحت خائطة مصرية، فتزلفت إليها بالمال، وتقربت إليها في كل حال لتخصها بزي جديد، حتى تتباهى على المغفلات أمثالها، وتلك الخائطة تترفع ترفع القياصرة، وتترفع على هذه القاصرة فترضيها بالمال، وتود لو تحظى دون أترابها من أسرتها بهذا الزي الجديد، وتقول الخائطة لها هل من مزيد؟ أولا يرون ما يدبر لهم الفرنجة من المكائد والشركات من المصائد، وكيف ترسل تلك المجلات التي فيها الأزياء الجديدة وتعطى للعائلات مجاناً؟ وترسل للغانيات فضلاً من الفرنجة وإنعاماً، أوَلا يرون أن النساء في مصر لا يهنأ لهن طعام ولا شراب ما لم يقلدن تلك الأزياء التي رسمت في تلك المجلات. ذهب المجد وزال، ولكن قد آن أن ينكشف هذا الجهل ويزول.

وللنجم من بعد الرجوع استقامة　　　وللشمس من بعد الغروب طلوع

أقول: لقد ظهرت بوادر الإصلاح، وليقومن في هذه البلاد وغيرها من يوقظون الأمة العربية ويرجعون لها مجدها وشامخ عزها وقديم فضلها، ولولا أني واثق وموقن أشد الإيقان بهذا المقال ما خططت حرفاً، ولكني كتبت وأنا موقن أن القلوب تفقه، والعيون تبصر، والآذان تسمع، وأن في السويداء رجالاً، وأن مجداً قد أظل أوانه، وأقبل إبانه، وبزغ بدره، وظهر فجره، وشرقت شمسه ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ ﴾[ص: ٨٨]، وإذن يظهر سر قوله: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾.

ومن أجمل ما يسر أني وقت كتابة هذه السطور قرأت في الجرائد أن حكومتنا في هذا اليوم حرمت الترخيص لتجار الخمر أن يفتحوا محال جديدة من الآن، وهذا من بوادر الإصلاح في حكومتنا الجديدة الوطنية التي التأمت في هذا الأسبوع بأمر المجلس الوطني العام.

المقصد الثالث
في قسم التركات والمعاملات المالية

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً

ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الله تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ والمراد المتوارثون بالقرابة، ثم أبدل من قوله: ﴿ مِّمَّا تَرَكَ ﴾ قوله: ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ حال كونه ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ روي: «أن أوس بن الصامت الأنصاري خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة ميراثه عنهم على سنة الجاهلية، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال، وقالوا: إنَّما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت إليه، فقال: ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله سبحانه وتعالى، فنزلت، فبعث إليهما: لا تفرقا من مال أوس شيئاً، فإن الله قد جعل لهن نصيباً، ولم يبين حتى نزل قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي ابني العم».

ولما كانت آية الميراث تمنع كثيراً من قرابة الميت وغيرهم، فلا شيء لهم في الميراث، وكان الإسلام هو الذي جاء بنشر المعروف والفضل بين الناس على القاعدة المذكورة أول السورة من اتحاد الناس وتعاونهم، والمجموع لا يصلح إلاَّ بصلاح أفراده المتضامنين كأعضاء الجسد الواحد، نزلت الآية الخاصة على إعطاء من لم تعطه آيات الميراث الآتية تعميماً للفضل، وتحقيقاً للتسامح، وإصلاحاً للمجموع. وتلك الآية هي: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ممن لا يرثون من الميت ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ بأن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم. يقول: فأعطوهم شيئاً من المقسوم وجوباً على مذهب أبي موسى الأشعري وإبراهيم النخعي والشعبي

والزهري ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير، فهؤلاء كانوا يعطون من حضر شيئاً من التركة. وروي أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قسم ميراث أبيه وعائشة حية فلم يترك في الدار أحداً إلاَّ أعطاه، وتلا هذه الآية.

قال الفخر الرازي: فهذا تفصيل قول من قال بأن هذا الحكم ثبت على سبيل الوجوب. أما المذهب المتعارف بين الفقهاء فليس فيه إلاَّ الندب للورثة الكبار، أما الورثة الصغار فيكتفي بقول المعروف عنهم، وعلى الوجوب روى محمد بن سيرين أن عبيدة السلماني قسم أموال أيتام، فأمر بشاة فذبحت وصلقت طعاماً لأجل هذه الآية، وقال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي، وهذا القول وإن لم يكن معمولاً به عند أكثر الفقهاء هو الأحرى بهذه الأمة اليوم، رجوعاً بالأحكام إلى ظواهر القرآن وإلى آراء الصحابة والتابعين، وهم أعلم بالقرآن، والمسلمون اليوم أحوج لاتباع ظواهر الكتاب.

ولما فرغ من الكلام فيمن حضر القسمة من هذه الطوائف، رجع إلى الكلام في اليتامى فحذر أوصياءهم قائلاً: ﴿ وَلْيَخْشَ ﴾ الأولياء ﴿ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ فليفعلوا بأولاد غيرهم ما يفعلون بأولادهم من البر والشفقة والرعاية وحفظ الأموال والتربية الصادقة وتعليمهم العلم وإدخالهم المدارس أو تعليمهم الصناعات. هذا هو الواجب عليهم ﴿ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في أمر اليتامى بفعل ما تقدم ﴿ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب والتعليم مع الإخلاص. ثم أنذر الظالمين من الأوصياء لليتامى فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ ظالمين ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ ﴾ ملء بطونهم ﴿ نَارًا ﴾ ما يجر إلى النار ويؤول إليها. عن أبي بردة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «يبعث الله قوماً من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً، فقيل: من هم؟ فقال: ألم تر أن الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾» ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ ناراً موقدة مسعرة، وإنما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع في الكلام، ومعناه أن أكل مال اليتيم ظلماً يفضي به إلى النار، وخص الأكل بالذكر مع أن جميع الإتلاف مثله لأن الأكل معظم المقصود.

وعن أبي سعيد الخدري قال: حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسري به، قال: «نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم، قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً». فهاهو ذا ذكر الميراث إجمالاً، وأن الرجال والنساء لهم نصيب منه، وكذلك الأقارب الذين لم يذكروا في الآية الآتية والمساكين واليتامى لهم بعض الحقوق، واليتامى الذين لهم وصي عليه أن يكون أباً لهم وأن يعاملهم معاملة أبنائه، ثم حذرهم العقاب في جهنم إذا فرطوا، ثم أخذ يبين أصحاب التركات من الورثة فقال: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ يأمركم ويعهد إليكم في شأن ميراث أولادكم، ثم فصله فقال: ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ أي يعد كل واحد باثنتين حيث اجتمع الصنفان ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً ﴾ أي فإن كان الأولاد نساء خلصاً ليس معهن ذكر ﴿ فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾ أي زائدات على اثنتين ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ المتوفى منكم ﴿ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴾ أي وإن كانت المولودة واحدة والاثنتان حكمهما حكم ما فوقهما، فلهما الثلثان عند أكثر العلماء ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾

أي أبوي الميت ﴿ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ ﴾ للميت ﴿ وَلَدٌ ﴾ ذكر أو أنثى، ولكن الأب يأخذ السدس مع الأنثى بالفريضة، وما بقي من ذوي الفروض بالتعصيب ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ ﴾ يعني للميت ﴿ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ يعني أن الميت إذا مات عن أبوين وليس له وارث سواهما، فإن الأم تأخذ الثلث بالفرض، ويأخذ الأب الباقي بالفرض والتعصيب؛ فيكون إذن المال بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين. ولما اعتبر الشرع أن لها نصف ما للأب، وجب أن يعتبر ذلك فيما لو كان معهما أحد الزوجين، فيعطيان الباقي هكذا، أي يكون لها ثلث ما بقي بعد ما يأخذه أحد الزوجين، خلافاً لابن عباس، حيث يعطيها ثلث المال كله فتفضل الأنثى على الذكر أي تفضل الأم على الأب، وهو خلاف وضع الشرع ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ ﴾ ذكوراً كانوا أو إناثاً ﴿ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴾ أي فلأم الميت إذا كان معها أب، والمراد بالأخوة الذين يردونها من الثلث إلى السدس ما زاد عن الواحد، وهو قول كثير من الصحابة كعمر وعثمان وعلي والجمهور، فإذا مات رجل عن أبوين وأخوين فللأم السدس والباقي وهو خمسة أسداس، للأب سدس بالفريضة، والباقي بالتعصيب ولا شيء للإخوة، فكأنهم حجبوا أمهم ورد السدس لأبيهم الذي كان هو لا أمه ينفق عليهم، ثم قال سبحانه هذه الأنصباء للورثة: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ يقول: آباؤكم وأبناؤكم، يعني الذين يرثونكم، لا تعلمون أيهم أنفع لكم في الدين والدنيا، فربما ظن الإنسان أن أباه أنفع فأعطاه أكثر، أو عكس القضية فأعطى الابن، فالله تولى أمركم ودبر لكم ما فيه المصلحة، ولو وكله إليكم لتحيرتم، فلا تعلمون لمن تعطون ومن تمنعون، ثم قال: فرض ذلك ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وهذا مصدر مؤكد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح والرتب ﴿ حَكِيمًا ﴾ في قسمة الميراث ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾ والمراد بالولد الوارث من بطنها أو من صلب بنيها أو بني بنيها وإن سفل كان ذكراً أو أنثى منكم أو من غيركم ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ فللرجل بحق الزواج ضعف ما للمرأة، كما في النسب وكما في الأبوين في مسألة الأب والأم إن لم يكن إخوة، وإنّما يستثنى أولاد الأم كما سيأتي، والمعتقة، وتستوي الواحدة والعدد منهن في الربع والثمن ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ ﴾ الجملة صفة رجل ﴿ كَلَٰلَةً ﴾ خبر كان، وهو من لم يخلف ولداً ولا والداً، فهي قرابة ليست من جهة الوالد والولد، والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال، قال الأعشى:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من جوى حتى تلاقي محمدا

فاستعيرت لقرابة ليست بالبعضية، ثم وصف بها الموروث والوارث، أي ذا كلالة ﴿ أَوِ ٱمْرَأَةٌ ﴾ عطف على رجل ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ ومثله المرأة، والمراد بالأخ والأخت هنا من الأم المذكورة. وفي قراءة أبيّ وسعد بن مالك: «وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنَ الأُمِّ»، وجواب الشرط قوله: ﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ﴾ سوّى بين الذكر والأنثى في القسمة.

واعلم أن مقتضى الآية أن لا يرثوا مع الأم والجدة، فجاء الإجماع وخصص المفهوم بميراثهم مع الأم ومع الجدة، وقد أجمع العلماء على أنهم شركاء في الثلث إذا كانوا اثنين فصاعداً، والذكر

كالأنثى، وقوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ﴾ مفهوم ﴿ غَيۡرَ مُضَآرّٖ ﴾ لورثته بالزيادة على الثلث في الوصية أو بنفس الوصية بأن يقصد المضارة بها لا وجه الله، أو بالإقرار بدين لا يلزمه، وهو حال من فاعل «يوصي»، وقوله: ﴿ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ مصدر مؤكد ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بالمضار وغيره ﴿ حَلِيمٞ ﴾ لا يعاجل بعقوبته، ثم أشار إلى الأحكام المذكورة فقال: ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ ﴾ شرائعه التي هي كالحدود المحدودة ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ هذه الآيات ظاهرة.

لطيفتان

الأولى: حصر الفروض المتقدمة في جدول ليكون أقرب للفهم.

الثانية: كيف تكون التعاليم الإسلامية في مستقبل الزمان.

اللطيفة الأولى

إذا مات الميت وله مال، يبدأ بتجهيزه من ماله، ثم تقضى ديونه إن كان عليه دين، ثم تنفذ وصاياه، ولا يجوز أن يوصي بأكثر من الثلث لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص قال: «الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» أخرجاه في الصحيحين، فالوصية بأكثر من الثلث لا تجوز ويحل النقص عنه، ولا تجوز الوصية لوارث، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث، والولد للفراش وللعاهر الحجر»، ثم ما فضل بعد الدين والوصية يقسم بين ورثته. والوارثون من الرجال عشرة، والوارثات من النساء سبع، ومنهم من لا يحجب بالحرمان نحو الأبوين والولدين والزوجين.

والورثة أصناف: صنف يرث بالفرض كالزوجين والبنات، وقسم يرث بالتعصيب كالبنين والإخوة، وقسم يرث بالتعصيب تارة والفرض أخرى، كالأب والجد، وقد عرفت أصحاب الفروض في الآيات، فأما العصبة فهي اسم لكل من يأخذ المال جميعه إذا انفرد، كالأب والابن، ويأخذ ما فضل عن أصحاب الفروض. وأسباب الميراث النسب والنكاح والولاء كولاية المعتق، فإن المعتق وعصباته يرثون المعتَق ـ بالفتح ـ والكافر لا يرث المسلم، والمسلم لا يرث الكافر، وهكذا القاتل لا يرث المقتول عمداً كان القتل أو خطأً.

همة علماء الإسلام في علم الفرائض المستخرج من هذه الآيات وأمثالها

تعجب أيها الذكي في أمر أمة الإسلام وعلماء الإسلام، وانظر كيف سلكوا سبلاً وذللوا طرقاً وعبدوها، فأصبحنا ننهجها ولا ندري كيف سلكوها، آيات هاأنت ذا تقرؤها أمامك في ثنايا هذا التفسير وفي المصاحف سهلة واضحة، فما أسهل أن يفهم الإنسان أن البنت لها نصف ما للابن، هذه أمور سهلة، ولكن الدين وإن جاء سهلاً يحمل متبعيه على البحث والتنقيب في الأسرار التي ينطوي عليها هذا السهل.

انظر رعاك الله هذه الآيات الواضحات، وتأمل كيف أحوجت آباءنا إلى تدوين علم يسمى «علم الفرائض» أدخلوه ضمن علم الفقه، وأبانوا العصبة وذوي الفرائض وأصحاب الثلث والنصف

والسدس والثمن، وكيف يحجب أحدهم الآخر، فدخلوا في بحر لجي وتغلغلوا في المسائل، فبعد أن تراها في القرآن واضحة سهلة لا عوج فيها ولا أمتاً، ترى علم الفرائض عويصاً شديد المراس صعباً إلاَّ على ذوي الجد والاجتهاد. ولما كانت التركات يعوزها نوع من الحساب، جاسوا خلال العلوم وبحثوا في الفنون وجدوا في المسير، حتى استنبطوا حساباً للفرائض، واشتقوه من علم الحساب العام، وعلم الحساب العام مشتق من علم الارتماطيقي، أي علم خواص الأعداد؛ فيا عجبا كل العجب لهؤلاء الأعلام، غاصوا في بحار العلوم، فاستخرجوا در الحساب، وحلوا به مسائل الفرائض، ليسهل لهم قسمة التركات وحفظ نظام الأسرات، وإيفاء حقوق الأبناء والبنات، ضربوا في كل علم بسهم، ومدوا أيديهم إلى فرع من فروع العلم الرياضي الذي هو أحد أقسام علم الفلسفة الشاملة لسائر العلوم، فجذبوه حتى استظلت به سهام التركات، وانتظمت به الأسرات؛ فهاأنا ذا أبين لك نموذجاً لما صنعوا حتى تقرأ في هذا التفسير صفوة علم الفرائض أولاً، وفروع علم الحساب ثانياً، لتكون على بينة من أمر أمتك وأجدادك وعلمائهم، وكيف كانوا بعيدي النظر واسعي الفكر، فاستعانوا بالعلوم على الاستنباط من القرآن، ولم يدخروا وسعاً في استنباط العلوم واستخدام ما يحتاجون إليه من علوم الحكمة العامة، وكيف مات المتأخرون وجهلوا سائر العلوم، واقتصروا على علم الفقه جهالة وخسة وقصر نظر، وإذا قرؤوا الفرائض تلقفوا حسابها جمعاً وضرباً وطرحاً وقسمة، وهم لا يعلمون من أين هذا العلم ومن فروع أي العلوم هو، ويجهلون أن آباءهم قد عرفوا العلوم الحكمية، وهم الذين اصطفوا هذا الفرع من الحساب العام، ألا ساء مثلاً القوم الجاهلون، ولكني أقول لك: لا تحزن ولا تأسف وأبشر، فإن للنهضة الإسلامية بشائر هذا أوانها، ولرقي الشرق زماناً هو ما نحن فيه.

واعلم أن المفكرين في الإسلام اليوم أخذوا فعلاً ينسجون على منوال الأوائل، ودليلك على ذلك ما في هذا التفسير. فقل للآباء ناموا قريري العين، واعلموا أننا اليوم أخذنا ننسج على منوالكم، فلئن خدمتم الأمة بالعلوم، ودونتم في الفقه حساباً استخلصتموه من علم الحساب فنحن نقول:

لسنا وإن أحسابنا كرمت ... يوماً على الآباء نتكلُ

نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وقد خدموا أمة الإسلام في الأحكام الشرعية لحفظ كيان الأمة، فحق علينا أن نبين من الآيات العلوم الكونية، حتى يلتحق الشرقي بالغربي.

يا أمة الإسلام، آيات معدودات في الفرائض اجتذبت فرعاً من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها، الله أكبر جل العلم وجلت الحكمة. هذا زمان العلوم، هذا زمان ظهور نور الإسلام، هذا زمان رقيه، يا ليت شعري، لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث. ولكني أقول الحمد لله الحمد لله، إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية؛ فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله، وهي فرض عين على كل قادر، كما هو مقرر في باب الشكر للإمام الغزالي، وهي نفس علم التوحيد الحقيقي، والمعرفة والشكر يكونان على كل امرئ بقدر طاقته. إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام، فهذا زمان الانقلاب وظهور

الحقائق، والله يهدي من يشاء إلى سواء الصراط. إذا عرفت هذا فهاك ما وعدتك به من خلاصة علم الفرائض، ثم أتبعه بذكر فروع علم الحساب لتعرف كيف كان جد آبائنا الأكابر في علوم الدين.

خلاصة علم الفرائض

اعلم أن أقرب طريقة لمعرفة الفرائض الميراثية ما دبجه العلامة ابن الهائم، وهو جدول لطيف مشتمل على ثلاثين مربعاً في النصف الأعلى ثم هو أشبه بمثلث، ويمكن كل مطلع عليه ممن لم يقرؤوا علم الميراث أن يعطي كل ذي حق حقه في أسرع وقت، إذا اطلع عليه مراعياً التنبيهات التي جعلت مفتاحاً له، وهاهو ذا ملحق بالتفسير، ويمكن استخراج مئات المسائل منه، وهذا من نعمة الله التي أفاضها على قلوب الفضلاء من هذه الأمة. انتهى.

وإذا عرفت خلاصة من علم الفرائض من الجدول الملحق فهاك فروع الحساب المستنبطة من علم الخواص العددية. علم الحساب العام، وهو علم بقواعد يعرف بها طرق استخراج المجهولات العددية من المعلومات المخصوصة، وله تسع فروع:

(١) علم حساب الهواء، وهو الذي به يعرف حساب الأموال العظيمة في الخيال بلا كتابة.

(٢) وعلم حساب التخت والميل، وهو العلم المشهور في مدارس الشرق والغرب الآن، المكتوب بالأرقام الهندية المعروفة المرتبة ترتيباً يدل على الآحاد والعشرات والمئات الخ.

(٣) وعلم الجبر والمقابلة، وهو معروف.

(٤) وعلم حساب الخطأين، وله طرق مخصوصة مختصرة يتعرف بها المجهول.

(٥) وعلم الدرهم والدينار، وهو العلم الذي يعرف به من المسائل ما لا يعرف بالجبر.

(٦) وعلم حساب العقود أي عقود الأصابع، ولهم طرق في استخراج المجهول بها، وهو ينفع لمن لا يحسن الكتابة ولمن كان مسافراً الخ.

(٧) وعلم التعابي، وهو الذي به يعرف ترتيب العساكر في الحروب.

(٨) وعلم حساب النجوم، الذي به يعرف حساب الدرج والدقائق والثواني وهكذا.

(٩) وعلم حساب الفرائض، وهو الذي نحن بصدده، وبه يعرف قسمة التركات مثل تصحيح السهام لذوي الفروض إذا تعددت وانكسرت أو زادت الفروض على المال، وهذا حساب جزئي باعتبار أحكام الفقه. انتهى.

هذه هي الفروع التي تفرعت من علم الحساب، وطبقها قدماؤنا على فروع الحياة، فالمجاهدون اتخذوا علم التعابي وعلم الفرائض علم حسابهم، والتجار في الأسفار علم حساب العقود، ورجال الدواوين علم التخت والميل.

هذه أعمال آبائنا، وهانحن أولاء في القرن الرابع عشر الإسلامي نحذو حذوهم في سائر أعمال الحياة، ونذكر خلاصة علوم الشرق وعلوم الغرب وعجائب صنع الله عزّ وجلّ وهي التي بها قامت المدنية الحاضرة في تفسير الآيات، وقد انتشرت هذه الفكرة بين المسلمين في هذا الزمان، وهم بها آخذون، وهم بها مستبشرون، إلاّ من أكل الحسد قلوبهم من صغار الفقهاء ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الرعد: ١٧]، ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١].

جوهرة

قد عرفت أن آيات الميراث تبعها علم الحساب ، ولا جرم أن التركة لا تقسم على الوجه الأكمل إلاّ بمساحة الأرض إذا اشتملت عليها ، والمساحة من فروع الهندسة ، ولا بد للمساحة من علم الفلك ، لأن علماء المساحة الراسخين يضطرون إلى الاعتماد على بعض النجوم ، كما يضطر الملاحون لملاحظة النجوم في سير السفن ، هذا هو الإسلام .

اللطيفة الثانية

كيف تكون التعاليم الإسلامية في مستقبل الزمان

إن مفتاح التربية المستقبلة في آية اليتامى ، يقول الله تعالى في هذه الآيات : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ .

اعلم أن الله عزّ وجلّ قد رمز في هذه الآية للتربية الحقيقية الإسلامية . وسنبرز ما كمن فيها للأمم الإسلامية المستقبلة ليعلموا أن الله عزّ وجلّ خبأ لهم كنوز العلم في القرآن ليستخرجوها وليبحثوا في نفوسهم وفي الآفاق عما كنز فيها من الجواهر والحكم والجمال والبهاء . إن النفوس الإنسانية كبحر لجي ، وكل من الناس لا ينال من خبايا نفسه وجواهرها إلاّ ما قصده ، ولا يستمتع إلاّ بما أراد ، ويبقى ما كمن في الأنفس ملقى فيها ، لا يجد من يثيره وينتفع به . ألا فليعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أن هذه الآية تدعو حثيثاً إلى استخراج جمال النفوس وجواهر الحكم من غورها .

فاعلم أيها الذكي أن التعاليم في هذا العالم الإنساني على قسمين : تعاليم بالإرهاب ، وتعاليم بالرغبة والوجدان ؛ فأما تعاليم الإرهاب فهي التي يسلكها الإنسان في معاملته مع الصبيان والجهال وأصحاب النفوس الضعيفة التي لم تستخرج كنوزها ، كما نرى أن البلور ترتسم فيه الصور بلا صقل ولا تعب ؛ فأما الحديد فلا يقبل الصور إلاّ بعد العناء في صقله ، والتعب في تحسينه ، حتى يقبل الصور كما يقبلها البلور ، وفي الحديث : «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام» . فتفطن لما يلقى عليك أيها الذكي اليوم من جواهر هذه الآية الواردة في الأيتام وفي الحكم المستودعة فيها . لقد أرشد الله الأوصياء قائلاً : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الخ .

يقول : أيها الناس ، إنني قد جعلت الرحمة والشفقة والعطف والحنان من الغرائز الممنوحة لأهل الأرض قاطبة ، فتشوا أيها الناس في قلوبكم وانظروا بعيونكم ، هل ترون إلاّ رحمة ممتزجة بنفوسكم وإشفاقاً في قلوبكم؟ أوَلا ترون الحيوانات من الخيل والبقر والمعز والغنم؟ بل الحيوانات المفترسة أودعت في قلوبها رحمة على أبناء جنسها عامة وعلى أولادها خاصة ، وأنا الذي حكمت عليها أن تأكل الأنعام لحكمة دبرتها وغاية يعرفها الحكماء وأكابر العلماء ، فأي امرئ منكم لم ير في نفسه ميلاً وإشفاقاً على الضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام؟ ولو أن المرء خلي وغريزته الأولية لأيقن أن العطف الذي على ولده الصغير هو العطف الذي يجده على جميع الضعفاء ، وإن دفن تلك الرحمة وأسدل الستار عليها وغطاها بحجب الشهوات تارة والعدوان أخرى ؛ فمن طمع في مال غيره من الضعفاء كالدول الكبيرة فإن هذا الطمع يسدل الحجب على تلك الغرائز الشريفة ، فيسترها كما يستر الرحمة التي في الآساد للبهائم ما طبعت عليه من الافتراس العارض لها .

المحبة والكهرباء

ألا وإن المحبة والمجد والعطف كامنات في النفوس كمون الكهرباء في الأجسام . أيها الناس إن المحبة والمجد كامنان في نفوسكم كما كمنت الكهرباء في الأجسام ، أوَلا ترون أن الزجاج والراتينج ـ أي شمع الختم ـ إذا دلك كل منهما بطرق مخصوصة ، وقرب لب السيسبان مثلاً من الزجاج جذبه إليه وضمه ثم نفر منه وطرده ، فإذا قربناه من الراتينج المدلوك جذبه إليه والتزق به ثم طرده ، فإذا أرجعناه للزجاج قبله ، وهكذا ، وهذه التجربة البسيطة الصغيرة أوجدت قسمين : كهرباء سميت موجبة وهي الزجاجية ، وكهرباء سميت سالبة وهي الراتينجية ، وجميع الكهرباء في الهواء والماء والسحاب والمعادن لا تعدو هذين القسمين ، وهذه هي التي لما كشفها الناس حملتهم وأطعمتهم وكستهم وحرثت أرضهم وفعلت عجائب لم تخطر ببالهم ، وإذا كانت هذه المادة مخلوقة لكم وفيها هذا السر النافع العجيب ، أفلا تكون أنفسكم أصدق محكاً وأعظم مقاساً ، وأنتم لو فتشتم فيها لوجدتم أن فيها ما هو فوق الكهرباء في إسعادكم ورقيكم وتشييد مجدكم .

انظروا أيها الناس ، ألم تكن الأعمال الجراحية تعمل لكم وأنتم متألمون أشد الآلام ؟ ألم تستطيعوا أن تأتوا بمخدر يسهل العمل ويقلل الألم ويدفعه عنكم؟ هذا مثل مما وصلتم إليه .

الترغيب والترهيب في الآيات

هكذا أنتم تقومون بالأعمال إما طوعاً وإما كرهاً كالأوصياء هنا ، فإن الله تعالى قال لهم فتشوا ضمائركم وانظروا في نفوسكم ، ألستم تعاملون أبناءكم برحمة ومودة وعطف وشفقة ، فهكذا عاملوا اليتامى واحفظوا لهم أموالهم كأبنائكم ، وهذه الآية يراد منها إثارة العواطف الكامنة في النفوس التي مبدؤها الرحمة وغايتها سعادة الضمير بما يرى منقوشاً فيه من صور الإحسان ، وما يسمع من الثناء من الناس ، وما يتصف به من جميل الأخلاق والمزايا الحسان .

ولما كانت أكثر النفوس لا تعرف إلاّ الإنذار والتخويف ، ولا تفهم الشرف النفسي ولا اللذات العقلية ، أعقب الآية بالوعيد لهم بأنهم يأكلون النار في بطونهم وسيصلون ناراً مسعرة ، مهدداً لهم وزاجراً كأنه يقول : أيها الناس ، إن سعادة نفوسكم بالإحسان والفضائل التي تشرف بها النفس ، وإذا لم تفهموا فأنا أحذركم نار جهنم بسبب أكل مال اليتيم .

واعلم أن ذكر النار في هذه الآية ، وفي حديث الإسراء المتقدم ، وهو أنه يؤتى بحجر من النار فيدخل في فمه نازلاً في جسمه ، فإنّما ذلك تصوير لما عليه حال الإنسان الآن ، وإن لم يحس به فإن الحرص والطمع والحسد وعدم الرحمة ، كل ذلك مؤلم للنفوس في هذه الدنيا والناس كالمخدرين لا يشعرون ، فإذا ماتوا انكشفت السوءات وظهرت العورات .

واعلم أن الناس لا يصدقون هذا إلاّ إذا كانوا مفكرين ؛ فتأمل أيها الذكي ، ألست ترى أن المال كلما زاد زاد التعب به ، وأن المناصب والأولاد وأمثالها لا تمنع الشرور عن الإنسان بل تزيدها ، وأنا لا أطيل في هذا المقام ؛ فارجع إليه في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾[الآية : ١٥٥] .

العمل للمحبة أدوم ، والعمل بالقهر قصير الأجل ، لأقدم لك ما قاله النابغة الذبياني :

لو أنهـا برزت لأشمط راهب عبد الإلـه صـرورة متعبـد
لرنـا لبهجتهـا وحسـن حديثها ولخاله رشـداً وإن لم يرشـد

وقال في هذا المعنى كثير عزة:

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعـودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركعـاً وسـجودا

فانظر كيف جعل النابغة وكثير أن الرهبان والعباد الذين يبكون من خشية العذاب، إذا سمعوا قول معشوقتهما تركوا عبادة ربهم وأصغوا إلى حديث هذه الفاتنة الجميلة. وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء: ٥٩].

فالتعليم أيها الناس بالتخويف لا يفيد الأمم، وإنّما نتيجة هذا البحث أن الله يحثنا أن نعلم بطرق الترغيب، ونستخرج ما كمن في النفوس بما فيها من الجمال، وهاأنا ذا آت لك بصور من ذلك:

الطريق الأول: أن تذكر سير النابغين في علم أو عمل أو وطنية، فليذكر أهل كل قطر سير عظمائهم الذين أفادوا بلادهم بأن علموهم أو أدوا إليهم عملاً شريفاً، أو حفظوا أوطانهم من العدو، فيلفقه التلاميذ ذلك، فإن ذلك يهيج الشعور في قلوبهم فتمتلئ بالحماسة، ويسيرون على منهج سابقيهم ويقلدونهم ويعملون عملهم؛ إن الأمم التي تنسى هذا لا محالة فاقدة مجدها آيلة إلى خرابها ذاهبة إلى الحضيض. هذا هو الذي يرمي إليه قوله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ يريد تحريك الوجدان والشعور، فلنحرك الوجدان والشعور والمجد بالطرق التي نعرفها وهذه منها.

الطريق الثاني: أن يكون مع التلميذ مذكرة يحصي فيها ما يستحسنه مما رآه وما ذمه مما مر عليه من الأمور المهمة يرجع إليها عند الحاجة. فهذه الثلاثة متى اجتمعت في امرئ جعلته في مصاف العظماء ونهج منهج الحكماء.

جوهرة في قابلية الناس للكمال وواجب العلماء في أمة الإسلام

الناس جميعاً قابلون لهذه الفضائل، العلم والقدوة كفيلان باستخراج فضائلهم وإن كانوا مختلفين اختلاف المعادن والخشب في الكهرباء، فالخشب يقل سريان الكهرباء فيه، والمعدن كثرت قابليته، فليقم الأساتذة في الإسلام بعلم أبرزه الله في هذه الآيات، قدم الله آية الترغيب بالبحث في النفس عن الرحمة على الترهيب بأكل نار جهنم التي سترها وجودنا في حياتنا الدنيا، وإن كنا نحس بآلام الحرص والطمع أحياناً. رغبنا الله في إيقاظ العقول لنستخرج فضائلها وهذا أفضل من الترهيب. إن أمماً معاصرة لنا سلكت هذه السبل، فقلت القضايا كأهل سويسرا، يمر الشهر ولا ترى أمام القاضي قضية ولا محاماة، بل ينصرف كل إلى عمله، وذلك لأنهم يرضعون الفضائل وحب البلاد مع اللبن، يلقنونه في المهد والتربية والمدارس، لا تذاكر في مراكب الترام، لا تذاكر في القطار، يسير الراكب ويضع الأجرة في صندوق مقفل بحيث لا يعلم أحد ماذا دفع. يا رب، عجب من أمة الإسلام، عجب وألف عجب، إلى متى ديننا يأمرنا أن نوقظ الشعور؟ نحن من نوع الإنسان ولنا دين الإسلام، فلم سبقنا الفرنجة من أهل سويسرا؟ يا الله، إليك أشكو، التعليم في الإسلام ناقص أبتر، تعليم لا يثير الفضائل،

تعليم ليس فيه إلاَّ التخويف، لم يمل قيد شعرة عن ذكر المخوفات والمزعجات، مع أنك أنت يا الله أنزلت في الكتاب سبعمائة وخمسين آية فيها جمال هذا العالم، والنظر في الجمال يدخل في النفس صور الجمال والجمال يجذب بعضه بعضاً، فيجذب ما في نفوسنا من الجمال والفضائل، أمرت بالبحث في النفس في هذه الآيات عن فضائلها، فاقتصر أهل العلم على ذكر النار، مع أن النفس الإنسانية فيها مبدأ الكمال والجمال، يا رب لم يعلم الناس أن القرآن فيه تعاليم كثيرة، فلم يأخذوا منها إلاَّ قولاً واحداً غالباً، وهو عذاب الجحيم، فأما الفضائل الكامنة فلم يثيروها ولم يستخرجوها، بل تركوها عليها الصدأ ﴿ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾[المطففين: ١٤-١٦]، قد أبنت يا الله أن الران والصدأ إذا غطى القلب حجب صاحبه عن النعيم ودخل الجحيم، فقالوا: نترك المعاصي فحسب ونعمل الطاعات، ولكن لم يفكر أكثر العلماء في جمال الطبيعة والسير الشريفة عند التعليم إلاَّ قليلاً منهم، مع أنهم لا يتقنونها.

حكاية وبشارة بمستقبل التعليم في الإسلام

قال لي صديق تعلم في أوروبا سنين طويلة: هل يمكن أن تعم الأمانة الناس والصدق؟ قلت له: نعم، فأنكر ذلك أشد الإنكار، قلت له: فإذا برهنت على ما أقول ببرهان تشاهده في منزلكم هنا. فقال: يكون عجيباً. قلت: ألم تجد أحداً زوَّج أختاً له جميلة لرجل وهي أجمل من امرأته هو؟ قال: بلى، هذا كثير.

قلت له: أليست هذه الأخت أنثى كالإناث، والطبع يميل إليها بشهوة الطبيعة؟ قال: بلى، فإنا نجد المجوس وهم من نوع الإنسان يتزوجون بناتهم وأخواتهم. قلت له: حسن، فالذي منع طبائع المسلمين والنصارى أن تكون كطبائع المجوس أليس هو التعليم والبيئة؟ أولست تجد أن العامة والجهلاء في البلاد والقرى المصرية لا يرضون بسرقة حصر المسجد وقنديله وهم يسرقون كل شيء؟ أفلست ترى أن ذلك من البيئة والعادة المستمرة في احترام المساجد واحترام الأرحام، بحيث يرى الشاب أن أخته كأنها مقدسة وأمه كذلك وبنته لا يخطر بباله أن ينالها بسوء؟ لعمري إن هذا ليس من الطبيعة في شيء، إنَّما هو من التعليم، فالتعليم أيقظ في النفس فضائل أخرى أوجدها، وقد كانت فيها كامنة، أفلست ترى ما تمتع به أهل سويسرا من الأدب والفضل؟ نحن أهل الشرق أولى أن نناله، ونحن آباؤهم وأسلم منهم عقولاً وأصح منهم جسوماً وأقدم مدنية. قال: بلى، أما الآن فقد آمنت بقضيتك وصدقت كلمتك. قلت له: أنا أشعر أن مستقبل الأمم الإسلامية سيكون على هذا المنوال ولو بعد حين، وأنهم ينالون هذا النعيم في الحياة، وتقل القضايا وترفع الرزايا، ويقوم الوجدان بدل القانون، والإحسان مقام السجان، والمعرفة مقام الشر والسفه، والمعاونة بدل المخاصمة. أليس هذا يشير له آيات المحرمات من النساء؟ وكأنه يقول: أنا حرمت الأمهات والبنات حتى لم تعد لكم حاجة فيهن، مع أن الطبع يقتضيهن، وذلك لما أبرزتم ما كمن في نفوسكم من الحمية والشرف؛ هكذا فلتفعلوا في سائر التعاليم كقضية اليتامى، أليس هذا مقتضى ما قيل: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا»، وما قيل: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، بالحب قامت السماوات والأرض، ومن هذا السر حديث: «الحياء من الإيمان».

فليكن كل قصدك أيها الذكي نشر المعرفة وبث السير الجميلة والقدوة الحسنة، وليكن هذا من الإسلام، فذلك أرقى من التهديد، وليقم في البلاد مصلحون على هذا النظام، وليجدد التعليم على هذا الأساس، وينبذ ما عداه إلاَّ للنفوس التي هي كالخشب المسندة، فأما أمثالك فليس لهم غير إثارة الجمال في نفوسهم والحسن والكمال. انتهى.

المقصد الرابع

في صلة الذكر والأنثى وأحكام اختلاطهما بعقد أو بغير عقد

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ

غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

في هذا المقصد ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في تعدّي حدود الله المذكور قبل هذا المقصد، وكيف يوبخ الزناة وتقطع صلتهم بالناس إلى قوله : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

الفصل الثاني : في المحرمات من النساء إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

الفصل الثالث : في أحكام عامة للنساء وللأموال، وبيان الصلح بين الزوجين الخ .

الفصل الأول : التفسير اللفظي

﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ الزنا لزيادة قبحها وشناعتها ﴿ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾ فاطلبوا ممن قذفهن أربعة من الرجال تشهد عليهن ﴿ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ ﴾ احبسوهن في البيوت واجعلوها سجناً عليهن بعد أن يجلدن، كيلا يجري ما جرى بسبب الخروج والتعرض للرجال ﴿ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ بأن يتزوجن فيستغنين عن السفاح ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ ﴾ يعني الزاني والزانية ﴿ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ بالتوبيخ والتقريع ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ﴾ فاقطعوا عنهما الإيذاء وأعرضوا عنهما بالإغماض والستر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ علة الأمر بالإعراض وترك المذمة والستر بعد الفضيحة .

فهذه الآيات لتأديب الزناة تأديباً عرفياً أخلاقياً نفسياً، ومن ثبت عليه الزنا منهما يقام عليه الحد وقد تحبس المرأة للآية السابقة ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ﴾ أي قبولها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي إن قبول التوبة كالمحتوم على الله بمقتضى وعده من تاب ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ متلبسين بها سفهاً، لأن المذنب سفيه ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أي من زمان قريب، أي قبل حضور الموت لقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر» و«من» للتبعيض، أي في أي جزء من أجزاء الزمان القريب، أي الذي هو ما قبل أن ينزل بهم الموت ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به وكتب على نفسه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بإخلاصهم في التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ والحكيم لا يعاقب التائب. ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ فيه تسوية لمن لم يتب حتى يغرغر بالميت كافراً في أن كلاً منهما لا يعتد بتوبته، تغليظاً على من أخّر التوبة وتشديداً عليه، حتى جعل كمن مات كافراً ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي هيأنا لهم وأعددنا لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ كان الرجل إذا مات وله عصبة ألقى ثوبه على امرأته وقال: أنا أحق بها، ثم إن شاء تزوجها بصداقها الأول، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء منعها من الزواج حتى تفتدي بما ورثت من زوجها ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أيها الأزواج لا تحبسوا النساء من غير حاجة حتى ترثوا منهم أو يختلعن بمهورهن، وأصل العضل: التضييق، فيقال: عضلت الدجاجة ببيضتها، يقول: ولا تحبسوهن لتضيقوا عليهن لعلة ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإنصاف في الفعل والإجمال في القول ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن، فالنفس قد تكره ما هو خير كثير وقد تحب ما هو شر ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ تطليق امرأة وتزوج أخرى ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ أي إحدى الزوجات مالاً كثيراً ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ من القنطار ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ لأجل البهتان والإثم أو باهتين آثمين، وهو استفهام توبيخ وإنكار، ثم قال منكراً لاسترداد المهر: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ﴾ بالملامسة ودخلتم بها وتقرر المهر ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً وهو حق الصحبة والممازجة، وميثاق الله الذي أخذه عليكم في شأنهن من قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ومن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله». انتهى التفسير اللفظي.

يقول تعالى: إذا أتى الفاحشة النساء وشهد أربعة عليهن وأقمتم الحد عليهن، فاحبسوهن في البيوت إذا رأيتم أن الحد لم يزجرهن، حتى يجعل الله لهن سبيلاً بالتزوج المغني لهن عن السفاح، وكذلك إذا درئ عنهم الحد لشبهة. وإنّما قرر حبس المرأة لأنها لا تكون الفاحشة معها إلاّ إذا كانت خارج السجن، فأما الرجل فلا يحبس لأنه يقوم بأمور المعاش، وعلى الحاكم أن يأمر بتقريعهما وتوبيخهما والإيذاء حتى إذا تابا ورجعا يعفو عنهما، وهذا التقريع والتوبيخ لمن شهد عليه شاهدان فلم يقم عليه الحد، أو ثلاثة شهود، أو كان أربعة شهود ودرئ الحد عن المتهم، فحينئذ لا بد من

التقريع والتوبيخ، فإذا تاب كل منهما بطل التقريع لأن الله يتوب على من تاب توبة مقبولة ما لم تكن في حال الاحتضار.

ولما أتم الكلام على عقاب الزناة وحبس الزانيات وإيذاء الجنسين لفعل القبيح، أخذ يوصي الرجال عليهن ويقول: أيها الرجال لا ترثوا النساء كرهاً كما ترثون المتاع، إن الميت له ماله، والزوجة انحل عقد النكاح بموته، وليست ملكاً له حتى يملكها أقاربه، فإياكم أن تمنعوها عن زواج، أو تأخذوا منها مالاً، أو تمنعوها ميراثاً في مقابلة إطلاق سراحها، وعليكم أيها الأزواج أن لا تجعلوا العيش معهن لغاية مالية وفائدة لكم مضارة لها، بأن تأخذوا بذلك بعض ما أخذن من المهر وأنتم تتربصون موتهن فترثوهن، وإياكم أن تفعلوا ذلك إلاّ إذا أظهرن عدم العفة، وعاملنكم معاملة جائرة بنشوز وسوء عشرة، فحينئذ لكم عضلهن والتضييق عليهم، وعاشروهن أيها الأزواج بالمعروف، ولا تطيعوا أهواءكم في كراهتهن، فرب مكروه كان خيراً كثيراً، ورب محبوب كان شراً مستطيراً.

أقول: ومن قرأ ما ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الآية: ١٥٥] الخ، عرف فوائد المكروه وأن الحياة لا سعادة فيها إلاّ بالمشاق والمكاره، فلا نطيل به هنا فارجع إليه ليظهر معنى هذه الآية، ثم قال: وإذا أعطيتموهن شيئاً فإياكم والرجوع فيه ولو كان قنطاراً، وكيف ترجعون في العطية وقد بذلتموها، وتردون الهدية وقد أوليتموها، وليس من المروءة استردادها، ولا من الشهامة إرجاعها بعد ما كان بينكما من الصفاء والمحبة والوفاء، إن هذا لشين مبين وظلم عظيم.

جوهرة من جواهر القرآن في مستقبل الإسلام

تعجب أيها الذكي من نوادر القرآن وغرائبه، واعجب معي لهذه الأضواء الساطعة في سماء العلم التي أشرقت في ثنايا سطور هذا التفسير، يا ليت شعري هل يقرأ ما أكتب المسلمون، وهل يعجبون معي فيما أقول.

انظروا أيها العلماء، انظروا أيها الأمراء، فكروا أيها الحكماء في معنى هذه الآيات، يقول من قبل آيات: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ﴾[الآية: ٩] الخ ولقد شرحناها هناك، ويقول هنا: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾، ويقول في آية أخرى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾[النور: ٢].

هذه أنواع ثلاثة من أنواع التربية قد سطرها القرآن والمسلمون عن الأنفس والآفاق لاهون نائمون ولقد يكتفي أكثر العقلاء والعلماء بالأحكام الفقهية والبيوع الشرعية والقضايا الميراثية، وهم عن حقائقه معرضون، فمثل هذه الآيات ينظر فيها العالم إلى الخلاف الذي بين العلماء، فمن قائل: إن آية: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ منسوخة، ومن قائل: إنها في اللاتي يأتين السحاق مع بعضهن، وفي الثانية وهي: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ ﴾، قالت طائفة: إنها في اللواط، وقالت طائفة أخرى: إنها في الزناة وقد نسخت. ولقد اصطفيت لك اللب من كلام العلماء، ونبذت القشر، وفسرت الآية بما ينطبق على قول بعض المفسرين مراعياً الفوائد العلمية والعجائب النفسية والأخلاق الإنسانية والطبائع البشرية.

إن القرآن نزل منذ أربع وأربعين وثلاثمائة وألف سنة، وهذه الآيات تقرأ والناس مصروفون عنها وعن أمثالها بأمرين:

الأول : أن يكتفوا بأقوال الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين ، في الحدود والبيوع وما أشبهها ، ويقولون : قد تمّ الأمر ، فلا حاجة لبحث ولا تنقيب ؛ اللهم إلاّ الاطلاع على آراء العلماء في هذه الآيات ، ويكون ذلك مجرد اطلاع .

الثاني : أن يكتفوا بالقرآن ويعبدوا الله بالتلاوة ، وهذان الأمران هما اللذان أصبحا حجاباً بين المسلمين وبين القرآن . وهاأنا ذا أريد أن يرفع الحجاب ويظهر اللباب ، ويطلع الناس على جمال القرآن وعجائبه ، مع اتقاء مخالفة الأولين ، والجنوح في التفسير إلى رأي من آراء السابقين ، حتى لا نكون مبتدعين في التفسير ، ولا مخالفين المتقدمين ، فاصغ لما أتلو عليك من جمال التربية الإسلامية من هذه الآيات ، ولأقدم مقدمة فأقول :

اعلم أن العوالم المشاهدة لا تخلو من واحدة من ثلاث أحوال : إما أن تكون مضيئة كالنار والشموس ، وإما أن تكون معتمة كالمواد الأرضية من الحجر والشجر والطين ، وإما أن تكون شفافة كالماء والهواء والبلور والزجاج المصنوع من الرمل المخلوط بالمغنيسيا والقلي ، فالأول ما يضيء على غيره ، والثاني ما يحجب النور عما وراءه ، والثالث ما يقبل الضوء والظلمة ولا يحجبهما عما وراءه .

إذا عرفت هذه المقدمة فاعلم أن النفوس البشرية ثلاثة أقسام : قسم مضيء ، وقسم مشف ، وقسم معتم .

فالأول هم أصحاب النفوس الشريفة ، فهؤلاء يمنعهم عن الرذائل إشراق نفوسهم ، فقيل لهم : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ ﴾ الخ ، يقول : انظروا بفطركم السليمة وعقولكم المضيئة في أمر اليتامى وقد قدمنا أن هذه فتح باب لتربية العقول بطرق خاصة .

والثاني هم المتوسطون الذين لا قدرة لهم على الاستنتاج من أنفسهم ، فأمثال هؤلاء يقرعون ويزجرون باللسان ويوبخون إذا اقترفوا الذنوب ، كفعل الزنا ، سواء أقيم الحد كما في البكر ، أم لم يقم الحد ، وكانت الشهادة لم تتم بالأربعة ؛ فحينئذ يوبخون ويقرعون الخ . وهكذا يفتح باب التقريع والتوبيخ . وأقول ذلك ليفتح المسلمون هذا الباب وليشهر على ألسنة الجرائد والصحف من لم يرتدع في الدائرة التي هو فيها حتى يرجع إلى رشده ، يقول الله : ﴿ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ والإيذاء في كل قبيل بحسبه . إن هؤلاء أشبه بالجسم الشفاف ، ولعمري إن التأديب بهذه الطريق أقرب إلى السلامة وأبعد عن الجهالة وأسعد للأمم وأبعث لرقي الهمم؟إن المرء لا يرقى إلى المعالي إلاّ إذا أحس بالمسؤولية ، ولا إحساس بها إلاّ بإثارة ما كمن فيها من عوامل الشرف ، فلتجعل الجرائد وسيلة لتعيير من ينتهكون حرمة الآداب . إن الجرائد في الأيام الحاضرة بها إقامة الحرب والسلم ، ونظام الأمم ، وتأديب الغاوين ، ومدح النافعين ، وإرشاد الضالين ، وهداية الغافلين ، فلتجعل وسيلة إلى ردع من ضل بالهوى وغوى وأعرض عن نفع الجمهور .

وأما القسم الثالث فهم الذين فرغت الحيلة فيهم ، وعجزت الزواجر عن ردعهم ، فأولئك يقطعون من جسم الأمة قطعاً ، وينبذون منها نبذاً ، كأن يقتل القاتلون ويرجم الزانون إذا لم تدرأ الحدود بالشبهات وقامت على أعمالهم الشهادات .

واعلم أن الجسم المعتم قد يقبل الصقل كالحديد، فإن الحيلة تجعله يقبل صور المرئيات، ويرى الإنسان وجهه كالمرآة المعلومة، فهؤلاء الذين جعلناهم كالأجسام المعتمة، يمكن صقلهم بالعلوم، فإن لم ينجع فيهم القول، سللنا عليهم سيفاً قاطعاً، وفصلنا أرواحهم عن الأجسام، فزاروا الرموس بعد قطع الرؤوس، هذا هو الصراط المستقيم، ولتعلم أن الله ليس يريد الانتقام، وإنّما هو مربي الأنام، وما العقاب إلاّ اتقاء الشرور، فإذا أثيرت حمية النفوس بالمباحث العلمية الجميلة، وتواصى الناس بالحق في معاملة أولئك الجناة، فنبذوهم ظهرياً وتركوهم، كما ترى في قصة الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت في عشرات الأيام، وستقرؤها في سورة التوبة، فقد هجرهم الرسول والمؤمنون ولم يعف عنهم، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ونزلت الآية بالعفو عنهم، هكذا فعل الله في سياسته مع المتخلفين، فقوله هنا: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ فتح لهذا الباب، ومن تاب بالتقريع وصلح فليعف عنه وليعامل معاملة الصالحين، هذا هو السر الذي أردت إظهاره لتقرأه للمسلمين وتشرحه للمخلصين.

الفصل الثاني

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ أي التي نكحها آباؤكم، وبينه بقوله: ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء من المعنى، كأنه قيل: تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلاّ ما قد سلف قبل التحريم. روي أنه لما توفي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار، خطب ابنه قيس امرأة أبيه، فقالت: إني اتخذتك ولداً، وأنت من صالحي قومك، ولكني آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأستأمره، فأتته فأخبرته فنزلت هذه الآية، وحرم نكاح زوجة الأب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً﴾ أقبح المعاصي ﴿وَمَقْتًا﴾ يورث أشد الغضب من الله وغاية الخزي والعار ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس ذلك طريقاً.

رجع في هذا المقام إلى تقبيح المعاصي والذنوب بالتقبيح والتشنيع والذم، وهذا هو الذي ستتبعه الأمة الإسلامية للطبقة الوسطى فالذم والتشنيع ورسم صور الأشياء وعرضها على الناس فيرون قبحها تارة وحسنها أخرى، هو الذي يستخرج من نفوس الأمم ما كمن فيها من الاستحسان والاستقباح كما قدمناه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾، وهنا يقول: ﴿فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ كل هذا للتنفير من الذنب، وكان يكفي أن يقول إني أعذبه بجهنم وأسلط عليه أنواع العذاب في الآخرة لم يقل هذا، بل استعمل التشنيع والتنفير من الذم.

فليفتح هذا الباب المسلمون، ولتكن المؤثرات النفسية هي محور أعمالهم كما تقدم. ولقد بلغنا لهذا العهد أن الألمانيين لم يكثر نسلهم إلاّ بعد أن أمر ملوكهم الأساتذة، فصوروا صورتي زوجين ومعهما أبناؤهما وأمامهما أعمال مختلفة، فهذه تطبخ الطعام، وهذه تحضر الأواني، وهذه تدبر أمر المنزل، والأبوان جالسان منشرحان، وصورتي زوجين آخرين عقيمين متزوجين ضعيفين، لا ولد لهما ولا بنت تعولهما، ولا مؤنس لهما، وعرضوا هذه الصور على نظر الجمهور، فانكبوا على الزواج وكثر نسلهم وكثر جمعهم، وذلك جزاء المفكرين العاقلين.

ثم أخذ يشرح بقية المحرمات من النساء فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ أي حرم نكاحهن، والأم من ولدتك أو ولدت من ولدك وإن علت، والبنت من ولدتها أو ولدت من ولدها وإن سفلت، والأخت إما من الأب وإما من

الأم وإما منهما، والعمة كل أنثى ولدها من ولد ذكراً ولدك، والخالة كل أنثى ولدها من ولد أنثى ولدتك قريباً أو بعيداً، وبنات الأخ وبنات الأخت يتناول القربى والبعدى، فالمحرمات بالنسب سبع بنص الكتاب.

واعلم أن كل ما حرم بالنسب يحرم بالرضاع، فإذا رضعت من امرأة فقد حرمت عليك التي أرضعتك وصارت أماً لك، وكل بنت لها صارت أختك، وزوجها أباك، وأمها جدتك، وأخت زوجها عمتك، وأختها هي خالتك، وأم زوجها جدتك، وبنت ابنها بنت أخيك، فأصبحت من أسرة الرضاعة كما أنك من أسرة النسب. ثم إن الجمهور على أن قليل الإرضاع وكثيره يحرم، وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والثوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك وأبي حنيفة وأحمد في إحدى روايتين عنه، والقليل كالشافعي وعبد الله بن الزبير وأحمد في إحدى روايتين عنه: أن التحريم بخمس رضعات معلومات متفرقات، وحجة الأولين أن التحريم لم يقيد بعدد، وحجة الشافعي ومن معه، الحديث المبين للقرآن. فأما المدة التي يحرم الرضاع فيها، فهي ما دون الحولين، وهو رأي الجمهور ومنهم الشافعي وابن مسعود ومالك وأبو داود. وقال أبو حنيفة: مدة الرضاع ثلاثون شهراً. فهذا ملخص آراء الأئمة في قوله تعالى: ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ وهذا معطوف على «أمهاتكم» واكتفى بالأم والأخت عن ذكر الباقي. وفي الحديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، فكل بنت لها سابقة أو لاحقة فهي أخته، وهكذا البقية كما تقدم. فهؤلاء أربع عشرة امرأة تحرم، سبعة بالنسب وسبعة بالرضاع، وإنّما ذكر الرضاع بعد النسب لأنه لحمة كلحمة النسب، وسيتبعها بحرمة المصاهرة، وقد تقدم منها زوجة الأب.

فاعلم أن من عقد على امرأة حرمت عليه أمها بمجرد العقد، وبحرمة أم المعقود عليها تحرم جميع جداتها من قبل أمها كما في النسب والرضاع، وتحريم الأم وما معها بمجرد العقد، مذهب أكثر الصحابة وجميع التابعين والجمهور، وعليه العمل. وقال فريق من الصحابة: إن أم المرأة لا تحرم إلاّ بالدخول بابنتها، وهو مذهب زيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وجابر وابن عباس في رواية عنه. هذا ملخص ما قالوه في أم المعقود عليها. أما بنتها من رجل آخر فإنها تحرم عليه متى دخل بالأم، وهكذا كل بنت لأبنائها أو بناتها وإن سفلن من النسب أو الرضاع. ويدل على ذلك ما أخرجه الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أيما رجل نكح امرأة فلا يحل له نكاح ابنتها، وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها، وأيّما رجل نكح امرأة فلا يحل له أن ينكح أمها دخل بها أو لم يدخل»، وهذا قوله تعالى عطفاً على «أمهاتكم»: ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ الربائب جمع ربيبة، والربيب ولد المرأة من رجل آخر، سمي به لأنه يربه كما يرب ولده في غالب الأمر، فعيل بمعنى مفعول، ولحقته التاء لأنه صار اسماً، وقوله: ﴿ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ مكمل لعلة التحريم، وكأنه قيل: إن بنات نسائكم تربونهن كما تربون أولادكم وهم في حجوركم كأولادكم، فقوى شبههن بأولادكم فهن محرمات عليكم، فذكر الحجور والتعبير بما يدل على التربية علة للتحريم لا أنه شرط، ، هذا مذهب الجمهور، وأخذ سيدنا علي بلفظ الآية وجعل التربية لهن شرطاً في التحريم، حتى يتحقق حضانة الرجل لهن

وتربيتهن، ولا يكون التحريم إلاَّ بالنكاح الصحيح، فلو زنا بامرأة لم تحرم عليه أمها ولا بنتها إذا أراد التزوج بهن، ولا تحرم المزنى بها على آباء الزاني ولا بناته، فالنكاح هو الذي يحرم ما يترتب عليه وجوب الصداق والعدة ولحوق الولد سواء أكان صحيحاً أم فاسداً. أما الزنا أو لمس امرأة أجنبية بشهوة أو تقبيلها كذلك بشهوة فلا، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والزهري ومالك والشافعي وفقهاء الحجاز، وخالفهم قوم، فقال عمران بن حصين وأبو هريرة وجابر والحسن وأهل العراق: إن الزنا يحرم.

ومما يحرم عليه بالمصاهرة أزواج أبنائه أو أبناء أولاده وإن سفلوا من النسب والرضاع بمجرد العقد إذا كانوا من الصلب. أما الذي تبناه فلا تحرم زوجته، وكذلك أخت زوجته بنسب أو رضاع فلا يجمعها معها في نكاح، ولا يجمع وطأهما في ملك يمين، وكذلك إذا كانت إحداهما بعقد والأخرى بملك اليمين. وهذا قوله تعالى عاطفاً على «أمهاتكم»: ﴿ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ ﴾ لا المتبنين، كزيد بن حارثة الآتي في سورة الأحزاب، ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي لكن ما قد مضى فإنه معفو عنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فيكون نكاح الأختين في الجاهلية نافذ العقد ويختار الرجل أيهما شاء حتى لا يجمع بينهما ولا يحتاج لعقد جديد على التي اختارها. روي عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال: «قلت يا رسول الله إني أسلمت وتحتي أختان، قال: طلق أيهما شئت» وعطف على «أمهاتكم» أيضاً قوله: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ذوات الأزواج أحصنهن التزوج، وفي قراءة: «وَالْمُحْصِنَاتُ» بكسر الصاد، بمعنى أنهن أحصن فروجهن ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ من اللاتي سبين ولهن أزواج كفار، فهن حلال للسابين، والنكاح مرتفع بالسبي. قال أبو سعيد رضي الله عنه: «أصبنا سبايا يوم أوطاس ولهن أزواج كفار فكرهنا أن نقع عليهن، فسألنا النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فاستحللناهن»، قال الفرزدق:

وذات حليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبني بها لم تطلق

وقال أبو حنيفة: لو سبي الزوجان لم يرتفع النكاح ولم تحل للسابي.

ولما تم الكلام على المحرمات قال: كتب الله عليكم تحريم هؤلاء ﴿ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ثم عطف على الفعل المضمر الذي ذكرناه قوله: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ ما سوى المحرمات المذكورة وما في معناها كالجمع بين المرأة وعمتها وخالتها، وكالمطلقة ثلاثاً لا تحل لزوجها الأول حتى تنكح زوجاً غيره، ونكاح المعتدة، وهكذا من المحرمات التي ورد بها القرآن أو السنة، فكل هذه وغيرها تخصص هذه الآية فهذا من العام المخصوص، وإنما أحل ذلك ﴿ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم ﴾ تطلبوا بأموالكم أي تنكحوا بصداق وتشتروا بثمن ﴿ مُّحْصِنِينَ ﴾ متزوجين ومتعففين ﴿ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ ﴾ غير زانين ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ ﴾ فمن تمتعتم به من المنكوحات ﴿ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ حال كون الأجور ﴿ فَرِيضَةً ﴾ مفروضة ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ﴾ أي فيما يزاد على المسمى أو يحط عنه بالتراضي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح ﴿ حَكِيمًا ﴾ في شريعته وأحكامه.

ثم أخذ يبين حكم من لم يقدر على نكاح الحرائر فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾.

واعلم أن من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة فله أن يتزوج الأمة المؤمنة وذلك بشرطين :

الأول : أن لا يجد مهر حرة لأنها غالباً غالية المهر ، ومهر الأمة أخف لاشتغالها بخدمة سيدها .

الثاني : خوف الزنا عند جمع من الصحابة والشافعي وأحمد .

والشرط الأول لا يقول به أبو حنيفة رضي الله عنه ، فيجوز للحر أن ينكح أمة وإن كان موسراً ما لم تكن عنده حليلة حرة .

واعلم أن سبب منع نكاح الحر للأمة إذا كان موسراً أن الولد يتبع الأم في الرق والحرية ، وإذا كانت هي رقية لسيدها ، فإن ولدها رقيق له مثلها ، وهل يرضى بهذا حر؟ وأيضاً إنها تكون في خدمة سيدها فله أن يحبسها عنه في خدمته ، ولا يجوز نكاح الأمة إلاَّ إذا كانت مؤمنة ، أما الكافرة ففيها نقصان الكفر والرق معاً ، وفي المؤمنة الرقيقة نقص واحد ؛ وهذا رأي الشافعي ومالك وجمع من الصحابة . وأما أبو حنيفة فإنه أجاز نكاح الأمة الكتابية ، وهذا في قوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ أي من لم يستطع منكم غنى ـ والمراد ما يصرف في المهر والنفقة ـ يبلغ به نكاح المحصنات يعني الحرائر ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ يعني الإماء المؤمنات ، وحمل أبو حنيفة رضي الله عنه طول المحصنات على أن يملك فراشهن والنكاح على الوطء وعليه يجوز للموسر الذي لا حرة في فراشه أن يتزوج أمة كما تقدم ، والفتيات الجاريات المملوكة جمع فتاة ، والعبد فتى .

ولما كانت النفوس تأنف من الإماء ، أردفه سبحانه بأن المدار على القلوب ، فرب رقيقة أفضل من حرة بسبب إيمانها ، أوليس الناس بعضهم من بعض ، فلا تفاضل إلاَّ بالقلوب والنفوس ، فأما الرق والحرية فهما أمران جسمانيان صوريان ، وكم من رقيق سيد لسيده ، وكم من حر هو عبد عبده ، فهذا قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ وإذا كان كذلك ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي أربابهن ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن بإذن أهلهن وهو حق لسيدها لأنها لا تملك ، وعند مالك هو حقها رجوعاً لظاهر اللفظ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بلا مطل ولا إضرار ﴿مُحْصَنَـٰتٍ﴾ عفيفات ﴿غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ﴾ غير مجاهرات بالسفاح ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ أخلاء في السر ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ بالتزويج ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ﴾ زنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ الحرائر ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ من الحد : الجلد ، إذا زنين ، فتجلد الرقيقة خمسين جلدة جلدة ، وهي نصف ما تجلده الحرة وهو مائة جلدة ، وكذلك العبد والمتزوج منهما عقابه كذلك ، فلا رجم على العبد ولا الأمة ، لأن الرجم لا ينصف ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نكاح الإماء ﴿لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي لمن خاف الوقوع في الزنا ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾ أي وصبركم على نكاح الإماء متعففين ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفر لكم ورحمكم حيث أباح لكم ما أنتم محتاجون إليه . انتهى تفسير الفصل الثاني ؛ وفيه لطائف أربع :

اللطيفة الأولى : لنجعل المحرمات بهيئة منظمة لتسهل على القارئ .

اللطيفة الثانية : ما الحكمة في الشهوات والمحرمات ، وماذا تفيدنا من الحكم الاجتماعية والخلقية والاستنتاجية؟ وكيف نعرف من هذا المقام سر النفوس وعجائبها؟ وكيف يحترق الناس بالشهوات كما يحترقون بالنيران وهم غافلون؟ وعجائب وبدائع من أسرار القرآن الشريف ليصل الناس لربهم ويعجبون من حكمه الباهرة .

اللطيفة الثالثة : سر القرآن في تحريم زواج الأمة إذا خاف الحر الزنا ، وما علاقتها بالأمم الإسلامية اليوم سياسة ؟ .

اللطيفة الرابعة : الأحرار والعبيد وأن بعضهم من بعض والعبرة بالأعمال .

اللطيفة الأولى

يحرم هؤلاء على الرجل من النسب والرضاع	هؤلاء يحرمن من غير الرضاع والنسب
(١) الأم .	(١) تحرم المرأة بانقضاء العدة .
(٢) البنت .	(٢) يحرم الجمع بين المرأة وخالتها أو عمتها أو أختها الخ
(٣) الأخت .	(٣) يحرم عليه امرأة أبيه .
(٤) بنت الأخ .	(٤) الملاعنة تحرم على زوجها .
(٥) بنت الأخت .	(٥) من عنده أربع نسوة لا يزيد عليهن .
(٦) الخالة .	(٦) المطلقة ثلاثاً لا تحل لزوجها إلاّ بشروط خاصة .
(٧) العمة .	(٧) حليلة الابن .
	(٨) الربيبة .

اللطيفة الثانية : الشهوة تقلب رحمة

أولاً : اعلم أن النساء بالنسبة لجميع الرجال مشتهيات ، لا فرق بين الأجنبية والمحرم كالأخت والأم . فالطبيعة البشرية لا فرق عندها بين الأخت والأم والخالة والأجنبية ، فكل عندها سواء كما في البهائم ، فالنفس البهيمية لا تفرق بين الأخت والأجنبية هكذا الإنسان .

والدليل على ذلك أن المجوس يتزوجون بناتهم وأخواتهم ، ونفوسهم لا تأنف ذلك . أما المسلمون والنصارى وأمثالهم فإن الرجل قد تكون عنده أجمل أخت ، ثم ينظر للأجنبية التي هي أقل جمالاً منها نظر شهوة ، ولأخته نظر عطف وحنان . فهذا دليل في كل منزل على ما للنفس الإنسانية من القدرة والعظمة والشرف . يقول الله للناس : هاأنتم تقدرون على أن ترفعوا نفوسكم إلى مستوى الملائكة ، إن في نفوسكم لقدرة عظيمة وعزيمة قوية الشكيمة فاستبشروا بها ، ذلكم أنكم لما سمعتم تحريم المحارم وعرفه الصغير منكم والكبير وصار ذلك عادة مألوفة ، انصرفت نفوسكم عن نظر الشهوة إليهن ، واستبدلتها بالحنان والتقديس والرحمة ، فرجعت نفوسكم بالنسبة إليهن عن صفة البهيمية إلى صفة الملائكة ، فأمهاتكم مقدسات ساميات شريفات ، وأخواتكم وعماتكم كذلك ، لأن في قدرتكم أن تسموا بأنفسكم إلى العلا ، وتسمو بأرواحكم إلى الملأ الأعلى ، أي عبادي إنَّما أبقيت دين المجوس لتسمعوا به ، وليكون عنواناً لكم على أن شهوة المحرمات فيكم مثلهم ، وبالتعليم والعادة انقلبت الشهوة محبة شريفة عالية إيذاناً من الله أن في نفوسكم قدرة أن تسمو إلى أشرف مصاف الكمال ، فإذا فكر الناس في هذا أيقنوا أنهم يقدرون على تغيير أخلاقهم والتنزل عن خسائس عادتهم فتنقلب النفوس الشريرة إلى الخير بالقصد والعزيمة . إن نوع الإنسان مستعد للسعادة العالية على مقدار طاقته في هذه الحياة .

إن احترام الأم والأخت بعد أن ركزت الشهوة إليهن في الطبيعة مؤذن بأن النوع الإنساني اليوم طفل في الأخلاق، طفل في العلوم، غرّ جاهل، وكأن الله يقول: أيها الناس إذا كنتم في الشهوة البهيمية التي هي ألزم لكم من ظلمكم، وأقوى عليكم من كل أعدائكم، وهي ألدّ الأعداء وأعظم الداء، قد سلطتكم عليها فملكتموها، وأعطيتكم قيادها فسستموها، وأطفأتم نارها فاستخدمتموها، فقلنا: يا نار كوني برداً وسلاماً، فصارت ذماماً، ومحبة ووئاماً، وإعظاماً واحتراماً، أفليس هذا دليلاً أنكم على الاعتدال في المال أقدر، فتقدسون ما لغيركم من الحقوق، فلا غبن ولا ظلم ولا إسراف ولا تقتير، بل يصبح المال في أيديكم كالماء، وتصبح النار المشتعلة فيكم للمال برداً وسلاماً، وإذا كانت أملك الشهوات لكم ذللتموها فأنتم على غيرها أقدر تذليلاً، وأصدق قيلاً، ولكنكم لا تزالون أطفالاً، وفي الحكمة جهالاً، وعلى موائد العلم طفيليين، فإذا شاعت الفضائل بينكم، ولقنتموها تلقين المحارم مع اللبن في الرضاع، انقلبت الشهوة المالية حرمات إنسانية، وأصبحتم بقدر الإمكان أيها العباد إخواناً، فلتكونن فيكم بعض هذه الأخلاق.

ثانياً: تحريم القريبات وتزوج الأجنبيات لازدياد المحبات الإنسانية ولعدم فساد الأسرات وارتقاء نفوس الشبان والشابات.

إن الرجل إذا أحب محارمه على سبيل الرحمة تارة والإعظام والإجلال أخرى، فمما يدنس هذه المحبة أن تعتريها الشهوة، فالشاب يحمي أخته ويقدسها ويحترم أمه، فلو أنه تزوج أخته أو خالته لأصبحتا عنده محل شهوته، وقصر نظره في المحبة على الشهوات، وتكون مكانتها على مقدار التمتع بها، ولا جرم أن ذلك يقلل من قيمة المحبة الرحمية، ولا يراعي إلاّ المحبة الشهوية، والنفس تتعود ذلك ولا تعرف سواه، فيكون ذلك وبالاً على الأرحام، وتزول تلك العاطفة الشريفة، ثم هو بزواجه أخرى من الناس قد ضم أسرة إليه، فأصبح له أسرة بالنسب وأخرى بالمصاهرة، وهذه سعة في المحبة والمروءة، ولو أبيحت هؤلاء المحرمات لأصبح النسب والمصاهرة في جهة واحدة، فضاقت سبل المحبات، وانحصرت في بعض النسمات. وأيضاً تكون الأسرات دائماً في شقاق لما يحصل من الإخوة والآباء وأبناء الإخوة والأخوات من التنافس والتشاجر والتقاطع، بسبب اقتتالهم على إحدى نساء العائلة، كبنت الرجل يتشاجر عليها أخواها أو أبوها وأحد أخويها، وهكذا، وهذا فيه من الفساد أقصاه، ومن قطع الرحم منتهاه، فانظر كم في تحريم الأرحام من البدائع العلمية والعجائب الحكمية.

ثالثاً: اعلم أن نيران الشهوات كالنيران التي نوقدها وكالكهرباء التي نستثيرها، وكالأنوار العلمية التي نعقلها.

فكل نار وكل كهرباء لها عملان: تفريق وجمع، وإبعاد وتقريب. فانظر ألست ترى النار تحرق الخشب فيطير منه أجزاء في الهواء، وتبقى أخرى في التراب، ففي الأول تفريق، وفي الثاني اجتماع. ألست ترى أن السحابتين إذا كانت كهربائيتهما متجانسة بأن كانتا إيجابيتين أو سلبيتين فإنهما تتنافران وإذا اختلفتا إيجاباً وسلباً فهما تتجاذبان. فهكذا النيران التي فينا معاشر الناس، فإذا رأينا النار التي تحيط بنا، والتي هي من داخل الأرض التي نعيش فوقها، تجمع الطين واللبن وتفرق أجزاء الخشب والكهرباء سالبة وموجبة، فهكذا نحس في أنفسنا بنار تشتعل اشتعالاً معنوياً، إما لطلب الغذاء أو التزاوج، وإما

لرحمة الضعفاء كالأبناء، وإما لدفع الأعداء كالغضب والغيرة والحسد، وجميع العداوات التي تعتري نوع الإنسان، فانظر كيف كانت أرضنا ناراً يحيط بها قشرة أصلها نار فجمدت، وكنا نحن من تلك القشرة، فكمنت النار في باطننا رحمة من الله لنا، حتى تسوقنا الشهوة لطلب الغذاء والكساء والتزاوج وتدفعنا القوة الغضبية لدفع الأعداء وإبعاد الإيذاء، ثم كانت فينا نار ألطف وأجمل من هاتين كالقوة العلمية تدفع الجهالات وتجذب إلينا أجمل المعلومات، فهاهي ذه فرقت وجمعت. فليت شعري أيّ فرق بين النارين، وأيّ ابتعاد بين الأمرين؟ فالشهوة البهيمية فينا لجلب الغذاء والكساء، والقوة الغضبية لدفع الأعداء، والعلم يدفع عار الجهل، ويجذب أجمل صور العلم. فلئن جففت النار الطين، وأذابت الشمع، وجذبت الكهرباء تارة ودفعت أخرى، فلقد منعت الأعداء النفس الغضبية، وأزالت الجهالة القوة العقلية، كما جذبت إلينا العلم، وجذبت الشهوة ملاذّ الطعام والشراب.

فانظر كيف تقلب الإنسان في أنواع من النفوس المحرقة، نعم محرقة، ولكن الناس لا يكادون يفقهون إلاَّ ممن تعلموا، فأولئك يعقلون ويفهمون، فالوالدة على فلذة كبدها في احتراق، والوامقة لعاشقها في احتراق، والذي غاظه الأعداء في احتراق. ونتيجة المقال في هذا المقام أن نار الشهوات للأجنبيات، ونار الرحمات للقريبات، ونار العداوات تتأجج على من جرح ما لهن من الحرمات، ونار أشواق العلوم لما بينا في هذه المقالة من الآيات البينات، والعجائب الحكميات، وهاك صوراً ثلاثاً للإنسان:

(١) نار الشهوة، ونار الرحمة، ونار الغضب، هن أصول التفاعل النفسي، وبالتفاعل بينها يكون نور العقل على مقدار التمازج والاتحاد، وما مثل هذه النيران الثلاثة إلاَّ كمثل العناصر الداخلة في المركبات الجسمانية، فهي نار لها نور وهو القوة العاقلة.

(٢) تصور فتاة ترضع ولدها اليتيم، وعاشقها الذي يخطبها جالس أمامها، وأعداؤها يحيطون بها، فهي بين ثلاثة نيران: نار الرحمة للولد، والشهوة والغرام للعاشق، والعداوة لأعدائها. فهذه العواطف هي عبارة عن هذه المرأة.

(٣) شاب جلس مع أخته وحبيبته وعدوه؛ فهو مع الأخت ملك، ومع الأجنبية بهيم، ومع العدو أسد. فانظر عجائب الإنسان كيف اجتمعت فيه اللطائف المتفرقة.

اللطيفة الثالثة

إن تحريم زواج الأمة على من قدر على مهر الحرة تحذير للمسلمين من السقوط في مهواة الذل والصغار، ولزوم العار والشنار، بأن يلدوا الأبناء الأرقاء تبعاً لأمهاتهم المملوكات، فإذا كانوا يمنعون من عبودية أبنائهم المسلمين مثلهم، فما بالك بهم؟ وقد ملك الفرنجة أرضهم، وأخذوا ديارهم وهم خامدون، وأحاطوا بهم من كل جانب وهم ساهون لاهون.

حكاية

حضر إلى الديار المصرية صديق من ناحية إدلب من أعمال حلب الشهباء، فدار الحديث بيننا على احتلال الفرنسيين لبلادهم، فأخبرني بما تقشعر له الأبدان من قتل النفوس، وسلب الأموال، والظلم البين، وقد كان الرجل سيداً في قومه من الأشراف، وكبار العلماء، وله سيادة في قومه، فحدثني قائلاً: طلبني الضابط الأكبر في الجيش الفرنسي قائلاً: لماذا تكرهون الفرنسيين؟ وهم إنما جاؤوا

لتمدينكم، وإسباغ النعمة عليكم. قال فأجبته قائلاً: إن الأمة إذا قام غيرها بما يصلحها، ونام أهلها، سلبها الله مواهبها، وسلمها إلى سادتها، لأن العضو الذي لا عمل له لا يبقى له قوة، وأيضاً تصبح كالحيوانات المنزلية لما قمنا بسقيها وتغذيتها فقدت الغرائز التي تحلت بها نظائرها في البراري والقفار، من الغزلان وبقر الوحش السعيد في مراعيها الحسنة المناظر، فقال له: هل هذا في كتبكم؟ فأجابه قائلاً: هذا كلام قرأته في كتاب يسمى نهضة الأمة وحياتها، تأليف فلان وهو مصري. قال: فسكت ولم يرد جواباً، فإذا كان القرآن يمنع أن نلد من أمة لمسلم مثلنا، فكيف يتحمل المسلمون العبودية والرق في الأقطار الشرقية، ويضع الفرنجة الأغلال في أعناقهم وهم صاغرون؟ ألا فليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن الله قد قرب يوم عتقهم من ذل الفرنجة، وقد جاء أوانه وظهر إبانه، ومن عجيب الاتفاق أن تستقل ثلاث دول وهي: الأفغان، والترك، والفرس، وهاهي ذه بلادنا المصرية خطت خطوات واسعات في سبيل الاستقلال، ولا بد من تمامه إن شاء الله، وستخطو الأمم الإسلامية خطوات وتحظى بالاستقلال والخلاص.

اللطيفة الرابعة: في الأحرار والعبيد

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ هاتان الجملتان ذكرتا في هذا المقام لتهدم ما بنته العادات، وأبرزته الديانات، وأظهرته القوانين المسطورات. لعمري لقد هدم الله الظواهر المذكورة في هذه السورة بهاتين الجملتين، ولفت الناس إلى الأعمال القلبية. يقول الله: لا عبرة بالصور والأشباح، ولا الغلبة في الحروب، ولا قوة الدول والممالك والأساطيل، إنّما هذه مظاهر يغترّ بها الغافلون، «اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي، بعضكم من بعض، لا فرق بين العربي والعجمي، اسمعوا وأطيعوا، ولو ولي عليكم عبد حبشي»، أنتم أيها الناس عبيدي ولا عبيد لكم، لا يغرنكم مظاهر الميراث والمال والعقار والديار، إن كل ذلك إلاّ مظاهر يفتخر بها الجهلاء، وإنّما النفوس والعقول والأخلاق والآداب، وكل ذلك عندنا في كتاب، فرب خامل ذكره عندنا رفيع، ورب عظيم القدر عندنا ما له شفيع، فإياكم أن تغتروا بما ترون من الأحكام الشرعية والحدود المرعية، فهذه إنّما جاءت لحفظ المجموع، وصيانة الجموع، فإذا اختص الحر بالميراث، وامتاز في أحوال الحياة، فإنّما ذلك من ظواهر الأمور، فإذا مات الحر والعبد استويا في الأحوال، وافترقا في الشرف والكمال. انتهى الفصل الثاني.

الفصل الثالث

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ ﴾ أي التبيين لكم، واللام زيدت للتأكيد، كما قال قيس بن سعد:

أردت لكيما يعلم الناس أنها ... سراويل قيس والوفود شهود

ثم عطف عليه قوله: ﴿ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ مناهج من تقدمهم من أهل الرشد لتتبعوا طريقهم، وتسلكوا سبيلهم ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ ﴾ ويصدكم عن المعاصي بتلك الهداية بأن يلهم قلوبكم النفور منها بسبب الهداية المذكورة ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بمصالح العباد ﴿ حَكِيمٞ ﴾ فيما يدبر من أمورهم.

ولما كان نوع الإنسان قد فطر على حب الذات والاستئثار بالمنافع، وكان ذلك حتماً ليجدّ في عمله ويتنافس في الفضائل والأعمال الشريفة، وجعل من فروع تلك الفطرة الحسد للناس على نعمهم،

والسعي في هدم ما بنوا من المجد، وما أوتوا من الفضل، بيّن الله ذلك إذ قال: إن هدايتكم يريدها الله، وهذه الهداية يحاول إبطالها الغاوون، ويسعى في إيقافها الفاسقون فيقول الزناة وأهل الدعارة والفسق: إذا امتاز هؤلاء بالإقلاع عن هذه المعاصي ازدرانا الناس وولوا وجوههم عنا، وتطلعت الوجوه إلى هؤلاء المتنسكين، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ ﴾ عن الفضائل إلى الرذائل التي انغمسوا فيها وارتطموا في أوحالها ﴿ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ بأن تأتوا المحرمات فتكونون مثلهم. فذكر التوبة في هذا المقام ليس للتكرار تأكيداً، وإنّما هو للمقايسة بين إرادة الله وإرادة الذين يتبعون الشهوات، ثم قال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ يا أمة محمد ما تنوؤون تحته من الأثقال في دنياكم ودينكم، فأباح نكاح الإماء بشروط خاصة تسهيلاً لكم، وسيأتي قريباً بيان معنى التخفيف بما هو أوسع من هذا بعد تمام تفسير هذا المقصد. ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات. ولما كانت علاقات الرجال بالنساء لا تنفك عن الأموال، توالت الآيات فيها، فترى آيات الميراث أولاً، والتحذير من أكل الأموال بالباطل هنا فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ بما لا يحل في الشرع كالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور وأخذ المال باليمين الكاذبة والرشوة والأكاذيب في المحاماة في المحاكم.

ولما كان الشيء يستوجب تذكار ضده، والنفس الإنسانية تحضر الضد عند ذكر الضد، بيّن الله أن التجارة ليس منهياً عنها، لأن النفس راضية بالتعاقد أن يأكل زيد مال عمرو بتلك المبادلة فقال: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً ﴾ صادرة ﴿ عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ أي لكن كون تجارة عن تراض منكم غير منهي عنه. واعلموا أيها الناس أن رشوة الحكام والربا والقمار وأكل أموال الناس بالباطل يورث خللاً في نظامكم. أيها الناس، أنا ما حللت حلالاً ولا حرمت حراماً إلاّ لتعيشوا في هذه الحياة آمنين. فهذه الأحكام الشرعية والحدود الدينية التي أبينها لكم ليست تراد إلاّ لحفظ نظام هيئتكم المدنية، فإذا قلت لكم فيما مضى: إن المدار على القلوب فهكذا هنا أقول إن توصيتي على الأموال تارة وعلى الأعراض أخرى، إنّما أردت بها حياتكم وبقاء دولكم، فأما إذا اغتال الأغنياء الفقراء، وظلم الأقوياء الضعفاء، وانتهك الحكام الحرمات، وظنوا أن الناس عبيدهم، فإن يد العمل في الأمة تقل، وكذلك الأعمال النافعة في البلاد، فيهجم عليكم الأمم حولكم فتدوسكم بأرجلها، وتطؤكم بمناسمها، ويدخلون عندكم الشركات ويقتسمون الأموال ويربحون، وأنتم نائمون، وهذا هو القتل الحقيقي للأنفس وضياع البلاد والعباد، وهذا معنى قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أيها المسلمون، وهذا بعينه هو الحاصل في زماننا. ألا ترى أن المسلمين منذ أربعمائة سنة أتى إليهم الإسبان، فحلوا بساحتهم وانتزعوا منهم أرض الجزيرة، ولعمرك لم يكن ذلك بالخيل والسلاح والكراع، وإنّما كان بتلك المعاهدة التي دبرها الفرنجة بأمر البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا، وأباحوا الخمر بمقتضى حرية التجارة، ودخل الكسل والبطالة على أهل البلاد، فكان الربا والترف والنعيم والكسل، فماتت الأمة وهذا هو القتل. هذا قتل الأنفس العام وهو أشد من قتل المرء نفسه المحرم أيضاً، هذه هي المناسبة لذكر القتل.

ولقد استمر المسلمون يقتلون أنفسهم هذا القتل الشنيع بعد ما سمعوا أن فرديناند وإيزابلا قد رموا بأمة العرب في البحر الأبيض المتوسط، وبعد أن قتلوا منهم آلافاً مؤلفة، وطردوهم وأغرقوهم.

ولعمرك لم يقتلهم الإسبانيون إلاّ بعد أن قتلوا هم أنفسهم بالجهل في الأموال والتجارات، فكانوا يتهافتون على صناعات أوروبا ويتركون صناعتهم، لأن صناعات أوروبا أشهى إلى قلوبهم. وليت شعري كيف يذكر الله قتل الأنفس بعد ذكر التجارة. أيها المسلمون، إن التجارة وإن كانت حلالاً هي التي أودت بالمسلمين، انظروا أليس تجار الإفرنج هم الذين خدّروا عقول الإسبانيين؟ أليس تجار أوروبا الآن قد استولوا على أهم موارد حياتنا؟ أليست الحرب الحاضرة قائمة على أساس الأموال والتجارة؟ إن المسلمين نائمون، إن التجارة الإفرنجية هي التي قتلت الشرقيين، ولذلك أراد غاندي أن يتلمس الخروج من الخطر بتحريم المنسوجات الإفرنجية، وقد نجح نجاحاً عظيماً، فهل يعلم المسلمون أن خراب دولهم إنّما جاء لجهلهم علوم التجارة، وأنهم قوم لا يعلمون منها إلاّ قليلاً. التجارة تسبق الحرب، فما ملك الإنجليز بلاد الهند إلاّ بالشركة الإنجليزية هناك، والعادات الفرنجية تغلغلت في قلوب المصريين والسوريين وجميع سكان شمال أفريقيا، هذا هو القتل المذكور في القرآن، وهذا هو السر في تعقيب التجارة بالتحذير من قتل النفس. ولما كان ذلك التحذير من فضل الله ورحمته قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ في تصويركم وخلقكم ورزقكم فكيف لا ترحمون أنفسكم بعد قتلها الاقتصادي بالإسراف وضياع أموالكم أو قتل أنفسكم انتحاراً.

اعلم أن من عادة القرآن أن يرشد بطريقين: طريق العقل والهداية، وطريق الإرهاب، وكانت أولى الطريقتين قد ذكرها أولاً بأن الأمم يعتريها الفساد، وتضيع الدول، وكان هذا المعنى لا يعقله إلاّ قليل ولا يفهم مغزاه إلاّ من خصه الله، وقد شرع في الطريق الثاني فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحق ﴿وَظُلْمًا﴾ للنفوس بتعريضها للهلاك في الدنيا والآخرة ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ندخله ناراً يصلى فيها ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾. ولما كان هذا القول ربّما أوقع في النفوس يأساً قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وهي كبائر الذنوب، وهي التي عظمت عقوبتها ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ نغفر لكم صغائركم ونمحها، ولعل الكبائر تختلف باختلاف المراتب، فقد يكون الذنب صغيراً للعامي، وكبيراً على الصديق، لقد عوتب النبي صلى الله عليه وسلم على خطرات النفس، وقد يكون الذنب كبيراً باعتبار وصغيراً باعتبار آخر. ومما اتفق عليه السبع الواردة في الحديث: «الإشراك والقتل وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والربا والفرار من الزحف والعقوق». وعن ابن عباس: الكبائر إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، وقول ابن عباس يشير إلى ما قلناه من اختلاف الذنب باختلاف المراتب، فالعلماء والحكماء والصدّيقون تكون كبائرهم كثيرة، بحيث لو ضيع أحدهم وقتاً بلا نشر للفضيلة عدّ آثماً.

واعلم أن الناس أشبه بفصائل الحيوان، ولكل فصيلة عمل يخصها؛ فتجد العامة أشبه بالببغاء يقول ولا يعقل وصلاتهم كلام لا توجه معه، والفضلاء إذا سهوا في جزء من الصلاة كان ذلك ذنباً عظيماً، واعتبروه إعراضاً عن خالقهم ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ الجنة ومن الآثام الذائعة: الحسد، وهو شائع بين العلماء والجهلاء، وهو يشتد كلما تقاربت المراكز والأحوال، فالأقارب والمشتركون في صناعة أو تجارة أو قرية أو حارة أو علم، وبالجملة من تقاربوا في أكثر الأحوال أو بعضها يتحاسدون بمقدار هذا الاشتراك، فلذلك قال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كالجاه والمال

والجمال، والتمكن في الأرض والصيت وأمثالها، تمنياً يفضي بكم إلى البحث في زوال النعم عن المنعم عليه، بإتلاف ماله والسعاية والوشاية والقتل وأمثال ذلك، فإن هذه الغريزة مخلوقة فيكم للحث على طلب الكمال لأنفسكم، لا هدم ما بناه غيركم من المجد؛ فالمسابقة للكمال فضيلة، أما السعي في هدم ما بناه الغير فإنه حرام، وكيف تسعى في زوال مجد يرجع إليك، فإن الناس بعضهم لبعض خادم، وزوال النعم عن الناس مفض إلى نقصها من المجموع، وكيف تفعلون ذلك و﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴾ فلكل مواهب فطرية أو حظوظ اتفاقية، والله هو الذي وهبهم، فارجعوا عن غيكم ﴿ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ أن يعطيكم، وهذه هي الغبطة؛ فالغبطة أن تتمنى مثل ما عند الغير وتسعى له بالعمل، لا بالتمني والكسل. وإياك أن تقول أيها الإنسان: لم كان هذا أميراً أو وزيراً أو عالماً أو غنياً وأنا محروم من ذلك؟ ولم كان فلان وارث وأنا محروم من الميراث؟ أو تقول المرأة: لم أخذ الرجل أكثر مني؟ فإياكم أيها الوارثون والحسد، وإياكم أيها الناس والتمادي في الاعتراض على ما أعطيت للناس من مواهب مالية ونعم علمية ومناصب أميرية، فإني عليم بالعباد بصير بالمخلوقات، وجعلت لكل امرئ خاصة يمتاز بها لإصلاح المجموع، ورتبتكم مراتب إلاَّ أنكم أيها الناس كجسم، فمنكم من يمثل العين، ومنكم من يمثل الدماغ، ومنكم من يمثل اليد، ومنكم من يمثل المعدة، ولا يعيش المجموع إلاَّ بتوزيع الوظائف الإنسانية عليكم، فمن ذا يعرف هذا الجمال ويعترض عليه؟ ومن ذا يقرأ هذا الحسن ولا يقرّ به؟ إني نظمتكم على نظام أنا أعلم به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فعلى هذا العلم العام رتبنا ملكنا، وأنزلنا شرائعنا، وخصصنا لكل وارث مقداراً من المال يصيبه من مال مورثه، فلا يحسد بعضكم بعضاً على هذا التباين في الأنصباء، فإنكم تجهلون حسن نظامي، وإنّما يعرفه الحكماء فيكم لا غير، فتماديكم في الحسد عذاب عظيم عليكم، فإنا قد جعلنا لكل من الرجال والنساء الميتين وارثين من إخوتهم وبني عمهم وسائر عصباتهم، يرثون مما ترك والدوهم وأقرباؤهم، وبيّنا لكل نصيبه، فهذا معنى ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من الرجال والنساء ﴿ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ ﴾ ورثة من بني عم أو إخوة أو غيرهم يرثون ﴿ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ أي من ميراثهم.

ولما كان المتحالفون بينهم عهد وميثاق أن يفوا بما عاهدوا عليه، وكان الحلف في الجاهلية على النصرة عند الأمور العظيمة من الحقوق الواجبة على الإنسان، فهي تشبه الميراث من جهة الاستحقاق فالقريب والصهر يرثان الأموال والحليف الذي أخذ العهد والميثاق علينا يجب علينا نصره في أيام حياتنا ولورثتنا المال في الممات، فلذلك أعقب ما تقدم بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ ﴾ أو عاقدت ﴿ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ في الجاهلية أن تنصروهم ﴿ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أعطوهم حظهم من النصرة التي عاقدتموهم عليها، فالله مطلع على عقدكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ ومن ذا يقوى أن يخون فيما شهده الله.

ولما كان النساء بيننا وبينهن عقد وميثاق كالذي أعطيناه للحلفاء في الجاهلية، وكالذي فرضه الله في القرآن للوارثين، وقد فرض الله الوفاء فيهما علينا أخذ عزَّ وجلَّ يذكرنا بالسلطة المخولة لنا من جهة الفطرة عليهن، وذلك أننا أقوياء وهن ضعفاء، ونحن أقرب إلى العلم والأدب منهن والخبرة في الأمور، وهذه كلها أشبه بعقد كعقد الحلفاء؛ فللحليف علينا النصر، وللوارث نصيبه، وللزوجة قسطها من العمل تحت إشرافنا، فنحن قوامون عليهن بالسلطة والتأديب بفضلنا عليهن في العقل وحسن

التدبير وبما أنفقنا من المهر لهن. والنساء على قسمين: صالحات مطيعات لله قائمات بحقوق الأزواج، وعاصيات ناشزات لا يطعن أزواجهن، فالقسم الأول أمره معلوم، أما الفريق الثاني فابتدئوا بوعظه، فإن لم ينجع الوعظ فاهجروهن في المضاجع ولا تبيتوا معهن ليتبن، فإن لم يتبن فاضربوهن ضرباً غير مبرح، وإياكم ومخالفة هذا الترتيب، فالوعظ يتلوه الهجر، والهجر يتلوه الضرب، فمن أطاعت واعتدلت فانسوا ذنبها ولا تذكروه البتة، لأن الله فوقكم كما أنكم فوق النساء مقاماً وقدرة، فإذا تبن من الذنب فلا تعتدوا بما لكم من القدرة عليهن، فالله أقدر عليكم من قدرتكم عليهن، وإن خفتم خلافاً بينهما فابعثوا رجلين يصلحان للحكومة، أحدهما من أهله والآخر من أهلها، وهما أدرى بأحوالهما ليوفقا بينهما، فهذا قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ فهم كالولاة، والنساء كالرعية ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ بسبب تفضيله الرجال على النساء بما هو معلوم مما تقدم ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ﴾ كالمهر والنفقة، وهن قسمان: مطيعات وعاصيات ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ ﴾ مطيعات لله ﴿ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ ﴾ يحفظن في غيبة أزواجهن ما يجب أن يحفظ في النفس والمال ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ ﴾ أي بسبب حفظ الله لهن حيث حثهن ورغبهن بالوعد وأنذرهن وخوفهن بالتهديد، ووفقهن لحفظ أسرار الزوج وللعفة، ومراعاة ما يجب عليهن مراعاته في غيبته من أعراضهن وأموال الأزواج، فعنه عليه الصلاة والسلام: «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها، وتلا الآية». فأما القسم الثاني وهن العاصيات، فقال فيهن: ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ عصيانهن وترفعهن عن مطاوعة الأزواج ﴿ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ المراقد ﴿ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ ﴾ بالتوبيخ والإيذاء، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾، وهذه المعاني قد قدمناها هنا، وقوله: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا ﴾ أي خلافاً بين المرأة وزوجها، وإضافة الشقاق إلى البين على حد قولهم: نهاره صائم وليله قائم، والحكم الوسط الذي يصلح للحكومة والإصلاح، وكون الحكمين من أهله وأهلها أفضل، ولا يمنع أن يكون من الأجانب، وإرسال الحكمين من قبل الحكام أو من قبل الزوجين أو من قبل صالحي الأمة، وللحكمين أن يجريا الخلع بلا إذن من الزوجين إن رأيا الإصلاح فيه عند مالك، وعند غيره لا يليان جمعاً ولا تفريقاً إلا بإذن الزوجين.

واعلم أن لإرادة الحكمين دخلاً في تحقيق الصلح كما قال: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ إن يرد الحكمان إصلاحاً يوفق الله بين الزوجين أو بين الحكمين في إتمام الصلح. ويسن للحاكم أن يبعث عدلين ويجعلهما حكمين عند الشافعي. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه جاءه رجل وامرأة ومع كل واحد منهما فئام من الناس، فقال: فعلام شأن هذين؟ قالوا: وقع بينهما شقاق، قال علي: «فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها»، ثم قال للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما الخ.

فاعجب للمسلمين في مصر والشام وكثير من بلاد الإسلام كيف غفلوا عن بعث الحكمين، وكيف نام القضاة وعلماء الدين عن هذه الآية. اللهم إن المسلمين قد غفلوا عن كتابك، يا الله، إن القضاة في ديارنا نائمون، يتركون الزوجين أشهراً ويرهقونهما بالدعاوى والبينات والشهود، ويسلطون

المحامين الذين يستنزفون ثروتهم، يا الله، قد قام المحامي المؤجر مقام الحكمين، إن هذا مخالف للدين، وكيف ينبذ أمر الحكمين عندنا أهل السنة، وقد بلغني أن الشيعة يعملون بهذه الآية، فأما أهل السنة فقد تركوها وهي واضحة، اللهم إن بعض أمة الإسلام قد نبذوا العمل بهذه الآية، إتعاباً للناس واستنزافاً لثروتهم، وضياعاً للصبية الصغار والنساء الفقيرات المسكينات، والقضاة غافلون وأهل العلم غير مستيقظين، والناس قد تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبح كلّ على كلّ متكلاً فلترجع الأحكام الشرعية لسابق عهدها، ولينبذ ذلك النوم العميق والجهل المطبق، وليجدد العلماء مجد الدين، وليحفظوا بلادهم التي أضاعها الجهل، فأرسل الله الفرنجة عليها جزاء وفاقاً، كأن الناس كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآيات الله كذاباً. هذا، ويظهر من كلام سيدنا علي أن الحكمين يقومان مقام الزوجين في كل شيء. انتهى التفسير. وهاهنا لطيفتان:

اللطيفة الأولى: قوله: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ وقد ذكر قبلها أنه يريد أن يتوب علينا، وذكر بعدها أنه يريد أن يخفف عنا، وأن الإنسان ضعيف.

اللطيفة الثانية: قوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قد ذكرها بعد أمر مباح وهو التجارة، وذكر بعدها أنه رحيم بنا.

وهاتان اللطيفتان ترميان لغرض واحد سنشرحه شرحاً وافياً في هذا المقام، ولنبتدئ بما روي عن ابن عباس، ثم نتبعه بما فتح الله به. عن ابن عباس رضي الله عنهما: ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، منها ثلاث من قوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[الآيات: ٢٦-٢٨]، والخمس الباقية هي: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾[الآية: ٣١] و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾[الآية: ٤٨] و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[الآية: ٤٠] ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[الآية: ١٢٣]، ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ ﴾[الآية: ١٤٧] الآية، فتدبره.

اعلم أني لما قرأت كلام ابن عباس لمع من بين تلك الآيات أنوار مشرقة، فإن الآيات الثلاث هي التي ذكرتك بها، فإن إرادة الله البيان لنا أولاً والتوبة ثانياً، وأن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن نميل ميلاً عظيماً، ترينا أن الإسلام اليوم سيخلص من القيود التي قيد بها، فمن هم الذين يتبعون الشهوات؟.

أهل أوروبا في الغرب ورجال الإسلام في الشرق وكيف استذلوهم بالشهوات

اعلم أن الذين يتبعون الشهوات فريقان: فريق داخل بلاد الإسلام، وفريق خارج بلاد الإسلام فالفريق الذي هو داخل بلاد الإسلام هم: الزناة والمقامرون وشاربو الخمر، والمرتشون من رجال الحكومات الإسلامية، والذين يوالون الفرنجة فيجعلونهم سبباً لانتهاب البلاد الإسلامية، واستعباد أهلها وإذلالهم، فهذا الفريق هم الذين يتبعون الشهوات داخل بلاد الإسلام، أما الذين يتبعون الشهوات خارج بلاد الإسلام فهم أهل أوروبا، أفلست ترى أنهم قد ملكوا بلاد الإسلام بشهوة الغزو والفتح والاستعمار واستعباد الأمم واستذلالها، فهؤلاء بشهواتهم للاستعلاء واستنزاف الثروة، فأما أهل البلاد الإسلامية فشهواتهم ما يلبسون ويأكلون ويشربون ويتمتعون بالنساء الشرقيات والغربيات

ويتميزون عن أبناء الشرق بمصاحبة الفرنجة ويتكبرون عليهم، وأنا موقن بأن الله يهدي المسلمين جميعاً وينقذهم كما سأوضحه في هذا المقام.

أسرار النبوة في مسألة المسيخ الدجال والأحاديث الصحيحة الواردة فيه وظهور صدق النبوة وتبشيري للمسلمين بإقبال الزمان وانقشاع الظلم عنهم قريباً وهذا أوانه

روى الشيخان وأبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مع الدجال إذا خرج ماء وناراً، فأما الذي يرى الناس أنه نار فماء عذب، وأما الذي يرى الناس أنه ماء فنار تحرق، فمن أدرك ذلك منكم فليقع على الذي يرى أنه نار فإنه ماء عذب». وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري: «ومعه مثل الجنة والنار، فناره جنة وماؤه نار، ألا وبين يديه رجلان ينذران أهل القرى، فإذا خرجا من القرية دخل أول أصحاب الدجال» أخرجه رزين، فهذا الحديث الذي أخرجه رزين وإن لم يكن في البخاري ولا في مسلم، هو الذي أوضح لنا المقام وأفهمنا ما نحن فيه الآن، فإنه يقال: إن معه مثل الجنة والنار، وهذا هو المعقول، فإن الجنة والنار اللتين في الآخرة لا يكونان إلاَّ بعد الموت، وإذن هذا مثل الجنة والنار، ولا شك أن الذي هو مثل الجنة والنار ما نراه الآن، فإن الجنة الإفرنجية ما وضحناه لك في هذا المقام وفي غيره، فبالتجارة أخذ الإنجليز الهند، وكذلك الفرنسيون قبلهم، وهكذا بلاد جاوة والجزائر حولها استعمرها الهولنديون واتحد أهل إسبانيا وفرنسا على بلاد مراكش، فإن الإسبانيين بعد أن طردوا المسلمين من بلاد الأندلس عبروا البحر وراءهم ليطردوهم أيضاً من شمال أفريقيا ليموتوا في الصحراء الكبرى، ولو قدر الإنجليز على أهل بلادي لرموا بهم في غابات السودان، وجردوهم مما يملكون ودفنوهم في البحيرات عند خط الاستواء، ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إيضاح جنة الإفرنج ونارهم واحتلال البلاد

لقد عرفت جنة الإفرنج وهي التجارة، أما النار فهي المدافع والطيارات والنار التي يلقونها على المسلمين في الهند والعراق وشمال أفريقيا؛ فإيطاليا تعذب طرابلس، وإسبانيا وفرنسا ترسلان القنابل على أهل مراكش، هذه هي النار. واعلم أن الحديث الذي أخرجه رزين هو الذي كفانا مؤونة القول بالمجاز، أما وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فلا قول لنا ولو لم يأت لتكلفت المجاز في حديث الشيخين.

سر النبوة الذي ظهر

ألا تعجب معي أيها الذكي، ألا تنظر إلى نور النبوة، ألا تفكر فيما نقول؟ فقل لي رعاك الله: ألست ترى قوله في الحديث: «إن هناك رجلين بين يديه ينذران أهل القرى فإذا خرجا من القرية دخلها أول أصحاب المسيخ الدجال». فيا ليت شعري من هم أصحاب هذا الدجال، ومن هم أول أصحابه، وأين هم؟ أصحاب الدجال هم الفرنجة، ولكننا لا نراه وإنّما نرى أصحابه، فسواء جاء أو لم يجئ فالمقصود منه قد حصل، وهو إنذار أهل القرى تارة وإضلالهم بالشهوات ودخول أصحابه البلاد، وقد

ثم كل هذا فضحكوا علينا بنسائهم وشهواتهم وأخذونا بالتخويف، كل هذا قد تم، وربما كان الدجال حقيقة كلية تطلق على النصابين والكذابين واللصوص، فكل هؤلاء دجالون صغار، ولكن أكبر الدجالين هم الذين يسرقون الدول ويقلبون الأمم، فهم يذكرون في مقابلة الأنبياء، ولذلك يذكر المسيح مع الدجال، فالمسيح ابن مريم للهداية، ونظيره الدجال للإضلال، أمرنا بالاستعاذة منه، فقلنا في صلاتنا: «وأعوذ بك من فتنة المسيخ الدجال»، وهانحن أولاء وقعنا في فتنة أصحابه الذين ابتدؤوا ببلاد الأندلس، وما قتل أهل الأندلس إلاّ أنفسهم بانغماسهم في تجاراتهم وإضلالهم وأحوالهم، واتبعناهم نحن في بلاد الشرق، ولقد رأيت في الحديث أننا أمرنا أن ندخل في ناره ونتجنب جنته، ولقد صدق النبي صلى الله عليه وسلم، فكل من اغتر بأهل أوروبا وجنتهم أصبحوا عبيداً لهم كما أوضحته وكما قاله هنري الفرنسي فيما نقلته عنه في سورة البقرة في تفسير آية الخمر، وأن من اتبعهم فقد ذل ذلاً عظيماً، يريد بذلك أهل الجزائر. وأول من قبل ذلك من المسلمين أهل الأندلس كما ذكرناه في هذا التفسير مراراً، فإنهم لما شربوا خمرهم، ولبسوا منسوجاتهم، ودخلوا مدارسهم، وقرؤوا سير آبائهم، وصاروا تلاميذ لأساتذتهم، وتعاملوا بالربا من مصارفهم، وأصبحوا مترفين منعمين، وانغمسوا في ملاذهم، وأكلوا في مطاعمهم، واستقذروا بيوت آبائهم، كان ذلك مبدأ ضعفهم، فأذلوهم أجمعين وقتلوهم أكتعين أبصعين، ورموا من بقي منهم خارج البلاد، وساموهم سوء العذاب بما كانوا يجهلون. ذلك منذ أربعمائة سنة. ثم توالى فتح الفرنجة للبلاد حتى ملكوا بلاد مصر والشام والعراق والهند وتخطوا إلى الصين ولم ينالوا كل مقصدهم هناك. كل ذلك أيها الذكي سر قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾.

إيضاح شهوات الاستعماريين في أوروبا
وشهوات الأمم الشرقية عموماً والإسلام خصوصاً

اعلم أن هذه الشهوات المذكورة في هذه الآية قد وضحت في هذه الآيات إذ أعقبها بذكر التجارة وإباحتها وبالنهي عن قتل النفس.

فيا عجبا كل العجب، هاأنا ذا أقرأ القرآن وأنا أكتب هذا التفسير هذه الليلة الثامنة من شهر رجب قبيل الفجر سنة ١٣٤٢ هجرية، لا أذكر أن آية ذكر فيها أمر حلال وأعقب بالنهي عن قتل النفس، إن التجارة حلال، وأخذ المال بالباطل حرام، تحرم السرقة والربا والرشوة. هذا حق، ولكن التجارة حلال لأنها عن تراض، ومتى رضي المتبايعان صار المبيع حلالاً للمشتري وصار الثمن حلالاً للبائع. وليت شعري أي قتل للنفس هنا حتى نهانا الله عنه؟ إن في المسألة سراً قد كشفه الزمان الغابر والدهر الحاضر والحرب العظمى بين دول الشرق والغرب، إن التجارة هي السر وهي الحياة وهي القتل، والتجارة كانت سبب حروب أوروبا الطاحنة في هذا القرن، إن التجارة هي كل شيء. يقول الله: أيها الناس، إن الأموال إذا أخذتموها بالتراضي فإنها حلال، ولكن ما الذي يقتل الناس أكثر من الحلال، إن الحلال فيه السم، إن السم في الدسم، وما التجارة إلاّ كالكذاب ويقول فيه الشاعر:

من كان يخلق ما يقو ... ل فحيلتي فيه قليلة

وأن التجارة كالصديق، قال الشاعر:

احـذر عدوك مـرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربّما انقلب الصديـق فكان أعرف بالمضرة

أيها الذكي لا تعجب من قولي : إن التجارة هي التي سلطها أهل الغرب على أهل الشرق فأفسدوا أخلاق أهل البلاد ، إن التجارة هي الداء العضال ، هي شبكة الصائدين وحيلة المحتالين ونصب الدجالين ونظام المستعمرين .

التجارة هي مثل جنة المسيخ الدجال الذي حلَّ أشباهه وأصحابه بالشرق من أوروبا

اعلم أن القرآن تظهر معانيه في هذا الزمان ، وقد أراد الله أن يظهر السر المكنون والعلم المخزون والحكمة الإسلامية في هذا الزمان ، لماذا؟ لأنها قد كشفت واتضحت بالحوادث .

انظر في بلادنا المصرية وفي بلاد مراكش وتونس وبلاد طرابلس والعراق وأكثر بلاد الإسلام ، انظر ألست ترى أن المسلمين لا سيما المتعلمين والأغنياء لا يهنأ لهم طعام ولا شراب ولا جلوس ولا نوم ولا راحة ولا ملبس ولا تمتع إلاَّ في مطاعم الفرنجة ، وبخمورهم وفي قهواتهم وفي نزلهم وهي اللوكندات ، ومن منسوجاتهم وبنسائهم على طريق الزنا . ولو رأيت ما أراه اليوم لهالك الأمر واستهوتك أحزان ، يجيء اليوناني خالي الوفاض بادي الإنفاض فقيراً لا يملك شروى نقير صعلوكاً ، فلا يمضي عليه عشر سنوات حتى يملك الديار والعقار والقصور والجنات ، بماذا كل هذا؟ بكاسات من الخمر المغشوش المملوء سماً زعافاً ليسقيه لأهل بلادي ، فيقتلهم ويأخذ مالهم ، والله لقد كتبت في الجرائد ونشرت ، وكذلك كثير من أهل العلم ، وعسى الله أن يأتي بالفتح ورفع هذه الظلمات .

بشارة المسلمين بقرب انقشاع الظلمات عن بلاد الشرق والإسلام

يقول الله : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾ ويذكر قبلها أنه يريد أن يبين لنا ، ويقول بعدها : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ ﴾ ويذكر أن الناس خلقوا ضعافاً . فإذا كان الله أراد البيان وأراد أن يتوب علينا ، فهاتان الإرادتان تمحقان إرادة الذين يتبعون الشهوات فيذلون المسلمين . وأول من تفطن لذلك رجال الأفغان والترك والعجم وبلادنا المصرية التي جردوها من السلاح ، فقد أخذت تناضل بالأقلام والعقول ، وقد نلنا بعض الحقوق وأخذنا ندخل في نارهم عسى أن نستقل ، وقد قبلنا مدافعهم في وجوهنا ، ورصاص بنادقهم ، فقتلوا النساء والأطفال ، وصبر المصريون صبر الكرام ، والوقت قد حان لخروجنا من معرّتهم ، وهاهي ذه بلاد الترك قد حرمت الخمر ، وهكذا في بلادنا تجدّ الحكومة في منع المسكرات ، والمستقبل لله .

إيضاح آية التجارة والقتل

كأن الله يقول : أيها الناس إن التجارة حلال لكم ، ولقد تركت لكم الخيار فيها ، ولقد خلقتكم برحمتي ، وقوّيت أبدانكم ورزقتكم ، وجعلت لكم الحرية فيما تبيعون وتشترون ، أفلا تتفكرون أيها المسلمون فتعلمون أني أنا الذي رحمتكم ، فكيف لا ترحمون أنفسكم بالتفكر في أمر التجارة ، فلا تنغمسون في نعيم الأمم الظالمة التي تخدّر أعصابكم بالشهوات واستنزاف الأموال ، فارحموا أنفسكم بالتفكير في ذلك كما رحمتكم برحمتي الواسعة .

جمال هذا المقام

لقد أبنت لك أن الأفغان والترك والفرس قد تنبهوا وفكروا وخرجوا من ظلم الفرنجة ، وكذلك مصر اقترب الوعد الحق لخروجها . هذه هداية ونور أزال الظلمات وسيزيلها بالتدريج ، وقد جاء في الحديث أن الدجال أنذر به الأنبياء أممهم كنوح وإبراهيم وغيرهم ، قال : «ما بعث الله من نبي إلاّ أنذر أمته ، أنذر نوح عليه السلام أمته والنبيون بعده ، وإنه يخرج عليكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم» الخ . أقول : ولعل الأنبياء كانوا يحذرون أممهم به لئلا يستأصلهم من يغشونهم من الأمم ، الأمة المحمدية ألهمها الله الاستيقاظ الآن ، وستبقى إلى آخر الزمان ، ولن تبيد هذه الأمة إلاّ إذا عاشت غافلة عن أخلاق الأمم التي حولها ، كما كانت في القرن التاسع عشر ، فأما الآن فقد ظهرت عليها دلائل التعقل والهدى . فيكون ملخص ما تقدم : أن النبوة لما اشرق نورها على الأنبياء ضربوا الأمثال لأممهم كما اتفق أن نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء قد رأى في عالم المثال أنواعاً من الصور ، كصور الزناة والمغتابين ، والذين يقولون زوراً وآكلي الربا ، وجبريل يفسر له تلك الصور ، وهي أمور عجيبة سنشرحها في سورة الإسراء . فهكذا هنا أنذر المسلمين وحذرهم ممن يسمى المسيخ الدجال وعدّد له صفات ، ولكن نحن لك نره ورأينا أهم آثاره ، ولعمرك ما الذي يهم المسلمين من أمتنا إلاّ الآثار التي تمس مصالحهم ، فأما جسمه وأحواله فنحن لسنا نتكلم مع العامة الجهلاء الذين يجمدون على الألفاظ ، وإنّما نحن ألهمنا أن نكلم الناس بحقائق ديننا والحقائق هنا وضحت ، فالمسيح ابن مريم والمسيخ الدجال لسنا نريد إلاّ آثارهما ، وهكذا المهدي ، فإذا وجدنا الآثار انتفعنا بها . وأنا أقول بأعلى صوتي : أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، كيف نقرأ في صلاتنا صباحاً ومساءً داعين مبتهلين إلى الله أن يدفع عنا المسيخ الدجال وكان نبينا والصحابة والتابعون كذلك ، هل كان كل هذا الدعاء عبثاً وباطلاً يقصد به رجل واحد لا يحققه الله إلاّ بعد آلاف السنين ، وإذن يكون الدعاء ملغى لا عمل له ، والحقيقة أن المعنى المقصود حاصل لا شك فيه ظاهر في قوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ عند ذكر المتعامل بالتجارة . وقد أوضحت هذا المقام لكم أيها المسلمون إيضاحاً كافياً ، فكل من بذل منكم يا أحبابي قراء هذا الكتاب جهده ونشر العلم وأزاح الظلمات وسعى سعياً حثيثاً في نبذ المصنوعات الإفرنجية والترف والنعيم ، وحث الأمة على الصناعات وفتح المدارس ومحال الصناعات ، فهو من الذين يسعون في الهداية ، أو هو من مقدمات المهدي ، أو فيه نور المسيح المحمدي ، أعني أن المسيح الموعود به والمهدي الموعود به لا يجوز لنا أن نتكاسل لانتظاره ، وإلاّ كان هذا بلاهة وجهالة ، ليس يقصد من المسيح أن ننام حتى يأتي ، بل نمهد لزمانه ، ولو كانت أشخاص الأنبياء هي المقصودة لكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد بطل دينه بموته ، مع أن نشره للدين نشراً حقيقياً لم يتجاوز عشر سنين ، وما هي السنين العشر؟ إنها قليل بالنسبة للزمن الكثير بعده ، ولكن شريعته هي السارية الآن ، أما شخصه فغيب عنا .

إذا ثبت هذا فليس يقصد من مجيء المسيح إلاّ الآثار النافعة في وجوده وبعده . إن تعاليم المسيح الصفاء والطهارة والإخلاص والتعاون والتوحيد والمحبة وحسن الخلق وتحمل الأذى ، ويقرب من هذا المهدي ، فلنتجمل بهذه الصفات الآن تدريجاً ولا نتربص حتى يجيء فلا يكون لنا فضل .

فأنت أيها الذكي قد عرفت الفكرة الأوروبية المنتشرة بيننا ، وقد أثبت لك أن أعمال أوروبا هي أعمال المسيخ الدجال ، وقد ابتدأت الهداية في الإسلام والشرق ، فكل من حذر من أوروبا وقلل من مصنوعاتهم كما في الهند ، وطردهم كما في تركيا ، واستخدم صناعهم وعلماءهم ليعلموا أبناء البلاد مثل المرحوم محمد علي باشا ، فهؤلاء قوم هداة كأنهم أصحاب المهدي أو أصحاب عيسى عليه السلام . ولقد ظهرت الفكرة العيسوية اليوم في العالم ، فترى العمال في أكثر الممالك قد نبغوا وظهروا وطلبوا المواساة ، وهي كلها أفكار المسيح الأصلي الذي هو شرقي لا غربي . فليتم التعليم في بلاد الإسلام ، وليحترسوا من التجارات الإفرنجية وسائر أعمالهم ولا يأخذوا منها إلا ما يكون عندهم ، ولينشئوا عندهم مصانع ومحال صناعات كما فعل غاندي في الهند .

فإياكم أيها المسلمون والاتكال على المهدي المنتظر ولا المسيح ، بل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، فالهداية قد ابتدأت والمسيح يأتي في وقت لا نعرفه ، وكل من رقى المسلمين أو نفعهم فهو من أعوان المهدي والمسيح الإسلامي المذكور في الأحاديث ، كما أن رجال السوء في بلاد المغرب في شمال أفريقيا وفي البلاد الإسلامية الأخرى ومن يحتالون على المسلمين ويضحكون عليهم من الفرنجة ، من أصحاب المسيخ الدجال كما قدمناه ، فكن من أصحاب المسيح الإسلامي أو المهدي ؛ كما أن الأمم المستعمرة أصحاب المسيخ الدجال ، فلنقابل الأصحاب بالأصحاب ، ولا ننتظر الدجال والمسيح فإن أعمالهما ظاهرة ، فكل أمة لم تغتر بالفرنجة فقد حلت فيها الروح الشريفة المسيحية الإسلامية ، وكل أمة انغمست في نعيم تجاراتهم واستنزفت ثروتها فقد آمنت بأصحاب المسيخ الدجال تذكر ما جاء في أول السورة من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [الآية : ٥] ، وكيف حذرنا من وضعها في أيدي صغارنا لئلا يضيعوا ما به قيامنا . ثم لينظر الذكي كيف ذكر ذلك أول السورة ، ونبه هنا على مسألة التجارة ، وأن القتل للأمم منها ، فتعجب . انتهى الكلام على المقصد الرابع .

المقصد الخامس

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ
تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ
تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ
عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ
وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن
قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ
ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ
فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا
يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ
أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ
نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ
مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا
﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ
ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ
وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن
يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ

بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

اعلم أن هذا القسم ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الفضائل العامة بمعاملة الخلق ، والقربى من الله ، من قوله : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [الآية : ٣٦] إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [الآية : ٤٣] .

الفصل الثاني : في الفريق المقابل لهؤلاء وهم البخلاء والحسّاد والعابدون للطاغوت ، من قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الآية : ٤٤] إلى قوله : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [الآية : ٥٧] .

الفصل الثالث : في عدل الحاكمين وتأدية الأمانات للمحكومين وإعطائهم حقوقهم ، وأمر المحكومين أن يطيعوا حكامهم ، لينتظم أمر الرعية ، من قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ ﴾ [الآية : ٥٨] إلى قوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [الآية : ٧٠] .

الفصل الأول

اعلم أن ما تقدم من أول السورة إنّما كان في قسم التركات ، ومعاملة النساء وزواجهن والمحرمات ، وفي الزناة والزانيات ، ونشوز النساء ، وفي الصلح ، وهذه مسائل أساسها في الأسرات وأصلها في المنازل ، ولا جرم أن ذلك يحصر الفكر في الأمور الجزئية والأحوال المنزلية والأعمال الفردية العائلية . ولما كانت النفس الإنسانية مدنية بالطبع ، لها صلة بالمجموع كصلتها بأهل منزلها ، أردفه بذكر العبادات والإحسان العام للقريب والبعيد ، فبدأ بالوالدين والأقربين ، ثم يتمادى إلى أكثر الناس احتياجاً كاليتامى ثم المساكين ، وكل جار قريباً كان أو بعيداً ، وكل رفيق لك في تجارة أو صناعة أو علم ، وكل مسافر أو ضعيف ، وكل مملوك من العبيد والإماء ، فإن الله عزَّ وجلَّ يكره من يتكبر على جيرانه ، أو يأنف من أهله وأقاربه ، ويتفاخر عليهم . وهؤلاء المفتخرون المتكبرون يبخلون على الناس بما آتاهم الله من فضله ، فإن كان علماً كتموه ، وإن كان مالاً كنزوه ، ومن سوء طباعهم وقبائح فعلهم أن ينهوا الناس عن الفضائل ليساووهم في الرذائل ، لما في النفوس من الغرائز ألا يحب الإنسان إلاَّ من على شاكلته ، ولا يأنس إلاَّ بمن يلائمه ، ويخاف أن يفوقه الناس بمزية أو يعلوا عليه في قضية ، ذلك فعل

اليهود مع النبي ، كتموا نعته في التوراة وكنزوا الأموال ولم ينفقوها ، وخوفوا المنفقين من الفقر ، فلذلك أعدّ الله لهم عذاباً مهيناً ، ومن سوء طباع هؤلاء المتكبرين أرباب الفخر أن طائفة منهم لقلة إيمانها بالله وعدم الثقة بالدين ، لا تنفق المال إلاَّ رياء ، ولا تعطي الفقراء إلاَّ استحياء ، لا يريدون إلاَّ الصيت ، ومدح المادحين ، ولا يريدون وجه رب العالمين ، فلا وربك ، إنهم ليسوا بمؤمنين ، وهم من تقدمهم في الذم شركاء ، فالبخيل مذموم عند الله ، والمرائي بعمله شريكه في الذم ، فالأول لإفراطه في الشح ، والثاني لتفريطه في النية ، كلاهما عن الحق مصروف وبالباطل معروف ، والطريق المستقيم والحق الصراح تمام الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق من الرزق المملوك ، فماذا عليهم لو استقاموا في الأمرين واتسموا بالفضلين : صدق القلوب وعمل الجوارح ، إنهما في الفضل فرسا رهان صنوان لا يفترقان .

أوَلا يعلمون أن الله يعلم ما في القلوب ، وهو عدل في حكمه ، حكيم في فعله ، لا يظلم مثقال ذرة وهي النملة الصغيرة ، أو أقل منها كذرات الهباء الطائرات في الهواء الداخلات في الكوى من ضوء الشمس داخل البنيان ، وإن كان مثقال الذرة حسنة يضاعفها ، ويعط من عنده عطاء جزيلاً ، فإذا كان الله أوعد المسيئين باللعنات فقد فتح باب الرحمة والرجاء ، وأوسع المصراعين لخلقه العاصين والطائعين ، وهو أرحم الراحمين ، فهو يزيد في الحسنات كما يغفر السيئات . ومن كان هذا شأنه يجب أن يخشى بأسه ويتحاشى حسابه ، لأن الكريم إذا كثر عطاؤه زعم نداؤه وغفر للمسيء وأعطى الشريف والدنيء خجل منه المسيئون عند لقائه ، فليس كل عذاب جسمياً ولا كل نعيم شهوياً .

يقول الله : أفلا يخشون يوماً يحشر الناس فيه إليّ ، وقد دعونا من كل أمة شهيداً يشهد أن أتباعه نبذوا الحقائق وتركوا صدق الشرائع ، وجاءت أمتك يا محمد مع الحاضرين وشهدت عليهم أجمعين ، حينئذ يتمنى عصاة أمتك والكافرون بك أن يدفنوا في الأرض ، ويقولون : ليتنا لم نخلق ، ويا ليت أمهاتنا لم تلدنا ، لما يرون من مقام رهيب ومشهد عجيب ، وعظمة وكمال وجمال وجلال ، والملائكة حول العرش حافون ، وقد تجلى الله بجماله ، وظهر لهم بكماله ، فيخجلون خجلاً تذوب له القلوب ، وتكون النار أقل منه عذاباً ، ذلك كله معروف في الفطر الإنسانية ، تدركه النفوس الفطنة والعقول الذكية . ذلك هو الخزي الذي تقدم في سورة آل عمران إذ قال تعالى هناك : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[الآية: ١٩٤] ، وفي آية أخرى : ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٦] .

وقد قال حكماء الإسلام كما في الرازي : إن عذاب النفوس أشد من عذاب الأجسام ، ولقد ظهر في هذا المقام ، والفطر الإنسانية تدركه ، ومن كلامهم : النار ولا العار . ولقد شرحته هناك شرحاً وافياً كافياً .

والذي تحقق في هذا المقام وأمثاله أن الخجل والفضيحة لا تختص بالذنوب الجسمية ، بل تشمل الصور العقلية ، فالكفر هنا من أعظم الجهالات ، والبخل من أشأم الذنوب ، ومتى ضممنا إليه ما في سورة آل عمران من التفكر في الخلق والتأمل في عجائب الليل والنهار إلى آخر ما هناك ، وأن جهل ذلك مستوجب العار ، ظهر لنا ظهوراً واضحاً أن الخجل والفضيحة حاصلان لجميع النفوس الناقصة والقلوب الساهية اللاهية ، فالعامة يخجلون لذنوبهم والخاصة يخجلون لنقص نفوسهم وعدم تحليتها بالعلم والعرفان .

يا قوم، ليس يلقى الله إلاَّ نفس مضيئة قد خلت من الذنوب وتحلت بالعلوم الكونية، وما الأنبياء إلاَّ مبلغون، وعلى الناس البحث والتفكير، فليعرفوا ما حولهم لئلا يخجلوا في ذلك المقام الشريف والمشهد المنيف، فليعط الله الناس من النعيم الجسمي ما يشاؤون، وليغفر لهم، كما جاء في هذه الآية وفي الأحاديث، وليخرج كثيراً منهم من النار مع إعطائهم نعماً لا تحصى، كل ذلك يزيد في خجل النفوس الشريفة إذ يرون أنهم ليسوا أهلاً لمقعد الصدق والمقام الأقدس عند مليك مقتدر، فإن ذلك لا يكون إلاَّ لكل حكيم عليم. ذلك المقام الذي يظهر فيه الجمال والجلال والحسن والبهاء والأنوار ومجالي السعادة، يخرس الألسنة أن تنطق، ولا يجد المذنب مفراً من الإقرار بذنوبه والاعتراف بعيوبه ولا يكتم المذنبون الله حديثاً.

ولما كان هذا المقام شريفاً عزيزاً ولا ينال إلاَّ بأن يخلص القلب فيصير كالشمس المضيئة ليس دونها سحاب الذنوب ولا غشاوات العيوب، أردف ما تقدم بما يقرب الإنسان من الحضرة العلية، ويخلصه من ذنوبه ويرجعه عن عيوبه، وذلك بإقامة الصلاة، لأنها أولاً: تنهى عن الفحشاء التي تغطي القلوب بسحائب الذنوب، وثانياً: يتجلى على القلب حكم وأنوار وبهاء لا سيما إذا كان ذلك في وقت السحر، وقد خلا من الشواغل. فإذن لا ينبغي أن يكون المصلي سكران، لأن السكران لا يعي ما يقول، وما المقصد من الصلاة إلاَّ مناجاة تلك الحضرة، والمران على مخاطبة ذلك المقام الأقدس، وذلك المران يستدعي التجليات والمشاهدات، ومن لم يحظ في الدنيا بهذه المشاهدات ولم تقر عينه في الصلوات، لم يحظ بما يريد من لقاء منبع الجمال ومبدأ الكمال. وكما أن القلب في الصلاة يجب أن يكون حاضراً لا ساهياً ولا سكران ليحصل المقصود، هكذا يجب أن يكون المرء على طهارة كاملة. فالقلب حاضر للمناجاة والجسم طاهر من الأقذار والحدث والجنابة، وللظاهر في الباطن آثار؛ فإياك أن تشغل قلبك وقت الصلاة، فلا سكر ولا فكر إلاَّ في مناجاة الله لتشاهد ولو بعد حين الأنوار، فذكر السكر رمزاً إلى سائر الشواغل حتى يعلم الإنسان ما يقول، ولعمري أيّ فرق بين السكران ومستغرق الهم في أعماله الدنيوية، الحق أن الصلاة إما باطلة أو في حكم الباطلة كما قدمناه في سورة البقرة، فلا مشاهدة لذلك الجمال بعد الموت إلاَّ بمقدمات المشاهدات اليوم. وإذا كان القلب في الصلاة يجب أن يكون حاضراً، والجسم يجب أن يكون طاهراً، لئلا تصرفه قذارة الجسد أو شغل البال عن مناجاة الله، فإنه يغتفر للضرورة ما يعتري الناس من الأحوال التي تضطرهم إلى ترك استعمال الماء في الطهارات، كالجنب الذي فقد الماء في سفره، فكيف يغتسل، والمريض الذي عرف بقول الطبيب أن الماء يؤذيه، فالمسافر الذي لا يجد الماء لوضوئه إذا نقض، أو لغسله، والمريض، كلاهما يتيمم بضربتين ضربة للوجه وضربة لليدين، لتبقى صورة الطاعة محفوظة، وما ذلك إلاَّ كما يتمرن الجند على الرماية، والتلاميذ في المدارس على أعمال الحساب وقراءة اللغات، لترسخ الملكة فيهم، فذلك في العلوم، وهنا في الأعمال، فتصبح أعمال الاغتسال سجية لهم متى جاء وقتها، هذا ملخص معنى الآيات في الفصل الأول. فلأوضح بعض الألفاظ مع تفصيل ما ينبغي تفصيله في هذا الفصل:

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾ بدل من قوله: ﴿ مَن كَانَ ﴾، قوله: ﴿ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ الغنى والعلم، ويصح أن يقال: «الذين يبخلون» الخ مبتدأ

وخبره محذوف تقديره: فهم يستحقون اللوم والتعنيف، وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ هيأنا وأعددنا، قد نزلت في اليهود، كانت طائفة منهم تخالط رجالاً من الأنصار ينهونهم عن الإنفاق ويخوفونهم الفقر، وهم أنفسهم لا ينفقون المال ويكتمون صفة النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ الخ مفعول لأجله، أي ينفقونه للفخار، و«الذين» يجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله أو يكون مبتدأ خبره محذوف، أي يكون الشيطان لهم قريناً، وقوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ إيذان بأن الشيطان هو الذي يغريهم وهم له مطيعون؛ فالمبذرون إخوان الشياطين، والمراؤون إخوان الشياطين، لأن الأفعال إما شرعية وإما مخالفة للشرع، فالأولى اتباع الشرع والأخرى اتباع الشياطين ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الخ أي وأيّ تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم وتخويف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ تقدم في المعنى تفسيره، وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ أي نبي ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أمتك ﴿شَهِيدًا﴾ كما في آية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة: ١٤٣] ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي يودون أن تسوى بهم الأرض وحالهم أنهم لا يكتمون من الله حديثاً ولا يكذبونه بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٢٣] إذ روي أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم، فتشهد عليهم جوارحهم، فيشتد الأمر عليهم، فيتمنون أن تسوّى بهم الأرض، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية أي لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى سكر نوم، أي لا تقربوها عند غلبة النوم ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ لما في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر ربه فيسب نفسه». فأما ما روي أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً لبعض الصحابة، فأكلوا وسقاهم خمراً وأمَّهم علي بن أبي طالب فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، وكان ذلك في صلاة المغرب، فنزلت هذه الآية، فهذا الحديث حسن غريب، ولم يرد في الصحيحين، وإنّما أخرجه الترمذي وأبو داود، فسكارى يحتمل سكر النوم والسكر المعروف ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ والجنب الذي أصابته الجنابة، يستوي فيه المذكر والمؤنث، والواحد والجمع، فيجري مجرى المصدر، وقوله: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ إما بمعنى المسافرين، وإما بمعنى عابري سبيل المسجد، فيكون على الأول هكذا: لا تقربوا الصلاة جنباً في عامة الأحوال إلاّ في السفر فلم تجدوا ماء فتيممتم، وعلى الثاني: لا تقربوا مواضع الصلاة وهي المساجد جنباً إلاّ مجتازين فيها دخولاً أو خروجاً، والأول مذهب أبي حنيفة وهو مروي عن علي وابن عباس، فعليه يمنع الجنب من العبور في المسجد. والثاني قول ابن مسعود وأنس والزهري والشافعي وأحمد، فيجوز للجنب على هذا عبور المسجد، وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ غاية للنهي عن القربان حال الجنابة، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ أي مرضاً يخاف معه من استعمال الماء، فإن الواجد له كالفاقد، أو مرضاً يمنعكم من الوصول إليه ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لا تجدونه فيه ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين، والغائط المطمئنّ من الأرض

وجمعه الغيطان، وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث، فكنوا به عن الحدث تسمية له باسم مكانه ﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ أي جامعتم، وهو قول علي وابن عباس والحسن، أو ماسستم بشرتهن ببشرتكم بجماع أو بغيره. (١) وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبي والنخعي والشافعي، فاللمس عنده ينقض الوضوء، ومن لمس محرمه لا ينتقض وضوءه على أصح القولين عند الشافعي، ولا ينتقض وضوء الملموس على أحد قولين له، بل اللامس فقط. (٢) واشترط مالك والليث وأحمد أن يكون اللمس بشهوة حتى ينتقض به الوضوء، وإن لم يكن بشهوة فلا. (٣) وقال أبو حنيفة: لا ينتقض الوضوء إلاّ أن يحصل الانتشار. (٤) وقال ابن عباس: لا ينتقض بحال، وكذلك الحسن والثوري، فابن عباس ومن عطف عليه مخففون؛ والشافعي مشدد، ومالك وأبو حنيفة متوسطان بينهما، ولكل من هؤلاء أحاديث رووها، ولكل وجهة هو موليها. وقوله: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ﴾ أي فلم تتمكنوا من استعماله إذ الممنوع عنه كالمفقود. واعلم أن المرخص بالتيمم: إما محدث أو جنب، والذي يقتضيه في الغالب مرض أو سفر. وكأنه قيل: وإن كنتم جنباً مرضى أو على سفر أو محدثين جئتم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ أي فتعمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً، فاضربوا ضربتين، ضربة للوجه وضربة لليدين، بحيث يضرب المتيمم كفيه على التراب ويمسح بهما وجهه، ثم يضرب ضربة أخرى فيمسح يديه إلى المرفقين، وعند الحنفية: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلب ومسح أجزأه وكفى، وكذا الرمل أو الجص والنورة والزرنيخ، وينوي عند التيمم استباحة الصلاة بعد دخول الوقت، ويصلي فرضاً واحداً عند ابن عباس وعلي ومالك والشافعي وأحمد، وذهب جماعة إلى أن التيمم كالوضوء، فيقدم جوازاً على الوقت ويصلي به فرائض كثيرة ما لم يحدث، وهو قول سعيد بن المسيب والزهري والثوري، فأما النوافل فقد اتفق الجميع على أن يصلي الكثير منها بتيمم واحد قبل الفرض وبعده، وأن يقرأ القرآن وهو جنب، وأبو حنيفة لا يشترط طلب الماء، وعند الشافعي لا يقع اسم الصعيد إلاّ على تراب ذي غبار. ولما كان ما تقدم فيه تسهيل قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فلذلك رخص لكم. انتهى الكلام على الفصل الأول من هذا القسم لفظاً ومعنى وحكماً ملخصاً.

الفصل الثاني

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ﴾ أحبار اليهود ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا ﴾ حظاً يسيراً ﴿ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ من علم التوراة ﴿ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ ﴾ يختارونها على الهدى بإنكارهم نبوة محمد وأخذهم الرشا وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ ٱلسَّبِيلَ ﴾ سبيل الحق ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ ﴾ منكم ﴿ بِأَعْدَآئِكُمْ ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا ﴾ يلي أمركم ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ فهو ينصركم عليهم فثقوا بولايته ونصره. ثم أخذ يذكر بعض فرق هؤلاء اليهود الذين يشترون الضلالة فقال: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ قوم ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ ﴾ يميلونه ﴿ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ التي وضعه الله فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها، أو يؤولونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله فيه ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا ﴾ قولك ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ أمرك ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أي مدعواً عليك بـ: لا سمعت بأن تكون أصم أو ميتاً ﴿ وَرَٰعِنَا ﴾ انظر نكلمك ﴿ لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ فتلاً بها وصرفاً للكلام إلى ما يشبه

السب، إذ وضعوا: ﴿ رَٰعِنَا ﴾ المشابه لما يتسابون به موضع: «انظرنا» كما تقدم في سورة البقرة، ﴿ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ ﴾ استهزاء به وسخرية ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ أي لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأعدل ﴿ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ طردهم وأبعدهم من الرحمة ﴿ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ المراد بالقلة العدم. قال الشاعر:

قليل التشكي للمهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك

ثم خاطبهم قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ أي نمحو تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها يعني الأقفاء وأصل الطمس: إزالة الأعلام المتماثلة، وقد يراد بمعنى الطمس: إزالة الصورة؛ وأحسن المعاني التي ذكرها المفسرون أن يكون مجازاً كأنه يقال: يا أيها العلماء بالكتاب ومعكم دلائل توجب أن تصدقوا محمداً، آمنوا بما نزّلنا عليه، فإذا خالفتم كتابكم وطمستم الحقائق وزغتم عن الجادة صار ذلك بتكراره عادة فيكم وسجية لا مفر منها لتكرارها، وصار العلم على حسب الأهواء، والدين تبعاً للملبس والغذاء فتستعذب القلوب ما مرنت عليه، وتنفر من الحق نفوراً، وتذر العلم وتتبع الهوى، فتعمى القلوب وتطمس البصائر، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب، ثم عطف على: ﴿ نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ قوله: ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ أي أصحاب الوجوه على لسانك ﴿ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ﴾ على لسان داود وهم الذين صادوا السمك يوم السبت وقد نهوا عنه ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ بإيقاع وعيده ﴿ مَفْعُولًا ﴾ نافذاً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ فالمشرك مخلد في النار ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ تفضلاً ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ ارتكب ما تستحقر دونه الآثام.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ﴾ أهل الكتاب ﴿ ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ فيقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ فتزكيته هي المعتد بها، وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين وأصل التزكية: نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ ﴾ بذم أو عقاب، أي لا ينقصون ﴿ فَتِيلًا ﴾ أي الذي في شق النواة، يضرب به المثل في الحقارة ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ إذ يزعمون أنهم أبناء الله ﴿ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ ﴾ بزعمهم هذا أو بالافتراء ﴿ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي إثماً لا يخفى بل هو ظاهر من بين آثامهم.

اعلم أن اليهود لما وجدوا النبي صلى الله عليه وسلم معهم في المدينة، ورأوا ديناً هجم على القلوب فاجتمعت، وسرى إلى النفوس فاستنارت، ساءهم ذلك ورأوه ماساً برياستهم، هادماً لمجدهم مميتاً لمنزلتهم، فأخذوا تارة يمدحون أنفسهم فيقولون:

(١) نحن أبناء الله وأحباؤه.

(٢) وتارة يذمون هذا الدين الجديد ويفضلون عليه عبادة الأوثان، وهم يعلمون أنهم في ذلك كاذبون، إذ جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود إلى أهل مكة ليحالفوا قريشاً على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيحاربونهم، فقالت قريش لهم: أنتم أهل كتاب، فإذن أنتم أقرب لمحمد منكم إلينا، فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، فسجدوا للجبت وهو

صنم، أو أصله الجبس وهو ما لا خير فيه، وقد استعمل في كل ما عبد من دون الله، والطاغوت يطلق على كل باطل من معبود أو غيره. ولما قال أبو سفيان لكعب بن الأشرف: نحن ننحر للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم، وديننا القديم ودين محمد الحديث. قال له كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد.

(٣) وقد ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه نظر الحسد، ويتمنون زوال النعمة عنهم، فيقولون تارة: نحن أولى بالملك والنبوة فكيف تتبع العرب؟.

(٤) وتارة يقولون كيف يجمع محمد الكثير من النساء فيكون له تسع نسوة، ولو كان نبياً لشغله أمر النبوة عن الاهتمام بأمر النساء.

وقد أجاب الله عن الأول بما تقدم في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾.

وعن الثاني بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ وتقدم تفسيرهما، ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ لأجلهم وفيهم ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ إشارة إليهم ﴿ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ أقوم ديناً وأرشد طريقاً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ يمنع العذاب عنه بشفاعة أو غيرها.

وعن الثالث بقوله: ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أي ليس لهم نصيب من الملك البتة ولئن كان لهم نصيب من الملك ﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ وهو النقرة التي تكون على ظهر النواة، ومنها تنبت النخلة، كما أن الفتيل هو ما في شق النواة الذي أعد لأخذ الأغذية لتغذي النواة كما في العلوم النباتية.

وقال في الرابع: ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب ﴿ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ إذ سلقوهم بألسنة حداد إنكاراً للنبوة والمناصب الرفيعة التي جاءت للعرب، وسعياً في إزالة تلك النعم أن يفعلوا ذلك ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ والنبوة كداود وسليمان، ولم يشغلهم الملك والنساء عنهما، فقد كان لداود مائة امرأة، ولسليمان أكثر من ذلك، فضلاً عن الإماء، فنالوا النبوة ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ والناس يكونون على حسب قواهم واستعدادهم، فمنهم من قويت أبدانهم وعقولهم، فلا يمنعهم بعض الأعمال عن بعض، ومنهم الضعفاء تؤثر فيهم الأعراض، فإذا مالوا إلى جانب حادوا عن الآخر. وأكثر الناس إذا أوتوا الملك صرفهم عن النبوة، أو النبوة صرفتهم عن الملك، وهكذا العلماء والحكماء، فأكثرهم مصروفون عن الدنيا، ومن لم يصرف عنها منهم نقص علمه، وقليل منهم من جمع بينهما ففاز بهما معاً، ومن هؤلاء الأقوياء من الأنبياء داود وسليمان ومحمد، فكيف تعترضون على محمد وأنبياؤكم كانوا ذوي مناصب ونساء كثيرة، فلم يشغلهم شأن عن شأن؟.

ولما فرغ من الرد عليهم ذكر أنهم قسمان: قسم آمن بالنبي، وقسم صد عنه، فقال: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ أعرض عنه ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ ناراً مسعرة يعذبون فيها، وقد يعجل العذاب في الدنيا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ وهذا تقرير لما قبله ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ

جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ بأن يزال عنهم أثر الإحراق ليعود إحساسهم كما قال: ﴿ لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي ليدوم لهم ذوقه.

واعلم أن العذاب في الحقيقة للنفس كما أوضحناه مراراً في هذا التفسير في مواضع كثيرة، فارجع إليها في السور المتقدمة فإنها تزيل اللبس، ولتعلم أن الجسد ليس إلا آلة فحسب، ولو لم يكن اتصال الأعصاب بالمخ، لم يحس الإنسان بالألم؛ فالألم الجسمي والألم النفسي كلاهما راجع للنفس، ولكن أحدهما آت للنفس بلا واسطة الجسم، والثاني يأتي لها بواسطة الجسم. ألا ترى أن المنوّم تنويماً مغناطيسياً يشاهد الناس في هذا العصر أنه يغرز فيه الإبر فلا يحس، وتتبدل جميع عوارض الإحساس.

وهذا مقام يوجب البحث والتنقيب والتفكير، ولم تأت الديانات بهذه الأمور إلاّ لتحض العقل على التفكير في أمر النفوس الإنسانية، ولا نعيم في الحقيقة إلاّ لأهل العلم المفكرين، لأنا في هذه الدنيا لم نخلق إلاّ لذلك، والحضرة الإلهية لا يقرب منها الناس إلاّ بالحكمة والعلم والبحث، هذا هو الأول والآخر، وكل محجوب بما نحن فيه من العوارض فإنه يبقى بعد الموت على ما هو عليه، فيكون في أحوال تتجدد عليه وكلها شؤم على النفس، كما تتجدد الأحوال الدنيوية علينا، وكلها متقلبة غير ثابتة تجدد الآلام، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا ﴾ غالباً لا يمتنع عليه ما يريده ﴿ حَكِيمًا ﴾ يعاقب بحكمة، فليس تبديل الجلود ودوام العذاب على الناس إلاّ لحكمة قد يعرفها من آتاهم الله الحكمة ووهبهم الفطنة، ودرسوا نظام هذا الوجود، فهؤلاء وحدهم هم الذين يعقلون كيف يعذب الله الناس عذاباً لا يطاق لحظة، وكيف يبقى هذا العذاب إلى الأبد. وهؤلاء متى أدركوا ذلك لوّحوا بمعانيه للناس تلويحاً وأسروه في أنفسهم، لأنهم يسيرون على نهج العزيز الحكيم الذي علمهم فلا يعطون الحكمة لغير أهلها لئلا تضل العقول.

وسأذكر لك طرفاً في هذا المقام في سورة هود عند قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ ﴾[هود: ١٠٦] الخ، لتتبين بعض الحقيقة على ما تقتضيه الحكمة التي أبرزها الله لهذا الوجود، وصور بها كل موجود، وعلمها لبعض عباده المفكرين.

ولما ذكر النار أتبعها بذكر الجنة فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ كنيناً لا تنسخه الشمس، ولا يؤذيهم فيه حر ولا برد وهو ظل الجنة، وهذا كقولهم: شمس شامس وليل أليل ويوم أيوم. وقد مضى الكلام على النار والجنة في سورة البقرة وفي سورة آل عمران، فارجع إلى هذا القول هناك في المباحث

لطيفة في الحسد والبخل

لقد وصف الله اليهود بالحسد والبخل في هذه الآيات وحكم عليهم بأنهم لا يستحقون الملك.

واعلم أن الحسود لكراهته للنعمة التي يسبغها الله على عباده شريك البخيل بماله يمنعه عن الناس، ولكن الحاسد شر لأنه يبخل بنعم الله، والثاني بماله هو، وهاتان الصفتان قاتلتان للإنسان. ألا ترى أن للقلوب آثاراً وللنفوس أسراراً، ومن غرست في قلبه كراهة الناس أذله الله على أيديهم، ولكن

رأينا ممن عاشرناهم في هذه الحياة من اتصفوا بالحسد وكراهة الناس وغشوهم بالظواهر فافتضحوا في آخر حياتهم ، وأرداهم سوء طويتهم ، والحق لا بد من ظهوره ، والقلوب فيها مكنون الآراء ، تتفاعل كما تتفاعل العناصر . ثم تنبت نباتاً على مقتضى البذور ، ثم تخرج على اللسان تارة وعلى الأعضاء أخرى ، وتنبعث أيضاً بتيار كهربائي يسري إلى نفوس الناس وهم لا يشعرون ، فيحدث ذلك بغضاً أو حباً ، فتنفر النفوس أو تنجذب إلى ذلك القلب وصاحبه ، هذا ما قرأته في بعض كتب النفس في العلم الحديث في كتاب بالإنجليزية يسمى هكذا «قواك وكيف تستعملها» ، وهذا سر ذكر الملك وسلبه عن اليهود مع ذكر الحسد والبخل اللذين يجمعهما اختصاص الإنسان بالنعمة وانفراده بالمجد ؛ ولقد علمت أن الإنسان كله كنفس واحدة ، ولكل وظيفة في أعمال الحياة كوظائف أعضاء الجسد ، وهذا مقتضى ما جاء في أول السورة أن الله خلق الناس من نفس واحدة وأوصاهم بالتعاون ، فلهذا السر لا يصلح للملك الحاسدون .

ببذل وحلم ساد في قومه الفتى … وكونك إياه عليك يسير

وهذا هو بعض معنى الآية . ولذلك نجد أن من تخلوا عن الدنيا أقبل الناس عليهم بالإعظام والإجلال ، والأنبياء والصالحون كلهم على هذا النمط كلما زهدوا فيها أقبل الناس عليهم وأحبوهم .

انتهى الكلام على الفصل الثاني .

الفصل الثالث

هذا الفصل درس أعطاه الله على ما تقدم من بخل اليهود وحسدهم ، وأن الحسود من أي أمة والبخيل وذا الصفة الممقوتة ليس أهلاً للملك ، والله لا يؤتي الملك إلاَّ لذوي النفوس الواسعة ، فتقبل النفوس عليهم وتلتف الجموع حولهم ، فلذلك أخذ يشرح ما يجب على الحكام حتى ينالوا الملك ، واليهود لما كان كل غرضهم المال ، وكانت مصارف العالم في أيديهم اليوم كما كانوا قديماً وحديثاً يختصون أنفسهم بالمال ، أباحوا الربا مع الأمم إلاَّ مع أنفسهم حرمهم الله من الملك وأمر بصفات تخالف صفتهم .

ومن عجب أن الذين أحدثوا البلشفية هم علماء اليهود في ألمانيا وأولهم عالمهم ماركس ، وامتد علمه إلى الروسيا ، فقام لينين اليهودي ومن معه مثل مثل تشتشرين ، وهذه العصبة منهم هم أصل تكوين البلشفية في الروسيا ، فأزالوا دولة القياصرة وحلوا محلها ، والبلشفية فيها اليهود وهم أصلها ، وفيهم قوم من الروس النصارى لاضطهاد القياصرة لهم ، وهم يقسمون المال بين الناس . فانظر كيف سلب اليهود الملك ولم يعطه منهم أحداً إلاَّ حين تركوا الاختصاص بالمال ، بل تغالوا في تقسيمه بين الناس ، وهؤلاء طبعاً ممقوتون من إخوانهم اليهود ، لأن اليهود يحللون الربا مع الأمم وهؤلاء يحرمونه فرجع هؤلاء عن آراء أجدادهم ودينهم فأوتوا الملك ، وهذا من عجائب القرآن ، فكيف ذكر البخل هنا والحسد وسلب الملك عنهم ؟ وكيف يقول في آيات أخرى : ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨] كما سيأتي في تفسير هذه الآية ، وكيف حكم عليهم بتمزيق شملهم ؟ فلا ملك لهم إلى يوم القيامة ، وكيف تم ذلك بحذافيره ، وفرقوا في البلاد ، وكيف قامت لهم دولة ليست باسم اليهود ، بل باسم غيرهم لما خالفوا طريق اليهود ، لأنه إذا زال السبب وهو

الاختصاص بالمال زال المسبب وهو الحرمان من الملك، فلذلك أمر الله في القرآن باجتناب أخلاقهم وصفاتهم المانعة من الملك.

فأمر الولاة أن يحكموا بالعدل والإنصاف بالسوية، فلا يحابون غنياً لغناه، ولا قوياً لقوته، ولا يحيفون على فقير لأخذهم الرشوة من الغني، ألا ترى أن أول السورة عنوان هذا كله؟ وهو أن الناس من نفس واحدة، ويتبع ذلك أن يكونوا كأنهم نفس واحدة، فالعين تبصر والعقل يفكر والأعضاء تطيع.

هكذا على الحكام وهم كالعقول في الأمم أن يحكموا بالعدل فلا يميلون مع الهوى، وعلى الرعايا أن يطيعوا ما أمر به الولاة على مقتضى الشريعة المرضية، فإن تنازع الرعاة في أمر فليردوه إلى أولي الأمر وليراجعوا كتاب الله وسنة الرسول، ولا يفعلون ما فعل بعض المنافقين من عدم الرضا بحكم الله، والرسل لم يرسلوا إلاَّ ليطاعوا، فلا إيمان إلاَّ إذا رضي الإنسان بحكم الله وانتظم شمل الألفة وصار الأنبياء والولاة كالعقل والقوى للفكرة، وصار الرعايا كالأعضاء العاملة فتنفذ صواب ما أقرته العقول ورضيته النفوس، ويكون ذلك إيماناً بالقلب ورضا بالحكم، كما تذعن الأعضاء في الجسد ونتيجة ذلك كله أن يجتمع شمل التابع والمتبوع في الآخرة كما اجتمعوا في الدنيا، ويصير الحكام الفاضلون والأنبياء الطاهرون مع الرعايا والأمم في مقعد صدق، متحابين في عالم الأرواح في البرزخ وفي الجنة كما كانوا متحابين في الدنيا، فهذه التربية الجسمية الدنيوية مع ما يمازجها من الأحكام والقضايا ونتائجها، إن صلحت صلحت النفوس بعد الموت واستعدت للسعادة والألفة، وإن فسدت تلك الألفة وتفرقت الأوصال كما أوضحه العلامة الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» فهذا سر قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ الخ بعد الكلام على طاعة أولي الأمر وطاعة الله ورسوله، وهذا من عجائب القرآن ونظامه، فمن هذا المقام وأمثاله فلتعرف بعض أسراره، وعلى هذا النمط فلتعرف بلاغته، ولتتوجه العقول إلى أمثال هذه المعاني، ولا تتلكأ في النكت اللفظية والقواعد البديعة، فلذلك يجتزئ به المتوسطون ويفرح به الذين لا يعلمون، فاحرصوا أيها المسلمون من أسرار القرآن على ما به تقوم مدنيتكم وتسمو أممكم ويرتقي شأنكم، فلقد سبقنا الفرنج درجات وتركونا في الأخريات، فإن المسلمين لما صرفوا هممهم إلى ألفاظ القرآن صرفت عنهم المعاني، وتراهم في الأندلس لما قدسوا الشعر ولم يتغلغلوا في باطن الحكمة، نزل إليهم الإسبان من الجبال فتخطفوهم، وكان الملك يسند إلى الحكماء والعقلاء والمفكرين من رجال الإسبان، ولا يسند إلاَّ إلى الشعراء وأهل الخيال من الإسلام كابن جهور وابن زيدون وأمثالهما فحقت كلمة الله على المسلمين.

اقرأ كتاب العلامة «بياردو الفرنسي» في تاريخ العرب بالأندلس، وقد ترجم حديثاً إلى العربية وسترى في سورة الشعراء هذا المقام بإيضاح، وإياك أن تقف عند كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وأمثالهما، وتقرأ ما يرد في الحديث وفي الآيات على أنه مجرد قصص، فالقصص بدون حكمة لا نتيجة له، فلم تذكر هذه المعاني إلاَّ لغاياتها، ولا هذه القصص إلاَّ لفوائدها، فالجهلاء بالحكايات يتسلون، والعلماء بالمعاني يرتقون و﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون:٥٣].

وإذ عرفت بعض سر الفصل الثالث في هذه الكلمات فلنشرع في تفسير لفظه فنقول:

روي «أن عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة يوم فتح مكة وأبى أن يدفع المفتاح ليدخل فيها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه، لوى عليّ يده وأخذه منه وفتح فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين، فلما خرج صلى الله عليه وسلم سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة، فأمره الله أن يرده إليه، فأمر علياً بأن يرده ويعتذر إليه، وصار ذلك سبباً لإسلامه، ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبداً»، وهذا قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ أيها الناس والحكام وولاة الأمور ﴿ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ وهي كل ما اؤتمنتم عليه من قول أو عمل أو مال أو علم؛ وبالجملة كل ما يكون عند الإنسان من النعم التي تفيد نفسه وغيره فليسلم ذلك إلى أربابه، ومن ذلك الحكام والولاة، فليؤدوا الأمانات إلى أهلها. وفي حديث البخاري أن الصدق وتأدية الأمانة والوفاء بالوعد علامات الإيمان، وأضدادها علامات النفاق ونتائج الإيمان على هذا المنوال سعادة المجموع الذي هو كنفس واحدة، ونتيجة النفاق ونقص الإيمان على هذا المعنى شقاء المجموع، ولذلك نجد أن الأمة الإسلامية لما أصبحت عبادتها لفظية وقضايا المحاكم الشرعية فيها رسمية لا حقيقية، وجهل القضاة القصد من الأحكام، وجاروا في أحكامهم للجهل تارة والرشا أخرى، ذهبت ريحهم وانقضت عليهم أوروبا بخيلها ورجلها، وانتزعوا الأحكام من أيدينا، فالأمانة سر العمران والخيانة خراب البلدان.

ولعمرك لا تنفع ظواهر العبادات، ولا قشور القضايا والبينات، إلاّ بإدراك الغايات من مقاصد العبادة وحقائق العدل وبواطن الأمور على قدر الطاقة البشرية عند تحقيق الشهادة، وذلك هو الذي ذهب من يد المسلمين، فحل قضاة الرنجة محل قضاة المسلمين، وسيرجع الأمر إلى نصابه ويقوم جيل في الإسلام يأتي الأمر من بابه ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص:٨٨]، وسيقوم في هذه الأمة عما قريب من يعقل قوله تعالى: ﴿ وَ ﴾ إن الله يأمركم ﴿ إِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ فيسوّي القاضي بين الخصمين في خمسة أشياء: في الدخول عليه، والجلوس بين يديه، والإقبال عليهما، والاستماع منهما، والحكم بالحق فيما لهما وعليهما.

وملخص ذلك: أن يكون مقصود الحاكم بحكمه إيصال الحق إلى مستحقه، وأن لا يمتزج ذلك بغرض آخر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ أي نعم شيئاً يعظكم به، والمخصوص بالمدح المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الأحكام ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا ﴾ لأقوالكم ﴿ بَصِيرًا ﴾ بأحكامكم وما تفعلون في الأمانات. ولقد علمت فيما تقدم في هذه السورة الجميلة أن التعليم بطريقين: طريق الإقناع العقلي، وطريق الإرهاب.

ولما كان المخاطبون من أرقى الطبقات في الأمة الذين منهم الحكماء، أتى بهاتين الطريقتين بشكل عجيب، فمدح هذا الوعظ إنعاشاً للقلوب وإيقاظاً للنفوس، فكأنه يقول انظروا بعقولكم وفكروا بوجدانكم وفتشوا في ضمائركم، ألستم ترون أن مبدأ السورة أن الناس إخواناً متعاونون؟ وهم كأنهم جسم وأعضاء خادمة ومخدومة، فكل لكل مساعد وعضد، أليس هذا التعاون منفعة للجميع؟ وإن كان الحكام إذا لم يكن لهم رعايا ذهب عنهم الملك، وأن الملك لا يكون إلاّ بالعدل،

وأن الرأس لا يستقيم إلاَّ بالأعضاء، فإذا عدلتم بين الناس فالأمر راجع للجميع، والرعايا إن لم يطمئنوا نقصت الغلات، ونقصها ينقص رزق الجند ويوجب ذهاب الدولة، وذهابها ينزل الحكام عن كراسيهم فيصبحون سوقة، فهذا سر قوله: ﴿ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾.

ولما كانت هذه المعاني الشريفة الجميلة تخفى على كثير من الحكام وأهل النظر أردفه بالتهديد على النسق الذي رأيته في هذه السورة، ولكنه تهديد لطيف فلم يخوفهم بجهنم كما أخاف اليهود، بل تلطف فذكر أنه يسمعهم ويبصرهم، فليحذروا نقمه، وطوى ذكر العذاب والنقمة اكتفاء بفطنتهم، وهذا غاية الإبداع معنى والإحسان لفظاً من هنا، فليذق الناس البلاغة القرآنية وليعجبوا من الحكم البديعة.

ولما فرغ من نصح الحاكمين شرع ينصح المحكومين باعتبار أنها جميعاً كإنسان واحد فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ وهذا يشمل الكتاب والسنة والقياس والإجماع؛ فالكتاب والسنة يفهمان من طاعة الله ورسوله، والقياس والإجماع كذلك من قوله مثلاً: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[الحشر: ٢]، والإجماع من قوله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾[النساء: ١١٥]، ومما ورد: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»، وحديث: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن»، وقوله: ﴿ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ هم أهل الحل والعقد في الأمم الإسلامية الذين يكون الأمر بينهم شورى، ويكون الرأي الغالب معمولاً به، و«ال» في «الأمر» للعهد والمعهود ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨] فهذا هو الأمر المذكور هنا.

أما الحكام فإن طاعتهم واجبة لوجوب طاعة الله ورسوله وأولي الأمر، فأولو الأمر هم الذين يولون الملوك والملوك يولون الحكام في الأقاليم، فإذا أطاع المسلمون عثمان بن عفان فذلك لأن المجلس الشوري الذي أمر به سيدنا عمر قضى بخلافته. وإذا أطاع المسلمون حكام الأقاليم فقد أطاعوا أولياء الأمر منهم بالواسطة، فطاعة الله ورسوله وما ترتب عليهما تكون في الأمور الدينية، وطاعة أولي الأمر تكون في الشؤون الدنيوية المتفرعة على الدينية والمحافظة عليها، وهناك لا بد من تنازع في فروع الفقه والدين وفي مجالس الشورى بين المسلمين، فليرد المتنازعون أمر ما تنازعوا فيه إلى ما ورثوه من العلوم في الكتاب والسنة، وليقتبسوا منهما ولينظروا فيهما حتى يستقيم الأمر ويعتدل، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ فإن الإيمان يوجب ذلك ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الرد ﴿ خَيْرٌ ﴾ لكم ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أحمد عاقبة أو أحسن من تأويلكم بلا رد.

وستأتي محاورات في المجلس الذي سيعقد بعد مئات من السنين للأمم الإسلامية بعد تفسير المقصد السادس بعد هذا من سورة النساء التي نحن بصدد الكلام عليها، وهي تطبيق على هذه الآية فلتقرأها ولتتدبرها.

هذا واعلم أنه في هذه الأيام طرد الترك آل عثمان والخليفة من بلادهم، فكتبت هذه المقالة في عدد الثلاثاء ١٨ مارس سنة ١٩٢٤، ١٢ شعبان سنة ١٣٤٢ بجريدة المقطم، وهذا نصها:

الخلافة في الإسلام

الفطرة نور إلهي سار في المخلوقات الحية ظاهر في نوع الطير في جو السماء، وفي ذوات الأربع فوق الغبراء والحيوان البحري في لجج الماء، فهذه الغرائز أنوار مشرقة على الأحياء إشراق الكواكب والشمس والقمر على سائر الأرجاء.

فهذه الفطرة حببت الأمهات في أولادها، وبها حنت الذرية إلى أمهاتها، ودلف الطير إلى عشه، وكر الأسد إلى عرينه، وجرت الحية إلى وكرها، وسارعت الغزالة إلى كناسها، وعاشت الأحياء في سلامة وسلام.

بهذه الفطرة عاش الإنسان قبل التاريخ، ثم امتاز قوم بنور أبهى وإشراق أجلى، وهم الأنبياء فأخذوا يمدون إخوانهم بما به يمدون، ويعلمونهم ما يلهمون، والفطرة لا تخدع فيقبلون عليهم ويصغون إليهم وكأنهم ما سمعوا إلاّ لفطرهم، ولا أصغوا إلاّ لنفوسهم.

هكذا كان بوذا وكونفشيوس وموسى وعيسى في الأزمان الغابرة، ولما طال الأمد أخذت تلك الشعوب تلون الديانات بألوانها وتصبغها بصبغتها، فتطبع بطابعها وتنسى المبادئ الأولى للديانات، وتظهر أجيال تشاهد ما ليس من طبع الدين، وإنّما هو من طبع المتدينين وأخلاق التابعين.

وكلما كثرت أجيال وتوالت الأمم وامتد الزمان، تباعد الدين عن أصله وصار على غير شكله هناك يكون ضلالاً لتابعيه وتأخيراً لمعتنقيه، فيصبح مر المذاق طعمه لن يطاق، قليل الجدا قيداً في الأرجل غلاً في الأعناق، فكما كان في أوله عدة النشاط مفتاح النجاح، صار في آخره قيد النفوس جالباً للبؤس.

فقام في كل أمة من هذه الأمم مجددون، وظهر فيها مستنيرون، فعلموا أممهم وهذبوا طرقهم، وأنت ترى تعاليم أوروبا في العصر الحديث، إذ نهجت غير المناهج القديمة في العصور الوسطى، ونادى أناس بالحرية العملية والعلمية والانطلاق من الوثاق، وقام لوثر وأمثاله من المصلحين، فانجلت بعض الغياهب وظهرت بعض الحقائق وارتقت الشعوب.

دين الإسلام

وجاء دين الإسلام موافقاً للفطر كسائر الديانات في أول أمرها، فقبله العرب الأولون، وأصلح أخلاقهم وجمعهم، وكان سهل التعليم، فطاروا به في الأرض شرقاً وغرباً، وخلف النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فكانوا على أخلاق النبوة سائرين، ولطريق النبوة سالكين، وفي سبيلها عاملين، متخلقين بالأخلاق المحمدية، وهم في حكمهم عادلون.

الخلافة المحجبة المبرقعة

ثم لما طال الأمد قست القلوب ووهنت النفوس وبطر الخلفاء وتظاهروا بالكبرياء، فتراهم في أواسط الدولة العباسية وأواخرها ببغداد، وفي أواخر دولة بني أمية بالأندلس، وكذلك الفاطميون بمصر والعثمانيون بالأستانة، كل هؤلاء أخيراً قد احتجبوا في قصورهم مع الخصيان والنساء ساهين لاهين، وكلما هلك خليفة ابتدع من بعده بدعاً وأنواعاً من الترف، وهم في غيهم يعمهون، وفي جهالاتهم تائهون، والعلماء والحكماء لا يستطيعون تقويض ذلك البنيان، ولا تغيير تلك الحال، بل يمدحونهم بالقصائد وهم يزدادون في قصورهم قصوراً، ويملكون فيها ولداناً وحوراً وحجاباً وخصياناً

ونساءً، لا فرق بين الآخرين منهم والأولين، وأنس الناس بتلك المناظر وخضعوا لتلك المناظر، وخرست الألسن فلا تسمع إلاَّ همساً، وبتوالي الزمان أصبح ذلك عادة مألوفة وجبلة ثابتة، كيف لا، والعادة طبيعة خامسة، وإذا مات الخليفة قام مقامه آخر من نفس البيت بطريق مرسوم، والأمم قبلت ذلك لسببين: أولهما أنهم يخافون قيام الثورات وظهور الفتن في البلاد، وثانيهما أن هؤلاء مثلهم للدولة كمثل شبكة الصائد أو جرعة الطبيب أو التنويم المغناطيسي، فبهذه المظاهر والزخارف تأنس النفوس وتخضع الرقاب، وكلما أراد الشعب انطلاقاً لم يزده الخلفاء إلاَّ وثاقاً بما يزخرفون ويشيدون، وبمن حولهم من الحراس والحجاب وأرباب الدولة والمظاهر الخلابة، فهذه أشبه شيء بأدوية مسكنة للشعب ليهلع لوقعها ويخضع لمرآها، وهذه تزداد على مدى الزمان، وترى هذه المظاهر منومات للشعوب، فتفتر الهمم وتضل النفوس وترتبك العقول، وهنالك تغطى الفطن البشرية وتنام العقول الإنسانية أجيالاً وأجيالاً، حتى إذا وقعت الواقعة، وانشقت سماء الوهم فهي يومئذ واهية، أتى لهؤلاء الخلفاء يومهم الموعود، وحضر لهم الشاهد والمشهود، فذل العزيز وعز الذليل، فتكسر تلك الأغلال وتتبدل الحال، إما من داخل البلاد كما في دولة الترك الخاليين، وإما من خارجها كما في التتار، إذ قتل هولاكو آخر خليفة عباسي في القرن السابع، وزالت الدولة العباسية من بغداد، وقد فعل صلاح الدين الأيوبي مع الخليفة الفاطمي بمصر في ذلك الزمن ما هو أشد وأنكى ألف مرة مما فعله الترك في بيت آل عثمان، إذ حبس الشبان والشابات من بيت الخلافة متباعدين في أماكن حتى لا يتناسلوا، ثم ماتوا في سنين معدودة وهم لا يرحمون، وهكذا انقرضت الخلافة الأموية من الأندلس وجاء ملوك متفرقون شذر مذر حتى تفرقت الكلمة، واجتمعت أوروبا على مناصرة الإسبانيين فأخرجوهم من الجزيرة وهم يائسون، ليس في هذه الحياة ما يبقى إلاَّ إذا كان أصلح للوجود، وكيف يبقى ما لا فائدة له؟ قاصرون في القصور مائتون في الحجرات، كيف يعيشون بين الأمم إلاَّ إلى أجل معدود كالأعضاء الأثرية في الحيوان، إنه ليس في الوجود معطل، ولا يبقى إلاَّ ما هو أصلح للحياة ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، تبقى تلك العروش قروناً ثم تبيد كما يهلك الشيخ إذا انتهى أجله وفرغ عمله وذهب أمله وقلّ نفعه، فيكون موته رحمة له وللعالمين، ولذلك ترى أناساً ينبتون في الأمم فيزيلون تلك المظاهر المعطلة والمناظر المضللة التي لا يحترمها الناس إلاَّ رياء، ولا يعظمونها إلاَّ شفاهاً وهم في أنفسهم كارهون وفي قلوبهم مبغضون، ولذلك شكا المصريون منذ أربعمائة سنة من الترك، وشكا الترك حديثاً من المصريين وسائر المسلمين الذين هم واقعون تحت ضغط الأوروبيين، فقال المصريون: لقد سطا الترك على خليفتنا فأخذوه وبايعهم بالخلافة وانفرد بها السلطان سليم، وقال الترك حديثاً: إن المصريين أرسلوا العمال إلى فلسطين نحو مليون أو يزيدون، وهكذا سارت الجنود المصرية إلى مكة في الحرب العامة؛ فحاربوا جيوش الخلافة وهم مسلمون، فغضب الترك على الخلافة وأخرجوها من الديار وقالوا: لا طاقة لنا اليوم بما لا خير فيه وليس له احترام. إلا إنَّما السبيل للحل هو الشورى ويكون الخليفة بالانتخاب.

لقد أبنت في هذه المقدمات سنة الوجود، وأن الأمم تخضع للعروش إلى أجل محدود، وليس يهمنا في هذا المقام إلاَّ أمر الأمة المحمدية المترامية الأطراف البعيدة الأكناف، لقد جاء في القرآن سورة

باسم الشورى إيذاناً بعظمتها وتعريفاً بحكمتها وتبييناً لفضلها، وهذه السورة نزلت بمكة ونزلت سورة النساء بالمدينة، وجاء في الأولى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨] وعمل بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله، وترى المشاورة في الغزوات مشهورة معلومة عن المحدثين.

ولقد شاور أصحابه صلى الله عليه وسلم يوم غزوة أحد فاختلفوا، وكان هو أميل في أول الأمر إلى انتظار المهاجمين في المدينة، وأيد ذلك رؤية رآها، ولكن الحجج التي أدلى بها من مال إلى الخروج إلى القتال كانت أرجح، فانحاز إليها وغضب أصحاب الرأي الأول وأسرعوا للهزيمة، كعبد الله بن أبيّ ابن سلول، وكان ما كان.

فانظر ماذا قاله الله في سورة النساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ومن هم أولو الأمر هم المعهودون عندهم، هم أهل الشورى المذكورون في السورة النازلة قبلها في مكة: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨]، فليكن في كل بلد إسلامي مجلس للشورى، وبعبارة أخرى نواب، وهذا المجلس له القول الفصل في أمر البلاد، فليفعل ما يشاء وليحكم بما يريد، وليكن هناك مجلس عام من الأمم الإسلامية، ولكل مجلس خاص فيه أعضاء ينوبون عنه ويمثلونه، وليقترعوا اقتراعاً سرياً أي عظماء الإسلام يقلدونه الخلافة، ومتى انتخبوا واحداً كان له الخلافة، ومن المعقول أن هذه الجموع لا تنتخب سراً ولا جهراً إلاّ من هو مستقل ليس لأوروبا عليه سلطان، ويكون ذلك الخليفة له أعمال يخصصها المجلس بحسب الزمان والمكان، لأنه خليفة على سائر المسلمين وهم متفرقون في الأرض، ومنهم من هم في أحضان المستعمرين.

بهذا يكون للإسلام خلافة حقاً، وإلا فكيف نرى في مصر للفاطميين، وفي بغداد للعباسيين، وفي الأندلس للأمويين خلافات متنوعة في زمن واحد، فأي خلافة هذه؟ إنها ملك أعطي لقب الخلافة.

ولقد نرى رجالاً من الأمة تزيوا بزي الخلافة على أشكال شتى من الأمم الإسلامية المتأخرة، متشبهين بالخلافات البائدة وأثروا في عقول الشعب، إما بالنسب وإما بالانتساب إلى ولي من الأولياء بطريق العهد وما أشبه ذلك، فعاشوا في رغد العيش وتمتعوا بنعيم الملوك في غفلة من الأمم الإسلامية، وكانوا أكبر عون للفاتحين من الأوروبيين، وهم مشهورون لا سيما في البلاد العربية في شمال أفريقيا وغيرها، وهم هم أعوان كل فاتح في بلاد الغرب، وذلك مستفيض بين الجمهور. إن الشورى ممكنة في هذه القرون المقبلة لسهولة المواصلات والمخاطبات والمكاتبات ووجود القطار والبرق، وهل يتم ذلك وبينهم المستعمرون؟ إن ذلك موكول إلى المستقبل ففيه تبين الحقائق، ولله عاقبة الأمور، انتهت المقالة.

ولما كانت طاعة الله ورسوله واجبة أردفها بما وقع من مخالفة:

(١) فذكر المنافق الذي لم يرض بحكم رسول الله.

(٢) وأتبعه بذكر الأمر بالقتال، وكيف كان من المنافقين مثبطون، وذلك من عدم الطاعة.

(٣) ثم ذكر ما كان يفعله ضعفة المسلمين، إذ بلغهم خبر عن سرايا النبي صلى الله عليه وسلم من طريق الوحي بنصر أو تخويف من عدو، فإنهم كانوا يذيعون ذلك، وفي الإذاعة ضرر بالسياسة، وعليهم أنهم كانوا يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم.

أما الأول، فذلك أن ناساً من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم، وكانت قريظة في الجاهلية حلفاء الخزرج، والنضير حلفاء الأوس، وكان إذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير قتل له أو أخذت ديته مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجل من بني النضير رجلاً من قريظة لم يقتل به، وأعطي ديته ستين وسقاً، فلما جاء الإسلام وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فاختصموا في ذلك، فقال بنو النضير: كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلوا منا، وديتنا مائة وسق وديتكم ستون وسقاً، فنحن نعطيكم ذلك، فقال الخزرج: هذا شيء أخذتموه في الجاهلية لكثرتكم وقلتنا فقهرتمونا على ذلك، فاليوم نحن إخوة في الدين فلا فضل لكم علينا، فقال المنافقون منهم: ننطلق إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي، وقال المسلمون من الفريقين: ننطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبي بردة الكاهن ليحكم بينهم، فأبى أن يحكم بينهم إلاّ بمال كثير، فنزلت آية القصاص وهذه الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي المنافقين ممن آمنوا من أهل الكتاب ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ وهو أبو بردة الكاهن على قول السدي المتقدم، أو كعب بن الأشرف على قول ابن عباس، والطاغوت كل باطل من معبود غير الله أو قاض أو كاهن ﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ لأن الكفر بالباطل وهو الطاغوت إيمان بالحق وهو الله ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ عن الحق ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي فكيف تكون حال هؤلاء المنافقين، وكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة يعجزون عنها؟ ﴿ ثُمَّ جَآءُوكَ ﴾ حين تصيبهم المصيبة ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ ﴾ الجملة حال ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ ما أردنا بذلك إلاّ الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق فلا يغني عنهم الكتمان ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ عن عقابهم ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ بلسانك وكفهم عما هم عليه ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي خالياً بهم، فإن النصح في السر أنجع ﴿ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم، فبهذا أمر صلى الله عليه وسلم أن يتجافى عن ذنوبهم وينصح لهم ويبالغ في الترغيب والترهيب، لأن الأنبياء أهل الشفقة على الأمم.

ولما كان ما فعله منافقو اليهود مخالفة للرسول وقد أمروا بطاعته قبل هذه الآية، أردفه بأنه لا يرسل الله رسولاً إلاّ ليطاع؛ وكما أن اللسان خلق ليتكلم، والعين لتنظر، والمعدة لتهضم، والعقل ليفكر هكذا الرسول أرسل ليطاع، وهذه قاعدة عامة فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بسبب إذنه في طاعته ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بالتوبة والإخلاص ﴿ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي من مخالفته والتحاكم إلى غيره ﴿ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ أي لعلموا أنه قابل توبتهم راحم لهم ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾ أي فوربك، و«لا» زائدة للتأكيد ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط، ومنه الشجر لتداخل أغصانه ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ ضيقاً مما حكمت به ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ وينقادوا لك انقياداً ظاهراً وباطناً ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ كما كتبنا على بني إسرائيل فامتثلوا ﴿ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم ﴾ كما خرج بنو إسرائيل حين استتيبوا من عبادة العجل ﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا

﴿ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ إلاّ أناس قليل وهم المخلصون ، وقد تقدم أن الإيمان لا يتم إلاّ بأن يسلموا حق التسليم ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ من متابعة الرسول رغبة لا رهبة ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ في العاجلة والآجلة ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ في دينهم ، وهنا يقال ما يكون لهم بعد التثبيت فقال : ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ وزاد في تأكيد الطاعة لله وللرسول فقال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ فهم مع الأنبياء الذين بلغوا درجة الكمال والتكميل ، والصديقين الذين ارتقت نفوسهم بمراقي النظر تارة وبالتصفية والمجاهدة تارة أخرى ، والشهداء الذين أداهم حرصهم على الطاعة إلى بذل أرواحهم في سبيل الله ، والصالحين الذين صرفوا أعمارهم في طاعته ، وأموالهم في مرضاته ، وما أحسن مرافقة هؤلاء الأربعة ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ ﴾ كائن ﴿ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ بجزاء من أطاعه .

التسليم والرضا وسورة النساء وسورة الشورى

ذكرى للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها

بالمدنية المستقبلة والتربية العالية

هل لكم أيها المسلمون أن تسمعوا لماذا يشير كلام الله في هذه الآيات ، وهل يعلم الناس ماذا يريد الله عزّ وجلّ بقوله : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ يقول : لا إيمان إلاّ إذا حصل الإذعان للأحكام والرضا بالقلوب والتسليم ، وكيف سمى هذه السورة باسم النساء كما سمى أخرى باسم الشورى ، فقيل هناك : « سورة الشورى » وقيل هنا « سورة النساء » .

إن هذا المقام يحتاج للإسهاب والتطويل ، ولكني أوجز القول فأقول :

إن هذه السورة سميت باسم النساء ، لأن المرأة أظهر ما فيها من الأحوال أمران : الرحمة والتربية ، فبالرحمة تعطف على الأبناء وتجمعهم ، وبالتربية تغذو أولادها بلبنها وتعطيهم مالها وتكوّن بالأمرين ألفة جامعة ونظاماً يكفلهم ، ولذلك ابتدأ السورة بأنه خلقنا من نفس واحدة وخلق منها خلقاً كثيراً ، ولماذا هذا؟ لأنه يريد أن يكون الناس أسرة واحدة لهم ألفة جامعة ؛ وكما أن الأم ترحم البنين هكذا القضاة والحكام ، يجب أن يربوا بطريقة تغرس في قلوبهم الرحمة حتى يكونوا كالأم ، والأم لا تقضي بين بنيها إلاّ بالعدل بقدر طاقتها ، وإذا أنفذت حكماً فيهم لم يكن ذلك تشفياً ولا انتقاماً ، وإنّما ذلك لقصد إصلاحهم وإسعادهم ، وهي تتحمل أذاهم ، وترى الولد إذا وصله من أمه أذى فليس ذلك يدعو إلى كراهتها غالباً ، بل هو يعطف عليها ويرجع إليها رجوعاً قلبياً ؛ ثم إن أبناء المرأة الواحدة إذا كان لهم إخوة من أم أخرى اجتمعوا صفاً وكانوا يداً واحدة على إخوتهم ، فلهم جامعة واحدة من جهة أمهم كما هو مشاهد معروف ، حتى إن الأخ من الأم والأب مقدم في الميراث ، ويحجب الأخ لأب لأنهم اتحدوا في المودة والمحبة وتشاركوا في الآراء وأمور الحياة لجامعة الأم ، فهكذا الأمة يجب أن تتشاور في الأمر ويكون رأي الشورى وأولي الأمر فيهم نافذاً بطريق القبول ؛ كما أن حكم الأم صادر من قلب رحيم يشعر به الأبناء ويتلقونه بالقبول والتسليم ، فيكون أمرهم شورى بينهم والأحكام النافذة من القضاة مقبولة قبولاً نفسياً لا قهرياً جسمياً .

ولعمري هذا هو الذي يطلبه القرآن أيها المسلمون، ويا ليت شعري أي فائدة في الإيمان إذا لم تجعل الأمة كتلة واحدة وأسرة واحدة ذات حب خالص والتئام واتحاد.

أيها المسلمون، أي فائدة نجنيها من هذه الأحكام الشرعية والمرافعات القضائية، والتربية في البلاد غير مرعية. أنا لا أقول غيروا طرق الأحكام فحسب، بل أقول غيروا طرق التعليم، التعليم اليوم ليس على طراز الدين، أترضون أيها المسلمون أن يكون هذا التعليم فاشياً في أوروبا ويحرم منه الإسلام؟.

ألم يبلغكم ما يفعله التلاميذ هناك؟ إنهم يقرؤون قانون المدارس وفيه تحديد العقاب على كل ذنب، فماذا يصنع التلاميذ؟ يرتكب زيد ذنباً كأن ينسى واجباً يعمله، فيأتي إلى المدرسة فيدخل السجن ويجلس فيه المدة المقررة للعقاب بلا حارس يحرسه، ولا خفير يحفظه، بل جعل نفسه على نفسه حسيباً، ويعد التلميذ من العار أن يحرسه الخادمون، أو يقف على الباب الديدبان، بل هو الحابس وهو المحبوس، وهو الحارس وهو المحروس، وهو الراضي وهو المرضي عنه، فهذه الآية لم تذكر في القرآن للتلاوات ولا لتكرير العبادات ولا لمجرد العبادات، بل جاءت لشيء فوق العبادات والأحكام، هو الذي جاءت له الرسل ووضعت الشرائع وأنزل الوحي، ومن أجله صوّرت صور الموجودات بالجمال، وزوّقت بالحسن وحسنت سماؤها وأضاءت نواحيها، فالجو جميلة أضواؤه، والماء حسن الرواء، والسماء بديعة البناء، والنجوم باهرة الأنوار، والمشارق والمغارب بديعة المناظر التائية المطالع حسنة بهجة تسر الناظرين. فهل أرانا الله ذلك لنحرم من ثمراته في القلوب، أو نغيب عما صوّر فيه من كل عجب عجاب؟.

أرانا الله الجمال وأوحى إلى الأنبياء ما شاكله من الكمال، فجاء على لسان عيسى أن يكون الناس أحباباً، وجاء في هذه السورة أننا أسرة واحدة، وعنوان السورة بذلك شهيد، وقال في غضونها إن أولي الأمر ينظرون في أمور الرعية، وإن المحكومين يسلمون في أحكام القضايا، وإنه لا إيمان لهم إلاّ بالتسليم.

ولعمري كيف يكون التسليم والرضا من قلوب مقفلة، وعيون مسبلة، وآذان فيها وقر، وعيون عليها ختم، وأنفس لم تعرف من المحبة إلاّ لفظها، ولا من التربية إلاّ ظاهرها، ولا من التعليم إلاّ أدناه، ولا من التهذيب إلاّ ما لا يرضاه، فويل لمن عاشوا عيشة لفظية فماتوا موتة جاهلية، وويل ثم ويل لمن وعظهم الدهر بضرباته وانتهرهم بوثباته، فلم يفيقوا من غفلاتهم ولم يتعظوا بنكباته من الأمم الإسلامية التي دهمها الرجفة فأردوهم وضربوهم فمزقوا شملهم، فهل ترى لهم مدناً مستقلة أو أصولاً ثابتة؟ فمتى ينتفعون؟ وفي أي طريق يسلكون؟.

الطريقة المثلى لرقي الإسلام

هي التربية الشريفة ونبذ ما هم عليه، وأن يملأ صدور التلاميذ من العواطف والرحمة والحب للشعب، ويربى الأبناء على حب النظام والعمل للمجموع، والحب العام بالحكايات اللطيفة والسير الجميلة وسيرة النافعين للأمم الإسلامية، بحيث تهذب القصص والحكايات، فلا يدخل فيها ما ينقص سير الأبطال، ولا يدمج فيها ما يضر بسمعتهم ولو كان حقاً. ويلخص كل جميل وينبذ كل قبيح، وليعدل إلى الروايات المشجعة تارة والمحببة للمجموع أخرى، والمعطشة للعلم والمرغبة للمساعدة

للإخوان آونة، وليكن ذلك كثيراً حتى ترسخ الملكات في النفوس، هنالك يتم الإيمان، هناك يحب الشعب حكامه، هنالك يطيع رؤساءه، ولا يجد المحكومون في أنفسهم حرجاً من الحاكمين، ذلك هو الصراط المستقيم، فعلى المسلمين أن يحرصوا على هذه التربية حرصاً دائماً، فلئن اقتصر الجهال من المسلمين على تعظيم الأحكام الشرعية.

فليحرض العلماء الشعب على اتساع نطاق التربية الخلقية والمحبة الجنسية والفضائل الخلقية، فذلك أعلى تقديساً، وأشرف مقاماً، وأعز مقصداً، وأوسع مدداً، وأقرب منالاً، وأكثر إفضالاً، وأقرب إلى مرامي النبوات، وإلى جمال هذه المخلوقات.

فكما يبصر الناس بالعيون جمالاً في السماوات، يبصرون في قلوبهم جمالاً في النيات. فيا ليت شعري لم قال الله: ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ في تأدية الأمانات، وأمر بإزالة الحرج من النفوس عند الحكم في الدعوات، وأمر رسوله أن يعظهم في ذلك بأبلغ العبارات، هل كل ذلك لحوادث جزئية وقضايا وقتية؟ كلا ثم كلا، إن الله خزن ذلك في القرآن وأبقاه لنا إلى أن آن الأوان، وظهرت حوادث الزمان، وسبق الفرنجة بهذه التعاليم، ونحن أرقى منهم أدياناً وأرفع شأناً منهم، فلنقم بالأمر خير قيام، ولنعلم الشعب حسن الأخلاق.

ولعمرك هل جملت الصور المحسوسة، والبدائع المنظورة في أنحاء المعمورة، إلاَّ بصنعة باهرة وأعمال ظاهرة وأصول قيمة وهندسة متقنة، هكذا لن تجمل النفوس، ولن تجمل الأخلاق، وتحسن الشعوب، ويتم النظام، إلاَّ بصنع النفوس صنعاً يعليها، ووعظها وعظاً يدنيها بالأمثال النافعة، والحكايات الممتعة، والآراء الناجعة، والأقوال الشارحة، وسير الأبطال، وفضائل الرجال، وشمائل العلماء، وأخلاق الحكماء، وطرق العقلاء، وشيم الأذكياء، وتراجم الصلحاء الذين نفعوا الأمم بعلومهم ورقوها بأموالهم وأنفسهم، وذلك هو القول البليغ الذي أمر به الرسول، والوعظ الممدوح، والقول المشروح الشارح للصدور، المهيئ لتبوئ النفوس مقام الصدق ومطالع العرفان والنور. انتهى المقصد الخامس.

المقصد السادس

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ

إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ
خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ
وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي
بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ
عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ
حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا
﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ
طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ
ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ
إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ
شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا
﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ
ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا
تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ
وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ
أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا
﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا
فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ
وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا
وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ

مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ
فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ
ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا
وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ
وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى
ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا
(٩٥) دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ
وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن
يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا
كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ
عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠) وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ
مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) وَإِذَا
كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ
فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ
وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً
وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ
وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ
قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ
كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤) ﴾

هذا المقصد إكمال للدروس المعطاة للمسلمين تطبيقاً على وجوب طاعة الله والرسول الخ .

وفي هذا المقصد أحد عشر فصلاً :

(١) الوعيد على الإهمال في الجهاد، والوعد بالسعادة الأخروية للمجاهدين.

(٢) الحض على إنقاذ المستضعفين من المؤمنين من يد الأعداء.

(٣) ذم الجبناء بخورهم وضعفهم بعد ظهورهم بهيبة الشجعان.

(٤) كيف يخاف الناس من الموت وهو لاحقهم أينما كانوا.

(٥) ذم التشاؤم من المخلوق بحدوث المصائب مع أن الله هو الفاعل لكل شيء.

(٦) إعادة الكلام في وجوب طاعة الرسول مع العلم أن كل ما تقدم من تلك الطاعة.

(٧) ذم المرجفين الذين يذيعون الأخبار قبل مراجعة أولي الأمر.

(٨) الكلام على المنافقين.

(٩) تحريم قتل المؤمن كما وجب محاربة المعتدين على البلاد والعدو المغير.

(١٠) التحريض على الهجرة للقادرين.

(١١) قصر صلاة المسافرين، والكلام على صلاة الخوف في الحرب.

فمحصل الكلام في هذا القسم:

(١) جهاد من المؤمنين الصادقين.

(٢) حكم على المنافقين بالضلال.

(٣) تحريم قتل المؤمن.

(٤) فرار القادرين الذين لا يجدون نصيراً في أرض العدو.

التفسير اللفظي

يقول في الفصل الأول: ﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ تيقظوا واستعدوا بالسلاح للقتال ﴿ فَٱنفِرُواْ ﴾ اخرجوا للجهاد ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ جماعات متفرقة جمع ثبة، تقول: ثبيت على فلان تثبية، إذا ذكرت جميع محاسنه، وجمع الثبة: ثبين ﴿ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين كوكبة واحدة، وذلك وإن كان وارداً في الحرب فهو عام لكل خير ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ اللام الأولى لام الابتداء المسماة بالمزحلقة، والثانية واقعة في جواب القسم، و«ليبطئن» إما بمعنى يتباطأ ويتثاقل فلا يتوجه للحرب، وإما بمعنى تثبيط غيره، كما فعل بعض المنافقين يوم أحد، وبطأ بالتشديد من بطؤ بك، المتعدي بالباء، و«من» اسم موصول اسم «إن»، أي وإن منكم بحسب الظاهر منافقين في الباطن، والله ليتخلفن عن الجهاد ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾ كقتل أو هزيمة ﴿ قَالَ ﴾ ذلك المبطئ ﴿ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ كفتح وغنيمة ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وجملة ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ ﴾ الخ معترضة، وهذا القول لضعف في العقيدة ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ﴾ يبيعون ﴿ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

وقال في الفصل الثاني: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ ﴾ في سبيل استنقاذ المؤمنين ﴿ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ من أيدي الكفار، ثم بينهم فقال: ﴿ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ في مكة ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ فأجاب الله دعاءهم، وهذا وإن كان قد نزل في

المستضعفين بمكة فحكمه عام، والمسلمون اليوم آثمون، ولذلك سلط الله عليهم الفرنجة فأذلوهم، وقوله: ﴿ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ الشيطان ونحو ذلك، ثم أمرهم بقتال أولياء الشيطان وأبان ضعفه تشجيعاً لأن الباطل لا ثبات له.

وقال في الفصل الثالث: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد إلى الذين كانوا يلقون من المشركين أذى كثيراً بمكة قبل أن يهاجروا وكانوا يستأذنونك في القتال، فكنت تأمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم الحرب حتى نأذنك بذلك، فلما كتبنا عليهم القتال خاف بعضهم لقاء العدو، فصاروا يخافون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وهذا من الجبن وحب الحياة والميل إليها ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾ الخ.

وقال في الفصل الرابع: ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ سريع زواله ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ تنقصون أدنى شيء من ثوابكم ﴿ فَتِيلًا ﴾ ما يكون في شق النواة كما تقدم، ﴿ بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ القصور أو الحصون المرتفعة، وأصل البرج: بيت على طرف القصر، من تبرجت المرأة إذا ظهرت.

وفي الفصل الخامس: إن المدينة كانت ذات خير وأرزاق ونعم عند مقدم النبي صلى الله عليه وسلم، فلما ظهر نفاق المنافقين وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض الإمساك، فقال المنافقون واليهود: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه، فقال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ خصب وثمار ﴿ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ جدب في الثمار ﴿ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ أي من شؤم محمد وأصحابه ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ كُلٌّ ﴾ من الحسنة والسيئة ﴿ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ فأما الحسنة فإنعام، وأما السيئة فابتلاء، لأنه سبحانه يربي الناس بالسراء والضراء، والتربية يلزمها الأمران ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ يوعظون به وهو القرآن، فكله ناطق أن كل شيء من الله ﴿ مَّآ أَصَابَكَ ﴾ أيها الإنسان ﴿ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ نعمة ﴿ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ ﴾ بلية ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ لأن الاستعداد والقابلية لنفسك لم يلق لها إلاّ تلك البلية، لأن الله يربي الناس وينقلهم من حال النقص إلى حال الكمال، فاستعداد الضعيف ليس كاستعداد القوي، والبلايا ما هي إلاّ نقص، وما النقص إلاّ عدم الكمال، فالله لم يخلق العدم وإنّما خلق الوجود، وليس يقال إن الله ظلم الدودة فلم يعطها فلسفة أفلاطون ولا حكمة لقمان، لأن خلق الدودة لا يستلزم تلك الحكمة، بل لا فائدة لها في ذلك الكمال ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ ﴾ يا محمد إلى كافة الناس رسولاً لتبلغهم رسالتي وما أرسلتك به، ولست رسولاً إلى العرب وحدهم بل أرسلناك ﴿ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ على إرسالك للناس كافة.

وقال في الفصل السادس: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ ﴾ عن طاعته ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم، إنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ أي أمرنا طاعة أو منا طاعة ﴿ فَإِذَا بَرَزُواْ ﴾ خرجوا، وقوله: ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي زورت خلاف ما قلت لها أو ما قالت لك من القول، و«بيت»: من البيتوتة، لأن الأمور تدبر بالليل ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ يزورون ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قلل المبالاة بهم وتجاف عنهم ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾

في الأمور كلها لا سيما في هذا الأمر ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ يتأملون معانيه، والتدبر: النظر في أدبار الشيء وعواقبه ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم، وبعضه تسهل معارضته، وبعضه تصعب معارضته وبعضه يطابق خبره المستقبل الواقع، وبعضه لا يطابق، وبعضه يوافق العقل، وبعضه يخالفه.

وقال في الفصل السابع: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ ﴾ مما يوجب الأمن أو الخوف أفشوه، فإذا سمع بعض ضعفة المسلمين خبراً عن سرية من السرايا عن طريق الوحي أو عن طريق المنافقين أذاعوه بين الناس، وفي ذلك مفسدة في السياسة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى الرسول وإلى آراء أولي الأمر منهم البصراء بالأمور ﴿ لَعَلِمَهُ ﴾ العقلاء ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ أي يستخرجون تدبيره بذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بأمور الحرب وهم الذين يعرفون ما ينبغي أن يذاع وما ينبغي أن يكتم إحكاماً للسياسة، فكان يجب على هؤلاء الضعفاء أن يرجعوا إلى أولئك المستنبطين من أولي الأمر فيما يرد من الأخبار.

لما دعا الناس عليه الصلاة والسلام إلى القتال في بدر الصغرى إلى الخروج كرهه بعضهم، وقد تقدم ذلك في غزوة أحد في سورة آل عمران، وأن أبا سفيان واعد النبي صلى الله عليه وسلم موسم بدر الصغرى بعد حرب أحد، فلما كره بعضهم الجهاد حين دعاهم في الموعد نزل: ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ إلا فعل نفسك فخرج في سبعين راكباً ﴿ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ على القتال ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يعني قريشاً، وقد فعل، فألقى في قلب أبي سفيان ومن معه الرعب فرجعوا ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا ﴾ من قريش ﴿ وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ تعذيباً، ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ أي من يصر شفعاً لوتر أصحابك يا محمد فيشفعهم في جهاد عدوهم ﴿ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ حظ وافر منها ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ بأن قاتل أصحابك وكفر بدينك ﴿ يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ ﴾ نصيب ﴿ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ مقتدراً، قال الشاعر:

وذي ضغن كففت الشر عنه وكنت على إساءته مقيتا

أي قادراً، وقال ابن عباس في هذا المقام في الحسنة والسيئة: ما لها مفسر غيري، معناه من أمر بالتوحيد وقاتل أهل الكفر وضده السيئة، وأقول إن هذا التفسير هو المناسب للمقام.

ولما ذكر الله أنه يكافئ المحسن بنصيب والمسيء بكفل، وأنه قادر على كل شيء، أردفه بأنكم أيضاً أيها الناس عليكم أن تقتدوا بربكم وتتخلقوا بأخلاقه وتسيروا على نهجه، فتقابلون الإحسان بالإحسان فقال: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ التحية: العطية، فإذا أعطي الإنسان عطية فليعط أفضل منها أو يردها وجوباً، وهو قول قديم للشافعي. والجمهور حمله على السلام، فيزيد من يرد السلام: «ورحمة الله»، فإن قالها المسلم زاد: «وبركاته»، والرد واجب وجوباً كفائياً، ولا يشرع الرد في بعض الأحوال، فلا يرد في الخطبة وقراءة القرآن وفي الحمام وعند قضاء الحاجة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ يحاسبكم على الشفاعة السيئة وعلى عدم رد التحية بأحسن منها أو مثلها. وللسلام أحكام تطلب من علم الفقه فلا نطيل بها، وأما قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلى قوله: ﴿ حَدِيثًا ﴾ فتفسيره ظاهر.

وقال في الفصل الثامن: ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ تفرقتم ﴿ فِي ﴾ أمر ﴿ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم ﴾ بأن صيرهم إلى النار، وأصل الركس: رد الشيء مقلوباً ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ أي تجعلوه من أهل الهداية ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى، وقوله: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ ﴾ أي ودوا لو تكفرون كفراً مثل كفرهم ﴿ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ مستوين أنتم وهم في الكفر ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا بأن يهاجروا من الكفر إلى الإيمان لأن الهجرة في سبيل الله بالإسلام ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ ﴾ عن الإيمان ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ كما هو حكم سائر المشركين ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا ﴾ توالونه ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوهم.

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وادع قبل خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على ألا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال والتجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال كان الأسلميون بهذا من المعاهدين أيضاً، لقد كان بنو مدلج عاهدوا ألا يقاتلوا المسلمين، وعاهدوا قريشاً ألا يقاتلوهم، فبهذا يكون بنو مدلج والأسلميون معاهدين.

وهذا هو قوله تعالى مستثنياً من قوله: ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ الخ، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ أي إلا الذين يتصلون إلى الأسلميين ونحوهم ممن لهم عهد ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ ﴾ ضاقت ﴿ صُدُورُهُمْ ﴾ عن ﴿ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ عطف على الصلة، أي: أو الذين جاؤوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم كبني مدلج، والحصر: الضيق والانقباض. ثم بين الله أن صرفهم عن المسلمين من فضل الله فقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن يقوي قلوبهم ويشرح صدورهم ويزيل الرعب من قلوبهم ﴿ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾ ولم يكفوا عن قتالكم ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ الاستسلام والانقياد ﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أي فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

ثم إن أسداً وغطفان وبني عبد الدار أتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا بأس المسلمين، فلما رجعوا كفروا، وكلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين قاتلوهم، فهذا قوله تعالى: ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ ﴾ بإظهار الإيمان في المدينة ﴿ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ بمحاربتكم إذا رجعوا إليهم ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ ﴾ الكفر ﴿ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ﴾ عادوا إليها وقلبوا فيها أقبح قلب ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ ﴾ ولم يلقوا الصلح ﴿ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ ﴾ عن قتالكم ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ حيث تمكنتم منهم ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغدرهم.

وقال في الفصل التاسع ما ملخصه: أن القتل ثلاثة أقسام: عمد وشبه عمد وخطأ. فأما العمد المحض فهو أن يقصد قتل إنسان بما يقتل به غالباً فيقتل به، ففيه القصاص عند وجود التكافؤ أو دية مغلظة سيأتي بيانها في مال القاتل. وأما شبه العمد فهو أن يقصد ضرب إنسان بما لا يقتل بمثله غالباً، مثل إن ضربه بعصا خفيفة أو رماه بحجر صغير فمات فلا قصاص عليه، وتجب عليه دية مغلظة على عاقلته المؤجلة إلى ثلاث سنين. وأما الخطأ المحض فهو ألا يقصد قتله بل قصد شيئاً آخر فأصابه فمات

فلا قصاص عليه، وتجب فيه دية مخففة على عاقلته مؤجلة إلى ثلاث سنين، وقتل الخطأ مثل أن يقصد قتل كافر فيصيب مسلماً.

ودية الحر مائة من الإبل فإن لم توجد الإبل فقيمتها وهي ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم، وفي الدية المغلظة والمخففة كلام طويل في علم الفقه يرجع إلى أن تكون الإبل أصغر سناً من التي هي مغلظة مع كونها مائة، وهل دية الذمي والمعاهد مثل دية المسلم؟ رأيان، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا ﴾ بغير حق ﴿ إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ أي إلاّ قتلاً خطأ، كما اتفق لعياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الأم، لقي حارث بن زيد في طريق وكان قد أسلم ولم يشعر به عياش فقتله ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ أي فواجبه تحرير رقبة أي عتق رقبة مؤمنة ﴿ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث ﴿ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ يتصدقوا عليه بالدية، فسمى العفو عنها صدقة حثاً عليها ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ أي إن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين ولم يعلم إيمانه فعلى قاتله كفارة دون الدية لأنها ترجع إلى الورثة والكافرون لا يرثون المؤمنين كما هو معلوم في الميراث ﴿ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ وإن كان من قوم معاهدين أو أهل ذمة فحكمه حكم المسلم في وجوب الكفارة والدية ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ رقبة بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها ﴿ فَ ﴾ عليه ﴿ صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ شرع ذلك ﴿ تَوْبَةً ﴾ صادرة ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بحاله ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما أمر في شأنه ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾.

واعلم أن قتل المسلم عمداً والزنا وشرب الخمر وعقوق الوالدين وأشباهها لا توجب خلوداً في النار، ولكن عذابها شديد لأنها من الكبائر، والمراد بالخلود المكث الطويل، فإن الدلائل متظاهرة أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم.

روي أن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم غزت أهل فدك فهربوا وبقي مرداس ثقة بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا به وكبروا كبر ونزل وقال: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فقتله أسامة واستاق غنمه، فنزل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ ﴾ سافرتم وذهبتم للغزو ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ ﴾ اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ ﴾ ممن حياكم بتحية الإسلام. وفي قراءة: «السلم» أي الاستسلام والانقياد ﴿ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ تطلبون ماله الذي هو حطام سريع النفاد ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ لكم تغنيكم عن قتل أمثاله لماله ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ أول ما دخلتم في الإسلام فتحصنتم بالشهادتين من غير أن يعلم ما في قلوبكم ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بالاشتهار بالإيمان ﴿ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ وافعلوا بالداخلين في الدين ما فعل بكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ عالماً به.

وقال في الفصل العاشر: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ ﴾ عن الحرب ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ بالرفع صفة لـ«القاعدون» أو بدل، أو بالنصب: حال ﴿ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾

أي لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ أي بدرجة ﴿ وَكُلًّا ﴾ من القاعدين والمجاهدين ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ المثوبة الحسنى، وهي الجنة، ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ و«فضل» متضمن معنى: أعطى، و«أجراً»: مفعول ثان له، و«درجات» و«مغفرة» و«رحمة» كلها بدل من «أجراً» ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما عسى أن يفرط منهم ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بما وعد لهم.

وقال في الفصل العاشر أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي توفتهم أو تتوفاهم، فهو ماض أو مضارع، أي تتوفاهم بقبض أرواحهم ﴿ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة، كقيس بن الفاكه بن المغيرة، وقيس بن الوليد بن المغيرة، فهذان وأشباههما دخلوا في الإسلام ولم يهاجروا، فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار، والمعلوم أن الله تعالى لم يقبل الإسلام من أحد بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يهاجر إليه، ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» أخرجاه في الصحيحين، فسألهم الملائكة حين قبض أرواحهم ﴿ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ سؤال توبيخ وتقريع ﴿ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ ﴾ عاجزين ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض مكة ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ كما فعل المهاجرون إلى المدينة وإلى الحبشة ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ لأنهم تركوا الواجب وساعدوا الكفار ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ والمخصوص بالذم جهنم ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ استثناء منقطع ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ حالان من المستضعفين ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ وهذا ظاهر ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا ﴾ وهو التراب، يقال: خرج الرجل عن قومه مراغماً لهم، أي: مغاضباً لهم ومقاطعاً؛ فالمراغم المذهب والمهاجر والمتحول كأنه خرج رغم أنفهم، والرغم التراب كأنه أذلهم بخروجه، وأنشد الزجاج:

إلى بلد غير داني المحل　　　بعيد المراغم والمضطرب

﴿ وَسَعَةً ﴾ في الرزق وإظهار الدين ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ومعنى «وقع»: وجب. نزلت في جندب بن ضمرة، حمله بنوه على سرير متوجهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله وقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات فيه.

وقال في الفصل الحادي عشر: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي سافرتم ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ بتنصيف ركعاتها، فيصير الظهر والعصر والعشاء كل منها ركعتين كالصبح وجوباً عند أبي حنيفة لقول عمر رضي الله عنه: «صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم»، ولقول عائشة رضي الله عنها: «أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فقصرت في السفر وزيدت في الحضر»، ورأى الشافعي أن القصر رخصة في السفر والإكمال عزيمة، لأن لا جناح يستعمل في موضع التخفيف والرخصة لا في موضع العزيمة. وقال الحنفية: إنه عزيمة لا رخصة ولا يجوز الإكمال لقول عمر المذكور، وأما الآية فكأنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر، فنفى عنهم الجناح لتطيب نفوسهم بالقصر ويطمئنوا إليه، ثم

قال: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ جار على حسب الغالب في ذلك الوقت ولذلك لم يعتبر المفهوم، فالصلاة تقصر في الخوف وفي الأمن كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾[البقرة: ٢٢٩] الخ، فالسنن تظاهرت على جوازه في حال الأمن.

آراء العلماء

(١) صلاة المسافر ركعتان تمام غير قصر عند ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبد الله والسدي وأبي حنيفة، فقصرها إذن تخفيف الركوع والسجود.

(٢) صلاة المسافر مقصورة وليست بأصل، وهو قول مجاهد وطاوس والشافعي وأحمد.

(٣) يجوز القصر في كل سفر مباح عند الشافعي ومالك وأحمد والجمهور.

(٤) يجوز القصر بشرط أن يكون سفر حج أو عمرة أو جهاد أو سفر طاعة.

(٥) لا يجوز القصر في سفر المعصية، وأبو حنيفة والثوري يجيزانه فيه.

أيّ سفر يكون القصر فيه؟

(١) قال داود وأهل الظاهر: يجوز القصر في قصير السفر وطويله، ويروى عن مالك أيضاً.

(٢) قال الأوزاعي: يشترط سفر يوم.

(٣) وقال الحسن والزهري: سير يومين.

(٤) وقال الشافعي: سير ليلتين، وذلك ستة عشر فرسخاً، كل فرسخ ثلاثة أميال، فتكون ثمانية وأربعين ميلاً بالهاشمي، والميل ستة آلاف ذراع، والذراع ٢٤ إصبعاً معترضة معتدلة، والإصبع ست شعيرات معترضات معتدلات.

(٥) ابن عمر وابن عباس يقصران ويفطران في مسيرة أربعة برد، وهي ستة عشر فرسخاً كالمتقدم وهكذا مالك وأحمد وإسحاق.

(٦) وقال الثوري وأبو حنيفة وأهل الكوفة: لا قصر في أقل من ثلاثة أيام.

فأبو حنيفة مشدد، وداود وأهل الظاهر مسهلون، والباقون متوسطون، ثم قوله تعالى: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ يروى فيه أن عمر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله عليكم بها فاقبلوا صدقته» أخرجه مسلم.

ثم شرع يذكر صلاة الخوف فقال: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾. ملخص ذلك: أن يجعلهم طائفتين تقوم إحداهما معه يصلون وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو، والذين يصلون معه يجب أن يأخذوا أسلحتهم، فإذا سجد المصلون وجب أن يكون الذين لا يصلون حارسين لهم من ورائهم، ثم يذهب المصلون إلى وجه العدو ويأتي الحارسون فيصلون مع الإمام، ويجب أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم. هذا معنى الآية، وهناك كيفيات لتلك الصلاة، وهذا بيانها:

الأولى: صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخل، صلى مرتين بكل طائفة مرة، وهذا ظاهر.

الثانية: أن يصلي صلاة واحدة بكل ركعة في التي هي ركعتان، فيصلي بالأولى ركعة وينتظر قائماً حتى يتموا صلاتهم منفردين ويذهبوا إلى وجه العدو، وتأتي الأخرى فيصلي بهم الركعة الثانية ثم ينتظرهم قاعداً حتى يتموا صلاتهم، ويسلم بهم كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع.

وقال أبو حنيفة: يصلي بالأولى ركعة ثم تذهب هذه وتقف بإزاء العدو، وتأتي الأخرى فتصلي معه ركعة ويتم صلاته ثم تعود إلى وجه العدو، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة الثانية بغير قراءة وتتم صلاتها، ثم تعود وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها، وإذا كان العدو في جهة القبلة فليصفهم صفين ويحرم بهم جميعاً، فإذا سجد سجد معه أحد الصفين ووقف الصف الآخر يحرسهم، فإذا رفع سجدوا ولحقوه وتشهد الإمام بالصفين.

والعبرة بترتيب الإمام ونظره في الحرب، ولا دخل لأحد إلا نظر القائد الذي يصلي بهم، والآية واضحة، وإنما حذرهم الله لأن العدو يتربص وقت الصلاة ليفنيهم فيه، ولذلك قال: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ أي تمنوا أن ينالوا منكم غرة في صلاتكم فيشدون عليكم شدة واحدة.

من آراء العلماء

(١) رأي أبي يوسف والحسن وابن زياد من أصحاب أبي حنيفة أن صلاة الخوف كانت خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا تجوز لغيره.

(٢) المزني من أصحاب الشافعي يقول كانت ثابتة ثم نسخت.

(٣) علي بن أبي طالب وأبو موسى وحذيفة بن اليمان صلوها: الأول ليلة الهرير، والثالث بطبرستان ولم يخالفهم الصحابة، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وكثير من العلماء.

واعلم أنه إذا اشتدت الحرب والتحم القتال صلوا رجالاً وركباناً يومئون للركوع والسجود إلى أي جهة كانت عند الشافعي. وعليه يكون قوله تعالى فيما يأتي: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي إذا أردتم أداءها واشتد الخوف فأدوها كيف أمكن قياماً مسايفين ومقارعين وقعوداً مرامين وعلى جنوبكم مثخنين. ومذهب أبي حنيفة أنهم لا يصلون، فإذا أمنوا قضوا ما فاتهم من الصلاة، ثم قال: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ أي لا حرج عليكم في حال المطر وحال المرض ﴿ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ لأن السلاح يثقل حمله عليكم ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ أي راقبوا العدو ولا تغفلوا عنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أديتموها وفرغتم منها ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ فدوموا على الذكر في جميع الأحوال. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله في كل أحيانه» ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي أتموها أربعاً وذلك في الإقامة في الأوطان أو أتموا ركوعها وسجودها إذا سكن القلب بالأمن بعد الخوف ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ فرضاً مؤقتاً محدود الأوقات، لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ لا تضعفوا في طلب الكفار بالقتال ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ

كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ فالألم قدر مشترك بينكما، وقد صبروا على ألمهم أفلا تصبرون؟ وقد امتزتم بأنكم على الحق وفي قلوبكم رجاء النصر في الدنيا والثواب في الأخرى فأنتم ترجون إحدى الحسنيين ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فهو يعلم مصلحتكم. انتهى التفسير اللفظي.

التفسير المعنوي وجمال القرآن والإسلام

(١) مناسبة هذه الآيات لأول السورة في خلق آدم.

(٢) كيف تحفظ صور الموجودات الجمادية باليبوسة بعد أن شكلت بالرطوبة؟.

(٣) كيف تحفظ الأنفس الحيوانية بما هو فوق ذلك من قوة غضبية وأسلحة مختلفة؟.

(٤) علم الإنسان ورحمته وقواه النفسية للحياة وشجاعته لحفظها ودوامها.

(٥) ظهرت هذه القوة الغضبية في الشجاعة لحفظ الإنسان، وفي مظاهر الشهامة عند المتوحشين.

(٦) عند بعض الأديان القديمة.

(٧) عند الأمم المختلفة بأشكال متباينة.

(٨) تركها بعض الديانات فضلت أممهم سواء السبيل واتبعت الشهوات.

(٩) الإسلام له في ذلك ثلاث درجات.

(١٠) الآيات التي قرأتها الآن والسابقة للمحافظة على الوطن، وتقصير بعض المسلمين، وفضل بعضهم في التقدم.

(١١) تجاوز ذلك الإسلام إلى إدخال العناصر وجعلهم أمة واحدة ككافور الإخشيدي والعبيد المصريون يسودون ساداتهم وهذا بخلاف أوروبا، وإن الدين الذي بهذا الشكل يصلح للمدنية إذا وجد رؤوساً كبيرة تراعي الزمان والمكان.

نظام هذا العالم ونظام الإنسان والتئام أول هذه السورة مع علومها

اعلم أن الله عزّ وجلّ خلق هذا العالم متشابهاً متشاكلاً متجاذب الأطراف، وحسبك أن تنظر ما حولك من العناصر والمركبات الطبيعية، ألست ترى كل صورة حجرية أو كتلة مدرية ما نالت شكلها إلاّ برطوبة ألانتها، ومائية سهلتها، فقبلت التدوير أو التثليث أو التربيع أو التخميس، ثم ألحت عليها الشمس إلحاحاً فتماسكت الأجزاء وتجاذبت الأطراف، أولست ترى أن اللبنات يصيرها الناس آجراً بإحراقها بالنار محافظة على الصورة أن تفلت من مادتها. فلعمرك لم تقبل الشكل إلاّ وهي بالرطوبة مشبعة، ولم يبق الشكل يوماً أو بعض يوم أو مئات السنين إلاّ باليبوسة التي أنتجتها الحرارة الشمسية أو الحرارة النارية، يستوي في ذلك الجماد والمعدن والنبات والحيوان.

أليس آدم الذي أشير إليه في أول هذه السورة بأننا منه خلقنا ذكوراً وإناثاً، قد خلق من صلصال، وما الصلصال إلاّ الفخار، والفخار كان رطباً حتى شكل، وبعد ذلك ألحت عليه النار فيبس.

أيها الذكي ارفع طرفك قليلاً، وليكن بصرك حديداً، فلتنظر أليست النفوس الحيوانية فيها القوة الغضبية لتحفظ كيانها وتمنع عدوها وتنطحه بقرونها، أو تقتله بجثمانها وقوتها، أو ترفسه بأرجلها، أو تعدو إلى أوكارها الخ.

أليس هذا شيئاً اختص بالنفوس لم يكن في الأجسام الجمادية ، فهو هنا حرارة نفسية ، وهناك في الصلصال حرارة نارية جسمية ، ثم إن النفوس الحيوانية والإنسانية لا تحيا إلاَّ بآراء وغرائز تقوم بها من رحمة وحب ، والحب قد يكون لطلب الطعام الذي به حياة الأجسام ، وطلب الإناث من النوع لتولد الأمثال .

فالحب والرحمة في الأنفس قائمان مقام الرطوبة في الأجسام الطبيعية ، لتقبل الأشكال الصورية والقوة الغضبية في هذه الحيوانات كاليبوسة في الأجسام ، فلولا الغذاء ما عاش حيوان ولا نما إنسان ، كما لا يصور نبات ولا مادة ترابية إلاَّ بمخالطة الرطوبات ، ولولا غريزة حب البقاء في الإنسان والحيوان والغضب المودع فيهما للدفاع عن النفس ما عاش أحد منهما إلاَّ قليلاً .

فالمحافظة في سائر الحيوان على الأنفس غرائز واجبة الحصول . فترى ما ألهمه كل حيوان ظهر أثره على أعضائه ، فترى القرون والمخالب والأنياب وقوة العدو والصدف على جسد السلحفاة والإبر على جلد القنفذ وأنياب الأسد وسم الحيات والعقارب وقوة الفيل ، كل تلك آلات تطابق ما جبلت عليه تلك النفوس من المحافظة على أجسامها بقواها الغضبية المسلحة بالأعضاء الظاهرية ، وترى هذه القوى الباطنية لا أثر لها في الأحجار ، كما لا أثر لأسلحتها في تلك الجمادات . وتعال فوق ذلك إلى الإنسان ، تر الطيارات الهوائية والجيوش البرية والمراكب البحرية والغواصات المائية ، كل ذلك مطابقة لقواه الفكرية واستعداداته العقلية .

على ذلك درج الإنسان قديماً وحديثاً بأشكال مختلفة ، وهو في الحقيقة لم يتعد طور ما حوله من المخلوقات ، وإنّما ذلك تنوع في أنواع الدفاع . ولعمرك لم يخرج عما جاء في أول السورة أنه من أبيه آدم وهو من صلصال حبست صورته بالنار فيبست الصورة وحفظت . هكذا هنا تبقى الصورة الإنسانية والحيوانية بدفاع العدو عنها فلا يتلفها ، وذلك بالسلاح القائم مقام الحرارة في الصور الجمادية .

ألم تر إلى المتوحشين من أهل السودان كيف ظهر ذلك في أفعالهم العادية ، وأن الشاب يظهر أمام الفتيات إذا أراد التزوج بواحدة منهن فيضربونه ضرباً متوالياً حتى يسيل الدم من ظهره ، وهو لا يظهر الألم شجاعة وقوة حتى يستعظمه الواقفون ويملأ عين من ترغبه زوجاً لها .

ثم ارتفع عن هذه الطبقة إلى الأمم التي أخذت من العلم بنصيب ، أفلم يكن أهل أسبارطة يجعلون التربية دائرة على أن يتمرن الشبان على احتمال الضرب كل يوم بالسياط أمام الأشراف . فأما الصبيان فإنهم يضربون ضرباً صورياً ثم يزاد كل يوم شدة بحيث يتمرنون تدريجاً ويكون ذلك قوة لهم ، حتى يتحملوا ما سيلقيه الدهر عليهم من دروسه فتقوى أجسامهم ويكونون شجعاناً .

ثم ارتفع فوق ذلك المستوى وانظر إلى الأديان القديمة كالدين الذي كان شائعاً في شمال أوروبا في جهة السويد ونروج ، إذ قام فيهم عظيم يدعى « أودين » فاتبعوه قروناً طويلة وحكم ألا يموت أحدهم إلاَّ قتيلاً ، وعدّ الموت العادي جريمة وإثماً مبيناً ، حتى إنه إذا كان عظيم من العظماء قد دنا أجله نزل في سفينة وأوقدوا فيها النار حتى يموت الملك أو الأمير بين الماء والنار . ولعمرك لم يكن ذلك إلاَّ لتربية الشجاعة في القلوب وأن يألف الإنسان عظائم الأمور ، فلا يجزع للمصائب ولا يحزن للمصائب .

كل ذلك من السر الذي في صلصال آدم والمحافظة على النفوس من طريق الشجاعة ؛ ولقد ثبت أن الحيوانات البحرية أطول أعماراً، وانظر هذا في الدين وهو الدين المسيحي كيف حرم مقابلة السيئة بمثلها، ولكن أتباعه بعد حين صاروا أظلم الأمم، فهتكوا الأعراض وخربوا البلاد وملكوا المسلمين شرقاً وغرباً، وظلم بعضهم بعضاً كما حصل في حرب الألمان وأوروبا فلم يرحموا إنساناً من دينهم أو غير دينهم، فالقوة الغضبية غالبة على هذا الإنسان.

ولما جاء الدين البوذي في الهند ومنع الناس من الظلم اجتاحهم الأوروبيون، ولقد تشكلت هذه الصفة في الأمم بأشكال مختلفة كما فعله الفارابي في كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة:

(١) من الأمم من اتخذت القهر بالسلاح لإشباع الشهوات البهيمية والقوة الشهوية ومطاوعة الحواس الخمس في مطالبها الظاهرية.

(٢) ومنهم من يقول كلا، وإنّما أريد الغلبة لحفظ كرامتي وعظمتي بين الناس.

(٣) ومنهم من يقول أغلب الناس لشهواتي ولحفظ كرامتي معاً.

(٤) ومنهم من يقول ليست الغلبة والقهر طبيعيين في الإنسان وهذه تسمى المدنية المسالمة.

(٥) وهؤلاء يقاتلون إن قوتلوا وأريد إيذاؤهم.

(٦) وأولئك لهم طرق في الغلبة فتارة تكون الغلبة بالحرب.

(٧) وتارة تكون بتجارة النساء وحرب الرجال.

(٨) ومنهم من يستعبدون أمة ويتخذونها مساعدة لحرب أخرى.

(٩) ومنهم من يجعل المعاهدات سلماً للظلم فيعاهدون أمة ويحاربون معها أخرى.

ولا نطيل بذلك، بل نقتصر على ما أتى بالمقصود فنقول: هاأنت ذا رأيت طبائع الإنسان وآراء بعض الديانات وسياسات الأمم، فهاك أمر الإسلام. لقد أثبت لك في سورة البقرة أن للإسلام في الحرب ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: ألاّ حرب ولا نضال، وذلك في زمن الضعف كما في أيام إقامة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة.

المرتبة الثانية: محاربة المحاربين والذين يهجمون على الأوطان.

وجوب المحافظة على الوطن في الإسلام من أهم ما في القرآن

انظر ما مر عليك في سورة البقرة، ألم تر إلى قوله تعالى في قصص بني إسرائيل: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ٢٤٦]، وانظر ما تقدم في سورة آل عمران كيف رأيت أن غزوة بدر المشار إليها في أولها إنَّما كانت محاربة لأهل مكة الذين أخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها، وغزوة أحد كيف كانت لما أراد الأعداء مهاجمة المدينة، وقد تشاور النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وأشار بعضهم بالخروج إلى الأعداء، وبعضهم أشار بالبقاء في المدينة، ثم تغلب الفريق الأول وخرجوا إلى أحد، ثم انظر إلى هذه الآيات وكيف يقول: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ﴾[النساء: ٧٥] الخ فأفاد أنه سبحانه يحرضهم على إنقاذ

المسلمين بمكة من ظلم الكافرين هناك، وهذا ولا شك دفاع عن الوطن، فانظر كيف جعل الله الوطن محترماً وجعل المحافظة عليه أمراً عظيماً، وكيف كانت سورة آل عمران قد كان منها قسط كبير للجهاد، وهكذا هذه السورة، كل ذلك للمحافظة على الأوطان.

أفلست ترى أن المسلمين أيام حرب الأندلس لم يكن عندهم شهامة ولا حمية ولا شرف ولا دين وهم جهلاء؟ أفلا ترى أيضاً أن المسلمين اليوم نائمون؟ اللهم إلاَّ ما حصل قريباً من أهل الأفغان والفرس والترك فإنهم استقلوا ونبذوا حكم الفرنجة لبلادهم.

فأما باقي المسلمين فإنهم نائمون ضربت عليهم الفرنجة ذلة الاستعباد، وهاهي ذه بلادنا المصرية تنفست الصعداء قليلاً في هذه الأيام، والفرنجة لا يزالون يغدون ويروحون في مصر وتونس والجزائر ومراكش وبلاد جاوة وسومطرة والشام وفلسطين والعراق، وأهل البلاد في تلك الأصقاع متحاسدون متباغضون متثاقلون يجهلون الشرف ولا يعرفون المحبة والاتحاد ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[الحشر: ١٤].

أفلم يقرؤوا قوله تعالى في هذه الآيات: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَانِ ﴾ فالمسلمون مأمورون أن يخلصوا من وقع في يد الأعداء من إخوانهم، وهؤلاء يقدمون إخوانهم قرباناً للفرنجة في مراكش وتونس والجزائر ومصر وربوع الشام والعراق.

لقد أصبح أبناء العرب مثلاً للذين يخضعون وطعمة لمن يأكلون، ولكن آن أن يزول ذلك الرجس من القلوب ويرجع لهم مجدهم المفقود إن شاء الله تعالى، فقد بدت بوادر النجاح وتباشير الفلاح.

الواجب على المسلمين في أقطار الأرض

أيها المسلمون الفرار الفرار من العار، انظروا في سائر شؤونكم، الجهاد ليس قاصراً على الحرب، أنتم اليوم تحتاجون للجهاد في كل شيء: في التجارة، في العلم، في حفظ البلاد، في عدم ضياع الوقت، في حفظ الصحة، في السياسة، في التفكر. فلتكن أكثر ملابسكم من مصنوعات إخوانكم في بلادكم، ولترقوا الصناعات الإسلامية، وتنشئوا المدارس العالية بكثرة، فعشرة متعلمون تعليماً راقياً أفضل من آلاف من الناقصين تعليماً، ولا تمكنوا الأجانب من البقاء في بلادكم، وجدوا في القوة لإخراجهم، واتحدوا فيما بينكم لطردهم، ذلك ما يجب عليكم أيها المسلمون.

أما المرتبة الثالثة التي ذكرت في سورة البقرة: فقد ذكر نظيرها في بعض هذه الآيات وهي قتال المشركين أين وجدناهم، كما قال في آية: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦]، والقصد من هذه إدماج الأمم وجعلها أمة واحدة.

ولقد تجد هذا واضحاً في أمة الإسلام، وقد صار خلقاً، فالمسلمون بحب الدين لا يفضلون أحداً على أحد إلاَّ بالتقوى.

ألا ترى إلى كافور الإخشيدي كيف كان عبداً أسود وحكم المصريين وفيها الأشراف من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وكيف ترى أسامة بن زيد ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادة الجيش ودام كذلك زمن أبي بكر.

وترى في بلادنا المصرية آثار العبيد ظاهرة في هذه الأيام، فإن عبيد الخديويين لهم من الملك ما ليس لأعظم الأحرار في البلاد، كل ذلك لأن الإسلام خلط الأمم وجعلها أمة واحدة كما في أول هذه السورة: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فإذا كانت الحرب لأمم أخرى فليس المقصد إلاّ ترقية الأجناس المنحطة، فإنك ترى العساكر الانكشارية في الدولة التركية ما كانوا إلاّ شراذم من العبيد الذين اشتروهم بالمال، وكذلك المماليك البرية والبحرية بمصر إن هم إلاّ أرقاء كانوا يجلبون من بلاد الروس والصقالبة ويشترون بالمال، فإذا مات السيد من الأمراء المصريين ورثه عبده الذي اشتراه.

ومن هؤلاء الظاهر بيبرس ومن قبله ومن بعده من الملوك الذين استولوا على مصر نحو ثلاثمائة سنة، وهكذا نسلهم بقوا فيها بعد فتح الدولة التركية لها إلى دخول المغفور له محمد علي باشا في أول القرن الثامن عشر المسيحي، فمزقهم شر ممزق، وكذلك الترك قتلوا الانكشارية الذين هم عبيد أيضاً كانوا يتعلمون الدين والقرآن ويحكمون الدولة ويدافعون عنها فاستعبدوا ملوك بني عثمان وقتلوا الدولة وأهلكوها وأخروها، والقصد من هذا القول أن الإسلام لعدم تفرقته بين الأجناس تغالت الأمم الإسلامية في تسليط الأجانب عليها متى أسلموا، حتى أنست بالمذلة فأرهقتهم الفرنجة، والقرآن هو الأصل الذي عليه الاعتماد في ذلك، هذا كان مقصد الإسلام من الأسرى ثم فكهم وإعتاقهم، فالقرآن يأمر بالحرب للسلم وللتعليم فيأتي بالجهلاء والمتوحشين فيرقيهم ويعلمهم، ثم يكونون في نعمة لم يحلم بها آباؤهم، وهذا العمل من المسلمين مطابق لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

أفليس ما هناك هو ما في هذه السورة؟ أليس يقول هنا في أول السورة إنه خلقنا من نفس واحدة؟ ثم يحرضنا على القتال لحفظ الوطن، ثم يشير إلى القتال العام، ثم يقول حرّروا الرقبة المؤمنة إذا قتلتم مؤمناً خطأ فجعل التوبة من الذنوب أن تحرر الأسرى. إن تحرير الأسرى ظهر في الإسلام ظهوراً واضحاً، فكثيراً ما يأمر بالتحرير وعتق العبيد، وهذا هو السر في اختلاط الشعوب الإسلامية.

مقايسة أوروبا بالإسلام

لقد دخلت أوروبا بلاد الشرق وقالت: أنتم أيها الناس أحرار، ولكن هل جعل الإنجليز من المصريين وزيراً أم الفرنسيون جعلوا من الجزائريين أميراً؟ أم اتخذ الإسبان من أهل مراكش وكيلاً؟ كلا ثم كلا، وكثير من تلك الدول تغتال الأموال جهاراً، وتقتل الناس بالطيارات فلا ينامون إلاّ غراراً فأيّ الحكمين أقرب للعدل وأولى بالحق.

هل جعل الفرنجة من المسلمين ملكاً على بلادهم كما جعلنا كافوراً ملكاً في مصر لمجرد الإسلام. كلا هذه هي الميزة الإسلامية على سائر الأمم الغربية.

نحن جعلنا كافوراً ملكاً وأمريكا لا ترضى أن يكون السود جالسين مع أبنائها في العربات، ويحقرون أن يساووهم، فالإنسان جهول كفار.

محاورات في المجلس العام للمسلمين بعد مائتي سنة فأكثر

يحكى في عالم الخيال أنه اجتمع مجلس الشورى العام «البرلمان» في الأستانة، وقيل: في أنقرة وقيل: في مكة، وحضر من كل أمة من الأمم العربية والتركية والفارسية والأفغانية ونحوها نائبون. ولما

استقر بهم الجلوس وقف أحد الأعضاء وقال : لقد أغارت الأمم الإسلامية على أمة كذا وأدخلتها في حوزتها ، فهل يرى المجلس أن نعاملها معاملة أوروبا لأهل أمريكا الأصليين ، فنميتهم بالتدريج ونقرضهم من الوجود ، كما هي السنة المتبعة في الاستعمار ؟ فردّ نائب الأفغان وقال : إنا إذا فعلنا ذلك كنا مثل السوء في العالمين ، وكيف نفعل ذلك ونبينا جاء رحمة للعالمين ، ونحن خلفاؤه المخلوقين ، فقال نائب الفرس : ما لكم تردون كل مورد ، وتذهبون في البحث بعيداً ، فالعضو المحترم الأول حكم بالإهلاك ، والثاني أوجب ألا يمسوا بسوء ، وهل تذكرون أوسط الأمور وأفضلها عند الجمهور ، أن نجعل بعضهم لبعض عدواً ، كما فعل الإسكندر بملوك الطائف ، كما أمره أستاذه أرسطاطاليس ، وسلط عليهم الشهوات ، وزوجهم الغانيات ، وألبسهم التيجان ، وألزم كلاً اسم الملك ، فتنازعوا بينهم ، والإسكندر حكم يحكم بينهم ، فهم الأعداء وهو المحبوب ، وهكذا حذت حذوه إنكلترا وفرنسا وسائر أمم أوروبا ، حتى فرقت المسلمين شذر مذر أيام القرون الأولى ، وهانحن أولاء قد منّ الله علينا فاجتمعنا ، فلنفعل معهم كما فعلوا معنا ، فقام عالم مصري وقال :

أيها الإخوان ، أذكركم بالقرآن ، ألم يقل الله : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ في سورة النساء ، فلنردّ الأمر إلى كتاب الله وفعل الرسول ونظام هذا العالم ، يقول الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ ، فلم يقل يا أيها المؤمنون ، بل جعل الخطاب للناس ، والناس كلهم أسرة واحدة ، ولقد وصى على الأيتام وأمرنا أن نعولهم ، وأن نتعفف إذا كنا أغنياء ، ونأخذ أجرنا بالحق إذا كنا فقراء ، فهؤلاء الذين دخلوا في حوزتنا كالأيتام ، فلنكن عوناً لهم ، ولنحافظ عليهم ولنعلمهم حتى يتهيؤوا للحياة والاستقلال ، والمقصود من الرد إلى كتاب الله النظر في المقصد العام من فعل الله وقوله على وجه العموم . فقال العضو التركي : لقد قلت قولاً فيه الإثم والشنار ، وما الفائدة العائدة على المسلمين ، نعلمهم ونربيهم فيصبحون مثلنا ، ويحارب أبناؤهم أبناءنا ، إن هذا هو الجهالة العمياء والضلالة السوداء . فقال العالم التونسي وهو عضو بالبرلمان : إن النظرية الفرنجية عارية من العقل ، خالية من الفهم ، كانوا يخافون أن ترقى الدول فيبطشون بهم وهذا قصر في النظر وضعف في الفكر .

إن هؤلاء قد جنوا عكس ما زرعوا ، وبئسما زرعوا ، علموا أبناءهم الاتكال على ما صنع غيرهم ، فينامون على وساد الراحة ، والمسلمون يعملون فخملت أممهم وضعفت قواتهم ، لأن آباءنا كانوا يزيدون نشاطاً وهم يتدلون انحطاطاً ، فتكامل الخمول في الآخرين وتم النشاط والقوة في الأولين حتى دالت دولة الغربيين وأشرقت شمس الشرقيين ، فهذه النظرية جاهلية ، أما الذي أراه فإن الله عزّ وجلّ جعلنا خلفاءه في الأرض ووكل لنا إصلاح عباده ، وأوجب علينا قيادتهم وإرشادهم وحفظهم ، فلنعاملهم بالأمانة ولنعلمهم ولنهذبهم ولا نفعل ما فعل آباؤنا المسلمون ، فقد كانوا يأتون بالأوباش والجهلاء ويسلطونهم على منازلهم وممالكهم فيحكمون الدول ؛ كلا ثم كلا ، فذلك هو الذي أضاع الدولتين العربية والتركية القديمة ، وهذا تفريط من المسلمين ، ولا نذلهم إذلالاً شديداً كما فعل الأوروبيون في المسلمين ، ولكن نتخذ الطريق السوي فنعلمهم ونربيهم ونتركهم متى استقلوا بأنفسهم ويكونون لنا أصدقاء مخلصين .

فأما ما قاله العضو المحترم إن أبناءهم يقتلون أبناءنا، فهذه نظرية أوروبية خاطئة، ذلك أنه لا يبقى في الوجود إلاّ الأصلح له، والأمة المصلحة النافعة للناس لن تبيد من الوجود، فما دمنا نافعين للناس فالدوام مضمون، ولسنا نخاف على أبنائنا إلاّ من نومهم وكسلهم وحرصهم وجبنهم، ولن يكون ذلك إلاّ إذا ظلمنا هؤلاء الذين ملكناهم فسخرناهم لأبنائنا، فينام هؤلاء الأبناء على فراش الراحة الوثير كما نام الأوروبيون على حساب الشرقيين، فوقعوا في ذل الشهوات، فزالت مدنيتهم وتفرق جمعهم وزال اسمهم من الوجود، فهذه الأمم كانت أنظارها قصيرة وآراؤها سقيمة، يفعلون ما فعلته الدولة العباسية والدولة البائدة التركية التي كانت تأكل أرزاق الأمم فتصبح عالة عليها، وتزول من الوجود كما كانت دولة الرومان.

وعلى هذا فلنساعد هؤلاء القوم ونقول لأبنائنا استعدوا للحياة وكونوا ذوي عزم وحزم، ولنعوّدهم السلام والأعمال الشريفة ولنهذبهم ونعلمهم الحب والاتحاد، وهذا هو المسعى الحميد والرأي السديد، فإذا اجتمعت الأمم على مضرتهم لن يضروهم لأنهم بالحق قائمون وللعالم مخلصون، والله لا يزيل من أرض المصلحين وإنّما يهلك المفسدين، وقال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

فأخذت الأصوات فنال هذا الرئيس الأخير ٢٨٩ صوتاً ضد ١٢٨ صوتاً، وعليه صار العمل.

انتهى المقصد السادس.

المقصد السابع

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

تفسير هذه الآيات

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له طعمة ـ مثلثة الطاء، والكسر أفصح ـ بن أبيرق من بني ظفر بن الحارث، سرق درعاً من جار له يقال له قتادة بن النعمان، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى داره، ثم خبأها عند

رجل يهودي يقال له زيد بن السمين، فالتمسوا الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي فأخذوه منه فقال اليهودي إنه دفعها إليّ طعمة بن أبيرق وشهد له جماعة من اليهود، وجاء بنو ظفر قوم طعمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاقب اليهودي وأن يقطع يده فأنزل الله هذه الآية.

ولما نزلت هذه الآيات فيه لحق مكة مرتداً عن دينه، ثم عدا على الحجاج بن علاط فنقب عليه بيته فسقط عليه حجر من الحائط، فلما أصبحوا أخرجوه من مكة، فلقي ركباً فعرض لهم وقال: ابن سبيل ومنقطع به، فحملوه حتى إذا جنّ عليه الليل عدا عليهم فسرقهم، ثم انطلق، فركبوا في طلبه فأدركوه فرموه بالحجارة حتى مات. قال بعضهم: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات، فهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ أي بما علمك الله وأوحى إليك ﴿ وَلَا تَكُن ﴾ يا محمد ﴿ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ أي ولا تكن لأجل الخائنين وهم قوم طعمة مخاصماً عنهم ومدافعاً ومعيناً ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ مما هممت به من معاقبة اليهودي ومن أنك هممت بالمجادلة عن طعمة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾ يعني لذنوب عباده يسترها عليهم ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بعباده المؤمنين ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ يخونونها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ أي مبالغاً في الخيانة مصراً عليها منهمكاً فيها ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ يستترون منهم حياء وخوفاً ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ وهو أحق أن يستحيا منه ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ لا تخفى عليه أسرارهم ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ ﴾ يزوّرون ﴿ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ لا يخفى عليه شيء من أسرارهم ولا أسرار غيرهم ﴿ هَٰٓ ﴾ للتنبيه ﴿ أَنتُمْ ﴾ يا ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ والإشارة إلى من كانوا يدافعون عن طعمة وقومه ﴿ جَٰدَلْتُمْ ﴾ خاصمتم ﴿ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ محامياً يحميهم من عذاب الله ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾ قبيحاً يسوء به غيره ﴿ أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ بما يختص به ولا يتعداه ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ بالتوبة ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا ﴾ لذنوبه ﴿ رَّحِيمًا ﴾ متفضلاً عليه، وهذا حث لطعمة وقومه أن يتوبوا ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ لا يتعداه وباله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فهو عالم بفعله حكيم في مجازاته ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً ﴾ صغيرة ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ كبيرة ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا ﴾ كما رمى طعمة زيداً ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ بسبب رمي البريء وتبرئة نفسه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بإعلام ما هم عليه بالوحي ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ﴾ فإن الله عصمك ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ من خفيات الأمور الدينية والحكمية ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ وأيّ فضل أعظم من النبوة؟ انتهى التفسير اللفظي.

بيان أجلى ونور أشرق

لقد تبين أن هذه السورة نزلت لجعل الناس أمة واحدة لأن أباهم واحد، وقد خلقوا من نفس واحدة؛ وأن رجالاً كثيراً ونساء خلقوا من تلك، وأن فيها الوصية على الرحم والقرابة واليتامى

والمساكين والوصية بالجار القريب والمسكين؛ فاعلم أن الأمر فوق ذلك فأصبح الدين الإسلامي بهذه السورة وهذا المقصد منها يحمي اليهودي الذي قال الله في أهل دينه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]، فانظر كيف جعل اليهود ألدّ الأعداء في الإسلام وكيف أنزل في الوحي هذه الآيات. يقول يصف الكتاب إنه أنزله بالحق وإنك يا محمد تحكم بين الناس بالعدل وكيف تكون قاضياً بالحق وتهمّ بالمحاماة عن الخائن فاستغفر يا محمد الله فإن الله غفور رحيم، وكيف تجادل عن الخائنين والله لا يحبهم، إنهم قوم يراؤون الناس ويخشونهم ولا يرقبون ربهم. هب أنكم أيها المحامون جادلتم عنهم في الحياة الدنيا، فمن ذا الذي ينفعهم يوم الحساب، وأين المحامون هناك، وأين الوكلاء في تلك الدار، ولقد كاد القوم يضلونك ولن يقدروا عليك لأنك معصوم، فأمددناك بلطائف من عندنا وأعطيناك رحمة من لدنا واصطفيناك للناس ففضلنا عليك عظيم.

يقال هذا القول وأمثاله لأجل يهودي يجب بحسب الظاهر أن يعدّ من السارقين فلقد وجد الدرع في داره، ومع ذلك يعاتب نبينا صلى الله عليه وسلم عتاباً طويلاً على ما همّ به مما يؤيده ظاهر الحال.

فانظر كيف حفظ الإسلام الحقوق مع أعدى أعداء الإسلام، وأنزلت الآيات للنبي عتاباً عظيماً فلو أن المسلمين اليوم رجعوا إلى ديننا ونظروا في الحقائق الساطعة لأصبحوا أرقى العالمين، فانظر كيف كانت هذه حال الإسلام وقد خالفها فريقان:

الفريق الأول: أكثر أمة الإسلام، فإنهم يتعصبون لأقاربهم ويجادلون عن أصحابهم وإخوانهم وأقاربهم بالحق وبالباطل، ولا يظهرون الحقائق ولا يشهدون بالحق، ويقولون: فلنستر على الإخوان، والله يقول كلا، انظروا إلى اليهودي كيف ضربت الذكر صفحاً عن قبيلة برمتها من العرب وأخزيتهم وأخجلتهم بآيات القرآن وقرّعتهم تقريعاً يقرأ لآخر الدهر ولم أبال بأنهم مسلمون وهو يهودي، بل نصرت الحق والحق أبلج، فإن أهل الأرض أمة واحدة وجميع الناس خلقي، وأنا الذي صوّرتهم وأوجدتهم في أرضي، وأنا الذي أنزلت الديانات، وحكمت على كل أمة أن تتبع ديناً وجعلتكم خير الأمم، وأنتم رحمة العالمين، فعليكم أن تخالفوا الأمم في أخلاقها، وأن تكونوا أشرف من أوروبا مقاماً وأرفع شأناً، وأرقى أخلاقاً، وأوسع إشراقاً، وأحلى مذاقاً، وأجمل اتساقاً، وأعظم للحقوق إحقاقاً.

الفريق الثاني: الدول الأوروبية، إن أمم الفرنجة لا تعدل في القضاء إلاّ في رعاياها. ولقد حدث وأنا أؤلف هذا التفسير أن شاباً مصرياً يدعى علي فهمي يبلغ من العمر ٢٣ سنة تزوج امرأة فرنجية من بلاد فرنسا، ولم تلبث معه إلاّ ستة أشهر، وبينما هي تعيش معه في بلاد الإنكليز تشاجرت معه فضربته برصاصة من بندقيتها، فأردته قتيلاً، فقدمت للقضاء فأقرت بذلك، فحكم القاضي والمحكمون في المحكمة أنها بريئة لا إثم عليها، معللين ذلك بأنه كان يؤذيها ويحجزها في منزله، وكان يفعل معها أفعال تناسلية لا تليق، ولم يكن لديها أي إثبات إلاّ ما كانت تلقيه بلسانها. وبهذا الحكم تقربوا لفرنسا واحتقروا المصريين والمسلمين.

فانظر الحكمين وتعجب من العملين أيهما أقرب للإنسانية، وأيهما يأنس بالوحشية، هذا هو دين الإسلام وهذه هي المدنية في أوروبا، فالحمد لله الذي وفقنا بهذا الحادث أن تكون الموازنة بين الديانات الشرقية والجهالات الغربية والدعاوى الكاذبة بأنهم قوم متمدينون، فلتقومنّ في بلاد الإسلام ممالك

عجية وأمم حكيمة تحقر ما في أوروبا من سفاسف الأخلاق والجهالة العمياء، ويطلعون على القرآن وينظرون فيه بإمعان، ويكون لهم في القضاء القدح المعلى، وفي حكم الشعوب المقام الأكمل، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الرعد: ١٧] ﴿ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[هود: ٦] . انتهى تفسير المقصد السابع.

المقصد الثامن

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ
يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا
أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ
وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ
ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ
ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا
﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ
مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي
جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن
كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ
خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾
مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ
عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ
وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ شَٰكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا
عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ
وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا
لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ
سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾

في هذا المقصد أربعة فصول:

الفصل الأول: إكمال القول على العدل في الأحكام وذلك بذمّ المحاماة عن الكاذبين الخائنين وعن التزوير سراً لنصرهم، ومدح شرف النفس ونصر الحق، والحض على الصلح والبر والمعروف والصدق، بدل ما لا خير فيه من تزوير المحامين، وفيه بيان عدل الله الذي هو المنهج الذي يقتدي به عباده في العدل في أفعالهم وأحكامهم، وكيف جعل أمره غير خاضع لإرادة أحد من المسلمين والأمم السالفة، بل ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾[الآية: ١٢٦].

الفصل الثاني: في بيان بعض مسائل في العدل تطبيقاً على القاعدة السابقة كالعدل في يتامى النساء والمستضعفين من الولدان واليتامى وحسن معاشرة النساء من قوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [الآية: ١٢٧] إلى قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[الآية: ١٣٢].

الفصل الثالث: في بيان أن الأمم التي عدم العدل في أحكامها بين أفرادها تندرس معالمها وتتحلل أجزاؤها، ويأتي الله بأمم أخرى تحكمها وتدوسها وتجعلها في الأذلين، وبيان إنكار الذات والأهل عند الصدق في الشهادة حتى لا تتعرض الأمة لأسباب الانقراض من قوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾[الآية: ١٣٣] إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الآية: ١٣٥].

الفصل الرابع: في بيان الإخلاص في الإيمان لأن العقيدة هي أسّ العمل بالعدل الذي شرحه في الفصول السابقة، فجعل هذا العمل أساساً لها، فأوضح فيه رذيلة النفاق وموالاة الأعداء، مما يجعل القلوب مذبذبة مضطربة لا ثبات لها، فلا يكون عدل في الأحكام ولا صدق في الشهادات، فتزول الدولة ويستخلف الله قوماً آخرين من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[الآية: ١٣٦] إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[الآية: ١٥٢].

الفصل الأول

لقد أبان في المقصد السابع كيف يكون العدل في الإسلام، وكيف يذم الله المحامين في القضايا المزورة، ومن يزورون الشهادات، كيف يلوم القضاة على عدم البحث الدقيق والكشف والتحقيق، والأخذ بالأحوط، وجمع الدلائل والتروي في الأحكام حتى تجمع الأدلة وتعرف كل علة وما على المدعي أو له، فأخذ في هذا المقصد يقول تتميماً للمرام وتنويراً للأفهام: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ يقال: ناجيته ساررته، والنجوى أيضاً: الإسرار في التدبير، يقول: لا خير في كثير مما يتسار الناس به ويدبرونه سراً، سواء أكان المتسارون قوم طعمة أو غيرهم ﴿ إِلَّا ﴾ نجوى ﴿ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فالنجوى للصدقات خير، وللمعروف وهو كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل خير، كالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع وتدبير الحرب وحفظ البلاد والثغور وما أشبه ذلك، فالمعروف أعم من الصدقة، والإصلاح بين الناس خير؛ فالنجوى إذن على قسمين: نجوى للشر ونجوى للخير، فالشر محذور والخير متبع ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ومن يفعل هذه الأشياء المذكورة طلباً لرضا الله فإن الله يكافئه بالأجر العظيم، وقد رتب الأجر العظيم على العقيدة النفسية بأن تكون جميع الأعمال صادرة لغرض الخير المغروس في النفس، لأن الحياة يراد منها الملكات الفاضلة في النفوس؛ فأما بذل المال أو العلم بلا قصد شريف، فإنما يكون أشبه

بهبوب الماء على ذرات الهباء، وما الأعمال إلاَّ ثمرات القلوب، فإذا لم يكن العمل منبعه القلوب، لم تتربَّ الإرادات في النفوس، ولم يكن لها إلاَّ النصب في الإنفاق، والتعب والمشاق بلا نمو في الأخلاق، ولا رقي في الشعور والوجدان.

ولما كانت المناجاة بالشر تابعة لما في النفس من شقاق، كما أن المناجاة بالخير تتبع ما فيها من وفاق لأن العقيدة أسّ الأعمال، فلا خير إلاَّ بالعقائد ولا شر إلاَّ منها حاصل، وكان الذي يجمع الأمم اتحاد عقائدها، والذي يفرقها تشتيت آرائها، أردفه بذم انشقاق الألفة الجامعة في الأمم الإسلامية فقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ ﴾ يخالفه، من الشق، فكل من المتخالفين في شق غير الشق الآخر ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ ظهر له الحق ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ نكله في الآخرة إلى ما تولاه في الدنيا ﴿ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ﴾ نلزمه جهنم، وأصله من الصلي، وهو لزوم النار وقت الاستدفاء ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ جهنم، وإذا كان اتباع غير سبيل المؤمنين ممنوعاً كان اتباع سبيلهم واجباً. وهذا دليل على أن الإجماع من الأدلة الشرعية.

ولما كان اتحاد الأمم مبناه اتحاد الفكرة، فإذا كان المعبود في نفوسهم واحداً اتجهوا لغرض واحد، وإذا تفرقت الأهواء تفرقت الأمم، أردفه بذكر التوحيد وكأنه يقول: إن تفرق الأمة في أعمالها واختلافها في أغراضها راجع إلى ما في القلوب من الاختلاف، وما في النفوس من الأهواء. فأما إذا اتحدت العقائد وانتظمت الآراء، فإن الأعمال تكون على مقتضاها اتحاداً والتئاماً فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ومدار الأمر على الوحدة العقلية، والوحدة العقلية تتبعها الوحدة العملية، فأما تفاصيل الأعمال وتباين الأحوال من طاعة وعصيان مع ثبات العقيدة الأصلية، فليس بمانع من الانتظام العام، فقد يغتفر في الفروع ما لا يغتفر في الأصول، فالشرك لا غفران في اعتقاده، والمغفرة قد تكون في الأحوال العملية فليس كل ذنب موجباً زلزلة القواعد، وما مثل القواعد الإيمانية إلاَّ كمثل القواعد المنزلية في البيوت المبنية، فإن زالت القواعد هدم البناء، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[النحل: ٢٦] ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الزمر: ٢٦] فالقواعد أصول العقائد، والبناية الأعمال العامة الحافظة للمجموع، وبزلزلة القواعد يسقط البنيان ويكون الخزي في الحياة والعذاب في الممات، فهكذا هنا ذكر اتحاد الأمة وعدم مخالفتها، وبين سبب ذلك وهو تكوين الوحدة الفكرية، وإن هدمها هدم ذلك البنيان.

وهذه المسألة هي الأصل الذي بنى عليه قدماء الفرس إدخال النحل الكثيرة في الإسلام والمذاهب المتعددة تفريقاً لكلمة العرب وتشتيتاً لشملهم، وهي هي التي اختارها البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا لما أرادوا غزو المسلمين في الأندلس، فقد قرروا فيما بينهم أن لا نجاة من المسلمين ولا غلبة عليهم إلاَّ بتحويل عقائدهم وإدخال الشك في قلوبهم وتعليمهم الإلحاد واحتقار الديانات، والاستعانة على ذلك بتغيير أزيائهم وإدخال المعاصي الظاهرة من الزنا والخمر عليهم، وتعويدهم الترف والنعيم حتى تزول تلك العصبية، ويأتي جيل سهل الانقياد سريع الانفعال فننقضّ عليه فنخرجه من أرضنا، وقد تم ذلك في ثلاثمائة سنة، ونجح الغربيون في تشتيت شمل العرب المسلمين، كما نجح الفرس ببث

العقائد المختلفة، ففرقوا الأمم شيعاً وأصبح بأسهم بينهم شديداً، فلذلك ترى التنديد على الشرك في هذه الآيات بعد أن ذكر الاتحاد وأكده فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الحق، وإنّما كان بعيداً عنه لأن القلوب تختلف تبع ما اختلفت فيه فكل يتبع ما أحبه وعبده، فمن عبد اللات أو العزى أو مناة فقد انصرف قلبه إلى ما عبده وكره ما سواه، فيكون لكل صنم جماعة، فتتفرق الشيع فلا يكون اتحاد، فتتخطف الأمم تلك الأمة لعدم اتحادها. ولذلك أعقبه بقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ وهي الأصنام المذكورات، فقد كانوا يقولون: أنثى بني فلان، فيسمون الصنم بلفظ أنثى، ولا جرم أن الأنثى منفعلة والرب يكون فاعلاً لا منفعلاً، ثم ذكر سببه فقال: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ المريد والمارد والمتمرد: العاتي الخارج عن الطاعة، فاتباع الشيطان سبب في عبادة الأوثان، وعبادة الأوثان سبب لترك التوحيد المبني عليه تفريق الألفة وتشتيت الشمل، ثم وصف الشيطان بوصفين آخرين وهما أنه ملعون يضل بعض الناس ويقذف في قلوبهم الأماني الباطلة، ويأمر بتغيير خلق الله، كأن يشقوا آذان الأنعام الخ، وهذا قوله تعالى: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي نصيباً قدر لي وفرض، من قولهم: فرض له في العطاء ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحق ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأماني الباطلة كطول الحياة، وأن لا بعث ولا عقاب ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ليشقنها لتحريم ما أحل الله كما كانت تفعل العرب في البحائر جمع بحيرة، والسوائب جمع سائبة.

(١) وقد كان العرب يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمس أبطن وجاء الخامس ذكراً، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها.

(٢) والنساء يأتين بشعر غير شعرهن يصلنه به، وهؤلاء يسمين الواصلات.

(٣) ومنهن الواشمات اللاتي يلونّ أجسامهن بلون الخضرة بغرز الإبر في الجلد وهو الوشم.

(٤) ومن تغيير خلق الله الإخصاء وقطع الآذان وفقء العيون.

(٥) وكانت العرب إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً عور عين فحلها.

(٦) ومن تغيير خلق الله التخنث.

(٧) ومنها عبادة الشمس والقمر والكواكب التي خلقت للمنفعة فجعلوها معبودة.

وهذه هي أنواع تغيير الخلق التي ذكرها المفسرون الأجلاء.

فترى أنساً يكره إخصاء الغنم لأنها تغيير خلق الله، وأدخلوا في هذا السحاق واللواط لأنها تغيير لوجهة خلق الله والفعل الطبيعي الإلهي، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ عن وجهه وصورته أو صفته ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ إذ ضيع رأس ماله ﴿يَعِدُهُمْ﴾ ما لا ينجزه ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلاً ومهرباً، من: حاص يحيص، إذا عدل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ ظاهر تفسيرها.

ثم قال: ﴿لَّيْسَ﴾ ما وعد الله من الثواب لينال ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿وَلَآ﴾ بـ ﴿أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وإنّما ينال بالإيمان والعمل الصالح. ذلك أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال

أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كلا ، نحن أولى بالله منكم ، نبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب المتقدمة ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ عاجلاً أو آجلاً . وروي : « أنها لما نزلت قال أبو بكر : فمن ينجو مع هذا يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أما تمرض أما تحزن أما يصيبك اللأواء ، قال : بلى يا رسول الله ، قال : هو ذاك » ، وهذا الحديث لم يرد في الصحيحين وفي إسناده ضعف ، ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ لا ينقصون شيئاً من الثواب ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ أخلص نفسه لله لا يعرف لها رباً سواه ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ آت بالحسنات تارك للسيئات ﴿ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وهي الموافقة لدين الإسلام ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلاً عن سائر الأديان ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله ، والخلة من الخلال ، لأن الود يتخلل النفس ويخالطها ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ إحاطة علم وقدرة ، فيجازي الناس على أعمالهم ، فلا يذر أحداً من عباده إلاَّ حاسبه ، لا فرق بين مسلم وغير مسلم ويهودي ونصراني . انتهى التفسير اللفظي للفصل الأول من هذا المقصد .

وهنا لطائف :

اللطيفة الأولى : في قوله تعالى : ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ .

اللطيفة الثانية : في الشيطان .

اللطيفة الثالثة : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .

اللطيفة الأولى

لقد اطلعت في هذا التفسير على ما قاله المفسرون في معنى تغيير خلق الله وأنه حرام ، وذهبوا مذاهب ترجع إلى وصل شعر ، أو وشم جلد ، أو فقء عين جمل ، أو شق أذن ، أو تحريم بهيمة لها عمل نافع بأن ولدت أربعاً والخامس ذكر ، أو تخنث ، أو سحاق أو لواط ، أو إخصاء كإخصاء العبيد ، فكل ذلك تغيير خلق الله .

ويا ليت شعري أن كل ذلك إلاَّ في التغيير الظاهري والتشويه الجسمي ، فيجر إلى فسوق تارة كالوشم ووصل الشعر ، أو تحريم أخرى كالمشقوقة الأذن يحرمونها عليهم .

واعلم أن أهمّ تغيير خلق الله ما سأذكره لك هنا ، وهو تغيير وجهة الفطرة الإنسانية ، ألا ترى أن الله خلق في كل قطر من أقطار الأرض أناساً لهم مزايا في أممهم ؟ وبعبارة أخرى : أن كل أمة أشبه بجسم الإنسان ، ففيها من هم كالسمع وكالبصر وكالشم ، وفيها من هم كاليد أو العقل ، فالاستعدادت في الأفراد تختلف كالاختلاف في الأعضاء في الجسم الواحد . ولقد وضحت هذا في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الآية : ٢٨٦] أن الناس قد اختلفوا في فطرهم وقابلياتهم ، فيجب أن يوضع كل في مكانه الذي استعد له .

فعلى مجالس النواب في الأمة أن يأمروا بأن يوضع كل في مكانه الخاص به ، وعلى المدرسين أن يمتحنوا التلاميذ بالعدل ويضعوا كلاًّ في العلم الذي غلب على عقله ، حتى يستخرج من الأرض

ثمراتها، فمن نقص تلميذاً درجة فقد غير خلق الله، ومن وضع موظفاً في غير وظيفته فقد غير خلق الله ومن لم يلاحظ الاستعداد فقد غير خلق الله، والحكومات التي لا تلاحظ الشبان فتتركهم وشأنهم بلا زواج فقد غيرت خلق الله، بالسكوت عن عقابهم مالياً، بضرب ضريبة على الأعزب كما في بعض الدول الغربية، وأمم أوروبا التي أغارت على بلاد الشرق فأكثرت من الأخلاق الرديئة وغيرت في أوضاع الأمم فقد غيرت خلق الله، فمنعت العلم عن الشرقيين وحرمت النبوغ على بعض المسلمين.

وإذا كنا بشق أذن بهيمة وفقء عين جمل ووشم جلد قد غيرنا خلق الله، وهكذا بتحريم بهيمة كأن حرمنا على أنفسنا أكل لحمها أو ركوب ظهرها قد غيرنا خلق الله، فما بالك بتحويل ما هو أرفع مقاماً وأوفى زماماً وأعلى شرفاً، وهي الفطر الإنسانية، فنذر العقول الكبيرة من أبناء البلاد في أعمال صغيرة، فربما اتفق أن يكون العامل في الحقول أبرع من الوزير في السياسة لو أنه وضع من صغره في الدراسة، وربما كان في دست الوزارة من لا يصلح إلاّ لأعمال الفلاحة، فلكل من الناس عمل يوافقه وطريق أنسب له، وكم في البلاد الإسلامية من أيد عاطلة وعقول نائمة وأفكار خامدة، فإذا أنزلنا عليها ماء العلم اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

حكمة في العقل والمعدة

ولعلك ترى أن العقل يطالبك في كل آن بلذاته ويؤنبك في كل حين على حرمانه، ويقول لك إذا وقفت على شجر، أو نظرت إلى حجر، أو سموت بوجهك إلى قمر، أو شخصت بعينك إلى كوكب سيار، أو راقبت طائراً وقد طار، يقول: لم أعطيت المعدة شهوتها ومنعتني؟ وراقبت الغذاء وتركتني؟ وذكرت نفسك ونسيتني؟ ما هذا النجم الثاقب؟ وما هذا الجبل الشامخ؟ وكيف تزلزل الأرض زلزالها؟ وما أسبابها؟ وما تاريخ هذه الجبال؟ وما أسباب هذا الجمال؟ ولم جئنا في هذا الوجود؟ ولم كان العابد والمعبود؟ ولم نرى الديانات تأتي بعجائب خافيات؟ وحياة بعد الممات؟ وحشر وحساب؟ ونعيم وعقاب؟ كل ذلك خفي أمره عليّ، فكن لي ولا تكن عليّ، وانظر نظرة إليّ حتى أعرف هذه الحقائق، فأنا أولى من المعدة الجبارة، وأنا أحق بهذه المهارة. انتهى كلام العقل.

ثم إن عقلك يخاطبك بهذا الخطاب وأنت تجيبه بالسكوت، ولكن الله يقول على لسان الشيطان: ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ فخلق المعدة فينا لم يغير خلقنا، وإنّما نحن أغرنا على العقل فأطفأناه وغيرناه.

أقول: إن الجهل بهذه الأمور وأمثالها على المستعد حرام، بل ربما كان من الكبائر وأقل ما فيه أن فرض كفاية، ولا كفاية اليوم في الأمم الإسلامية، فالذنب واقع على الجميع. ورب جهل عند عمرو لا يعدّ ذنباً، وجهل عند خالد يعدّ ذنباً، على حسب استعدادهما، وإذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعد عليهم أنفاسهم ويستغفرون الله من ذنوبهم، فهكذا ذوو العقول الكبيرة يحاسبون عليها حساباً عسيراً.

واعلم أن علماء الإسلام تفطنوا لهذا وقالوا: من عنده قدرة في علم نافع وجب عليه تحصيله؛ فهذا دليل على أن الأمة فكرت في هذا، إذن يكون حراماً على القادر تركه ولا يحرم على العاجز أن يترك ذلك العلم.

وانظر إلى الأمم الإسلامية كيف تركت العقل والعلم، فانظر ماذا فعل الله فيها، سلط عليها الفرنجة، ذلك أن الله لم يخلق شيئاً إلاّ لمنفعة، فإذا فاتت المنفعة زال ذلك الشيء، والعضو إذا ترك استعماله أصابه الضمور، وإذا استعمل قوي وجرى فيه الدم، هكذا العقول الإنسانية إذا سلط الله على الأمم رؤساء جهالاً فأفهموا الشعب ألا يفكر أبناؤه، كما حصل للمسلمين، أخذت القوة العاقلة تذهب شيئاً فشيئاً، كما ذهبت من الحيوانات الداجنة، وتحول ذلك العقل من المفكرين من رؤساء الفرنجة، كما حوله الله من الحيوانات الداجنة إلى أخواتها الحيوانات المتوحشة. والله لا يعطل الوجود لأجل جهل المسلمين، ولم يخلق الله ملكه لقوم كسالى عاطلين نائمين، الملك ليس بمعطل، شمسه تجري وقمره وكواكبه وأنهاره وحيوانه، فمن خالف هذه القاعدة كبعض المسلمين اليوم، أذله الله لأنه غير خلق الله بل أجمل خلق الله وهو العقل، بل إن هذا من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾[النساء: ٤٧] وأي طمس أشد من طمس العقل، وما الوجه إلاّ مرآة له، وهو الأصل والوجه هو الفرع.

إن تغيير خلق الله العقلي ظاهر اليوم في بعض الأمم الإسلامية، وطمس العقول واضح، وقد آن أن يبدل الله الحال، ويرجع لهم مجدهم، وتستنير عقولهم، ذلك هو الذي سيكون، ولله عاقبة الأمور.

هذا ولتقرأ ما كتبته على قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[الآية: ٢٨٦] في سورة البقرة.

اللطيفة الثانية

جاء في هذه الآيات أن الشيطان مريد، أي: عات خارج عن الطاعة، وأنه أقسم أن يتخذ له من عباد الله جماعة من نصيبه ويجعلهم من حاشيته، فإن أمرهم أطاعوا، وإن وعظهم بالوسوسة استمعوا له، وإن قال أيها الناس قطعوا آذان الأنعام فعلوا، أو غيروا خلق الله بتشويه الجلد ووصل الشعر وتعطيل العقول أخلدوا إليه واطمأنوا، وهو الذي أمر الأمم الكبيرة كالفرنجة أن يطئوا بأقدامهم على رؤوس الأمم الصغيرة في الشرق، ويحرموهم من العلوم والصناعات ويسلبوا أموالهم، كل هذا بأمر الشيطان.

فيا ليت شعري أي مخلوق هذا، وهل هو حي يرزق؟ أم هو صورة يقصد بها ضرب الأمثال والتقريب من العقول والتلطف في القول.

لقد بحث العلماء في ذلك بحثاً دقيقاً، ونقبوا في الشرق والغرب عن هذا الشيطان، فأنكر قوم وجوده، وقالوا: ليس هناك إلاّ نفوسنا وأخلاقنا واستعدادنا، وأن الذنوب على حسب الاستعداد والقوى، وقال آخرون: كلا، فإن الأمراض التي تأتي إلينا على حسب استعدادنا ظهر اليوم أنها من حيوانات حية، فالحمى والجدري والحصباء وسائر الأمراض التي نستعد لها لا تحصل إلاّ بتلك الحيوانات الذرية الصغيرة التي تتوالد وتتناسل فينا، ونحن غير شاعرين بها ولا عالمين، وفي أجسامنا آلاف آلاف الآلاف من الحيوانات الذرية الصغيرة التي تعيش في الدم كأنها جنود مجندة بالسلاح، وكأنها حوافظ لأجسامنا تقيها عاديات الدهر ومزعجات الليالي وصروف الزمان، وبينما هي آمنة في سربها ساعية في معاشها هادئة في أماكنها، إذا حيوانات غريبة هاجمة عليها، فيقتتل الطرفان ويتلاقى الجمعان ويتضارب الشجعان ويتدخل الحزبان ويكثر الطعان والنزال، وقد كسرت القنا على القنا وموج المنايا حولهن متلاطم، فتنجلي المعركة عن قتلى من الطرفين وجرحى من الحزبين، فأما الإنسان

منا أو الحيوان فيكون قد ارتفعت درجة حرارته من هول الحرب في الميدان، ويكون المرض على حسب الحيوانات الهاجمة، فتارة يقال إنها حمى، وتارة يقال حصباء، وأخرى يقال جدري، وما أشبه ذلك مختلفاً باختلاف الحيوانات الهاجمة. فأما الحيوانات البيضاء التي في الجسم فإنها تدافع بأمانة وشرف حتى إذا غلبت على أمرها وسلمت للموت أنفسها، هنالك تظهر الأمراض من جدري وحصباء وأنواع الحمى المختلفات.

هذا في الأمراض المعروفة التي لم يكن ليصدق العقل أن هناك حياً يرزق داخل أجسامنا، ولا أن هناك مخلوقاً يتدخل في أمور أمراضنا، فما بالك بالأمراض العقلية والآراء النفسية والنزعات العقلية والأكاذيب الإنسانية والأفعال الشيطانية؟ فربما كان هناك عوالم تفعل في عقولنا ما فعله الذباب في أعيننا.

ألا ترى أن الذبابة لا تقع إلاَّ على العين القذرة والجلود الوسخة؟ ومتى وقعت هناك باضت بيضاً في تلك الأماكن، فكان دود فمرض؛ فالاستعداد هو الذي أغرى الذباب، فكان الديدان فجاء المرض، والناس ساهون لاهون، كما دخل المرض في أجسامنا بإهمال النظام في الشراب والطعام فكانت الحمى وكان الحمام.

لا مانع في العقل يمنع من وجود الشيطان وأنه يلقي إلينا الوساوس وأصناف الأحلام، ولكن الإمكان غير الوقوع، والاحتمال غير التحقيق، هنالك ظهر قوم وقالوا: ليس الشيطان محتمل الوقوع فحسب، بل هو عالم موجود في هذا الوجود، وكما أن في العالم ملائكة ففيه شياطين.

فهذه النفوس البشرية إذا ماتت هي وأمثالها من العالم المشابه لعالمنا لا تذهب شعاعاً، ولا تكون ضياعاً، ولا تكون سدى أو يلحقها الردى، كلا، بل هي حية تسعى ولها في العالم أعمال، إذ لا عاطل في الوجود، فكل إنسان في هذه الحياة بعد موته يصبح مغرماً بما خلق الله له في الحياة، فيلزم النفوس التي على شاكلته ويوسوس بالشر أو يلهم بالخير على مقتضى سجيته، فكل امرئ اليوم إما فاضل وإما ناقص؛ فالناقص شيطان محبوس في قفصه الجسمي، والفاضل ملك ممنوع عن مكانه العلوي، فإذا خرجا من سجنهما انطلق كل منهما إلى مكانه ورجع إلى إخوانه وسار معهم في سبيله، فيكون إما ملهماً للخيرات، وإما موسوساً بالسيئات.

قال الفخر الرازي في سورة إبراهيم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾[الآية: ٢٢] الآية، وذكر بعض العلماء فيه احتمالاً ثالثاً، وهو أن النفوس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكملت فيها، فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة، حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدناً لتلك النفس المفارقة، فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن، وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة، ثم إن كان هذا المعنى في أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهاماً، وإن كان في باب الشر كان وسوسة. انتهى.

وقال في إخوان الصفاء الجزء الثالث صفحة ٢٦٣ :

واعلم أن النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة ، فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل ، كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة ، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل ، فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل كما قال تعالى : ﴿ شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، فشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد ، وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجساد المحتجبة عن الأبصار . وقال قبل ذلك ما ملخصه :

إن هذه النفوس الشريرة لما فارقت الجسد وكانت معلقة بالدنيا ، وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت وتمنت لو رجعت للذات كرة أخرى ، فحينئذ تصبح النفس كأنها لا حية ولا ميتة ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٣] ، وتقول : يا ليتنا ﴿ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف : ٥٣] ، ﴿ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ : ٤٠] ، ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ ﴾ [الأعراف : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] لما ركب فيهم من الأخلاق الشائنة ، وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة وتوسوس لهم ، وهكذا . انتهى ملخصاً من إخوان الصفاء .

وإن شئت فارجع إلى ما ذكرته في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الآية : ٧١] وكيف بينت هناك أن الفرنجة قد بحثوا في هذا الموضوع بحثاً أوسع نطاقاً ، وكيف قامت دولة أمريكا وإنكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وجميع دول اوروبا ، وبحثوا في حادث الأرواح ونقبوا ، ورفعت عريضة في القرن الفائت لمجلس الأعيان في أمريكا من ٢٣ ألف رجل يطلبون معرفة الحوادث الروحية التي حدثت في بلادهم مثل ظهور أشباح وأرواح ، وكيف قامت الجمعيات العلمية وأثبتت أن هذا حق وأن أرواح الأموات هي التي فعلت ذلك ، وكيف أيدت جمعيات في أوروبا رسمياً من جهة الحكومات أنفسها ما قاله أهل أمريكا وصدقوا أقوالهم . كل هذا والمسلمون ناعسون نائمون لا يدرون ماذا يقول العلماء في مثل هذه الآيات ، وإنّما شأن المسلم أحد أمرين : إما أن يسلم بالقول تسليماً وهم الجهلاء ، وإما أن ينكره إنكاراً ويقول كل هذه أكاذيب وما هي إلاَّ أضاليل ، ليقال إنه عالم عظيم ومحقق كبير ، فلا هو ولا من قبله عالمان ، كلاهما مغرور وكلاهما جهول ، بل يجب التوقف في الأمر حتى تنجلي الحقائق وتظهر الدقائق ، فالكبرياء تنفع لإقناع الناس بأن الإنسان فيلسوف ، ولكن العقل البشري والفطرة الإنسانية أجل من أن تخضع لتلك الترهات ، بل لا تزال تطالب بالبينات .

وقال العلامة أوليفر لودج العالم الإنجليزي الشهير في خطبة خطبها في الحياة بعد الموت ، وذلك في ايام الحرب العظمى : كل العظام الذين ماتوا كانوا يرتاحون إلى مناجاة المدركات العليا أكثر مما يرتاحون إلى الأمور الدنيوية ، إلى أن قال : إني تحققت أن بعض أصدقائي الذين ماتوا لا يزالون موجودين إذ أني قد ناجيتهم ، ومناجاة الموتى ممكنة ، إلى أن قال : وقد حادثت أصدقائي الموتى كما أحادث واحداً من الحضور ، وقد كانوا في حياتهم من أهل العلم ، ولذلك برهنوا لي براهين قاطعة نشر بعضها ، وسينشر البعض الآخر في حينه ، أنهم كانوا يحدثونني وأنني لست واهماً .

إن ذلك حقيقة أنا مقتنع بها وبصحتها بكل ما في من قوة الاقتناع، إنني مقتنع بأننا لا نضمحل عند الموت، وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير، ويقدرون على مناجاتنا أحياناً، إلى أن قال: وذلك ما يبعثني على القول إن الإنسان ليس منفرداً بل تحيط به مدركات أخرى.

وقال في إخوان الصفا المتقدم: إن الأرواح بتعليمها للبشر تزيد ارتقاء في عالمها، كما أن الأستاذ بتعليمه التلاميذ يزيد ارتقاء وثباتاً في علمه.

وإنّما نقلت لك كلام الأوائل والأواخر في هذا المقام لتطلع على آراء الأمم قديماً وحديثاً، ولتعلم أن العقول الإنسانية لها مرام واسعة عظيمة المدى لم تقف عند مشاهدات الأبصار، بل استعملت البصائر، فإن كفاك ما ذكرناه في اعتقاد الملائكة التي كانت تساعد في غزوة بدر وأحد، وفي اعتقاد الشياطين التي تأمرنا أن نقطع آذان الأنعام ونشق الوجوه والأجسام، ونخصي العبيد، ونغير خلق الله، فبها ونعمت، وإلا فاحذر أن تقف موقف المدعين الذين يقولون قد عرفنا كل شيء، واحذر من الكبرياء، وإنّما عليك أن تجدّ وتبحث لتزداد علماً، والطريقة المثلى لذلك أن لا يتكل المسلمون على آراء الغربيين ولا آراء القدماء من المسلمين، وإنّما عليهم أن يبحثوا أنفسهم حتى إذا رأوا حقاً أثبتوه، أو رأوا باطلاً رفضوه، هذا هو الواجب على المسلمين.

ولعمرك ما دهى هذه الأمة إلاّ الكبرياء وإظهار العظمة جهلاً وزوراً، فيكتفي الجاهل منهم بقوله: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[المؤمنون: ٨٣]، وهذه إنّما هي خرافات. فإياك أن تكون من المغرورين تصديقاً أو تكذيباً، فتوقف حتى تهتدي بنور عقلك الباحث في العوالم، المطلع على طرق البحث، المنقّب المجدّ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

واعلم أن هذا المقام سأكتفي به في كل مقام يناسبه في مباحث الشياطين والملائكة وفي الوسوسة والإلهام، وإن أردت الزيادة فعليك بكتاب الأرواح الذي ألفته لهذا الغرض.

اللطيفة الثالثة: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

لقد علمت أن المسلمين كانوا يفتخرون بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبكتابنا وهو القرآن وأن أهل الكتاب كانوا يفتخرون بأنهم كانوا أقدم عهداً وأرسخ مجداً، فجاءت هذه الآية وكذبت الطرفين وأخرست الحزبين، وهذه إحدى نكبات المسلمين ورزايا المسيحيين، لقد اغتر المسلمون اغتراراً فاضحاً فناموا وجهلوا جهلاً فاحشاً فحقروا.

يزعم المغرورون الطائشون من أهل العلم ومن على شاكلتهم من الجهال في الإسلام أن الانتساب للإسلام كاف لإنقاذهم، فساء فألهم وقل جمعهم وضل سعيهم، فهم أشبه بمن قال الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[الكهف: ١٠٤]، ومن قال فيهم أيضاً: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾[الزمر: ٤٧]. ولعل ما نقلناه عن الأمم في الشياطين والملائكة يكفينا في هذا المقام.

أفلا ترى كيف يقول علماؤنا كالإمام الرازي وأضرابه وعلماء الأمم: إن الإنسان بعد الموت يكون على حسب أخلاقه في الحياة، فالمسلم بعد الموت هو هو الذي كان حياً، فإذا كان في الحياة الدنيا

ساهياً لاهياً جاهلاً أو فاسقاً، ذهب إلى ذلك العالم أعزل من السلاح، مجرداً من قوة الكفاح، فنزل إلى مصاف الخدم والعبيد، ولا ينفعه الانتساب إلى أولي اللباب، فإذا ظن المغرورون أن انتسابهم إلى الإسلام يرفع وحده من شأنهم فقد خاب فألهم، فلا الإسلام وحده يرفعنا ولا الأماني تفيدنا، إن الأرواح جاءت هذه الأرض لتستكمل حظها وترفع قدرها وتكمل في أوصافها، وتتجلى بأجنحة معنوية تطير بها في تلك الساحات، وتسافر بها في تلك الباحات، فبالعلم أجنحتها وبالعمل قوتها، وبالإحسان سعادتها، وبالمحبة شرفها، فإياك أن تكسل في الأعمال، وإياك أن تتوانى في منفعة الأمة، وإياك أن تقبض يدك عنها، فجدّ في إعلاء شأنها، وأحب الناس جميعاً، ولتكن أخاً كريماً، وأباً للناس رحيماً، إن الله رحيم، فكن بأخلاقه متخلقاً، واعلم أن خليفته في الأرض فإن شئت فعلى نفسك، وإن شئت فعلى أسرتك وأهلك وقرابتك وأمتك وسائر الأمم، فإذا قدرت علة نفع الناس فافعل، فكلهم عباده، وكن رؤوفاً بالحيوان ساعياً جهدك في ترقية الأمم موجهاً وجهك لله ذي الجلال. وإلا فبالله ما هذه الغزوات والجهاد؟ وما هذه التكاليف والأعمال؟ وما هذه الحياة التي اتصفنا بها وهي ملأى بالآلام محفوفة بالأخطار؟ كل ذلك لاقتناص الكمال بالعلوم والأعمال. انتهى الفصل الأول في هذا المقصد.

الفصل الثاني

روي: «أن عيينة بن حصن أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أخبرنا أنك تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنّما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة، فقال عليه الصلاة والسلام: بذلك أمرت»، وكذلك حديث بنات كحة، وقد تقدم في أول السورة.

وأيضاً كانت اليتيمة تربى في حجر الرجل وهو وليها، فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال، ويعطيها أقل من صداقها، وإذا كانت غير مرغوب فيها لقلة الجمال والمال تركها فلا يتزوجها، وربما لا يزوجها غيره حرصاً على مالها، فيحبسها عن الزواج حتى تموت، فنهاهم الله عن ذلك كله وقال: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾ في ميراثهن ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ الإفتاء تبيين المبهم، وعطف على لفظ الجلالة قوله: ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي والمتلوّ عليكم ﴿ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ ما فرض لهن من الميراث ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ أي في أن تنكحوهن أو عن أن تنكحوهن، فإن نكحتموهن فبأقل من الصداق، وإن لم تنكحوهن لدمامتهن حبستموهن عن الزواج ليبقى المال في أيديكم.

أقول: ولعل هناك أحوالاً كان لليتيمة فيها مال عندهم حتى لا يتصادم مع ما ورد في هذا المقام أنهم لا يعطون الصغار ولا النساء مالاً فتفطن لذلك، فما تلي عليكم من كتاب الله قد بين لكم ذلك، فيأخذن مالهن كاملاً وصداقهن كاملاً، فهذا هو قوله: ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ الخ، ﴿ وَ ﴾ في ﴿ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ يعني ويفتيكم في المستضعفين من الولدان وهم الصغار أن تعطوهم حقوقهم، لأن العرب في الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار كما تقدم، فنهاهم عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم حقهم من الميراث، ثم قال: ﴿ وَ ﴾ يأمركم ﴿ أَن تَقُومُوا۟ ﴾ أيها الأئمة ﴿ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أن تنظروا لهم وتستوفوا لهم حقوقهم بالعدل في ميراثهم ومالهم ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ فيجازيكم عليه.

ولما كان العدل مع الضعاف ليس خاصاً بالصداق أو الميراث، بل يتجاوز ذلك إلى المعاشرة وحسن السلوك، فليعدل الرجال مع النساء في القسم، وهذا حتم لازم.

ثم إن الطلاق مباح في الإسلام وإن كان هو أبغض الحلال، فإذا وجب القسم للمرأة كان الطلاق مسقطاً لذلك الحق وتخلص المرأة من الرجل بهذه الوسيلة، فليس هناك وسيلة إلاَّ المصالحة بينهما إذا رغبت المرأة، فتتنزل عن بعض المال أو بعض القسمة في المبيت لتدوم على أولادها مثلاً، أو في عصمته فيكون الصلح خيراً من الفرقة، والنفوس مجبولات على الشح مطبوعة عليه، فلا المرأة تكاد تسمح بحقها في المبيت، ولا الرجل يرضى بالمبيت عندها إذا رغب عنها، فكل واحد منهما يطلب راحته، فليخالف هذا الطبع وليعدل الرجال بين النساء في القسم وإن كان مخالفاً لطباعهم، فإن ذلك إحسان وتقوى ولهم ثواب عظيم في ذلك.

والعدل بين النساء في القلوب لا يمكن، فللقلب ميل إلى واحدة أكثر من الأخرى مهما حرص الإنسان، فليكن العدل في العمل، واغتفر ما في القلوب، إذ ليس في الطاقة اجتنابه. فأما ترك العدل ميلاً في القلب وعملاً بحيث لا يقسم لها، فإن ذلك يجعل المرأة كالمعلقة ليست بذات بعل ولا مطلقة، على أن الله إذا افترقا يغني كلاًّ منهما عن الآخر من فضله وغناه.

هذا ملخص ما في هذه الآيات الآتية، وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا ﴾ توقعت تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها ﴿ أَوۡ إِعۡرَاضٗا ﴾ بأن يقل مجالستها ومحادثتها؛ كما روي أن عمرة بنت محمد بن مسلمة واسمها خولة، كانت تحت رافع بن خديج وهي شابة، فلما كبرت تزوج عليها امرأة أخرى شابة وآثرها عليها وجفا الأولى، فأتت ابنة محمد بن مسلمة تشكو زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية، وجواب الشرط قوله: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ ﴾ كما تقدم إيضاحه، ﴿ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ ﴾ من الفرقة وسوء العشرة ﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ﴾ أي جعل الشح حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً، فهي مطبوعة عليه، فكل من الزوجين لا يفرط في حقه.

ولما كان الرجال أحق بالفضل خاطبهم الله قائلاً: ﴿ وَإِن تُحۡسِنُواْ ﴾ بالإقامة على نسائكم، وإن كرهتموهن وأحببتم غيرهن وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ النشوز والإعراض عنهن ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ فيجازيكم خيراً على هذا الإحسان ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ ﴾ فإذا مالت القلوب التي لا تملك، فلتعدلوا في القسم في المبيت وهو الممكن. وكان صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه ويقول: «هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك» ﴿ وَإِن تُصۡلِحُواْ ﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن ﴿ وَتَتَّقُواْ ﴾ فيما يستقبل من الزمان ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ يغفر لكم ما مضى من ذنوبكم ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ ﴾ غناه وقدرته ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴾ مقتدراً متقناً في أفعاله وأحكامه، فهو الذي يسع جميع خلقه، فإن اصطلح الزوجان أعطى من سعة فضله من صبر منهما ثواباً، وإن افترقا أغناهما عن بعضهما بجوده وسعة فضله، وكيف لا يكون ذلك ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ ملكاً وخلقاً فما أعظمهما، ومن ذلك أنه سبحانه وصى الناس قبلنا بالتقوى كما وصانا، فكما وسعت

عطاياه البرايا وسعت وصاياه الأمم، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ معطوف على الذين ﴿ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي بأن اتقوا الله ﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ أي وإن تجحدوا ما أوصاكم به فإن الله خالق السماوات والأرض الخ، فحقّ على الكل أن يتقيه ويرجوه، وكان الله غنياً عن جميع خلقه غير محتاج إليهم ولا إلى طاعتهم محموداً على نعمه عليهم ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ فاتخذوه وكيلاً ولا تتكلوا إلى غيره.

ولقد كرر ذكر السماوات والأرض ثلاث مرات، وكأنه يقول ملكت السماوات والأرض فلأوص عبيدي لإصلاح شأنهم لأني أملكهم، فإن أعرضوا عن وصيتي فأنا غني بسعة ملكي وقدرتي ولست تاركاً أحداً منهم فليتوكلوا عليّ لأنهم جميعاً في ملكي، هذه فوائد التكرار، أو لعله لما كانت الأحوال ثلاثة:

الحال الأعلى: وهي المبيت معهن والرضا بعشرتهن وإن كن مرغوباً عنهن.

والحال الوسطى: وهي أن تتنازل المرأة عن بعض حقها إرضاء للزوج لتبقى معه.

والحال الدنيا: وهي أن يتفرقا.

ذكر ملك السماوات والأرض ثلاث مرات إيذاناً بأن الله بقدرته وسعة ملكه يقوم بأمر عباده في كل حال مجازاة بالخير وكفاية لمن توكل عليه، لأنه عام الجود واسع العطايا.

لطيفة

إن الله لما ذكر مسألة الأزواج والنشوز والإعراض والصلح وما أشبه ذلك من الأمور الحيوانية الإنسانية، ذكر الناس بملك السماوات والأرض وكرره كما قدمناه ليذكر النفوس الأرضية بالعوالم السماوية وليفهمهم أنهم لم يخلقوا إلاّ لمقام أعلى مما هم فيه، فأكثر من ذكر العوالم العلوية والسفلية في مقام الأمور المنزلية الصغيرة، ليرفع النفوس من خمودها، ويقيمها من مراقدها.

حكاية وحكم

وإذا كنا نرى فيلسوف الهند الذي أرسله ملكهم إلى الإسكندر لما فتح بلادهم وهو يحاور الإسكندر في الخبر المشهور في التاريخ يعرض عن العالم الأرضي وينظر في النجوم ويتغير وجهه ويقول: أنا من عالم أعلى، أنا من السماء، فلم أبقى في هذه الأرض؟ فيا الله من السماء روحي فردني إليها في جوارك.

فما بالك بالقرآن النازل لأشرف الأمم؟ أفلا يذكر الناس بالعوالم العلوية والسفلية والكواكب والشموس وهم منهمكون في الأمور الحيوانية والأعمال الأرضية؟ ويقول: إلى هناك خلقتم، ولهذا سكنتم الأرض، وإلا فلماذا نرى الأنوار تكتنفنا، والنجوم من حولنا والجمال يحيط بنا؟ وكيف نتلهى عن هذا الجمال بما نحن فيه من الأحوال؟ وكأنه عزّ وجلّ يقول: أيها الرجال، إن جمال النساء والشهوات التي ركزتها في طباعكم لهن شيء يسير بالنسبة لما ترونه في عالم الجمال والنور الذي يشرق عليكم وأنتم عنه غافلون، فإذا شغلتكم بهذه الأمور وقتاً ما فذلك لحكمة، وهي أن تستعدوا لهذا المقام الأقدس بالاختبار في الأعمال الأرضية، ثم أرفعكم إلى تلك المنزلة الشريفة.

ولعلك تقول ما ملخص تلك الحكاية؟

فأقول: لما سار الإسكندر إلى الهند فتحها، أرسل له أحد الملوك يقول: هل لك أن أرسل لك ابنتي فتكون زوجاً لك؟ وفيلسوفاً يخبر بكل ما تضمره نفسك من قبل أن تخاطبه؟ أما ابنته فإن الوفد الذي أرسله لما رآها حارت أبصارهم في جمالها وكأنّما أغشي عليهم مما رأوا من الحسن والجمال، وأما الفيلسوف فإن الإسكندر لم يحاوره إلاّ بالإشارات. فأرسل إليه برنية مملوءة سمناً، فلما رآها الفيلسوف أتى بإبر ووضعها في ذلك السمن وردها إليه، فلما رآها الإسكندر أخذ الإبر وجعلها كرة مصمتة وردها إليه، لما رآها الفيلسوف أخذ الكرة فجعلها مرآة مصقولة يتراءى فيها كل صورة تقابلها، فلما أرسلها الإسكندر وضعها في إناء فيه ماء فكان الماء فوقها، فلما رجعت إلى الفيلسوف جعلها كرة مجوفة تطفو على وجه الماء، فلما ردت إلى الإسكندر ملأها تراباً وأرجعها إليه، فبكى الفيلسوف، ونظر إلى السماء ونجومها، وأخذ يفكر في مبدعها، ويقول ما يدل على ولوعه بذلك الجمال، وشغفه بالحكمة العالية، والعروج إلى السماء، والخلاص من العناصر الأرضية التي اقتضت روحه فحبسته عن العالم الباقي، فبلغ ذلك الإسكندر فأرسل إليه فحضر، ولما دخل وضع يده على أنفه ولم يتكلم، لأن الشرط أن يكون كل محاورة معه بالإشارات، فحينئذ قال له الإسكندر: لم وضعت يدك على أنفك؟ قال: لأنني أردت أن أقول لك ما في نفسي، وهو أنك لما رأيتني أعظمتني إذ رأيت جمال صورتي بعد أن عرفت حكمتي، فخطر في بالك أنك أعظم رجال الهند، فوضعت يدي على أنفي كأني أقول لك إن الأنف أعلى ما في الوجه، وأنا في الهنود كالأنف في الوجه، قال: لقد أصبت أيها الحكيم، ففسر لي ما دار بيننا. قال الفيلسوف: إن السمن الذي أرسلته لي، كأنك تقول إن الحكمة التي أعطانيها الله لا تحتاج لمزيد، فأنا مملوء حكمة، فوضعت الإبر في السمن كأني أقول: أنا أتلطف وأدخل في حكمتك حكمة أخرى، ولما جعلت أنت الإبر في كرة مصمتة، كان معناه أن فتح البلدان والسير في الأعمال البشرية يعيق النفس الإنسانية عن الصعود إلى الملكوت، فلما جعلتها أنا مرآة تظهر فيها صور المرئيات كان معناه أن نفسك وإن شغلت بهذا العالم الثقيل فإني أجلوها، فلما جعلتها أنت في الماء، كان معناه أن الحوادث الأرضية تغشى عليها، فلما جعلتها أنا كرة مجوفة كأني قلت لك إنني مع ذلك أحتال فأرفع نفسك إلى أعلى وإن كانت مشغولة بالأمور الجسمية، فلما وضعت أنت التراب فيها أذكرتني برجوعنا إلى التراب وذهاب الأجل، وتذكرت إذ ذاك ذلك الجمال الأسنى والشرف الأعلى، فحنت نفسي إليه.

فقال له: تَمَنَّ عليَّ مالاً. فقال: لا ينبغي للحكيم أن يأخذ من أحد مالاً، وإنّما أنا أطلب منك أن تكون بأهل الهند رحيماً، وتقفو سنن الله في الحكمة والعدل والجمال والكمال.

وإنّما ذكرت لك هذه الحكاية لتعلم أن الله لم يكرر ذكر السماوات والأرض ثلاث مرات في هذا المقام إلاّ ليرفع من شأن الفقهاء في الإسلام، فلا يغترون بالأحكام الشرعية ولا يقولون هذا هو دين الله فقط، فإن هذا خطأ بل يكون المقصد الأسمى ذلك الجمال الأعلى، وما القضاء إلاّ أعمال ضرورية في الحياة الأرضية، فإذا كان الفيلسوف المذكور يتلطف مع الإسكندر ويقول: أنا أجتهد في رفع نفسك، وإن كانت منغمسة في الشهوات النفسية وفتح الممالك للأغراض الاستعمارية، وأبنت

لك الحكمة حتى يكون لك نصيب من الشرف الأعلى والجمال الأقدس، فبالأولى القرآن الذي لم يكن رأي حكيم أرضي بل تنزيل من حكيم حميد.

فكأنه عزّ وجلّ يقول: أنا ألفت عقولكم وأوجه أذهانكم إلى العالم العلوي والسفلي، فلا يشغلنكم المال ولا البنون ولا النساء وقسمهن عن الأمور العالية، وهذا كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [المنافقون: ٩]، ولكن الذكر هنا يكون بالتوجه النفسي لمناظر الجمال الجاذبة للنفس في مقابلة الجاذبة الحيوانية.

أقول: وسيكون في الأمة الإسلامية من يحيون هذه الفكرة في المسلمين، وإحياؤها يحيي القلوب فتقلّ المنازعات والقضايا والبينات والخصوم والشهادات، فهذا هو المقصد الحقيقي من دين الإسلام بل من كل دين في الأرض، ولذلك أتى في هذه الآيات بأنه وصى جميع الأمم بالتقوى، وقرنها بذكر السماوات ليهدي المسلمين الذين يجيئون بعدنا إلى أن الجمال في السماوات والأرض والحكم التي تنبت في العقول، هي التي بها تشرف العقول الإنسانية ويكون الصفاء والصدق غالباً عليها. فأما القضايا والأحكام فإنما هي حيلة الأمم العاجزة عن الفضائل الكاذبة الخاطئة. فليكن دين الإسلام دين الصدق والجلال والجمال، ولذلك ترى الله ذكر في هذه السورة الشهادة على النفس وعلى الوالدين الخ، كل ذلك منبعه ذلك الجمال والصفاء.

اللطيفة الثانية

يناسب هنا أن نذكر ملخصاً من علوم الديانات السابقة قبل الإسلام، ويمنعنا من ذلك ما ذكرناه في سورة آل عمران في قصة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام فارجع إليها. انتهى الفصل الثاني.

الفصل الثالث

وفيه بيان أن الأمم التي غلبت عليها الشهوات، وضلت سواء السبيل، وعاشت ساهية لاهية غافلة، يذهبها الله ويأتي بقوم آخرين، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨]، وبيان الإخلاص والصدق في المعاملات، وأهمها تأدية الشهادة بالحق ولو على النفس أو الوالد أو الولد، فإن الأمم التي لا صدق في المعاملة بينها تنقضي حياتهم في الخصومات والمنازعات، ولا يتفرغون للأعمال الشريفة، وتضييع مصالح البلاد، وتنقبض الأيدي عن العمل، ويذهب من النفوس الأمل، فتأخذها الدول الأجنبية، ويحل بها كل بلية، وهذا يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ أي يفنكم كما أفنى أهل أمريكا بأيد أوروبا، وأهلك أهل الأندلس من العرب، وأتى بدلهم بقوم آخرين وهم الإسبانيون، وكما يفعل ذلك كل قرن في الأمم والدول والممالك ﴿ وَيَأۡتِ بِـ ﴾ قوم ﴿ ءَاخَرِينَۚ ﴾ مكانكم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ١٣٣ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ كالمجاهدين للغنيمة ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ فما باله لا يطلب أحسن الأمرين وطلب أخسهما وهو المال مع الغفلة عن النظام العام. وذلك داع حثيث إلى ارتكاس الأمم وذهابها، فلا بقاء لأمة يريد رجالها الحياة الحيوانية، فإن المجموع لا يعيش ولا يسعد إلا بأناس يعملون للمصالح العامة بنيات شريفة، فأما إذا كان الغرض المنافع الفردية فذلك باب الخراب وموت الأمة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ فلذلك يرفع الأمم التي علت وجهتها، ويميت الأمم التي خمدت فكرتها.

ومن إرادة ثواب الآخرة الشهادات بالحق، وهي من أهم ما يبقي الدول والممالك لإقامة العدل فيها، فلا تغنى بالظلم، فلذلك قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته ﴿ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله ﴿ وَلَوْ ﴾ كانت الشهادة ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ فإن المدار على المصلحة العامة وحفظ النظام وبقاء الدولة، فليس المقام مقام أفراد يعيشون على مال غيرهم، ولكن المجموع مرتبط بعضه ببعض، وهو كجسم واحد، لو اختل نظام أحد الأعضاء اختل المجموع فمرض فمات، هكذا أنتم يا معاشر المسلمين إن لم تقيموا الشهادة لله وتراعوا المصالح العامة لا تبقى أممكم إلاّ قليلاً، فإذا كانت الشهادة صادقة وتحملتم المكروه عليكم وعلى أقاربكم وكان ذلك خلقاً في الأمة، عاشت عيشة راضية، فلا يعتريها الفناء إلاّ إذا اعتراها هذا الداء، وإلاّ أذهبتكم وأتيت بقوم آخرين، فإياكم أن تقولوا إن هذا الغني بماله يؤذيني إذا شهدت عليه، وإن هذا الفقير إذا شهدت عليه اعتراه الأذى، فيجتمع عليه الأمران: الفقر الطبيعي والحكم المدني. فالنظام العام يقضي بهدم تلك النظريات ونبذ تلك النزعات ﴿ إِن يَكُنْ ﴾ المشهود عليه ﴿ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة عليه ولا تجوروا فيها ولا تميلوا ميلاً ﴿ فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ بالغني والفقير، فالمصالح العامة هي التي بها بقاء الأمم ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾ أي لأن تعدلوا عن الحق ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓاْ ﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق ﴿ أَوْ تُعْرِضُواْ ﴾ عن أدائها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا الخاص في أنفسكم.

لطائف: اللطيفة الأولى

كان ينبغي أن أذكر هنا الدول الإسلامية وغيرها التي فنيت بارتكاب الجرائم، وقد ذكرت جملاً في ذلك عند قوله تعالى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ ﴾ الخ [الآية: ٦١] في سورة البقرة، وفي مواضع أخرى، فلا نعيد.

اللطيفة الثانية: منظر جميل

بعد ما كتبت ما تقدم قمت إلى ضواحي القاهرة لأجدد النشاط في الهواء النقي والنظر إلى المزارع الخضرة والمناظر البهجة، وأستجلي الجمال من وجوه النجم والشجر والبر والبحر، وأشاهد آثار الجمال في الحقول، وعظمة الجلال في مشارق النور، فتمثلت في خيالي صورة عجيبة وهيئة غريبة ومنظر جميل، فأردت إثباتها هنا ليحلى بها المقام، ويزدان بها جيد التفسير، لأنها توضح هذه الآيات، فهي حلية حكمية وآية بهية وأسرار خفية أبرزها الله في هذا الزمان ليظهره على الدين كله، ويكون القرآن مجلى المعني ومسرح الأماني وبهجة العالمين وشرف الموقنين.

الصورة التي تمثلتها في الخلوات

هي أني تمثلت لي ثلاثة أعمدة من الياقوت بهجات مصطفات صفاً، وأمامهن عمود من الماس يلمع كالكوكب الدري، وبينهما حبال نورية مشرقة ممتدات من الأعمدة الياقوتية إلى عمود الماس، وقد علق في تلك الحبال سفط من البلور الجميل مملوء جواهر بديعة، لو سقطت الأعمدة الياقوتية أو سقط العمود الماسي يسقط السفط بجواهره على الأرض فيكسر البلور وتنفرط الجواهر في التراب وتتبعثر في كل ناحية.

تفسيرها

اعلم أن الأمم لا تحيا إلاَّ بالمعرفة أولاً والعمل ثانياً، ولا يكون العمل صالحاً إلاَّ إذا كانت النيات ولا نيات إلاَّ بشوق في النفوس، ولا شوق إلاَّ بالمعرفة، فالمعرفة أساس، والنيات تتبع المعارف، وعلى حسب النيات تكون الأعمال، فإذا سمعت الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ الخ، فليس معنى الإرادة ما يفهمه أكثر الناس وبعض الفقهاء في الإسلام، ولكن النية انبعاث النفوس إلى ما اشتاقت إليه ورضيته بعد علمها به. وكما أن الإنسان لا يتعاطى الطعام إلاَّ إذا جاع أولاً، وأيقن أن الحاضر لديه موافق لشهوته ثانياً، لا يشذ عن قابليته، فتنبعث إذ ذاك رغبته إلى الطعام، فتكون النية ثم الأكل. فلا نية إلاَّ بعد العلم، وإذا فكر المهندس في أنواع البيوت ثم رسم شكلاً منها، فإن الذي رسمه هو الذي استحسنه في نفسه بعد إعمال الفكر في أنواع الصور الهندسية، فقد سبق العلم بالصور الهندسية النية لعمل الصورة الخاصة، التي هي نتيجة تلك المعرفة، فيكون الرسم والبناء على صورة منوية، تقدمها بشؤون الصور الهندسية، هكذا هنا لما ذكر الله عزَّ وجلَّ معاملة الرجال للنساء من قسم وصلح ونشوز وإعراض وما أشبه ذلك، أدخل الله في غضون الكلام أموراً تستوجب النظر وتنبه الفكر. فيا ليت شعري ما هذا التكرار للسماوات والأرض في هذا المقام، وما مناسبة أن الله قادر على ذهاب الدول واستبدال سواها، وأية علاقة لذلك كله بما نحن فيه، ولماذا ذكر هنا الإرادة وأن منها ما هو أعلى ومنها ما هو أدنى؟ ثم نرى أنه كرر السماوات والأرض مقدماً وأخر ذكر الإرادة، وجعل الكلام على استبدال الدول في وسط الآيات بين العلم بالسماوات والإرادة؟.

فاعلم أنه سبحانه وتعالى كما ذكرنا يريد أن يرينا أن هذه الأحوال النفسية والأحكام الشرعية في الأعمال الإنسانية لا يجوز أن تكون سجناً نسجن فيه، لئلا تموت نفوسنا، فلتصقل بالمعرفة والعلم فتشرق النفوس بالنظر في السماوات والأرض، وإن كانت في سجن الطبيعة، وإذا كان الفيلسوف المخلوق حاول بفطنته أن يجلو الحديد فيجعله مرآة بهية تارة وتارة يجعله كرة خفيفة، والحديد معدن ثقيل مظلم، فبذلك حاول أن يجعله خفيفاً ومضيئاً، والخفة والإضاءة من شأن العوالم الجميلة ليجعل ذلك رمزاً للنفوس الأرضية في المحاورة السابقة، فلننظر في هذه الآيات كيف جعل الله عزَّ وجلَّ النظر في السماوات والأرض مكرراً ثلاث مرات أثناء المباحث الأرضية والأعمال الحيوانية التي انغمست فيها النفوس الإنسانية، أفلا ترى أن النظر في السماوات والأرض المذكور ثلاث مرات أشبه بالأعمدة الياقوتية؟ أوليس قوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ الخ، أشبه بالعمود من الماس؟ أوليس السفط الذي فيه الجوهر أشبه بالأمة الإسلامية، فإذا لم تتشوف الأمة بالعلوم العلوية والسفلية إلى معرفة ما في هذا العالم من جمال وبهاء وحكمة، لم تنبعث لها إرادات للأعمال الشريفة، فإذا سقطت أعمدة العلم أو سقط عمود الإرادة خرّت الأمة ساقطة، ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[ص: ٣].

فإذا سمعت قوله صلى الله عليه وسلم: «إنَّما الأعمال بالنيات» فلتعلم أن النيات لا تأتي بلفظ نويت وإنَّما تأتي بعلوم وأشواق وبحث وتنقيب، فإذا قال المصلي: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: ٦] فإن الله لا يستجيب الدعاء إلاَّ بحضور القلب بما أثر فيه من الرحمة التي لحظها في المخلوقات عند قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[الفاتحة: ٢-٣].

وإذا شرع في عمل من الأعمال النافعة للأمة فلا يتم على الوجه الأكمل إلاَّ بعلم يتقدمه، والعلم هو الذي يحدث النية، فالنية نتيجة العلم والأمة بين العلم والنية إذا لم يكونا أو لم يكن أحدهما خرّت صريعة لليدين وللفم، فهذا سر هذه الآيات. وهذه صورته:

نتيجة هذه الآيات الحث على علم الأنفس والآفاق

الأمة

فإذا لم يكن علم أو شوق إلى عمل سقطت الأمة، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [النساء: ١٣٣] الخ

وتنبعث من هذا العلم الإرادة لأمرين: علم الأنفس والآفاق

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٢٦]

﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٧٠]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٢٦]

هذا هو الذي خبأه الله في القرآن وكنزه في الآيات، ليظهر في هذا الزمان، وليكون هناك جيل في الشرق لم تحلم به الدهور ولم يعلمه الجمهور، فأما الفقيه فإنه لا يعرف من هذه الآيات إلاَّ أحكام القسم والنشوز والصلح والإعراض، وأن الرجل يجب عليه أن يحسن العشرة مع المرأة، ويجمع بين الأحاديث ويستنتج ثم يقف عند حدّ ذلك، وأما العالم الإسلامي الذي سيكون في هذه الأمة بعد الآن فسينظر ويقول إنا نرى الله خلق النبات وجعله قوت الحيوان والإنسان، ومع ذلك قد جعل الله فيه حكماً تدق عن العقول، يفرح بها العالمون، والذي خلق النبات هو الذي أنزل القرآن بطريق الوحي،

فأنا إن قصرت همي على المباحث الفقهية صرت كالعامة ، لا يعنيني إلاً مثل ما تتعاطاه الدواب ويفرح به الجهلاء في النبات ، وإن تدبرت في ذكر السماوات والأرض وكيف كررت في هذا المقام ، وكيف ذكر ذهاب الدول ، وأنه يأتي الله بأقوام آخرين ، فإني أقول الحق وهو أحق أن يتبع : إن هذا القول له مغزى شريف ومعنى رفيع ، وكما كان في النبات غذاء الحيوان وحكمة الحكماء هكذا ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النحل : ٦٠] كان هذا القرآن فيه المسائل الفقهية لنظام الحياة الإنسانية ، وفي نفس الآيات النازلة لذلك أشرقت شمس العلوم ونظام الحكمة وتجلت للناظرين من آفاق الجلال بالحكمة والكمال .

ولعمري إن الآخرة خير لنا من الأولى ، وإذا تجلت الحكمة والجلال الأفقي في العالم العلوي والسفلي قل النزاع وكثر الحب ، فلا محكمة ولا محاكم ولا نزاع ولا جدال ، بل يشرق النور على هؤلاء المتشاجرين ، فالقضايا والدعاوي إنَّما تكون من الجاهلين ، فالشرع الحقيقي هو العلم الإلهي والنظر الحكمي ، والله يؤتي الحكمة من يشاء والله واسع عليم . اهـ الفصل الثالث .

اللطيفة الثالثة : عجائب العلم الحديث في هذه الآيات

وبيان ما فيها من الرموز والإشارات ومعجزات القرآن في القرن العشرين

يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ الخ ، يأمرنا أننا إذا قتلنا أو سرقنا أو زنينا ووقفنا تحت آلات القتل نقرّ ، وإذا رأيت أبي واقفاً وآلة الشنق منصوبة له أقول إن أبي قاتل ولا أخجل ولا أخاف ، كل ذلك يأمرني به الله . يأمرنا الله بما لم يشهد أحد عمله إلاَّ نادراً جداً ، وليس في النوع الإنساني من يبادر إلى ذلك إلاَّ في النادر ، ولكن الله سبحانه إنَّما يريد أن يعيش الناس بسلام ووئام ويكونوا إخواناً لتحلو الحياة ويكون الصفاء .

فهل لك أن تسمع من العلم الحديث والكشف الغريب ما يجعل هذا الإقرار أمراً متداولاً . هل لك أن تقرأ ما رسمته الدول المعاصرة لنا وما كشفوه في هذا المقام حتى تحكم أنهم إذا ساروا على هذا المنوال سنين أصبح ما يقوله الله الآن أمراً معتاداً ، ويقر الإنسان على نفسه وعلى أمه وعلى أبيه وعلى قريبه وعلى ملكه وعلى اللص الذي سرق معه ، بل يصبح الناس لا سرقة عندهم ولا قتل إلاَّ نادراً ويزول الكذب في الشهادات وتصدق الأحكام ، فلأذكر لك ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : الإقرار بمصل الصدق

وأصل هذا المصل أن طبيباً يسمى الدكتور « هاوس » من المختصين بالتوليد ، وعادة الأطباء أنهم إذا رأوا امرأة تعسر وضعها حقنوها بهذا المصل المسمى « أسكوبلامين » ، فلاحظ أثناء الحقن والمرأة تضع وهي لا تحس بألم ، أنها تفشي أسراراً ما كانت تنطق بها عادة ، بل تلك الأسرار من أكبر الفضائح والعار ، فتوجه إلى رجال الحكومة وأحضروا من السجون نحو خمسمائة مسجون وحقنوهم بالمصل كما تحقن الوالدات ، واستنطقوهم فكانوا يجيبون إجابات صريحة ويخبرون بالحقائق كما هي ، ولم يجدوا في جميع من سألوهم كلمة واحدة تخالف الصواب ، ولما أفاق أولئك الرجال دهشوا لما علموا أنهم أجابوا بالحقائق التي أنكروها قبلاً ، وقد قال العلماء في ذلك : إن استعماله سيفضي إلى إخلاء السجون من الأبرياء ، ولقد وضعوا الرجال المتهمين على موائد كما توضع المرضى ، وحقنوهم ثم سألوهم في معارض حضرها رجال القضاء والطب ، فأسفرت عن النتائج عينها ، ويقولون إنه في

بلاد الإنجليز التي كشف فيها هـذا المصـل يقـدم عشرة متهمين للمحاكمـة فـلا يحكـم إلاَّ علـى واحـد لثبوت التهمة ويبرأ الباقي، ومتى حقنوا بهذا المصل ظهر المحق من المبطل، وأيضاً يقبض على الثلث من المقبوض عليهم خطأ، ويبرؤون فيما بعد، فهذا المصل ينفي التهمة ويخرجهم، وليس هذا نافعاً لإنكلترا وحدها بل للعالم قاطبة متى انتشر في الكرة الأرضية.

المسألة الثانية

إن الجناة يعرفون في العالم الإنساني الآن بآثار الإبهام، وذلك أن بلادنا المصرية جعلت إدارة خاصة لآثار الأصابع وجعلتها أصنافاً وأنواعاً، بحيث إن الإنسان ليس يكون أثر إبهامه مشابه آخر في الشرق أو في الغرب، ولذلك تراهم يأتون بالمذنبين ويأمرونهم بوضع أصابعهم على الورقة وهي ملوثة بالحبر، فهذا الأثر يدل على صاحبه، لا يشاركه فيه سواه. هكذا الأقدام، فإن عرب البادية في بلادنا يعرفون الناس بآثارهم كالقدماء من العرب الذين كانوا يقصون الأثر، فكل امرئ له قدم بصفات خاصة لا يشاركه سواه.

المسألة الثالثة

لقد ظهر في أمريكا وفي أوروبا علم يقال له «علم السيكومتري» أعني قياس الأثر، وقد استعملت هذه اللفظة سنة ١٨٤٢، وهي مشتقة من لفظة يونانية «سيكي» أي النفس و«مترون» أي قياس، ومعناها اللفظي: قياس النفس.

وقالوا في هذا العلم إنه لا يقع ظل على حائط من دون أن يترك أثراً فيه يمكن إظهاره بالوسائل الصناعية، وكل غرفة تظن أنها محجوبة عن العيون فيها آثار كل ما حصل فيها ولو من مئات السنين، بل كل حجر وشجر ومدر توجد عليه رسوم ما حصل عنده من خير أو شر، فكل حركة وكل فكرة تصدر من الناس ترتسم على ما حولهم، فكأن هناك صوراً لطيفة لا عدد لها ثابتة على جميع الأشياء، لا تزول بمرور القرون والدهور.

قال الدكتور «جون وليم» مؤلف كتاب «سرّ تقدم أوروبا» ما يأتي، بعد أن أفاد معنى ما تقدم: ويمكنني أن أصرح بأن صدى العبارات التي قالها الواحد منا يمكن أن يسمع بعد مرور الأعوام العديدة على موته ويبقى من بعده عظة لأولاده.

ثم إن هذه الصور والآثار التي أشار إليها «دربير» قد تظهر بهيئة أفكار تطرأ على الأذهان، فكل فكر من أفكارنا وكل حركة من حركاتنا وعمل من أعمالنا يترك حتماً أثراً لا تمحوه الأيام. ثم قال: وأنا أصرح بأن البارع في هذا العلم يمكنه إذا سئل أن يصف عيشة أي إنسان بمجرد ما يرى أثراً من آثاره، أو يسمع بعضاً من أقواله، أو يتأمل في مكان يقيم فيه، أو يتردد فقط عليه.

وقد كان الأستاذ «دانتون» زوجته وأولاده وأخته جميعهن بارعات في قياس الأثر، فمتى أعطاهن شعراً من شعر إنسان أو أي شعر من آثاره قصوا أثره، وقد أثبتوا أن في كل عشرة من الرجال وفي كل ست من النساء واحداً يقدر أن يتعلم هذا العلم بسهولة، ثم العالم «دانتون» وثق بهذا العلم بعد أن جربه، مثلاً أعطى قطعة من حجر من الأحجار الساقطة من الجو إلى حماته فقالت: إني أرى أشياء تشبه النجوم والندى، ويخيل لي أني صاعدة إلى فوق، ثم أعطاها لزوجته في مكان آخر وهي لا

تعلم شيئاً، فقالت مثل ما تقدم، ثم وضعه في صندوق مع أحجار كثيرة، وأمر زوجته أن تلتقط كل حجر وتصفه، فصارت تصف كل حجر ومدر وتقول: هذا من بلدة كذا، وحصل عنده كذا وكذا، وهذا من المكسيك، وهذا من روما، وهكذا، ومنها حجر من جبل الزيتون، فوصفت أورشليم وصفاً جيداً، ولما وصلت إلى الحجر الذي سقط من الجو وصفته كما وصفته أولاً. اهـ.

انظر إلى هذه المسائل الثلاث بعقلك وتفكر فيها، ألست ترى أن المسألة الأولى هي التي تحقق إقرار الإنسان على نفسه وعلى أبويه، وتكون الأمم أقرب إلى السعادة منها الآن، وإذا كان هذا الكشف الحديث يعم العالم ويظهر صدقه، أفليس ذلك يكون مما يجب علينا الأخذ به، متى تحققنا أن ما يقوله الفرنجة حق لا خطأ فيه، فلسنا نحن نأخذ بقولهم بل نجرب ونعمل بها بعد التحقيق، وإذا كان النوع الإنساني ليس عنده من الصدق والأمانة ما يحمله على الإقرار على النفس والأهل، أفلا يكون أمثال هذا المصل إذا صح ما يقال من أوجب الواجبات على أمة الإسلام، بل أقول فوق ذلك: إنه يجب على أمراء الإسلام والمجالس النيابية أن يظهروا رجالاً في العلوم ويمدونهم بقوتهم حتى يكشفوا ويخترعوا وينظروا، وكفانا نوماً فقد نامت عقول المسلمين آماداً طويلة.

اعتراض على مؤلف هذا التفسير

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد العلماء واطلع على ما كتبت، فأظهر أشد الاستياء وقال: يا سبحان الله، كيف تجيز أن نأخذ بقول من حقنوا بهذا المصل، وكيف نأخذ بأقوال من فقدوا الإرادة، إن هذا لقول هراء، عجباً لك، كيف تقول ذلك والله عزَّ وجلَّ يطلب أن نقر على أنفسنا وأهلنا بمحض إرادتنا، وأما أنت فإنك تقول يكفي أن يسلبوا عقولهم كالمجانين، ثم يقرون وهذا لا يقرك عليه العقلاء ولا الجهلاء، وهو أشبه بالخرافات وأقرب إلى الضلالات.

الجواب

فقلت له: حياك الله وبياك، فهل إذا أقمت لك دليلاً على ما أقول من كتاب الله تعمل به؟ فقال: بشرط أن يكون مقنعاً، فقلت له: ألست ترى أن الله أحكم الحاكمين؟ قال: بلى، قلت: أفلست ترى أنه مطلع على ما في ضمائرنا؟ قال: بلى، قلت: لقد قبل هو الشهادة من الأيدي والأرجل وحكم بها، فمن باب أولى الذين هم ليسوا بأحكم الحاكمين، وهم قضاة البشر، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] وقوله أيضاً: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٢]، وفي آية أخرى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥] الخ، فإذا كان الله قبل هذه الشهادة من الجلود والجوارح بالرغم من أصحابها وهم يعاتبون أعضاءهم على ذلك صريحاً، فكيف لا نقبل من يحقن بالمصل ويشهد بالحق، ويكون حكم القضاة لاحقاً لا زلل فيه بخلاف الأحكام الحاضرة، فإنها ظنية لأن الشهادات لا تثبت الحقيقة، أوليس الاستدلال بآثار الأقدام وآثار أصابع الأيدي في أيامنا الحاضرة هو نفس الذي صرح به القرآن، وإذا كان الله يعلم ما في البواطن

بل هو القائل للإنسان: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء: ١٤] والقائل: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾[القيامة: ١٤].

أفلا يكون ذكر الأيدي والأرجل والجلود وشهادتها يوم القيامة، ليلفت عقولنا أن من الدلائل ما ليس بالبينات المشهورة عند المسلمين، وأن هناك ما هو أفضل منها، وهي التي يحكم بها الله، فاحكموا بها، ويكون ذلك القول لينبهنا ويفهمنا أن الأيدي فيها أسرار، وفي الأرجل أسرار، وفي النفوس أسرار، فالأيدي لا تشتبه، والأرجل لا تشتبه، فاحكموا على الجانين والسارقين بآثارهم، والألسنة تنطق بالحق متى أنمت البصيرة إنامة بهذا المصل أو بغيره.

أوليس في الحق أن أقول إن هذا من معجزات القرآن وغرائبه، وإلا فلماذا هذه المسائل التي ظهرت في هذا العصر تظهر في القرآن بنصها وفصها، والمسلمون كانوا غافلين عنها كما غفلوا عن منع الخمر والربا، وقامت الأمم الغربية بهذا خير قيام.

أوليس قوله: ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[فصلت: ٢١] يشير إلى ما كشفه علماء أوروبا وأمريكا في علم «السيكومتري» المتقدم، وأن كل فكر من أفكارنا وقول وعمل يرسم بصور غير محسوسة على الحيطان والأبواب والأحجار، ويقرؤه قوم بعد آلاف السنين ويفهمون حوادثنا التي فعلناها. أليس هذا من معاني النطق التي جعلها الله في كل شيء، أوليس يفسر لنا كثيراً من أسرار ديننا مثل أن المؤذن يشهد له ما حوله إلى غاية ما وصل إليه صوته.

ولقد علمنا أن أستاذاً في المدرسة الأمريكية معه آلة لها مفتاح، فإذا تكلم فتحها، وبعد انتهاء المجلس أو الخطبة يستمع لتلك الآلة، فتلقي له القول كما قاله، فإذا وجد خطأ في الحديث أرسل لأصحابه ما يكمله، وهذا موجود في زماننا الحاضر، بل المدرسة قريبة من بيتي الذي أسكنه، بينهما نحو كيلومترين، وهذه الآلة استحضرها من أمريكا، وهو أمريكي الجنس.

وأقول: لعل هذا العلم هو الذي ورد في حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري، وإن لم يرد في الصحيحين، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»، ومعنى عذبة سوطه المعلق في طرفه. اهـ.

ومعلوم أن الآلة التي تسترق السمع المذكورة، يمكن أن تسمع كل شيء حولها في المكان حتى الهمس الذي يهمس، ثم يكبر الصوت كما يكبر المبصر سواء بسواء. اهـ.

فعلى المسلمين أن يفتحوا أعينهم فليس لهم أن يقيموا على الجهالة البتراء، وليعلموا أن دين الإسلام فيه أبواب واسعة ما طرقوها، وعرفها الغربيون والطرفان يجهلان أن تلك الأبواب في القرآن.

الفصل الرابع

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ خطاب لجميع المؤمنين ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ أي اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه، ولتوافق قلوبكم ألسنتكم، فإن منكم من لم يثبت إيمانهم لأنه لا علم لديهم يثبت عقائدهم، وهذه العقائد المزلزلة هي التي جعلتهم معرضين عن خلق السماوات والأرض التي تقدم الكلام عليها، فزلزلت

نياتهم وذلك يؤول إلى انقراض تلك الأمم الزائغة كما تقدم في الآيات السابقة، وهؤلاء هم المنافقون الآتي بيانهم فيما سيأتي من الآيات، فلذلك أتبعه بقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه، لأن اتحاد العقائد يدعو إلى اتحاد القلوب، فتتحد المشارب فتكون الحياة الدنيا منظمة وتتبعها الأخرى، والإيمان بجميع الأنبياء يدعو للاتحاد، ولو أننا كفرنا بنبي من الأنبياء السابقين، لكان ذلك مورثاً للتقاطع والتدابر مع الأمم المنتسبة إليه ولو بحسب الظاهر، ولكن احترام الجميع أدعى للوئام، فما بالك فيما بين المسلم وأخيه، فليكن اتحاد العقائد وإلاّ ضل الإنسان وحاد عن الجادة، فبتر من مجموع الأمة وسلك مفازة فغايرهم في الأخلاق والطرائق، هذا هو الإسلام.

أما الفرنجة فإنهم استبدلوا بالدين الوطنية، وجعلوا الأمة مرتبطة بالوطن لا الدين، وقالوا الوطن يوجب الاتحاد، وهناك جامعات أخرى كاللغات والملك الجامع والاشتراك في ملك واحد، وما أشبه ذلك، فليكن كلامنا في الجامعة الدينية التي نحن فيها وهي ترجع إلى الاتحاد في العقائد.

واعلم أن هذه الآية تمهيد لذكر المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولذلك أتبعه بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ وهؤلاء هم المنافقون كفروا في العمر مرة بعد أخرى، ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وعلى التمادي في إفساد الأمر على المؤمنين، ثم رتب عليه قوله: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وضع «بشر» موضع «أنذر» للتهكم بهم، قال الشاعر:

وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجيع

ثم وصف الأعمال المترتبة على تزلزل العقائد فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ أي أيتعززون بموالاتهم ومودّاتهم ﴿ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ لا يتعزز إلاّ من أعزه الله وقد كتب العزة لأوليائه فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[المنافقون: ٨] فعزة غيرهم لا يؤبه لها، ثم زاد تفصيلاً لهذه المخالفات المبنية على زلزلة العقائد، فقال في سورة النساء: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي القرآن وأنتم بمكة لما كان المشركون بها يستهزئون ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾[الأنعام: ٦٨] فلما هاجرتم إلى المدينة أخذ اليهود يستهزئون كما استهزأ أهل مكة، فكيف لا تعرضون عنهم إذا خاضوا؟ وهذا قوله تعالى: ﴿ أَنْ ﴾ أي إنه، فهي مخففة من الثقيلة ﴿ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ في الإثم لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو في الكفر إذا رضيتم بقولهم وطعنهم في الإسلام، وهذا هو النفاق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ فالقاعد والمقعود معه في النار مجموعين ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم، وهو صفة المنافقين ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ مظاهرين لكم فأسهموا لنا فيما غنمتم ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ من الحرب التي تكون سجالاً عادة ﴿ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي قالوا للكافرين: ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم والاستحواذ الاستيلاء ﴿ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بأن خذلناهم وتوانينا في نصرهم، والتعبير بالفتح

في جانب المسلمين، والنصيب في جانب الكافرين، إشارة لشرف الأول وخسة الثاني، لأنه أمر دنيوي ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أي حجة يوم القيامة على قول علي وابن عباس رضي الله عنهم، وقال كثير من العلماء في الدنيا فلا تفنى دولة الإسلام بحيث تمحى من الوجود بالكلية، فيستبيحوا بيضتهم فلا يبقى منهم أحد.

وقد قال بعض العلماء: إن معنى ذلك أن شريعة الإسلام ظاهرة إلى يوم القيامة، وفرعوا على ذلك مسائل فقهية، مثل أن الكافر لا يرث المسلم، وإذا استولى كافر على مال مسلم لا يملكه، وأن الكافر ليس له أن يشتري عبداً مسلماً، وأن المسلم لا يقتل بالذمي على رأي، وأنت تعلم أن قول علي وابن عباس أنسب لسياق الكلام.

ثم أخذ يصف النفاق في العبادات بعد النفاق في السياسة فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ يعاملونه معاملة المخادع ﴿ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ ﴾ مجازيهم ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾ متثاقلين إذ لا يرون لها ثواباً، فكيف يتعبون أنفسهم، فكأنهم مكرهون على الفعل ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ ليخالوهم مؤمنين، والمراءاة مفاعلة ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فإن المرائي لا يفعل إلاّ بحضرة من يرائيه، والمراد بالذكر ما يشمل الصلاة والذكر في غيرها، فهم يصلون ويذكرون بحضرة من يراؤونه حال كونهم ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ متحيرين مترددين ﴿ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ إلى الحق والصواب.

ثم أمر المؤمنين أن لا يفعلوا مثل ما فعل المنافقون من موالاة الأعداء، فإن هذا يضيع البلاد، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكيف تفعلون ذلك ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾ حجة بينة فيعاقبكم بضياع دولكم، وهذا العقاب طبيعي، لأن موالاة الأعداء تفرق شمل الدولة وهو الحاصل الآن في الأمم الإسلامية.

فلعمرك لا تجد أمة فرنجية احتلت بلاد إسلامية إلاّ باتحادها مع بعض أفراد أهل البلاد، ولن يقدر الفرنجة أن يعيشوا يوماً واحداً في الشرق إلاّ بمساعدة أهل البلاد، فلذلك ابتلعوا ثروتنا وأخذوا ملكنا، فهذا هو السلطان المبين والحجة الظاهرة.

ولما كان ذلك خلق المنافقين أردفه بإنذارهم وتخويفهم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ وهي الطبقة التي في قعر جهنم، والدرك بسكون الراء وفتحها قراءتان ﴿ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ يخرجهم منه ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ عن النفاق ﴿ وَأَصْلَحُواْ ﴾ ما أفسدوه من أحوالهم في حال النفاق ﴿ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ وثقوا به وتمسكوا بدينه ﴿ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ لا يريدون بطاعتهم إلاّ وجه الله ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فيساهمونهم فيه.

ثم أفاد أن كل ما ذكر من عقاب المنافقين والكافرين ليس تشفياً من غيظ ولا انتقاماً من عدو ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا ﴾ مثيباً يقبل اليسير ويعطي الجزيل ﴿ عَلِيمًا ﴾ بحق شكركم وإيمانكم، وكيف يكون ذلك والناس جميعاً مخلوقون له تعالى؟ وإنما ينزل الكتب السماوية ويسلط الآفات الحيوية والحوادث السماوية والأرضية بحسب النظام العام، لاستخراج ما كمن في النفوس من الغرائز والعجائب الحكمية حتى تخلص من الطبيعة، وترقى إلى

عالم الجمال، وتتبرأ من المادة، هذا هو العقاب، وكما أن من الأجسام ما لا يذوب إلاَّ على درجة ١٧٧٥ من الحرارة كالبلاتين، ومنها ما يذوب على درجة الصفر كالماء المقطر.

هكذا النفوس الإنسانية: منها ما لا يظهر ما فيها من الجمال إلاَّ بعد عناء وتعذيب، ومنها ما يظهر بأدنى التفاتة إليها، فهؤلاء المنافقون وكثير من العصاة أشبه بالبلاتين، فيعذبون في الدنيا بالإنذار والتخويف، وفي القبر وفي جهنم، ثم يخرجون منها كما في الحديث الآتي، ومنهم من لا يحتاج إلى شيء من ذلك، ويكفيهم أدنى إشارة كالصدّيقين وعظماء الأمم، فهم كالماء المقطر به الحياة، وليس البلاتين مع صلابته عديم المنفعة، بل له مصالح نشاهدها، كذلك أصحاب هذه القلوب الجاحدة الفاجرة خلقوا للنظام العام، فليس الله مبغضاً لأحد فيعذبه، بل هو مربّ العالمين ومصلح لخلقه، فليس يعذب انتقاماً بل يصلح الناس إصلاحاً. ولنا أن نمثل ذلك أيضاً بقابلية توصيل المعادن للحرارة. إن الأجسام على قسمين: أجسام موصلة للحرارة توصيلاً جيداً، وأجسام رديئة التوصيل للحرارة، فالمعادن موصلة جيدة للحرارة، بل هي أكثر الأجسام الصلبة توصيلاً للحرارة، وغير المعادن كالخشب والزجاج والفحم والصوف والحرير، وجميع الأجسام العضوية رديئة التوصيل للحرارة. والمعادن درجات بعضها فوق بعض في توصيل الحرارة، فإذا فرضنا توصيل الفضة للحرارة مائة فإن البزموت «هو أحد المعادن» يكون ١.٨، والبلاتين ٨.٤ وهكذا.

ولأرسم لك الجدولين: جدول الصهر والذوبان، وجدول توصيل الحرارة:

جدول الذوبان

الأجسام	درجات الانصهار	الأجسام	درجات الانصهار
الألمنيوم	٦٢٥	الفوسفور	٤٤,٢
البلاتين	١٧,٧٥	الفضة	٩,٥٤
حمض الستياريك	٧٠	القصدير	٢١٠
الخارصين	٤,١٥	الكبريت	١١٤,٥
الذهب	١٠,٧٥	ماء البحر	٢,٥
الرصاص	٢,٢٦	الماء المقطر	٠
الزئبق	٣٩,٥	النحاس	١٠,٥٤

جدول توصيل الحرارة في المعادن باعتبار أن توصيل الفضة لها معتبر مائة درجة، وهي مرتبة فأعلاها توصيل الفضة وأدناها البزموت:

المعدن	الدرجة	المعدن	الدرجة
الفضة	١٠٠	القصدير	١٤,٥
النحاس	٧٣,٦	الحديد	١١,٩
الذهب	٥٣,٢	الرصاص	٨,٥
الشبة	٢٣,٦	البلاتين	٨,٤
الخارصين	١٩	البزموت	١,٨

واعلم أن الناس يشاهدون بعض ما في هذه الجداول ولا يفكرون فيها ، فإنهم يصنعون مقابض للقدور وأواني الشاي وغيرها من كل ما تغلي فيه السوائل من خشب ، لأن الخشب موصل رديء للحرارة ، أي إن الحرارة لا تسري فيه بسرعة ، ولو كانت تلك المقابض من نفس المعدن لسرت الحرارة ، فلم يمكن التصرف فيها بالقبض عليها واستعمالها ، فالخشب خير وقاية لذلك ، فالموصل الرديء للحرارة نعمة علينا ، كما أن الموصل الجيد كالحديد والنحاس نعمة علينا ، فلله علينا الفضل في الخشب الموصل الرديء للحرارة ، وفي المعادن الموصلة الجيدة ، فكلاهما نعمة وكلاهما لا بد منه لحياتنا ، وترى الناس يغلفون أنابيب المياه الحارة وأنابيب البخار وجميع الأجزاء التي قد تكون معرضة للهواء من مراجل بعض الآلات البخارية ، بغلف من الفلين أو خليط من طين بتبن ، أو طين بشعر ، أو نوع من طوب قد صنع من فتات الفلين ، كل ذلك لأن هذه موصلة رديئة للحرارة ، أي الطين المخلوط بالتبن والطين المخلوط بالشعر مثلاً يمنعان ويحبسان الحرارة في المراجل ، فلا تتبعثر في الخارج ، فهذه الأجسام الرديئة التوصيل الحابسة للحرارة أشبه برعاة الغنم والأمراء والحكام والوعاظ الذين يحافظون على الأمم .

ولعمري إن نعمة العلم والحكمة أجلّ من الدنيا ومن فيها وأي خير في الحياة إذا لم نطلع على هذه الحكم والعجائب ، فالجاهل يتعثر في الأوهام ، والعالم يرى العالم كله جمالاً وكمالاً ، فإذا رأى جسماً يذوب سريعاً كماء البحر ، وجسماً يحتاج لزمن متوسط كالفضة ، وآخر يحتاج إلى زمن أطول كالبلاتين ، وهكذا في توصيل الحرارة ، أدرك بعلمه وعلم بفطنته في العالم المشاهد أن البلاتين والفضة والنحاس لو ذابت سريعاً ما أمكننا الانتفاع بها ، ولم تصبر الفضة على الحرارة الجوية التي نعيش فيها ، وهي تختلف من صفر إلى ٤٠ , ٥٠ ، وهكذا النحاس لو أنه يذوب سريعاً ما أمكننا أن نوقد عليه النار لنطبخ فيه الطعام ، فجموده وعدم ذوبانه بالحرارة النارية لمنفعتنا ، فإذا كان الماء يسيل على درجة ٢ , ٥ والنحاس لا يصهر إلاّ على درجة ٥٤ , ١٠ فهذان معاً لمنافعنا ، فلو علا الماء عن الذوبان أو سهل ذوبان النحاس لكانت الحياة لا تطاق .

عجباً أيها الناس ، عجباً أيها المسلمون ، ما بالنا نعيش في جو مملوء من الحكمة ونحن ساهون لاهون ، يا قوم أليس العلم نلمسه بأيدينا ونحن نائمون؟ حقاً إن الإنسان لظلوم كفار ، حقاً إن الإنسان لجهول ، حقاً إن المسلمين في المستقبل خير من كثير من الأمم السابقة ، إنهم سيطلعون على ما أذكره الآن ويبرعون ويعرفون عجائب هذه الدنيا التي غفلت عنها الأمم السالفة التي نزل إليها القرآن ، وهم نائمون بعد الصدر الأول الذين اشتعل الإيمان في قلوبهم ، فطاروا إلى الأقطار ، وسيشتعل العلم في قلوب أبنائنا بعدنا فيطيرون إلى عوالم الجمال والكمال ، ويقرؤون عجائب ما حولنا ، والله إننا لفي جو من الجمال والحكمة ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥] فهل لك أن أسمعك الحديث الذي رواه مسلم ويذكره المفسرون عادة في الآية المتقدمة في هذه السورة ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾ [الآية: ٤٠] ، ولكن أذكره لك الآن لترى أن نظام الله في أحوال النفس الإنسانية أشبه بنظامه في أحوال المخلوقات الطبيعية سواء بسواء ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣] ولا اختلاف بل هو عالم متجانس متحد الوجهة .

العالم الروحاني أشبه بالجسماني في النظام والترتيب، فالذين نسميهم عصاة لم يخرجوا عن كونهم قوماً لهم درجات مختلفة، كاختلاف المعادن انصهاراً بالحرارة، وتوصيلاً لها، وذلك لمنافع كثيرة؛ فلو كان الناس كلهم على نسق واحد لاختلت أمور هذه الحياة، فإذن لا تجزع ولا تتألم من الاختلاف، وإذن أسمعك الحديث بعد أن اطلعت على الطبيعة.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل: «ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم، قيل يا رسول الله: وما الجسر؟ قال: دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد، فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم، حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار»، وفي رواية: «يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيراً، فيقول الله تبارك وتعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حمماً، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر أو أخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض، فقالوا: يا رسول الله، كأنك كنت ترعى بالبادية، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»، لفظ مسلم وهو بعض حديث.

ألست ترى أن اختلافهم في مرورهم على الصراط ما بين طرفة العين والريح وأجاويد الخيل أشبه بما ذكرناه، وأن نفس النبوة قد جعلت الحركات الطبيعية واختلافها كاختلاف الخلوص من الذنوب والعروج إلى مستوى السعادة، فلم يكن هذا العذاب إلا للتهذيب.

وإذا كانت شفاعة الشافعين المذكورة في الحديث بعد ما فهمتها في سورة البقرة بما يناسب رقي الأمة الإسلامية، هناك توجب خروج طوائف كثيرة من العصاة من جهنم ورقيهم، فإن الله بما أودع في هذا العالم من النواميس الطبيعية يهذب كثيراً من النفوس بالحوادث الطبيعية وينقيها بما يصيبها من الأوجاع والأمراض والأحزان، فتخف الأرواح وتطير إلى العلا، فالعلوم مهذبات والديانات مهذبات

والحوادث مهذبات، والمقصود التام خلوص النفوس من عالم الطبيعة، قال تعالى: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾[الانشقاق: ١٩] إلى عالم السعادة والهناء والحياة الروحية، فإذا كان البلاتين والماء لا سبيل إلى ذوبانهما أو غليانهما إلاَّ بالحرارة، فالسبل إلى رقي النفوس الإنسانية متشعبة، فتارة تكون بالدين، وأخرى بالعلوم التي يطلبها الدين، وأخرى بالمصائب والحوادث وما أشبه ذلك.

هذا هو السر المصون في حكمة العذاب الذي قد تجلى الآن بأجلى بيان، وبه تعلم معنى هذه الآية التي نحن بصددها ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ فالله لم يخلق الخلق ليفرح بغيظهم أو يشمت في مصائبهم، كلا، بل هو الله الرحمن الرحيم الذي خلق الخشب الذي لا يوصل الحرارة، ليكون واسطة تمسك به الإناء الذي فيه الشاي، كما خلق الغلاظ الجناة من الرجال الأقوياء البنية، ليقوم بهم نظام الحياة، فتارة يهذبون بالديانات، وتارة يهذبون بالحوادث، وتارة يهذبهم عذاب بعد الموت أو في جهنم، وإذا خفت نفوسهم خرجوا كما يخرج الفرخ من البيضة، والجنين من بطن أمه في أمد معلوم، وكما يخرج النبات من الحب والبزور، هذا في المؤمنين معلوم، أما في عذاب الكفار الذي يكون مخلداً، فلعلك تقول: لم يعذبهم وهم عباده؟ وإذا قلت لنا إن الله لا عذاب عنده وإنّما هو إنضاج وطبخ وصهر وترقية، فأين الترقية في عذاب الكافرين؟.

أقول لك: كفاك ما ذكرته الآن ولا أزيد فكفى، ولكن أشير عليك بقراءة كتاب «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» للإمام الغزالي.

واعلم أن أكثر الناس عن العلم محجوبون، وبالله جاهلون، وعن الطبيعة التي خلقها غافلون.

وإذا كان أهل أمريكا قد جعلوا السجون مواضع للتهذيب، ويحيطون المسجون بجميع أنواع الرأفة، حتى إذا ظهرت عليه علامات الكمال أخرجوه، وهكذا ترى الناس قد عرفوا أن الذنوب لم تكن إلاَّ من فعل البيئة والتربية والأحوال المحيطة بالإنسان، وأنه لا موجب للتعذيب، فلذلك جعلوا المسجون يغتسل ويتنظف ويتعلم صناعة، لأنه ثبت عندهم كما قاله «بنتام» أنه لا يقترف الذنوب إلاَّ الذي لا عمل له، أو الذي لا نظافة في جسده، فلذلك ترى السجون في بلادنا المصرية تفعل بعض هذا نقلاً وتقليداً لأهل أوروبا، إذا كان هذا كله حاصلاً في النوع الإنساني، فما بالك بالله تعالى؟.

أفلا ترى أن يكون فعله تهذيباً لا تعذيباً؟ وأن يكون قول نبينا صلى الله عليه وسلم: «فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة» رمزاً لحال يراها الناس بعد هذه الحياة، وتكون أشبه بمدرسة يتربى فيها الجاهلون الذين لم تهذبهم الحياة الدنيا، وتكون سلسلة الحياة كسلسلة المدارس المنظمة درجة بعد أخرى، وتكون كباب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فالحياة في الدنيا ظاهرها عذاب وباطنها رحمة، وهكذا تلك الحياة التي يحياها العصاة بعد الموت وهم ناقصون ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢].

هذا ولما كان ذكر المنافقين وذمهم في الآيات السابقة تعريضاً لا تصريحاً، أردفه الله بما يفيد أن الجهر بالسوء من القول لا ينبغي، ولكن من ظلم، للبناء بالفاعل، يفعل ما لا يحبه الله تعالى، فيجهر بالسوء من القول، وقرئ بالبناء للمجهول، بمعنى: أن من ظلمه أحد فتظلم منه لمن يدفع عنه الظلم فلا عقاب عليه ولا ذنب، ثم قال: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا ﴾ لكلام المظلوم ﴿ عَلِيمًا ﴾ بالظالم ﴿ إِن تُبْدُواْ

خَيْرًا ﴾ طاعة وبراً ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ أو تفعلوه سراً ﴿ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ ﴾ لكم أن تؤاخذوا عليه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته فلتقتدوا به ، ولا تجهروا بالسوء من القول وإن كنتم مظلومين ، وقد رخصت لكم في الجهر فإن ذلك من مكارم الأخلاق ، ولقد فعلت ذلك مع المنافقين فلم أصرح بأسمائهم في الآيات السابقة ، لعفوي عنهم ولاستجلاب قلوبهم إلى المودّة الدينية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر ولا واسطة إذ الحق لا يختلف ، فالإيمان لا بد معه من الإيمان بالرسل وتصديقهم فيما بلغوا ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ هم الكاملون في الكفر ﴿ حَقًّا ﴾ مصدر مؤكد لغيره ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ . ثم ذكر أضدادهم فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ ودخول «بين» على «أحد» مع أن «بين» يقتضي متعدداً ، لأن «أحد» وقع في سياق النفي فصار عاماً ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ الموعودة لهم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ لما فرط منهم ﴿ رَّحِيمًا ﴾ عليهم فيضعف حسناتهم . انتهى المقصد الثامن .

المقصد التاسع

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

في هذا المقصد ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تقريع اليهود على الظلمات التي ارتكبوها، وهي قريب من ١٦ ذنباً، من قوله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[الآية: ١٥٣] إلى قوله: ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الآية: ١٦٢].

الفصل الثاني: في بيان أن الرسالة اللاحقة كالسابقة كلها بالوحي وتعداد بعض الأنبياء والوعظ باتباعهم، من قوله: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[الآية: ١٦٣] إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[الآية: ١٧٠].

الفصل الثالث: في خطاب النصارى وتقريعهم على ضلالتهم في شأن المسيح، وأنه ليس ثالث ثلاثة، وفي خطاب المسلمين أن يعطوا كل ذي حق حقه في الميراث، من قوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾[الآية: ١٧١] إلى آخر السورة.

الفصل الأول

هذا الفصل فيه الذنوب التي ارتكبها اليهود قديماً، ولقد تقدم كثير منها في سورة البقرة، ولكن ذكر هنا نحو ١٦ ذنباً لتعنت الأحبار منهم على النبي صلى الله عليه وسلم، ذلك أن كعب الأحبار بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبياً فائتنا بكتاب جملة واحدة من السماء كما أتى موسى بالتوراة، فقال الله: لا تطمئن في إيمانهم يا محمد، فإنهم من فرط جهلهم واجترائهم على الله، لو أتيتهم بكتاب من السماء ما آمنوا بك، وكيف يؤمنون وقد لقي موسى منهم ما لقي؟ والذي لقيه أشد مما لقيت منهم.

(١) فهم قالوا له ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ عياناً، وتقدم هذا في سورة البقرة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ وهي نار من السماء فأهلكتهم.

(٢) ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ المعجزات، والعجل كان من ذهب، صنعه لهم السامري، فعبدوه وتركوا عبادة الله ﴿ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ حجة واضحة تدل على صدقه.

(٣) ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ أي رفعنا الجبل المسمى بالطور فوق رؤوسهم لما لم يقبلوا التوراة حتى يخافوا فقبلوه، وهذه الأمور كلها لا ينكرها اليهود فهي حجة عليهم.

(٤) ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ﴾ والطور يظلهم ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي ادخلوا باب إيلياء مطأطئين عند الدخول رؤوسكم، فخالفوا ودخلوها وهم يزحفون على أستاههم.

(٥) ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أي وقلنا لهم: لا تجاوزوا في يوم السبت الحدّ إلى ما لا يحل لكم، فلا تعملوا عملاً فيه لا صيد سمك ولا غيره، فاصطادوا السمك فيه.

(٦) فنقضوا ميثاقهم ففعلنا بهم ما فعلنا ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ «ما» زائدة للتأكيد والتقدير، فعاقبناهم بنقضهم ميثاقهم.

(٧) ﴿ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ في التوراة والقرآن.

(٨) ﴿ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾.

(٩) ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ جمع أغلف، أي: على قلوبنا أغطية وغشاوات فهي لا تفقه ما تقول.

(١٠) ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ فجعلها محجوبة عن العلم بكثرة الذنوب والكفر، فأصبح ذلك كالطابع يختم على القلب فلا يدخله شيء ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كعبد الله بن سلام.

(١١) ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ بعيسى ابن مريم معطوف على «كفرهم»، فهو من عطف الخاص على العام.

(١٢) ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ إذ رموها بالزنا.

(١٣) ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ ادعت اليهود أنهم قتلوا عيسى وصدقتهم النصارى على ذلك، فكذبهم الله قائلاً: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾، ولقد تقدم إيضاح هذا المقام في سورة آل عمران بما لا مزيد عليه، فارجع إليه إن شئت تر إنجيل برنابا قد تكفل بهذه المسألة، ونقلنا النصوص هناك، وأن يهوذا هو الذي ألقي عليه شبه المسيح وصلب وقتل، وقد كان هو التلميذ الذي خان نبيه وأستاذه ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ في شأن عيسى ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾

فهذه الأناجيل قد اختلفوا فيها حتى كانت المجامع التي أقيمت قديماً، وهناك حصل حذف وإثبات كما تقدم ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ بسبب أن المسيح اختار رسله من الشهب الهادي قوماً كانوا صيادي سمك في بحيرة طبرية، ليفهم الناس أن دينه لا يحتاج إلى ذكاء خارق للعادة، فجاء بولس وهو «فريسي» ويعرف اللغة اليونانية، وادعى أنه هو المختص بالمعرفة الحقيقية لدين المسيح وأخذ يخاصم بطرس، فتألف بعد رفع المسيح صنفان من النصارى: صنف يتبع بقية أتباع المسيح، وصنف يتبع بولس المذكور، ثم نشبت الحرب بين الدولة الرومانية في زمن نيرون بقيادة «فسباسيانوس» الروماني وبين اليهود.

ولما مات القائد الروماني تولى القيادة ابنه «طيطس» وفتحت أورشليم عام ٧٠، وضرب الهيكل فتفرق اليهود في كل واد يهيمون، وانحلت الرابطة وكان كل أسقف يعلم جماعاته بما يغلب على عقله مع الحكمة المأثورة عن المسيح، ثم اختلطت التعاليم بالفلسفة اليونانية لا سيما في مدارس الإسكندرية وغلبت الفلسفة على تلك التعاليم البسيطة لجهل القائمين بها وقوة الفلاسفة، فنشأت في آخر الجيل الأناجيل المنقولة في الأصل عن الرسل، وقد أحصى «فابريسيوس» منها ٣٥ إنجيلاً، فهذا العدد كان بعض ما في الجيل الأول والثاني، وبقي الأمر على هذا المنوال إلى سنة ٣٨٤ لما رأى البابا «داماسيوس» ما في الأناجيل المنتشرة من الاختلاف والتناقض، فأمر «ماريرونيموس» أن يحرر ترجمة لاتينية جديدة وذلك لأن الملك «تيودوسيوس» ضجر من المخاصمات، وصدر الأمر بأن يكون الأسقف في روما هو الذي له الحق وحده أن يتبعه عموم النصارى، وهذه الترجمة ثبتها المجمع التريدنتيني سنة ١٥٤٦، وخطأها «سيستوس الخامس» سنة ١٥٩٠، ونقحها بنسخة جديدة، وخطأ هذه «كليمنضوس الثامن» وطبع نسخة جديدة بترجمة جديدة وهي الباقية إلى الآن عند الكاثوليكيين.

فهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي لكنهم يتبعون الظن، فالاستثناء منقطع ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي قتلاً يقيناً ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ردّ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب على ما يريده ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر لعيسى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعني وما من أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى بل أهل الملل جميعاً، إلاّ والله ليؤمنن بعيسى حين ينزل من السماء، ويقتل الدجال فيهلكه حتى تكون الملة واحدة وهو الإسلام، وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور الخ. هذا ما جاء في كلام علماء التفسير، وسأوضح هذا المقام مع بعض التحقيق. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

(١٤) ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي فبسبب ظلم منهم ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي ما حرمنا عليهم الطيبات التي كانت حلالاً لهم إلاّ بظلم عظيم ارتكبوه من نقضهم الميثاق ونحوه، وتلك الطيبات التي حرمت ستأتي في سورة الأنعام بأن حرم عليهم كل ذي ظفر الخ.

(١٥) ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ ناساً كثيراً.

(١٦) ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ قد كان الربا محرماً عليهم فأحلوه هم وحرمت عليهم الرشوة فأخذوها بالباطل ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

دون من تاب وآمن ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ عبد الله بن سلام ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ منهم كأصحاب عبد الله بن سلام ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَ ﴾ أمدح ﴿ ٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَ ﴾ هم ﴿ ٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وجاء أمثال ذلك في كلام العرب، قال الشاعر:

لا يبعدن قومي الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر

النازلين بكل معترك ... والطيبون معاقد الأزر

أي أذكر النازلين وهم الطيبون، فالنازلين كالمقيمين هنا، والطيبون كالمؤتون الزكاة، وبعضهم جعل المقيمين معطوفاً على قوله: ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي يؤمنون بالكتاب وبالأنبياء الذين يقيمون الصلاة، وهذا لا يحتاج إلى تبيين. انتهى التفسير اللفظي.

لطيفة لشرح مسألة المسيح
وكيف ينزل في آخر الزمان، وما المقصود من هذا

اعلم أن العالم الإنساني قد سئم الصراع والنزال والجدال والحروب والمدافع والبارود والسفن والطيارات والقنابل والغواصات الغائصات، فالعالم الإنساني في هرج ومرج مستعمرين دائبين، فكأن الإنسان حكم عليه أن يكون شقياً أبد الآبدين ودهر الداهرين.

فيا ليت شعري ما هذه المدارس والديانات المشروحة والعلوم المنمقة والآداب العامة؟ والعالم الإنساني أجمعه في الشرق والغرب يقول: نحن في عصر المدنية والعرفان، مع أنهم لا يزدادون إلا طغياناً، ولم تزدهم المعارف إلا بهتاناً. فالناس في الشرق والغرب مخادعون كاذبون دجالون يخادع كل أخاه، وهم يخدعون أنفسهم، كيف لا وضعف أمة واحدة يضعف المجموع، وقتل ذكاء فرد واحد يدعو لقتل ذكاء المجموع، فكيف يقتل ذكاء أمة بتمامها، ذلك هو الدرس السائد الآن. فإن علماء أوروبا وحكماءها ومدرسيها سلطوا مجالس نوابها وجيوشها الجرارة على أهل الشرق، فأخذوهم وقتلوا ذكاءهم وجردوهم من السلاح العلمي، كما سلبوا منهم السلاح البري والبحري، وهكذا الإنسان قديماً وحديثاً، فهو في الصورة إنسان وفي الحقيقة العملية ثعبان أو شيطان.

ولقد ألفت كتاباً في ذلك سميته: «أين الإنسان؟» وأرسلته إلى مؤتمر الأجناس في إنكلترا قبل الحرب العظمى بنحو ثلاث سنين، فمنع علماء أوروبا الحقد والحسد أن يترجموا الكتاب بعد ما وعدوني بترجمته، ولكن جاء العلامة «ستتلانة» الطلياني وقرظه في مجلته، وقال: إن هذا الكتاب ظاهره خدمة المجموع الإنساني، وباطنه احتجاج على أوروبا لجشعها وابتلاعها الشرق، وبالاختصار إن هذا الإنسان اليوم حائد عن الصراط السويّ، ولكن يدور على الألسنة وتشتاق النفوس إلى يوم يكون الناس فيه أسرة واحدة. وإذا كان الناس يشاهدون خلية النحل فيها نظام جميل ولها ملكة ونحل شغال وآخر لأجل التناسل، ثم إن النحل يجتمع على ما لا عمل له منه فيقتله، والنظام سائد، فمنها المربيات للأولاد، ومنها الجامعات للشمع، ومنها الجامعات للعسل، ومنها الحافظات الحارسات فلا يدخل غريب عليها، وهكذا مما لا يحصره المقام، فإذا كان هذا في خلية النحل فأين مزية الإنسان؟ نعم، يقال إن كل أمة من الأمم كخلية النحل، وما أكثر الخلايا، ونحن نقول أين مزية الإنسان إذا كان

طوائف كطوائف النحل؟ وأين مزيته التي يمتاز بها على الحيوان؟ ليس في قدرة نحل البلدة الواحدة أن يكون خلية واحدة ليس في طاقته ذلك، ولكن الإنسان الذي سخر له البحر والبر وذلل له السهل والجبل وخاطب شرقيه غربيه وغربيه شرقيه، قادر اليوم أن يكون كخلية نحل واحدة لها نظام خاص، بحيث تكون كل أمة منه أشبه بعضو في الجسم الإنساني، وكل فرد من الأمة أشبه بالأعضاء الداخلة في تكوين ذلك العضو، وبعبارة أخرى: إننا نجد اليد مركبة من عضد وساعد، والساعد من عظمين وعظام في الرسغ، وعظام في اليد والأصابع، فاليد الواحدة في الجسم تشبهها الأمة من أمم الأرض، والأعضاء الداخلة فيها كأفراد تلك الأمة.

ولا تظنن أن هذا العلم حديث، بل هو قديم، اقرأ كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» للفارابي، فإنه جعل المدينة الفاضلة أن تكون الأمة منتظمة تنظيم الجسم الإنساني، ويجعل الأفراد في الأمة في المراتب التي تناسبهم، فكما أن المعدة لا تصلح للتفكير، والكبد لا يصلح لهضم الطعام، هكذا لا يصلح أصحاب العقول المتوسطة للحكمة العالية، وأصحاب العقول الكبيرة لا يجوز أن يتنزلوا لما هو أقل من مراتبهم، بل يوضع كل فرد في مرتبته، وزاد على ذلك فقال: وقد يقال معمورة فاضلة، أي: إن الأمة من الأمم تكون أشبه بعضو في جسم الإنسان العام، وتجعل في مركزها الخاص بها. وبناء على هذا يصبح الإنسان كله أسرة واحدة ولهم مجلس عام، وهو الذي يخصص لكل طائفة من الأمم أعمالها، ويقرر على كل أمة مقدار ما يلزمها من العمل العام للإنسانية على مقدار طبيعة أرضها، ونسبة عدد سكانها وقدرتهم، ويلزمون بذلك قسراً إن لم يقم التعليم العام بانشراح الصدور لذلك، وإذا حصل هذا أعطيت كل أمة ما تحتاج إليه من المال العام للأمم بنظام خاص، فتوزع نتائج الصناعات والمزارع على الأمم، ومتى قصرت أمة منها تقاتل وتؤدب كما أن الفرد إذا قصر حوكم بالقتل كما كان قدماء المصريين يفعلون ذلك. هذا هو النظام العام الممكن في مستقبل الأمم، هذا هو الأمر المحبوب من جميع العقلاء في العالم، وجميع المصلحين عنه يبحثون، فهل هذا الخيال الذي ذكرته لك الآن ممكن، أم ذلك خرافة تقال، وتنميق في المقال، فلننظر في الآيات التي نحن بصددها الآن.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم المسيح ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» زاد في رواية: «حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا ما شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ الآية، وفي رواية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله لينزلن فيكم ابن مريم حكماً عادلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، وليتركن القلاص فلا يسعى عليها، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» أخرجاه في الصحيحين.

فيا ليت شعري، كيف يترك القلوص من الإبل، وعلى أي دابة يركب؟ ولعله يركب القطار والطيارات، وكيف يقول خذوا المال فلا يأخذه أحد؟ وما هذه الثروة العظيمة في الأرض، بل ما هذا الصلاح العظيم، وكيف يكون الناس أمة واحدة؟ وما هذا التضامن، وما هذه العفة؟ يقول: خذوا المال فيقولون: لا نأخذ، كأن المال حجارة أو حديد أو أشغال شاقة.

اعلم أن هذه الحال حال أخرى من أحوال الإنسانية لا تأتي فجأة، فلا بد لها من مقدمات، وليس في عمل هذه الطبيعة المسخرة بأمر الله من طفرة، الطفرة محالة فلا بد من مقدمات تتقدم هذه الأحوال المستقبلة.

واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخبرنا بهذا إلاّ لنستعد لذلك اليوم الذي يرتقي فيه الإنسان ويكون جميع الناس إخواناً كأنهم خلية نحل واحدة. وانظر الآن ألست ترى أن الإنسانية تغالت في الآلات المهلكة والفاتكة والغازات الخانقة، والدول الآن تزيد في المهلكات، والدولة الألمانية المغلوبة اليوم على أمرها تدير في السر من المهلكات ما لم يحلم به البشر، بل يقال إنهم يقدرون أن يجعلوا في الجو سماً يهلك من في الأرض جميعاً، ويهلكون مع الناس، أنا لا أقول لك هذا سيحصل، وإنّما أقول هو ممكن، وما في الإمكان في هذه الأيام سريع الوجود، سريع الظهور، سريع العمل، كثير الأثر، وهذا زمن العجائب الذي أخبرت به الأنبياء.

فالمستقبل أحد أمرين: إما أن الأمم يهلك بعضها بعضاً وهذا على ما أظن لا يكون، وإما أن تتغلب أمة قوية على البقية، وتجبرها على اتباع النظام العام الذي ذكرته لك، ويصبح هذا النظام خلقاً للناس ينقادون إليه، وتكون هناك ألفة جامعة.

أنا لا أقول ذلك سيكون، ولكن أقول إنه محتمل، فإذا حصل هذا ودام أجيالاً ألف الناس العمل ونبذوا الكسل، وظهرت المحبة والمودة وجاء يوم الإنسانية الجديدة، وظهر الإنسان بأوفى معانيه، وحينئذ ما فائدة المال، ولم يخزن الإنسان المال، ما فائدة النقود ولا نقود، النقود للتعامل بها ولا تعامل، إذن بل هي المبادلات، وإذن تبطل البنوك «المصارف» فلا ربا، ويبطل الخمر، وأبشرك اليوم بأن الخمر أبطلته أمريكا والترك، والربا أبطله أهل الروسيا وهم البلشفية، وبعض ما ذكرته لك يفعله الروسيون، فالنقود عندهم أوراق وقتية تبطل في أمد معلوم، والخبز والملبس يأخذهما الناس في مقابلة العمل. ولست أقول إن هذا هو الذي سيكون، ولكن أقول ربما أن يكون هناك عمل يشبه هذا في المستقبل ويترقى، لأني اليوم أجهل ما في تلك البلاد.

فإذا ارتقى النظام على هذا المنوال على توالي الزمان، فلا يمضي زمان قليل حتى يكون الاتحاد العام، وحينئذ يفسر الحديث الشريف الذي روي في البخاري ومسلم، وعلى المسلمين إذ ذاك أن يتأهبوا لذلك اليوم، فلا يأخذون جزية، لأن الجزية تكون حيث لم يكن هناك اتحاد عام، فإذا حصل فعليهم أن يكونوا مع الأمم يداً واحدة.

يقول بعض المفسرين إن أخذ الجزية مقيد بزمن نزول المسيح عليه السلام فلا جزية إذ ذاك، وسيأتي في سورة محمد صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[محمد: ٤] إن ذلك حين نزول عيسى، أي: إن وضع الحرب أوزارها أيام عيسى عليه السلام.

كيف ينزل المسيح

وهنا نقول: هل ينزل المسيح بنفسه؟ أم ذلك رمز لنزع الغل والحقد من القلوب واتحاد الأمم وتعاونها وتصافحها.

اعلم أن أتباع كل دين في الأرض لا يصدقون بغير دينهم، ولو أن المسيح اليوم جاء للنصارى لقالوا له: كذبت، وكذلك نحن معاشر المسلمين لو جاءنا أي إنسان وقال أنا عيسى أو موسى أو محمد لقلنا: أنت مدّعٍ.

ألا ترى أن اليهود وعدوا بمجيء المسيح، فلما جاء كذبوه، والنصارى لما أرسل سيدنا محمد كذبوه إلاَّ قليلاً منهم. فهكذا نحن معاشر المسلمين إذا جاء لنا أي إنسان مهما كان شأنه، فإن الجمهور لا يصدقه وإنّما يفعلون معه ما فعلته الأمم مع الأنبياء، فيتبعه قوم ويرفضه آخرون. هذا هو الأمر الذي يمكن وقوعه، فإذا نزل المسيح فلا ينال من النصارى واليهود والمسلمين إلاَّ ما ذكرته لك، فيتبعه قوم ويخذله آخرون، ويقولن: أنت لست الموعود به.

فأين الهناء وزوال التحاسد والتباغض وثبوت المحبة في الأرض، اللهم إلاَّ أنه يحصل في عقول النوع الإنساني حال غريبة فجائية، ثم ما فائدة هذا الزمان القليل، أي زمان وجود المسيح في الأرض، وللأمم أعمار طويلة، فإذا تهنأت الأمم كلها عدة أعوام، وذهب المسيح من بينهم فهذا أمر لا تكون فائدته تامة.

وما لي أذهب معك بعيداً، انظر إلى الأمم، ألست ترى في الهند من قام وقال: إني أنا المسيح، ومات في زماننا، وجاء بتعاليم إسلامية، ونهى عن الحرب، والحكومة الإنجليزية ساعدته، وله أتباع هناك في الهند. أوَلا ترى إلى طائفة البهائية ببلاد الفرس فإنهم قاموا بتعاليم عامة من القرآن ونشروها في أمريكا وأوروبا، واتبعهم أناس كثيرون، وأخبرتني سيدة إنجليزية من أتباعه أنه هو المسيح، ومع ذلك لا يزال التحاسد في الأمم كما هو، والحرب والضرب والتخريب، وهم يقولون: إن هذه الشريعة تعلو على الأديان كلها، وأكثر المتبعين لهذا الدين من أمم الفرنجة، وقليل من المسلمين اتبعوه، وهم يجعلون شرعهم هذا هو شرع المسيح الموعود به، وقد اتبعهم ملايين كثيرة، وربما جاء كثير يقولون بهذه الدعوة، فأيهم يتبعه الناس، ولعل مقدمات عيسى المذكورة في الحديث هي الحال التي سيصير إليها البشر من الاتحاد والإخاء والأعمال النافعة العامة الموافقة لروح الإسلام، ثم يأتي هو ويظهر أن الزمان المستقبل يكون مداره على الحقائق لا على الظواهر، فيكون الدجال رمزاً لما عليه الأمم الآن من الدجل والكذب والنفاق والجهالة والعمى، والمسيح إشارة لما تستأهل له الأمم في المستقبل من ظهور الحقائق وتقارب الأمم واتحاد الأعمال والنظام العام، وربما كان ذكر أنه لا يركب الإبل، في الحديث الشريف الإشارة إلى أن زمان ذلك الحب قد قرب، فإن الناس أخذت تركب القطار والطيارات، فإذا عم هذا يكون قد اقترب زمان التعاون بين الأمم، لأن سرعة النقل بين الشرق والغرب تقرّب وجهة النظر، فأما تباعد المسافات فإنه يورث الاختلاف في الغايات. ولا تظن أني أقول بمنع وجوده في الأرض، ولكني أقول: إن المهم في الأمر ليس شخصية المسيح ولا وجود ذاته، وإنّما المهم السلام العام والصدق والإخلاص، هذا هو الذي تشدّ إليه الرحال، ويعتني بشرحه أكابر الرجال، فليس القصد من المسيح ذاته سواء أحضر بنفسه أم كانت المحبة الأخوية بين الجامعة الإنسانية، فالمقصد سعادة الأمم لا حضور الأشخاص، فلينزل المسيح فهو أمر ممكن، ولكن المدار على الإخاء العام، فأما الديانات فإن الكتب تنتشر في أنحاء المعمورة كما هو حاصل اليوم.

ألا ترى أن دولة إنكلترا قد أخذت تعتنق الإسلام، وابتدأ بذلك عظماؤها الأغنياء، وذلك للدراسة فنشر الدين اليوم يسير بطريقة غير طريقة السيف، بل بالإقناع، فالمدار على الحقائق، فإذا وجدنا أن ديننا ينتشر بطريقة الإقناع، وسيتم ذلك في زمان السلام العام بنزول المسيح، فلنفعل ذلك كما يفعل الفرنجة في دينهم، فلا نحارب ولا نقاتل، لأن المقصود هو الإيمان، والإيمان يحصل بلا حرب ولا ضرب، ونحن ليس عندنا مبشرون فما بالك لو كان هناك مبشرون دينيون مسلمون، وسترى كلام المفسرين في سورة محمد صلى الله عليه وسلم وانهم يقولون بمنع الحرب أيام نزول المسيح.

واعلم أن الأرض كانت منذ مئات الملايين من السنين عبارة عن كرة نارية، وبتوالي الأزمان برد سطحها شيئاً فشيئاً، وبهذا التبريد المستمر تكونت طبقات بعضها فوق بعض، وعدّوا أزمنتها ستة أعصر تسمى «الأعصر الجيولوجية» وهي العصر الأصلي والانتقالي والثانوي والثالثي والطوفاني واللاحق للطوفاني، وهو الحالي، وترى أن الأرض ترتفع حرارتها درجة واحدة في كل ثلاثين متراً من العمق، ففي عمق ثلاثمائة متر عشر درجات، وفي عمق ثلاثة آلاف متر مائة درجة، وهي درجة الماء المغلي، وفي عمق ثلاثين كيلومتراً ألف درجة، وفي عمق مائة كيلومتر أكثر من ثلاثة آلاف وثلاثمائة درجة، وهي حرارة تذوب فيها الجوامد كلها، وقطر الكرة الأرضية نحو ثلاثة عشر ألف كيلومتر، فتكون الأرض بعد ذلك كلها مواد سائلة.

فانظر كيف كان سكان الأرض قبل هذا العصر، وكيف كانت الحيوانات والنباتات، وكيف كان الانقلاب؟ إن الانقلاب كان عظيماً، وقد جاء العصر الطوفاني وهو الخامس وزلزل الأرض زلزالاً شديداً، واستدارت الأرض في غمضة عين، وحدث انفجار هائل، فانقلبت كلها حتى إن القطبين اللذين كانا كخط الاستواء حرارة انقلبا فجأة وأصبحا في برد قارس وثلج متراكم، كأنه الجبال الشاهقات على ظاهرها، والدليل على ذلك ما وجدوه في باطن الأرض من الفيلة العظيمة التي لا تكون إلاّ في الأقطار الحارة، فكأن الزلزلة والطوفان لما جاءا لم يجد ذلك الحيوان ملجأ للفرار فانطمر وهلك.

كل هذا يريك أن الأرض كلما كان سطحها أكثر حرارة كان الساكنون عليها أقرب للمفاجآت كما هو معقول، وكلما كان سطحها أقرب للاعتدال كان الحيوان عليها أقرب إلى البقاء والسكون والهدوء.

ألا ترى أن العصر الطوفاني المنقضي أعقبه العصر الحالي ولم يحصل فيه إلاّ بعض الزلازل المعروفة، وإلا الطوفان الأسيوي المذكور في القرآن والتوراة وكتاب الفيدا وهو الكتاب المقدس الهندي وما ذلك إلاّ ما حصل من انقلاب البحر العظيم الذي كان يمتد قديماً من البحر الأسود إلى الأوقيانوس الشمالي، فترى من آثاره بحر الخزر والأزوف والبحيرات المالحة المنتشرة في سهول التتر ومفاوز روسيا فلما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم من المياه إلى الأوقيانوس الشمالي، والقسم الآخر انقلب في الأوقيانوس الهندي فغرق بلاد ما بين النهرين وكل البقاع التي يسكنها أسلاف الشعب العبراني.

هذا هو تاريخ الأرض الذي مضى، والأرض لها عمر محدود ودورات محدودة، وهي بدورانها حول الأرض جارية على مدى الزمان تزيد كمالاً كالإنسان يكون في أول حياته بنشوة الصبوة والفتوة، ثم يصير كهلاً ثم شيخاً وقوراً، هكذا أرضنا الآن استقرت.

أما سكانها ونوع الإنسان على الخصوص فإنهم يفعلون اليوم ما حصل للأرض وقد اضطربوا في أخلاقهم والحروب قائمة بينهم، لأنهم من الأرض خلقوا، والأرض نار خارجة من نار، وسطحها مكوّن فوق نار، ولا تزال البراكين تخرج كل يوم من باطنها ناراً، فترى جميع أفعال أهلها نارية من فرح وحزن وغم وحرية وعشق وغرام وحقد ورحمة وغيظ وطمع.

كل ذلك حرارة في النفوس كالحرارة التي في النبات والأجسام، فهذه في القلوب معنوية، وهذه في الأجسام حسية، وهذا الإنسان أخذ الآن يرتقي ويتقارب، فاستخراج الفحم الذي تكوّن من ملايين السنين وهاهو ذا ينتفع به، ولا بد بعد اجتياز هذا الدور الذي نحن فيه من بلوغ دور الكمال كما كملت الأرض التي نحن عليها شيئاً فشيئاً، فالأرض تزيد في الثبات والإنسان لا بد يوماً ما يصير أكمل منه الآن، وتتغلب الحكمة على الشيطنة التي غلبت عليه الآن، وبوادر ذلك ظاهرة اليوم، فإنهم يقولون جمعية الأمم وتنقيص السلاح وما أشبه ذلك، وذلك هو اليوم الذي قيل فيه: إن المسيح يرسل لأهل الأرض ويزول الحقد والحسد من أهل الأرض ويعيش الناس بسلام، ويصبح الناس إخواناً، ولا يأخذ المسلمون الجزية، بل يعيشون بسلام مع الأمم، وهذا هو مقصد الحديث النبوي ليستعد المسلمون لذلك اليوم، ولا ندري أقريب هو أم بعيد. اهـ. وكل هذا ذكرته للتقريب، وليس على ذلك برهان عقلي.

لطيفة في تعاليم الأرواح

وكيف كانت أخلاق المسيح وأعماله موافقة لذلك الحديث النبوي المتقدم

قد قلت لك قبل هذا الفصل إن العقل ليس له منفذ لاستطلاع المستقبل، وليس يمكنه أن يعرف هل الناس في مستقبل الزمان يكونون سعداء، وليس لدينا من الدين ما يدل على نزول المسيح إلاّ الأحاديث المذكورة، والقرآن ليس فيه نص على ذلك، وعلى هذا قال بعض علمائنا: إن هذه المسألة ليست من العائد اليقينية، لأن العلماء يجعلون الأحاديث الصحيحة كالتي في البخاري ومسلم ظنية لا يقينية، كما في فتح الباري على البخاري، والعقائد عندنا هي اليقين لا الظن، وغاية الأمر أن صحاح الأحاديث يعمل بها في الأحكام الشرعية، ومخالفها فاسق لا كافر. هذا ما كان من أمر شريعتنا الغراء فلننظر إلى ما وصل إلى علماء الجمعيات النفسية في أوروبا وهل عندهم من هذا القبيل شيء؟

نقول: قد اطلعت بعد ما كتبت ما تقدم على أن بعض الجمعيات في أوروبا استحضرت روح غاليلي الفيلسوف فأجابها قائلاً ما مختصره:

لا بد للأرض أن تزول يوماً وتمحى من سفر الحياة، ويمكن تقسيم حياة العوالم إلى أدوار ثلاثة:

الأول: دور الطفولة: إذ يتم تجمع مادة الكواكب الحديثة كالأرض في أول وجودها.

الثاني: دور الكهولة: وفيه يتم تجمد القشرة وتتكامل الحياة حتى يظهر المثال الأكمل.

الثالث: دور الانحطاط: وفيه يفقد الكوكب مادته بسببين: الأول الاحتكاك، والثاني: تحلل أجزائه كما ينحل الحجر إلى حصى ورمال.

وفي هذا الدور يزيد سكانه ارتقاء في الكمال العقلي والروحي، وكلما نقصت مادة الكوكب أثر ذلك في دورانه، فيحصل هناك تغير في الدورات ويصبح النظام بالتدريج غير النظام المعتاد في الأيام والأشهر الخ. هذا ملخص ما قيل في ذلك عن الأرواح.

إذا علمت هذا فإنك تجده يطابق الحديث بعض المطابقة، فإن المروي فيما تقدم أن الناس يكونون غير متحاسدين ولا متباغضين ويكونون أسرة واحدة، وهذا هو المناسب للدور الثالث المذكور، إذ ترتقي الأرواح فتكون أرضنا شيخة كبيرة ونحن عقلاء كاملون، وكأن هناك تناسباً بين أخلاقنا وحياة أرضنا، وأن حياتنا مرتبطة بأخلاق أرضنا وعمرها وكميتها ودورتها، ولذلك تجد في بعض الأحاديث أن أيام آخر الزمان تكون غير أيامنا هذه، مغايرة لها بعض المغايرة. وإذا ارتقت الأرواح كانت الحياة قائمة بالمحبة، وعليه نذكر كيفية حياة المسيح فنقول:

اعلم أن قوماً يسمون «الأسونيين» كانوا عائشين في فلسطين حتى وادي النيل، حافظين تقاليد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخلاقهم، وكانت مهنتهم في الظاهر الطب وفي الباطن نشر المحبة والإخلاص بين الناس، وروى عنهم المؤرخ «يوسفوس» و«فيلون» و«بلينوس» أنهم كانوا أفضل قوم على وجه الأرض، وتعليمهم أشبه بتعليم «فيثاغورس» فيقولون بخلود النفس، وأنها كانت في الأقطار الشفافة العلوية المضيئة، وقد ربطت في الجسد لترتقي، ومتى انطلقت منه ترجع إلى عالمها، وكانت أرزاقهم شائعة بينهم، يأكلون على مائدة واحدة وطعامهم زهيد، ولا يذوقون اللحم إلاّ نادراً، ولم يستخدموا الأسرى لاعتقادهم أن هذا حرام، ومخالف للطبيعة العامة، لأن الناس جميعاً أحرار، ولباسهم كان عبارة عن حلة بيضاء يرمزون بها إلى نقاوة النفس وصفائها، وفوقها عباءة بيضاء، ويقسمون أوقاتهم ما بين الصلاة والعمل والتأمل والدرس.

أما الأساتذة فكانوا متفرغين للفلسفة والطب، يبحثون في خواص النبات والمعادن، ويستعملون الطريقة المغنيطيسية في شفاء الأمراض.

وقد تحقق اليوم عند العلماء الباحثين أن المسيح كان مختلطاً بهؤلاء القوم سنين طويلة، وإن لم تذكر ذلك الأناجيل، ويثبت ذلك عند هؤلاء المؤرخين أن تعليمه مشابه لهذه التعاليم، فكان يأمر بحب القريب والمساواة بين الناس، ولا يقر إلاّ بإله واحد يسمى «الأب» ولا يقدم له ذبيحة في هيكل، وهيكله هو هذا الكون، فلا حاجة للعبادة في مكان محدود، ومكان عبادته الحقيقي المقدس هو القلب وكان يحقر الكذب والانتقام والحرب، وكان يحب الوداعة ودماثة الأخلاق والتواضع والسهولة واحتقار المال والتجرد من حطام الدنيا، وكان شعار المسيحيين «السلام عليكم» والنصارى الأولون اختلطوا مع الأسونيين فكانوا شعباً واحداً. اهـ.

هذا هو الدين المسيحي الذي كان عليه المسيحيون الحقيقيون، وإذا كان كذلك وقد قررت الأحاديث نزول المسيح فهل هكذا سيكون الناس جميعاً إخواناً في سائر الأرض؟ ويكون المسلمون هم أصحاب هذا الرأي؟ إذا تم هذا فهو نفس الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣]، ويقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] هذه هي الرحمة المحمدية التي رمز لها في الحديث أنها عيسوية، فدين عيسى داخل في الدين الإسلامي، فالإسلام ظاهره تشريع وباطنه حب وسلام.

ويا ليت شعري ما المقصود من الحدود، والأحكام ليس لها والله معنى ولا مغزى إلاّ السلام في الأرض، ومتى حصل السلام بالتعاليم فقدت الشرائع والأحكام سلطانها، لأنه لا سلطان لها إلاّ على

الخاطئين، فإذا زال الخطأ واصطلح الناس وتقدمت العقول فأيّ داع لقطع اليد والصلب وشهادة الشهود بل كل ذلك يقل ويحل محله الحكمة والعمل.

أيها المسلمون اعلموا أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ينبهنا أنكم مستعدون للرقي والسعادة مستعدون للكمال النفسي، وإذا كنا نرى سويسرا النصرانية أصبحت ولا يسمع فيها بخائنين ولا سارقين ولا قاتلين ولا ظالمين إلاَّ قليلاً، فما بالنا عن الكمال نائمين.

ولقد سأل المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني المصري فتاة ترعى بقراً كثيراً في المراعي الواسعة في سهول سويسرا قائلاً: كيف تنامين، ألا تخافين من اللصوص؟ فما فهمت ما يقول، بل قالت: وهل أحد يأخذ مال غيره؟ وترى الرجل لا يأخذ تذكرة للقطار إذا سافر فيه اتكالاً على أمانته، وهو الذي يضع النقود في الصندوق بذمته وأمانته.

ولقد سأل المرحوم محمد بك فريد أيضاً عن قاض من القضاة متى يحضر المحكمة؟ فقالوا له: ليس يحضرها إلاَّ في أول كل شهر، فتوجه إليه فوجده يخيط النعال ليقتات بصناعته، فقال له: أليس لك مرتب؟ فقال: المرتب على قدر العمل، ولا عمل لي إلاَّ ثلاثة أيام في أول الشهر لقلة القضايا. اهـ.

أفليس الإسلام أحق بهذه الفضيلة؟ ألا فليحول الناس وجهتهم إلى الفضيلة وهي مقصد الإسلام. يا معاشر المسلمين، هل قصرت أنظارنا أن نكون كهؤلاء؟ يا معاشر المسلمين، ويا علماء الأمة اقتصاركم على الأحكام الشرعية جهالة عمياء ونذالة حمقاء، افتحوا عيون الشعوب للجمال الإلهي والأخلاق والفضائل، فتح لكم الباب نبينا صلى الله عليه وسلم فأراكم أنه سيأتي زمان تكونون فيه كالمسيحيين الأولين الذين كانوا على الحق، فيرشدكم بطريق الإشارة إلى أن تكونوا أمة أرقى من هذه الأمة. إن نبينا جاء للهدى فلنكن هداة، وهاهو ذا يقول لنا إن ذلك الزمان لا يؤخذ فيه الجزية، وإن الحسد ينزع فجدّوا في العلوم، بهذا جاء الدين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]. اهـ. الفصل الأول.

الفصل الثاني

اعلم أن هذا الفصل متصل بالفصل الذي قبله، لأن ذلك كان في ذكر ذنوب اليهود، وهي ١٦ ذنباً دالة على أنهم كانوا مجرمين من قبل، فإذا اقترحوا أن تنزل عليهم يا محمد ﴿ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾[النساء: ١٥٣] الخ.

ثم أخذ يجيب بنوع آخر من العلم، فإذا قال أولاً: إن اليهود إذا اقترحوا عليك أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فهم قوم غلاظ القلوب وحق لهم كذا وكذا، فإنه يقول في هذا الفصل: وهل كنت بدعاً من الرسل؟ وأي نبي نزل عليه الكتاب جملة واحدة من السماء؟ وإن اليهود يعترفون بالأنبياء السابقين، ولم ينزل على واحد منهم كتاب مرة واحدة، فكيف يريدون مخالفة سنة الله في إنزال الكتب السماوية؟ فمن أشهر الأنبياء نوح وإبراهيم وإسماعيل الخ، وهم اثنا عشر نبياً، هذا هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ أي كتاباً مزبوراً أي مكتوباً، ويصح أن يكون الزبور بالفتح اسم للكتاب الذي أنزل على داود، وهو مائة وخمسون سورة، ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام، بل تسبيح وتقديس وتمجيد وثناء على الله

ومواعظ ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أي قصصنا رسلاً الخ، من باب الاشتغال ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل هذه السورة ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أي لم نسمهم لك ولم نعرّفك أخبارهم ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ وتكليم الله أقصى مراتب الوحي، ثم قال: أمدح ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ لا يغلب على أمره ﴿ حَكِيمًا ﴾ في تخصيص كل نبي بنوع من الإلهام، وإذا كانوا تعنتوا عليك ولا يشهدون بنبوتك فعليهم وزرهم ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن الدالّ على النبوة ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ أي متلبساً به الخاص به وهو العلم بتأليفه على نظم معجز مشتمل على ما يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ بنبوتك ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي كفى بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ذلك لأنهم جمعوا بين ضلالهم وإضلال غيرهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾ محمداً بإنكار نبوته وصد الناس عن الإسلام ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ لا يعسر عليه ولا يستعظمه.

ولما قرر أمر النبوة وردّ دعوة المعترضين، دعا الناس دعوة عامة، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا ﴾ إيماناً ﴿ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا ﴾ فهو غني عنكم ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بإيمانكم ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فيما دبر لكم. انتهى الفصل الثاني.

الفصل الثالث

يقول الله: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ يخاطب النصارى ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ وذو روح صدر منه، فلذلك يحيي الأموات والقلوب ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾ أي الآلهة ثلاثة أو الله ثلاثة أو الله ثلاثة أقانيم: الأب والابن والروح القدس، فالأب الذات، والابن العلم، وروح القدس الحياة ﴿ انتَهُوا ﴾ عن التثليث انتهاء ﴿ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ بالذات لا تعدّد فيه بوجه ما ﴿ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أي أسبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد، فإن الولد يكون لمن يفنى، فيكون بقاء لذكره بعده إلى أمد معلوم وينفع والديه في كبرهما، والله ليس كذلك فهو باق ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ والحاجة إلى الولد ليكون وكيلاً عن أبيه قائماً بنظام بيته، والله هو الوكيل، فأين الحاجة للولد إذن؟ هذا من جهة الله، أما المسيح فلن يأنف أن يكون عبداً لله بل الملائكة المقربون لا يأنفون من ذلك، ولذلك قال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ ﴾ لن يأنف، من: نكفت الدمع: إذا نحيته بإصبعك، من ﴿ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أن يكونوا عبيداً لله ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ ﴾ ومن يترفع عنها ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ فيجازيهم ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ تفسيره ظاهر، ثم خاطب الناس قائلاً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ البرهان

المعجزات، والنور القرآن ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ في ثواب ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ هو الإسلام والطاعة في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة.

يروى أن جابر بن عبد الله كان مريضاً فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني كلالة، فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت هذه الآية، وهي آخر ما نزل من آيات الإحكام ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ تقدم تفسيرها في أول السورة ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ﴾ الأخت هنا من الأبوين أو أب، لأن أخاها عصبة، وابن الأم لا يكون عصبة، وقوله: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ يعني ولا والد، فالأخت المذكورة لها نصف المال إن انفردت، والباقي لبيت المال على مذهب زيد والشافعي، فأما أبو حنيفة وأهل العراق فإنهم يردون الباقي إليها. أما إذا كان للميت بنت فإنها تأخذ النصف بالفرض، وتأخذ الأخت النصف الثاني بالتعصيب لا بالفرض، لأن الأخوات مع البنات عصبة ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ أي والرجل يرث أخته إن كان الأمر بالعكس، فإذا ماتت الأخت وتركت أخاً من الأب والأم، أو من الأب، فإنه يستغرق جميع ميراث الأخت إذا انفرد ولم يكن للأخت ولد، فأما الأخ للأم فإنه صاحب فرض لا يستغرق جميع المال ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ فمن مات وترك أختين أو أخوات فلهن الثلثان مما ترك؛ فالمراد بالاثنتين هما وما فوقهما ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾ أي وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكر على المؤنث، أي وإن كان المتروكون من جهة الإخوة رجالاً ونساءً، فللذكر منهم نصيب اثنتين من أخواته الإناث ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ الأحكام والفرائض، كراهية ﴿أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات.

لطيفتان

اللطيفة الأولى في شرائع الأنبياء، اللطيفة الثانية: في المسيح

اللطيفة الأولى: ارجع إلى شرائع الأنبياء في سورة آل عمران، وكيف ترى أن الدين واحد بما نقلناه هناك في مسألة المسيح، فقد ذكرنا نبذاً من ديانات كثيرة.

اللطيفة الثانية: قد كتبت في مجلة الملاجئ العباسية تفسير آيات المسيح المتقدمة باتساع أشمل وموعظة أكمل، فلأنقلها هنا الآن برمتها، فأقول: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[الآية: ١٧١] إلى قوله: ﴿فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾[الآية: ١٧٢].

الإنسان أرقى من الحيوان، تمتع بالحرية وهو مع ذلك ضعيف الإرادة، خامد العزيمة، تتجاذبه الأهواء، وتقذف به في هوّات الجهالة، وترديه في أسفل سافلين، يطغيه المال حتى يستعبده، وبه يتعالى على أخيه، وإذا تولى أمر الناس سعى في الأرض ليفسد فيها بالظلم والعدوان، وإذا اتبع ديناً أو عظم كبيراً تغالى في وصفه وغفل عن تعليمه وأدبه، وإذا أعرض عنه أساء وصفه ووسمه بأشنع السمات.

عجب أمر هذا الإنسان، إن كان غنياً طغى، أو قائماً بأمر الناس بغى، أو متديناً بدين إلاّ وزل وحاد عن القصد في العقيدة. ومن عجب أن أولئك المتغالين يسحرون الناس ويسخرونهم فيستذلون للظالمين ويخضعونهم، ويتبعون أهواء أهل الغلوّ من رجال الدين.

ألم تر إلى لويس الرابع عشر كيف كانت تقام حفلتان لاستيقاظه كل صباح، وكيف كان يتولى خدمته جموع، لو صرف ذكاؤهم العجيب في الأعمال النافعة لكان خيراً للإنسان، وكيف كان لبعض ملوك الإسلام عند الصلاة عساكر يصطفون وجيوش بالسلاح مدججون.

الإنسان حر لكنه كالفراش يتساقط في النار، الغني يحبسه ماله، والملك يذله ملكه، وذو العلم أو الدين كثيراً ما يتبع أهواءه بلا هدى ولا كتاب منير.

من ذلك ما قصه الله في هاتين الآيتين من تغالي اليهود في التشهير بالسيد المسيح عليه السلام، وبعض النصارى قديماً من اتخاذه إلهاً، فقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ لا تجاوزوا الحد فيه، إذ يقول اليهود إنه عليه السلام ولد لغير رشدة، وبعض النصارى أنه الإله ﴿ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ وكيف ينزله بعضكم إلى أسفل الدرجات، وآخرون يرفعونه إلى ما فوق السماوات ونهاية الغايات، فهلا انهجتم سبيلاً وسطاً لا شطط فيه ولا خطل؟ فلا تنزلونه إلى أسوأ المراتب ولا ترفعونه إلى رتبة لا تليق للخالق ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها بلا توسط مادة، على خلاف العادة المألوفة والسنة المعروفة، وهذا مفاد قوله: ﴿ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ ﴾ وقوله: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾ ظاهر معروف ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓ ﴾ تنزيهاً له ﴿ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ ﴾ ولا يولد إلاّ لمن يعتريه العناء ويحل به الفناء، ليقوم الوالد بأعبائه ويخلفه بعد فنائه، وكيف يصطفي الله ولداً مما خلق و﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً، وهل احتياج الناس للولد إلاّ ليخافهم ويكون وكيلاً لهم، والله عزَّ وجلَّ قائم بنظام العوالم، حافظ لكل شيء ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ فكفى الله من جهة قيامه بالأشياء وحفظه لها، فالولد له ضرب من المحال.

ليس التغالي في الدين قاصراً على أمة دون أمة، ولا طائفة دون طائفة، جهل الإنسان وطغى قديماً وحديثاً. اقرأ تاريخ أمة أمة وابحث أخلاقها وأسرارها، وتاريخ دينها، تر التعصب في الأمم والجمود في القرائح سارياً في أكثر البشر ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [العصر: ٢-٣] الحق والصبر سعادة الإنسان، وما عداهما فإنما هو الضلال والطيش أو الباطل والرعونة. ينزل الله الدين على لسان رسله فيستمسكون بقشوره وينبذون العمل به وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. ولقد أخذ المسلمون حظهم من الخلاف وافترقوا نيفاً وسبعين فرقة خلقتها وساوس الشيطان، ونصبتها أيدي الشهوات، واغتر كل قوم بعصبيتهم، واعتزوا بجيوشهم ﴿ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣].

ما كادت شمس الذات المحمدية تغرب من سماء هذا العالم حتى اتبع كل فريق أحد كبار هذه الأمة فتمزقوا خرائق وتفرقوا طرائق، وكان منهم من عبد سيدنا علياً كرم الله وجهه في حياته، فقاتلهم عليه السلام وهزمهم، ومنهم من اعتقد العصمة في رجل وقال بالإمام المعصوم، حتى إن الحاكم بأمر الله لا يزال يعظم إلى اليوم، ولقد كثر المغترون في هذه الأمة، فالعالم يغتر بعلمه، والعابد بعبادته، وكثير من الناس يغترون بطاعة فعلوها، ثم يتبعونها بالمخزيات والذنوب، وقد يعتز الشريف بنسبه

والتلميذ الذي اتخذ له شيخاً بشيخه . فأنزل الله هذه الآية ليعرّف الناس منازلهم ويقفوا عند حدهم ، ومن العجب أن المبتدعين من المسلمين انتهجوا سبل الضلالة ، ونصبوا أشراك الغواية ، واستحبوا العمى على الهدى ، وعظموا أناساً ليأكلوا باسمهم ويظلموا الناس بالانتساب إليهم ، ألا وإن أثر تلك السيئة ظاهر في الأمة الآن .

وكم مريد قنع بما تلقفه من شيخه وهو عن الدين والقرآن غافل ، وإني وإن كنت أقرّ لكثير بالأدب والعلم والإصلاح ، فلا أزال آسى على هذه الأمة لما تسلط على أفئدتها كثير ممن لا خلاق لهم فيوحون إلى الناس ما يوحون من الزور والبهتان ، حتى لم يبق في الأرض ملك في بحبوحة العيش ونعيم الحياة ، إلاّ بعض أولئك الرؤساء الذين تسللوا لواذاً من الجامعة القومية ، والتف حولهم أشياعهم وأغدقوا عليهم النعم وحبس أولئك السادة عنهم العلم والحكمة وعجائب القرآن ، وزهدوهم في العلوم وأناموهم على مهاد الراحة فأحيط بهم من كل جانب وهم لا يشعرون .

وإذا قلت : يا أيها المريد ، لم غفلت وعصيت وجهلت؟ يقول : إن صلة شيخي بالله تشفع لي ، وإني بتعظيمي له والتجائي إليه تغفر ذنوبي ، فإذا أجبناه أنه لا يملك لك من الله شيئاً ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧-٨] امتعض وقال : لقد حططت من قيمته وأنزلت من قدره ، وذلك كما جاء وفد نجران للنبي صلى الله عليه وسلم قالوا : لم تعيب صاحبنا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن صاحبكم؟ قالوا : عيسى عليه السلام ، قال : وأي شيء أقول؟ قالوا : تقول إنه عبد الله ورسوله ، قال : إنه ليس بعار أن يكون عبد الله ورسوله ، فنزل قوله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ نكف عنه : كفرح ، ونصر كاستنكف يقال : نكفت الدمع : إذا نحيته بإصبعك ، أي لن يأنف ، وهذا كقولهم : أصبح لا يخالفه رئيس ولا مرؤوس ، مبالغة في التكثير واستعمال شائع عربي .

وإذا كان السيد المسيح عليه السلام لا يستنكف أن يكون عبداً لله وهو من أولي العزم ، فكيف يضل فريق من أمتنا ويتغالون في الطرق التي يسلكونها ويعولّون على شيوخهم الأحياء أو الأموات في مغفرة ذنوبهم ، ولن يصل شيوخهم إلى رتبة المسيح عليه السلام ، وأنّى للولي أن يصل مرتبة النبي صلى الله عليه وسلم . أقول ذلك وقد أيقنت بأن طائفة تغالت من الأمة ، فظنوا أنهم يصلون إلى حال تصلهم بالله يرفع عنهم بها التكليف ، ولقد سمعت مريداً يقول : إن شيخي هو الله ، ومن هذا علمت أن التعاليم الباطنية القديمة العهد بمواثيقها لا تزال تتوالى في الأمة ، يتلقنها الأبناء عن الآباء .

وأنا أقول أيها المسلمون : وجب علينا الآن أن نبين للأمة عيوبها ، وحق علينا نصحها وإرشادها :

يا أيها الناس ، إني في وجل أن تضيع الأمة وتذهب ريحها ، يقول العاصي : إني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وكفتني هذه النسبة . وقد ضرب الإمام الغزالي لهؤلاء الجهلاء مثلاً ، فقال ما معناه : من المغترين بالله من يعظم الدين وهو مقيم على معاصيه ، فمثلهم كمثل رجل أمسك بذقن آخر وضربه على وجهه ، وقال : إن أباك كان عظيماً شريفاً .

قال لي رجل في محفل في بلاد الفلاحين بالشرقية : إن الله يغفر بالحج الذنوب الكبائر ، فقلت له : يا هذا إذا أرسلت اللصوص فسرقوا ألف جمل ، وقتلوا مائة رجل ، واسترقوا عشرين ألف جنيه ،

ثم حججت بمائة منها، فماذا ترى؟ أفترى أيها الرجل أنك أدخلت الحيلة عليه ومكرت به وهو أسرع الحاسبين؟

يا أيها الناس اتقوا الله، واعلموا أن نبينا أفضل الأنبياء، فشرعه أنسب للأمة، وهل يليق بكرامته أن يكون تابعوه أقل الناس أدباً، وأكثرهم ذنوباً، وأجهلهم صناعة، وأضلهم سياسة، وأبعدهم عن الفضائل، وأقربهم إلى الرذائل، ويتبجحون بقولهم: إننا أتباعه، وهل هذه النسبة اللفظية تقنع الجاهل فضلاً عن العالم.

لقد قال اليهود والنصارى قديماً مثل ذلك، فنزل ذماً لهم قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] بالقتل والهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨] وقال قبل ذلك ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧] هنا جاء الحق وزهق الباطل وبطلت حجة الجهال المدعين أنهم أحق بالله من غيرهم.

وإذا كان المسيح عليه السلام عرضة لهلاكه هو وجميع من في الأرض، فأي حجة يا أيها الناس للتواكل؟ الأنبياء جرى عليهم القانون والناموس، يقول الله عزّ وجلّ على لسان نبيه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ويقول الله عزّ وجلّ على لسان نبيه أيضاً: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]. يا أيها الناس إياكم والشك في كلام الله أن يقول امرؤ هذا ظاهر وله باطن.

يا قوم: إنا نظرنا في طرق هذه الأمة فرأيناها مزقت كل ممزق.

يا قوم: لا سبيل لأن يزول الضلال إلاّ بالعلم والحكمة.

يا قوم: ديننا ناموس عام لا يستثني شريفاً ولا وضيعاً وليس عند الله عظيم ونسيب.

يا قوم: ليس لي من هذا القول كلمة واحدة، إنّما هذه آراء أسلافنا وعظمائنا.

يا قوم: إن هذا رأي الإمام الغزالي وشيوخ الصوفية أنفسهم، فاحذروا بعض رجال العصر الحاضر فأكثرهم لا يعلمون.

وإذا كان الله عزّ وجلّ يخاطب نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِن كَانَ﴾ يا محمد ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا﴾ منفذاً تنفذ به ﴿فِى﴾ جوف ﴿ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا﴾ مصعداً تصعد به إلى ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ مما يقترحون عليك فافعل ذلك، أي أنت لا تقدر عليه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَ﴾ أنذرهم واصبر و﴿لَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] الذين يجزعون في مواطن الصبر، فإن ذلك من دأب الجهلاء.

ويقول سبحانه إذ جاء ابن أم مكتوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، فقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله، كرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ

وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ وأيّ شيء يجعلك دارياً بحاله، لعله يتطهر من الآثام بما يتلقف منك ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ [عبس: ٣-٤] يتعظ ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ تتعرض بالإقبال عليه، وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على الإسلام إلى الإعراض عمن أسلم ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ يسرع طالباً للخير ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ كبوة الطريق لأنه أعمى لا قائد له ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس: ١-١٠] تتشاغل.

فانظروا يا رجال الإسلام خطاب الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ولعيسى ولأهل الأرض قاطبة.

انظروا يا أهل العلم كيف عتب الله على نبيه أن أعرض عن رجل أعمى، وقد تصدى لدعوة عظماء قريش، وهو يطمع أن يعز الله بهم الإسلام لا تكبراً عليه.

ولقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بعد ذلك يكبره ويقول إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، واستخلفه على المدينة مرتين.

ولقد روي أن عتبة بن أبي وقاص شج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم؟. وهمّ أن يدعو عليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ويقول صلى الله عليه وسلم: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»، ويقول: «يا فاطمة بنت محمد، لا أغني لك من الله شيئاً».

يا أمة الإسلام، هذا كلام ربكم، وهذه حال نبينا والأنبياء والمسيح عليه السلام، الناس أجمعون عبيد لله. فانظروا من أين دخلت الغفلة على المسلمين.

يا قوم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، دين الإسلام أخلاق، فاتقوا الله أيها الناس واعلموا أن الإسلام دين الفضيلة، دين الحكمة، دين العلم دين الأدب.

وإذا اكتفى الحاج بحجته، والمصلي بصلاته، والمريد بشيخه، والفقيه بفقهه، والأديب بأدبه اللفظي، فلمن نزل القرآن وآدابه؟.

يا رجال الإسلام، أنذركم هلاك العدد، وقطع المدد، ورق الولد، وضياع البلد. أنذركم اقتراب أجل الأمة المحمدية، أنذركم صاعقة العذاب والهون. لم يبق إلاّ أيام قلائل، فإن لم ترجعوا إلى الجادة هلكت الأمة وصاروا كأهل الأندلس قديماً. لقد أطلت في هذا المقام وشرحت حال المسلمين الحاضرة بعد أن أطلت فيها التفكير فأيقنت بما كتبت.

هذا لمناسبة السيد المسيح عليه السلام، ولعمرك لم يسمعنا الله ذلك إلاّ لنذكر ونعتبر. ولنرجع إلى بقية الآية ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ ﴾ يترفع ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ فيجازيهم والاستكبار دون الاستنكاف حيث لا استحقاق، وقد يكون الاستكبار عن استحقاق.

يا أيها المسلمون، ما أكثر الغرور، وما أجهل المغرورين، دين الإسلام أخلاق وفضيلة. ولقد عيرنا سائر الأمم بهذا النقص المشين، فإن لم نرجع عن عيبنا فإننا في عذاب الخزي واقعون. اللهم ارزق أمتنا رجالاً مصلحين، وفقهها في أخلاق دينها، إنك سميع قريب.

هذا الذي شرحناه اليوم في الآيتين من سورة النساء بعض ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم وانظروا إلى عمر رضي الله عنه وقد تلقى الشريعة عن صاحبها، وشاهد كسر رباعيته في أحد والدم يسيل على وجهه، وسمع آية الوحي: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[آل عمران: ١٢٨] .

انظروا كيف علم أن الناس كلهم خاضعون لناموس واحد في الدنيا والآخرة، فقال لابن القبطي: اضرب ابن عمرو بن العاص كما ضربك بمحضر من الصحابة، وكيف يقول له: كيف تستعبدون الناس وقد ولدوا أحراراً، وكيف جعل الأمر شورى عند موته.

تأملوا يا قوم في الأمر، فإني أخاف أن يضيع من أيدينا فالوقت قصير.

حكي لي أن رجلاً هولاندياً قال: إن دين محمد صلى الله عليه وسلم فهمه أصحابه في القرن الأول، ثم تولى شأن دينه شعوب حقيرة ونفوس صغيرة وعقول صغيرة، وتقهقروا إلى الوراء وصاروا عبرة للورى.

تمّ تفسير سورة النساء



﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

سورة المائدة مدنية
وآياتها مائة وعشرون آية

تقسيم سورة المائدة

(١) الحلال والحرام في الصيد ونحوه، من أول السورة إلى قوله: ﴿ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[الآية: ٥].

(٢) طهارة الجسم بالماء، وطهارة القلب بالصلاة وبالعدل وشكر النعمة، من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾[الآية: ٦] إلى قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[الآية: ١١].

(٣) أخذ العهد على بني إسرائيل بالصلاة والزكاة والإيمان، فنقضوا عهدهم، وكذلك النصارى وتوبيخ الطائفتين وتقريعهم، وقصة دخول بني إسرائيل بيت المقدس، من قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[الآية: ١٢] إلى قوله: ﴿ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[الآية: ٢٦].

(٤) قصة ابني آدم وكيف كان الظلم قديماً كما صار حديثاً، من قوله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾[الآية: ٢٧] إلى قوله: ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[الآية: ٣٢].

(٥) حكم القاتل وقاطع الطريق والسارق، من قوله: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ ﴾[الآية: ٣٣] إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الآية: ٤٠].

(٦) أحكام التوراة والإنجيل والقرآن، وأن أهل كل كتاب يحكمون به، من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ﴾[الآية: ٤١] إلى قوله: ﴿ يُوقِنُونَ ﴾[الآية: ٥٠].

(٧) أمر الله المؤمنين أن لا يتولوا اليهود والنصارى وأن لا يرتدوا، وتقريع اليهود والنصارى على ذنوبهم، من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ ﴾[الآية: ٥١] إلى قوله: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[الآية: ٦٦].

(٨) أمر الله للنبي صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة، ووعده له بحفظه من الناس وأن يجاهر اليهود والنصارى بأنهم ليسوا على شيء من دينهم، وذكر فريقين من النصارى: هادين وضالين، وذم اليهود، من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[الآية: ٦٧] إلى قوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[الآية: ٨٦].

(٩) الحلال والحرام في الصيد، وذكر الخمر والميسر ونحوهما، من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[الآية: ٨٧] إلى قوله: ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الآية: ١٠٥].

(١٠) نوع من الشهادات، من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾[الآية: ١٠٦] إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[الآية: ١٠٨].

(١١) خطاب الله لعيسى ابن مريم يوم القيامة وجوابه، من قوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ ﴾[الآية: ١٠٩] إلى آخر السورة.

مقدمة

نزلت سورة المائدة بالمدينة، إلاَّ قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[الآية: ٣] فإنها نزلت بعرفة في حجة الوداع، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة، فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة وقال: «يا أيها الناس، إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها».

قال البغوي: روي عن ميسرة أن الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكماً لم ينزلها في غيرها، وهي قوله تعالى: (١) ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾. (٢) ﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾. (٣) ﴿ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾. (٤) ﴿ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴾. (٥) ﴿ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾. (٦) ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾. (٧) ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾[الآية: ٣]. (٨) ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾[الآية: ٤]. (٩) ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾. (١٠) ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[الآية: ٥]. (١١) وتمام بيان الطهر في قوله: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[الآية: ٦]. (١٢) ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾[الآية: ٣٨]. (١٣) ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾[الآية: ٩٥]. (١٤) ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ ﴾. (١٥) ﴿ وَلَا سَآئِبَةٍ ﴾. (١٦) ﴿ وَلَا وَصِيلَةٍ ﴾. (١٧) ﴿ وَلَا حَامٍ ﴾[الآية: ١٠٣]. وقوله: (١٨) ﴿ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾[الآية: ١٠٦].

أقول: وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما حرم وكان حلالاً عند العرب وهو سبعة.

والثاني: ما أحل وهو سبعة.

والثالث: أربعة أقسام: ما يفضي إلى تنزيه الجسم من الأقذار الحسية والمعنوية وهي النجس والحدث، وإلى تنزيه النفوس من الخيانة في الأموال بالسرقات، وإلى عدم قتل الحيوان في أحوال خاصة، وإلى العدل في الشهادة، فهذه هي ١٨ فلنشرح:

(١) أولاً هذه الأقسام الثلاثة.

(٢) ثم لأبين كيف أباح الله قتل الحيوان مع أنه رحيم. وكيف اجتمعت الرحمة والإيلام في عالمنا الأرضي.

(٣) وبيان الحيوانات الآكلة والمأكولة.

(٤) وكيف كان النظام يطلب ذلك.

(٥) وكيف اختلف نوع الإنسان اختلاف الحيوان، وكيف كان الإسلام وسطاً، وكيف كان الله هو الملهم والمعلم بالإلهام تارة والاختبار تارة أخرى.

(٦) وتحريم أكل الطيور النافعة للإنسان شرعاً.

(٧) وكيف سمى الله هذه السورة مائدة وبسط فيها الحلال والحرام.

(٨) وكيف كانت هذه السورة هي مفتاح لباب العلوم الحيوانية حتى يلج منه المسلمون فيعرفوا الضار والنافع بتعليم الله لهم وإلهامه سبحانه وتعالى، واختيار الضار والنافع فيحفظون ما ينفعهم ويحرمون أكله، وفي ذلك باب واسع لدرس الحيوانات كلها ولسائر ما في الأرض، وهذا بحر مستمد

من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[البقرة: ٢٩]، فلا بد من دراسة العالم الذي نحن فيه. فأما البقاء على الجهالة العمياء في الإسلام فذلك يجر إلى فناء هذه الأمة وقيام غيرها مقامها، فليس علم الفقه المعروف كل شيء، بل هو جزء قليل جداً من الدين والدين لا يزال بحاله، فليقم في الإسلام عقلاء وليفكروا، فهذا موسمهم والله قد أذن بذلك. فهذه ثمان مسائل، فلنبتدئ بالمسألة الأولى فنقول:

(١) شرح هذه الأقسام الثلاثة ذات المسائل الثمانية عشرة:

القسم الأول منها ما كان حلالاً وحرم بالقرآن، وهو سبعة خلاف الأربعة التي حرمت قبل هذه السورة في القرآن، وهي: الميتة والدم والخنزير وما أهل لغير الله به، فيكون هذا بما أضيف إليه أحد عشر محرماً:

أحدها: ﴿ ٱلْمَيْتَةُ ﴾، كانت العرب تقول: إنكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله. إن تحريم الميتة موافق للعقل لأن الدم جوهر لطيف، فإذا مات الحيوان حتف أنفه احتبس الدم في عروقه وتعفن وفسد وحصل من أكله مضار.

ثانيها: ﴿ ٱلدَّمُ ﴾، كانوا يملئون المعى من الدم ويشوونه ويطعمونه الضيف، فحرم عليهم ذلك، وقال الأعشى:

فإياك والميتات لا تقربنها ... ولا تأخذن نصلاً حديداً لتفصدا
ولا تنكحن جارة إن سرها ... عليك حرام فانكحن أو تأبدا

يقول مفسرو هذه الأبيات: إن العرب كانوا إذا أجدبوا جرحوا إبلهم بالنصال، فنزل الدم فشربوه.

الثالث: ﴿ لَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾، لأن الخنزير أضرى الحيوان على الطعام والشهوات واشرهه، فأكل لحمه يورث الأخلاق التي عليها ذلك الحيوان، كما أن الحيوان المريض يورث آكله مرضاً، ولقد ثبت في العصر الحاضر أن الدودة الوحيدة لا تكون إلاّ من أكل لحم الخنزير، فلحوم الناس وعظامهم تابعة لأغذيتهم، وهذا باب واسع في العلم يجب النظر فيه طويلاً والبحث في الحكمة والعالم المشاهد.

الرابع: ﴿ مَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾، الإهلال رفع الصوت، يقال: أهلّ فلان بالحج: إذا لبى به، ومنه استهل الصبي، وهو صراخه إذا ولد، وكانوا يقولون عند الذبح: باسم اللات والعزى، فحرم الله تعالى ذلك، وإنّما حرم ذلك لتصان العقائد عن التفرق والاختلاف، فإن ذكر اسم الأصنام عند الذبح مشعر بتفرق الوجهة، وتفرقها داع لتفرق الأعمال والأحوال، فلا يكون نظام للأمور الحيوية ويتبعها أن يخسروا الآخرة، والآخرة إنّما هي نتيجة الحياة الدنيا تنظيماً واختلالاً في العقيدة والعمل.

الخامس: ﴿ ٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾، يقال: خنقه فاختنق، والخنق والاختناق انعصار الحلق، فهذا الخنق بأي وجه موجب للتحريم، فمنه أنهم كانوا في الجاهلية يخنقون الشاة فإذا ماتت أكلوها، ومنها ما يخنق بحبل الصائد، ومنها ما يدخل رأسها بين عودين في شجرة فتختنق فتموت. وهذه المنخنقة بأي وجه من جنس الميتة لأنها لما ماتت لم يسل دمها فكانت منها.

السادس: ﴿ ٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾، وهي التي ضربت إلى أن ماتت، يقال: وقذها وأوقذها، إذا ضربها إلى أن ماتت، ومن الموقوذة ما رمي بالبندق فمات، وهي من الميتة لأنها لم يسل دمها.

السابع: ﴿ٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾، والمتردي هو الواقع في الردى وهو الهلاك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[الليل: ١١] أي وقع في الردى، وهو في الآية: النار، ويقال: فلان تردى من السطح، فالمتردية هي التي تسقط من جبل أو موضع مشرف فتموت، وهذه أيضاً من الميتة لأنها ماتت وما سال منها الدم، وكذلك ما تشابه أمرها فلم نعلم أمتردية هي أم مصابة بالسهم بأن وقعت من فوق الجبل وقد أصابها سهم فلا يدرى بأيهما ماتت؟ أبالسهم أم بالتردي.

الثامن: ﴿ٱلنَّطِيحَةُ﴾، وهي المنطوحة إلى أن ماتت، كشاتين تناطحتا إلى أن ماتتا أو ماتت إحداهما، وهي من الميتة لأنها ماتت من غير سيلان الدم. واعلم أن فعيل بمعنى مفعول، يستوي فيه المذكر والمؤنث إذا كان الموصوف مذكوراً، فإذا لم يكن الموصوف مذكوراً كما هنا دخلت التاء فارقة.

التاسع: ﴿مَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ السبع يقع على ما له ناب ويعدو به على الإنسان والدواب ويفترسها مثل الأسد وما دونه. وكان أهل الجاهلية إذا جرح السبع شيئاً فقتله وأكل بعضه أكلوا ما بقي، فحرمه الله تعالى، وتقدير الآية: وما أكل السبع منه، لأن ما أكل السبع قد نفد، وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أصل الذكاة إتمام الشيء، ومنه الذكاء في الفهم، ويقال: ذكيت النار، أتممت إشعالها، فقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي إلاَّ ما وجدتم له عيناً تطرف أو ذنباً يتحرك أو رجلاً تركض فذبحتموه فإنه حلال، فإنه لولا بقاء الحياة ما حصلت هذه الأحوال، ويكون هذا الاستثناء عما تقدم من ﴿ٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾، والتذكية هنا هي التي أجهزت على الحيوان لا الخنق ولا الوقذ الخ. وهذا قول علي وابن عباس والحسن وقتادة، ويقول بعضهم: كلا، بل هذا راجع لما أكل السبع، والقول الثالث: إنه استثناء منقطع، أي: إلاَّ ما ذكيتم من غير هذه، فأما هذه فلا تحل ذكيت أو لم تذك.

العاشر: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ وهي أحجار كانوا ينصبونها حول الكعبة وكانوا يذبحون عندها للأصنام وكانوا يلطخونها بتلك الدماء ويضعون اللحوم عليها، فقال المسلمون: يا رسول الله، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق بأن نعظمه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكره فأنزل الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[الحج: ٣٧] والنصب: جمع نصاب، كحمار وحمر، أو نصب كسقف وسقف، أو النصبة وهي العلامة تنصب للقوم، أي وما ذبح على اعتقاد تعظيم النصب أو للنصب.

الحادي عشر: قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً آخر من معاظم الأمور، ضرب القداح، وكانوا قد كتبوا على واحد منها: «أمرني ربي» وعلى الثاني: «نهاني ربي»، والثالث لا شيء عليه، فإن خرج الأمر أقدموا على الفعل، وإن خرج النهي أمسكوا عنه، وإن خرج الذي لم يكتب عليه أعادوا العمل مرة أخرى، فمعنى الاستقسام بالأزلام: طلب معرفة ما قسم لهم من الخير والشر بواسطة ضرب القداح، والأزلام: القداح، واحدها زلم، وسميت الأقداح بالأزلام لأنها زلمت، أي: سويت، ويقال: رجل مزلم وامرأة مزلمة، إذا كان كل منهما خفيفاً قليل العلائق، ويقال: قدح مزلم، إذا ظرف وأجيد قدّه وصنعته، وإنّما حرم ذلك لأنهم كانوا يحملون تلك الأزلام عند الأصنام ويعتقدون أن ما خرج من الأمر والنهي على تلك الأزلام

إنّما يكون بإرشاد الأصنام وإعانتها، فلهذا السبب كان فسقاً وحراماً. واعلم أن الله عزّ وجلّ منع علم الغيب عنا لحكمة وهي الجدّ، ولو أننا عرفنا الغيب ما عملنا عملاً، بل كان الإنسان ينام منتظراً ما يجيء به القدر، وهذا تعطيل لمصالح دنيانا، فلذلك منع الله علم الغيب عن الناس، وجعل الرؤى وغيرها فيها الحق والباطل، والصدق والكذب، ليحترس الناس وليفكروا بعقولهم ولا يتكلوا إلاّ على ربهم الذي حجبهم برحمته عن معرفة الغيب إلاّ بما شاء لحكمة. انتهى القسم الأول من الأقسام الثلاثة، وهي السبعة التي حرمت في هذه السورة مضافاً إليها الأربعة التي معها وكانت محرمة قبل نزول هذه السورة.

القسم الثاني: ما أحل، وهو سبعة:

الأول: ما صدناه بالجوارح المعلمة.

الثاني: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾.

الثالث: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾.

الرابع والخامس والسادس والسابع: بيان البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

الأول: ما صدناه بالجوارح المعلمة ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ والجوارح جمع جارحة وهي الكواسب من السباع والطير، كالفهد والنمر والكلب والبازي والصقر والعقاب والشاهين والباشق من الطير، مما يقبل التعليم، سميت جوارح من الجرح لأنه يجرح الصيد عند إمساكه، ويصح أن تسمى جوارح بمعنى كواسب من جرح واجترح بمعنى كسب واكتسب، ومعنى مكلبين: معلمين، والمكلب هو الذي يغري الكلاب على الصيد، أو هو مؤدب الجوارح ومعلمها، وإنّما اشتق له الاسم من الكلب لأنه أكثر احتياجاً إلى التعليم، هكذا قالوا. وأقول: بل هو أقرب إلى الائتناس بالناس وأدنى إلى طاعتهم بخلاف الطيور. ثم قال تعالى: ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى، ومنه أن يتبع الصيد إذا أمره صاحبه وأن ينزجر عنه إذا انزجر، وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد، ولا يأكل منه ولا ينفر من صاحبه إذا أراده، وأن يجيبه إذا دعاه، فهذا هو تعليم الجوارح فإذا وجد منها ذلك مراراً كانت معلمة، وأقلها ثلاث مرات عند أبي يوسف ومحمد، ومرتان في رواية عن أبي حنيفة وعند أحمد أيضاً، ومرة واحدة عند الحسن البصري، ويعتبر العرف عند الشافعي وأبي حنيفة في أظهر الروايات عنه، قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل».

(١) فإذا كان الكلب معلماً وصاد صيداً وجرحه وقتله وأدركه الصائد ميتاً فهو حلال، لأن جرح الجارحة كالذبح.

(٢) الجوارح المعلمة حكمها حكم الكلب.

(٣و٤) والسهم والرمح كذلك، فإذا صاده الكلب وجثم عليه وقتله بالفم من غير جرح، ففيه قولان: (١) أنه ميتة لا يؤكل. (٢) يحل لدخوله فيما أمسكن عليكم، وهذا كله ما لم يأكل منه، فإن أكل منه فقد اختلف العلماء فيه، فمن قائل لا يحل، وهو قول ابن عباس وطاوس والشعبي وعطاء السندي، وأظهر أقوال الشافعي مستدلين بقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا قد أمسكه

على نفسه. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعدي بن أبي حاتم: «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فإن أدركته ولم يقتل فاذبح واذكر اسم الله عليه، وإن أدركته وقد قتل ولم يأكل فكل فقد أمسك عليك، وإن وجدته قد أكل فلا تطعم شيئاً فإنّما أمسك على نفسه». ومن قائل يحل، وهو قول سلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص وابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم، فهؤلاء يقولون يحل وإن أكل منه، وهو القول الثاني للشافعي.

الثاني من السبعة التي تحل: طعام الذين أوتوا الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ فطعام الذين أوتوا الكتاب هنا هي الذبائح التي يذبحونها، وأما المجوس فلا نأكل ذبائحهم ولا نتزوج نساءهم، ولا نأكل ذبائح أهل الشرك من العرب وعبدة الأصنام ومن لا كتاب لهم، فأما غير الذبائح فلا كلام فيها لأنها محللة قبل أن كانت لأهل الكتاب وبعد أن صارت لهم لا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة، ولو ذبح اليهودي أو النصراني على غير اسم الله:

(١) قيل لا يحل ذلك وهو قول ربيعة.

(٢) ولكن أكثر أهل العلم أنه يحل وهو مذهب الشعبي وعطاء، قالا: لأن الله أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

(٣) وقال الحسن: إذا ذكرا غير اسم الله وأنت تسمع فلا تأكل، وإذا غاب عنك فكل، فقد أحله الله.

(٤) وزعمت طائفة أنه يحل مطلقاً ولو ذكرا اسم غير الله، وأما قوله: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي يحل لكم أن تطعموهم من طعامكم، وكأنه لما كانت النتيجة غير جائزة من بعض الوجوه بأن يتزوجوا نساءنا، نبه بهذا على أنه يجوز أن نطعمهم من طعامنا وإن لم يجز أن نزوجهم من نسائنا.

الثالث من السبعة التي تحل: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي وأحل لكم المحصنات من أهل الكتاب اليهود والنصارى، وهل يراد بالمحصنات الحرائر منهن.

(١) وهذا قول ابن عباس، فلا يتزوج بالأمة الكتابية من اليهود والنصارى لأنه اجتمع في حقها نوعان من النقص: الكفر والرق، وهو مذهبي الشافعي.

(٢) وقال الحسن والشعبي والنخعي والضحاك: المحصنات العفيفات من أهل الكتاب فيجوز التزوج بالأمة الكتابية، وهو مذهب أبي حنيفة لعموم هذه الآية، فزواج الكتابيات الذميات جائز، وقد تزوج عثمان بن عفان نائلة بنت الفراقصة على نسائه، وهي نصرانية، وطلحة بن عبيد الله تزوج يهودية وقد كره ابن عمر ذلك وكان يحتج بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[البقرة: ٢٢١].

وقال الجمهور: هذه الآيات التي ذكرها عامة وخصصت بهذه الآية، فجميع المشركات محرمات ما لم يؤمن، إلاَّ الكتابيات فذلك عام، وهذا خاص فحلت الكتابيات وبقي تحريم غيرهن من المشركات.

وقال سعيد بن المسيب والحسن: يجوز التزويج بالذميات والحربيات من أهل الكتاب لعموم الآية، والجمهور أنها خاصة بالذميات دون الحربيات. قال ابن عباس: من نساء أهل الكتاب من تحل لنا ومنهن من لا تحل لنا، وقرأ: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩] والمراد بهم أهل الذمة دون أهل الحرب من أهل الكتاب، وقوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ

أُجُورَهُنَّ ﴾ أي مهورهن وهي العوض الذي يبذله الرجل للمرأة ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ أي مستعفين بالتزويج غير زانين ﴿ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ يعني ولا منفردين ببغي واحدة قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها وحده.

حرم الله الجماع على جهة السفاح وهو الزنا واتخاذ الصديق وهو الخدن ، وأحله على جهة الإحصان وهو التزويج بعقد صحيح ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ ﴾ ومن يجحد ما أمر الله به من توحيده ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله ﴿ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ بطل ثواب عمله الذي عمله في الدنيا ، وخاب وخسر في الدنيا والآخرة ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ إذا مات على ذلك.

الرابع والخامس والسادس والسابع من التي تحل : هي المذكورات في قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾[الآية : ١٠٣] إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها ، أي شقوها وخلوا سبيلها ، فلا تركب ولا تحلب ، فهذه هي البحيرة . وأما السائبة : فإن الرجل منهم كان يقول : إن شفيت فناقتي سائبة ، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها . وأما الوصيلة : فقد كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فإن كان السابع ذكراً ذبحوه وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كانت أنثى تركوها في الغنم ، وإن كانت ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها واستحيوا الذكر فلم يذبحوه من أجل ذلك . والحامي : هو الفحل إذا اتفق له أحد أمرين : إما أن يركب ولد ولده أو ينتج من صلبه عشرة أبطن ، فيقولون حمى ظهره ، فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا من مرعى ، فإذا مات أكله الرجال والنساء ، وقوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ ﴾ ما شرع الله ﴿ مِن بَحِيرَةٍ ﴾ الخ .

القسم الثالث : وهو ما يشير إلى تنزيه الجسم عن الأقذار الحسية والمعنوية ، وهي الحدث والنجس وإلى تبرئة النفس من الخيانة في الأموال بالسرقات ، وإلى عدم قتل الحيوان في أحوال خاصة ، وإلى العدل في الشهادة وأدائها .

المسألة الأولى : نظافة الجسم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾[الآية : ٦] أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ من منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن طولاً ، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً ، مع وصول الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والعذارين والشارب والعنفقة وإن كانت كثة ، وأما اللحية فإن كانت كثة لا ترى البشرة من تحتها لا يجب غسل ما تحتها ، ويجب غسل الخفيفة ، ولم يوجب أبو حنيفة مرور الماء على ما نزل من شعر اللحية عن حد الرأس ، ويجب إمرار الماء على ظاهره عند غيره ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ المرفق بالكسر هو من الإنسان أعلى الذراع وأسفل العضد ، ومذهب الجمهور دخول المرفقين في الغسل الواجب ، ونقل عن مالك والشعبي وأبي بكر ابن داود الظاهري أنه لا يجب ، وكذا ابن جرير الطبري ، وحجة الجمهور أن «إلى» بمعنى «مع» ، وحجة غيرهم أن الغاية للشيء لا تدخل فيه ، والحد غير المحدود ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ أي رؤوسكم ، أو الصقوا المسح برؤوسكم ؛ فالباء إما زائدة وإما أن يكون الفعل تضمن معنى الإلصاق . والمسح عند الشافعي أقل ما يقع عليه الاسم ، وعند أبي حنيفة ربع الرأس ، وعند مالك جميع الرأس ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ بالنصب عطفاً على «وجوهكم» أو بالجر للجوار . وفرض الرجلين :

(١) إما المسح عند ابن عباس وقتادة وعكرمة والشعبي والإمامية من الشيعة .

(٢) وإما المسح بالقرآن، والغسل بالسنة عند أنس .

(٣) وإما الجمع بين الغسل والمسح عند داود الظاهري .

(٤) وإما التخيير بين الغسل والمسح عند الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري .

(٥) وإما الغسل فقط عند جمهور العلماء من الصحابة والتابعين، فمن بعدهم من الأئمة الأربعة وأصحابهم .

وهذا الخلاف كله راجع لقراءة الجر والنصب، والأحاديث واردة بطرق مختلفة، والاستنتاج كقول الشعبي : إنَّما المسح على الرجلين ؛ ألا ترى أن ما كان فيه الغسل جعل عليه التيمم، وما كان عليه المسح أهمل . وقال ابن عباس : الوضوء غسلتان ومسحتان وهكذا . وقوله : ﴿ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ الخلاف في دخول الكعبين كالخلاف في دخول المرفقين، والكعبان هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم عند جمهور العلماء في اللغة والفقه . وشذت الشيعة والقائلون بمسح الرجلين، إذ قالوا : الكعب عظم مستدير على ظهر القدم فيكون في كل رجل كعب واحد .

كيفية الوضوء

فروض الوضوء : اعلم أن فروض الوضوء : التسمية، وتقديم غسل اليدين، والمضمضة، والسواك، والاستنشاق، والنية عند غسل الوجه، وغسل الوجه وداخل العين مع مقدم الأذن، وغسل اليدين وتقديم اليمنى، ومسح الرأس، وغسل الرأس مع المسح، وغسل الرجلين، والترتيب والفور ويكون لكل صلاة، والتدليك .

فالتسمية عند أحمد وإسحاق، وتقديم غسل اليدين عند بعض الفقهاء كما في الرازي، والمضمضة والاستنشاق عند أحمد وإسحاق في الوضوء والغسل، وعند أبي حنيفة في الغسل دون الوضوء، والسواك عند داود، والنية عند الشافعي والترتيب عنده أيضاً، والفور وهو الموالاة عند مالك، وما أقبل من الأذن مع الوجه غسلاً وما أدبر مع الرأس مسحاً عند الشعبي، وإدخال الماء في العين عند ابن عباس، وتقديم اليد اليمنى عند أحمد، ومسح الرأس مع غسلها عند داود الظاهري، ويجب الوضوء لكل صلاة عنده أيضاً، والتدليك عند مالك .

وأبو حنيفة لم يوجب منها إلاّ أربعة وهي المذكورة في الآية، وزاد الشافعي خامساً وهو النية، وزاد الشافعي أيضاً وأحمد سادساً وهو الترتيب كالآية، وأوجب مالك الموالاة والتدليك، فالاتفاق على أربعة والاختلاف في اثني عشر .

فائدة : قال الأوزاعي والثوري وأحمد : يجوز مسح العمامة بدل مسح الرأس، وخالفهم الجمهور، والمسح على الخفين أجازه الشافعي وأبو حنيفة وأكثر الفقهاء وذلك للمسافر ثلاثة أيام بلياليها من وقت الحدث بعد اللبس، وأنكره الشيعة والخوارج، وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم ﴾ فقد سبق تفسيره في سورة النساء، ولكن لنوضح الطهارة من الجنابة فنقول : للجنابة سببان : التقاء الختانين والإنزال .

وقال زيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري: لا يجب الغسل إلاَّ عند نزول الماء، وختان الرجل موضع قطع جلدة الغلفة، وختان المرأة موضع قطع الجلدة الرقيقة القائمة مثل عرف الديك بين الشفرين، وتحتها مجرى البول، وهو ضيق، وتحت هذا ثقبة يخرج منها الحيض والولد، وهي مدخل ما يجب به الغسل، والتطهر الاغتسال وهو أن يعم الجسد بالماء، وأوجب مالك الدلك، وأوجب أبو ثور وداود تقديم الوضوء، وأوجب أبو حنيفة المضمضة والاستنشاق.

ثم إن شعر الرأس إن كان مفتولاً مشدوداً بعضه ببعض ومنع وصول الماء إلى البشرة لم يوجب مالك نقضه ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ أي ما يريد الله بالطهارة للصلاة ولا بالأمر بالتيمم تضييقاً عليكم ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ لينظفكم، والنظافة الظاهرة داعية للباطنة، ومن اعتاد نظافة الظاهر صار سجية له يعتادها، وملازمة الاعتدال والجمال تؤثر في نفس الملازم؛ ولقد بينا هذا في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[الآية:٢٢٢]، وأفدنا هناك أن النظافة والعمل يرفعان النفوس الإنسانية، والقذارة والبطالة يوجبان نقصها، فارجع إليه إن شئت ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ بالطهارة والنظافة وما يترتب عليها من صفاء القلوب وإخلاص السرائر وصفاء النيات ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمته.

المسألة الثانية

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾[الآية: ٣٨] حد اليد من رؤوس الأصابع إلى الكوع، أي فيما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة وهذه جملة، وقوله: ﴿ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ جملة أخرى ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا ﴾ مفعول لأجله ﴿ نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي عقوبة، مفعول لأجله أيضاً ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ عز فحكم فقطع، ولا تقطع اليد إلاَّ إذا كان المسروق يساوي ربع دينار وسرق من حرز مثله. وقال مالك وأحمد وإسحاق يقطع في ثلاثة دراهم أو قيمتها، وعن أبي هريرة أنه خمسة دراهم، وقال قوم لا بد من دينار أو عشرة دراهم، وهذا مروي عن ابن مسعود وسفيان وأبي حنيفة وابن عباس، ويروى عن ابن الزبير والحسن أن القدر غير معتبر فيقطع على القليل والكثير، ولا يشترط أن يكون من حرز مثله وهو مذهب داود.

وتقطع يده اليمنى من الكوع، فإن سرق ثانية سرقت رجله اليسرى، وهنا قال سيدنا علي: إني أستحي أن لا أدع له يداً يستنجي بها ولا رجلاً يمشي بها، فلا يقطع اليد الثانية ولا الرجل الثانية بل يحبس، وهو قول الشعبي والنخعي والأوزاعي وأحمد وأصحاب الرأي، وذهب غيرهم إلى أنه تقطع يده اليسرى في المرة الثالثة ورجله اليمنى في المرة الرابعة.

التخفيف فلا قطع في حالين:

الحال الأولى: إذا سرق مالاً له فيه شبهة، كالولد يسرق مال والده، والوالد يسرق مال ولده، والعبد يسرق مال سيده، والشريك يسرق مالا شريكه، بل إن مجرد الإنكار عند بعضهم كالشافعية يمنع القطع، فلو قال: لم أسرق، وقد سرق كان شبهة تمنع القطع، ويكتفى بالعقوبة «التعزير».

الحال الثانية: أن يتوب كما قال الله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ ﴾[الآية: ٣٩] من السرّاق ﴿ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ ﴾ بعد سرقته ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ أمره بالتفصي عن التبعات والعزم على أن لا يعود إليها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة، ولا تقطع يده عند بعض العلماء بدليل قوله تعالى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

المسألة الثالثة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ﴾ [الآية: ٩٥] محرمون جمع حرام أو داخلون الحرم، فيحرم على من أحرم بالحج أو العمرة وعلى من دخل الحرم وإن لم يكن محرماً أن يقتل الصيد وهو حيوان متوحش مأكول اللحم أو غير مأكول اللحم كالأسد والغزال، واستثني من ذلك خمس: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ ذاكراً لإحرامه عالماً بأنه حرام عليه قتل ما يقتله ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي فعليه جزاء يماثل ما قتل من النعم. روي أنه عنّ لهم في عمرة الحديبية حمار وحشي، فطعنه أبو اليسر برمحه فقتله، فنزلت هذه الآية.

واعلم أن من تعمد قتل الصيد وهو ذاكر لإحرامه فإن ذنبه أكبر من أن يكون له كفارة، ولكن ابن عباس والجمهور يحكمون عليه بالجزاء. ومن تعمد قتل الصيد مع نسيان الإحرام أو قتل الصيد خطأ بأن قصد غيره بالرمي فأصابه فهو كالعمد فعليه الجزاء؛ فالقرآن نزل في العمد، والسنة جرت بالخطأ.

المثل الواجب

أبالخلقة هو أم بالقيمة؟ والجمهور على الأول، فقد حكم الصحابة رضي الله عنهم في النعامة ببدنة وهي لا تساوي بدنة، وفي حمار الوحش ببقرة وهو لا يساوي بقرة، وفي الضبع بكبش، وفي الظبي بشاة، وفي الأرنب بسخل، وفي الضب بسخلة، وفي اليربوع بجفرة، ويجب في الحمامة وكل ما عبّ وهدر كالفواخت والقمري وذوات الأطباق شاة، وما سوى ذلك من الطير ففيه القيمة في المكان الذي أصيب فيه. وروي عن عمر أنه قضى في الضبع بكبش، وفي الغزال بعنز، وفي الأرنب بعناق، وفي اليربوع بجفرة.

وقال أبو حنيفة: يقوّم الصيد حيث صيد؛ فإن بلغت القيمة ثمن هدي خيّر بين أن يهدي ما قيمته قيمته، وبين أن يشتري به طعاماً، فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وإن لم تبلغ تخير بين الإطعام والصوم، قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي يحكم بالجزاء في قتل الصيد رجلان صالحان عدلان من أهل ملتكم ودينكم، وينبغي أن يكونا فقيهين فينظران إلى أشبه الأشياء به من النعم فيحكمان به ﴿هَدْيًۢا﴾ حال من الهاء في «به» ﴿بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ وصف به هدياً، ومعنى بلوغه الكعبة أنه يذبح في الحرم ويتصدق به ثمت. وقال أبو حنيفة يذبح في الحرم ويتصدق به حيث شاء ﴿أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ﴾ عطف بيان أو بدل من «كفارة»، والمعنى عند الشافعي أن يكفر بإطعام مساكين ما يساوي قيمة الهدي من غالب قوت البلد، فيعطي كل مسكين مداً ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أو ما سواه من الصوم، فيصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وإنما كان عليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ ثقل فعله وسوء عاقبته بهتكه لحرمة الإحرام أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله، وأصل الوبال الثقل، ومنه الطعام الوبيل ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾ من قتل المحرم الصيد في الجاهلية أو قبل التحريم أو في هذه المرة ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾ مع أن عليه الكفارة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ممن أصر على عصيانه.

ثم أخذ يشرح صيد البحر فقال: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ ﴾[الآية: ٩٦] ما صيد منه مما لا يعيش إلاَّ في الماء وهو حلال أكله. وقال أبو حنيفة: لا يحل منه إلاَّ السمك، وقيل يحل السمك وما يؤكل نظيره في البر ﴿ وَطَعَامُهُۥ ﴾ ما قذفه ورمى به إلى الساحل أو نضب عنه ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ ﴾ تمتيعاً لكم ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ أي ولسيارتكم يتزودونه قديداً، أي يتمتع به المسافرون والمقيمون.

إيضاح هذا المقام

الحيوان البحري: إما سمك وإما غير سمك، فجميع السمك حلال، وقال أبو حنيفة: لا يحل إلاَّ أن يموت بسبب، وما عدا السمك فهو قسمان: قسم يعيش في البر والبحر كالضفدع والسرطان، فلا يحل أكلهما. وقال سفيان: أرجو أن لا يكون بالسرطان بأس، والجراد وطير الماء من صيد البر، فإن أصاب جرادة فعليه صدقة.

وقال أحمد: يؤكل ما في البحر إلاَّ الضفدع والتمساح، قال: لأن التمساح يفترس ويأكل الناس. وقال ابن أبي ليلى ومالك: يباح كل ما في البحر. وقال بعضهم: الكلب والخنزير في الماء، وكل ما له نظير لا يؤكل في البر لا يؤكل هو، والبقر البحري والجاموس يؤكل لأن له نظيراً في البر يؤكل. اهـ.

المسألة الرابعة من هذا القسم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾[الآية: ١٠٦]

اعلم أن تميماً الداري وعدي بن بداء خرجا إلى الشام للتجارة، وكانا حينئذ نصرانيين، ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً، فلما قدموا الشام مرض بديل، فدوّن ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما به، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ومات، ففتشاه وأخذا منه إناء من فضة فيه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب فغيباه، فأصاب أهله الصحيفة فطالبوهما بالإناء، فجحدا فترافعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، فحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر كما هو نص الآية، ثم خلى سبيلهما، ثم وجد الإناء في أيديهما، فأتاهما بنو سهم في ذلك فقالا: قد اشتريناه منه ولكن لم يكن عليه بينة فكرهنا أن نقرّ به، فرفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل بقية الآية، وهي تفيد أن يقوم اثنان من أولياء الميت ليحلفا بدل هذين الوصيين النصرانيين، فقام عمرو بن العاص ومطلب بن أبي رفاعة السهميان، فقاما مقام النصرانيين، فأقسما أن شهادتهما أحق من شهادة الوصيين المذكورين بالقبول، وهذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ أي الإشهاد في الوصية، وأضافه إلى «بينكم» توسعاً ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي شارفه كما اتفق لبديل ظرف لشهادة ﴿ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ﴾ بدل منه ﴿ ٱثْنَانِ ﴾ فاعل شهادة ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ وصف لاثنان ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ عطف على «اثنان»، أي من غير دينكم وملتكم ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي سافرتم ﴿ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي قاربتم الأجل ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وكأنه قيل كيف نفعل بهما إن ارتبنا؟ قال: تحبسونهما وتقفونهما من بعد الصلاة، أي صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ ﴾ أي ارتاب الوارثون منكم، والمقسم عليه قوله: ﴿ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ﴾ أي لا نستبدل بالقسم أو بالله ﴿ ثَمَنًا ﴾

عرضاً من الدنيا، أي لا نحلف بالله كذباً لطمع ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ المقسم له ﴿ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ قريباً منا ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ ﴾ له، أي الشهادة التي أمرنا بإقامتها ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴾ إن كتمنا ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ اطلع ﴿ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ﴾ أي النصرانيين ﴿ ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ خيانة ﴿ فَـَٔاخَرَانِ ﴾ أي وليان آخران من أولياء الميت، وهو بديل، وهما هنا عمرو بن العاص ومطلب بن أبي رفاعة ﴿ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ مقام النصرانيين ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ ﴾ أي من الورثة الذين استحق عليهم، أي الأوليان، أي الأحقان من بينهم بالشهادة، فيصطفيهما الورثة ليظهر كذب هذين الوصيين، فالورثة يختارون اثنين يكونان أحق بالميت وأولى به، فيقسمان بالله إن شهادتهما أحق من شهادة الوصيين، وذلك لأنه قد ظهر للناس خيانتهما.

قضاء شريح بهذه الآية وأنها ليست منسوخة وقضاء أبي موسى الأشعري

قال شريح: من كان بأرض غربة لم يجد مسلماً يشهد وصيته، فليشهد كافرين على أي دين كانا من أهل الكتاب أو من عبدة الأصنام، فشهادتهم جائزة في هذا الموضع، ولا تجوز شهادة كافر على مسلم بحال إلاَّ على وصية في سفر لا يجد فيه مسلماً.

وعن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاء هذه، ولم يجد أحداً من المسلمين حضر يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى فأخبراه، وقدما بتركته ووصيته، فقال أبو موسى: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدّلا ولا كتما ولا غيَّرا، وأنها وصية الرجل وتركته، فأمضى شهادتهما.

ومذهب الشافعي وأبي حنيفة والحسن والزهري وعكرمة: عدم جواز شهادة الكافر ولا في هذه المسألة، وإنّما أجاز أبو حنيفة شهادة أهل الذمة فيما بينهم، واحتج آخرون بأن هذه السورة ليس فيها منسوخ البتة، وأيضاً ماذا يفعل المسلم الذي حضرته الوفاة في المال إذا لم يجد مسلماً، فهذا مضطر أن يشهد أي كافر كان. اهـ.

ثم قال الله تعالى: ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا ﴾ أصدق من شهادتهما وأولى بأن تقبل ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ﴾ أي وما تجاوزنا فيها الحد ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الواضعين الباطل موضع الحق، وهذا المقام من المواضع التي رد فيها اليمين إلى الورثة لظهور خيانة الوصيين ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الحكم الذي تقدم ﴿ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾ على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ أي ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم، فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة كما في مسألة بديل ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ ما توصون به سماع إجابة ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فإن لم تتقوا وتسمعوا كنتم قوماً فاسقين، والله لا يهدي القوم الفاسقين.

وإذ فرغت من المسائل الثمانية عشرة وهي التي قسمتها ثلاثة أقسام، وهي المروية عن ميسرة، فلأشرع في الكلام على أن الله عزَّ وجلَّ:

(١) كيف أباح قتل الحيوان مع أنه رحيم، وكيف اجتمعت الرحمة والإيلام في عالمنا الأرضي. (٢) وبيان الحيوانات الآكلة والمأكولة. (٣) وكيف كان النظام يطلب ذلك. (٤) وكيف اختلف نوع الإنسان اختلاف الحيوان؟ (٥) وكيف كان الإسلام وسطاً. (٦) وكيف كان الله هو الملهم والمعلم بالإلهام تارة والاختيار والعقل تارة أخرى. (٧) وتحريم أكل الطيور النافعة للإنسان شرعاً. (٨) وكيف سمى الله هذه السورة مائدة وبسط فيها الحلال والحرام، وكيف كانت هذه السورة هي مفتاح للعلوم الحيوانية حتى يلج المسلمون منه فيعرفوا الضار والنافع بتعليم الله لهم وإلهامه سبحانه وتعالى، واختيار الضار والنافع فيحفظون ما ينفعهم ويجتنبون ما يضرهم.

كيف أمر الله بذبح الحيوان وهو أرحم الراحمين

اعلم أيها الذكي العاقل الفطن أن هذا التفسير قد جعل باباً من أبواب الحكمة، وبه سيصير المسلم القارئ له من الذين دخلوا للحكمة من بابها، ذلك أنك ستجد الإجابة على أسئلة كثيرة ترد على العقول، ولقد ضل بها كثير من الناس.

ولتعلم أن الإنسان لا يصل إلى السعادة والصفاء والجمال إلاَّ إذا وقف على الحقائق، ولكن ما دام واقفاً على شاطئ الحقيقة لم يهجم عليها، ولم يركب سفن النجاة الجارية في بحارها، عاش جباناً جاهلاً، ومات غير متزود من هذه الدنيا زاداً يسير به في الحياة العقلية في العالم الكامل، بعد خروجه من السجن الأرضي الذي حكم عليه بالبقاء فيه أياماً وأعواماً.

فمن الأسئلة التي ترد على قلوب العقلاء والفضلاء هذا السؤال: كيف يؤلمنا الله وهو أرحم الراحمين؟ فإما أن يكون ليس أرحم الراحمين؛ وإما أن لا يؤلم من لا ذنب له، وقد رأيناه يؤلم الصبيان والبهائم والمجانين، فأصبح الشك محصوراً في الرحمة، فأين الرحمة إذن؟.

الجواب

اعلم أن الرحمة التي بمعنى رقة القلب مستحيلة على الله تعالى، بل الرحمة التي هي الرقة ناقصة. ألا ترى أن الطبيب يعطي المريض الدواء المر، ويسقيه كل ما يكرهه، ويقطع عضوه، وهذه الرحمة خير من رحمة أم المريض وصاحبته التي لا ترضى له بالألم الذي يكون نعمة عليه، ولا جرم أن رحمة الأب المزوج رقتها بشدتها خير من رحمة الأم القصيرة النظر المنعمة للابن.

ولقد رأينا في أهل الأرض حالاً مطردة، وهي أن من صبروا على ما جاءهم من صروف الدهر وذاقوا المر والنصب والتعب، فإن هؤلاء يسودون، ولذلك رأينا الأنبياء والحكماء، وهكذا عظماء الأمم في الوقت الحاضر، هم الذين قاسوا ما هو مر المذاق والصاب والعلقم وأنواع الآلام والسجون والمشقات، وأن المترفين المنعمين هم الهالكون في هذه الدنيا الذين يسقطون في أيام امتحان نوائب الدهر وحدثانه، فيسقطون ويعلو عليهم سواهم من المجدين الكاملين. ذلك هو الناموس والصراط المستقيم.

ويوضح هذا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧] الخ، ولقد تقدم تقرير هذا المقام في تفسير آل عمران عند قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الآية: ١٨٦].

واقرأ إذا شئت كتاباً حديثاً يسمى «الكوخ الهندي» ألفه أحد الفرنسيين، وهو وكتاب «لغز قابس» الذي شرحته في البقرة من واد واحد، وهو أن المنعمين لا سعادة لهم في هذه الدنيا، وأن الذين يصيبهم النصب والتعب هم الذين ينالون حظهم وكمالهم.

الحيوان منه آكل ومأكول

اعلم أن الحيوان ينقسم قسمين: قسم يأكل الحشائش والنبات وأوراق الشّجر والزهر والحب، كالأنعام والبهائم والغزلان والأرانب وما أشبه ذلك، والقسم الثاني لا يأكل إلاّ اللحم، وهي الأسود والنمور والضباع والسباع، فهذه الحيوانات حرم عليها أن تأكل شيئاً غير اللحم، وترى هذه الطائفة منها ما في الجو من الصقور والشواهين، ومنها ما على الأرض كالآساد، ومنها ما في التراب كالحيات، ومنها ما في البحر كالتماسيح والتنانين. وهذه الأقسام الأربعة هي التي تتولى نظام الحيوان، ولا علم لها بهذه الولاية.

وإيضاحه أنك ترى أن الحيوانات التي تأكل الحشائش تتكاثر وتتناسل على وجه الأرض، فلو تركت وشأنها لملأت السهل والجبل، ولكانت رممها تملأ الأودية والسهول، فتعفن فيحصل الهلاك لها ولغيرها، لذلك خلقت الحيوانات الآكلات التي حكم عليها أن لا تكون بطونها إلاّ مقابر لهذه الحيوانات، ومتى كانت مقابر لها أصبحت داخلها في دمائها مختلطة، منقلبة إلى أجزائها صالحة للحياة لا ضرر منها على سكان الأرض.

اعتبر ذلك في كل ما تراه، ألا ترى أن الذباب لا يرى إلاّ في محالّ الرطوبات والأمكنة الرطبة، وعند اللبانين وبائعي السمن والعسل، وما أشبه ذلك، لأنها تتعاطى العفونات من تلك الأماكن، وتصبح أجسادها مأوى لتلك العفونات التي لو بقيت لكان منها المضار في الهواء، فيفسد وتكون الأمراض الوبيلة الفتاكة. وذلك الذباب وما أشبهه كالبق والناموس، يصطاده العصفور، والعصفور يصطاده الخطاف، والخطاف يصطاده ما هو أقوى منه، وهكذا إذا مات الباز والشاهين وكل ما تصطاد ما هو أدنى منها، أكلها الدود، والدود يمتص الرطوبات، فهي دائرة أولها آخرها، ولولا هذه الدائرة لم يبق حي في عالمنا الأرضي.

هكذا نرى الآساد والنمور وبني آدم جميعاً تأكل الضأن والمعز والإبل والبقر وما أشبه ذلك، ثم إن بني آدم والأسود والنمور إذا ماتوا أكلهم الدود.

الأمراض العامة في الإنسان والحيوان

ثم إنك في الحياة الدنيا ترى أن الإنسان تنتابه الحمى والجدري والتيفوس والحصباء وأكثر الأمراض إنّما تكون من حيوانات لا عدد لها، وهكذا الحيوانات الأخرى، ويعرف ذلك البياطرة للحيوان والأطباء للإنسان.

القاتل للإنسان نوعان من الحيوان

والذي يقتل الإنسان من الحيوان نوع ظاهري ونوع باطني، فالنوع الظاهري: الآساد والنمور والذئاب والحيات وما أشبه ذلك. والنوع الباطني: حيوانات صغيرة جداً تسمى «المكروبات»، وهذه الحيوانات تدخل أجسامنا وتتوغل فيها، وتحدث فينا أمراضاً مختلفة بما تثير في داخل أجسامنا من

الحرارة بالثورات الداخلية، ويكون اختلاف الأمراض باختلاف أنواع تلك الحيوانات، فمنها حيوانات للوباء العام، ومها حيوانات لإحداث مرض البول «البلهارسيا»، ومنها ما تحدث بالحمى، ومنها ما تحدث بالجدري، وما أشبه ذلك.

وكل هذه الحيوانات تؤلمنا أشد الألم، ولا يخلصنا منها ولا من أضرارها بنا إلاَّ أحد أمرين: إما الأدوية القوية كتلك التي اخترعوها للمرض المسمى بالزهري، وتسمى دواء (٦٠٦) لأنه نتج من ٦٠٦ تجربة. وإما بالموت الذي يكون أرحم من الحياة معها.

ثم إن الحيوانات الظاهرة القاتلة للإنسان تنقسم قسمين: ناطقة وغير ناطقة، فغير الناطقة قد تقدمت، والناطقة هي الإنسان يقتل الإنسان، وتساعده على ذلك دياناته، فلا تجد ديناً في الأرض إلاَّ حرض على حفظ النفس وحفظ الوطن وحفظ الشرف، ومن الديانات ما منعت المقاتلة كالدين المسيحي، ولكن الفطرة الإنسانية أبت أن تسكت على ذلك، فأصبح هؤلاء المسيحيون رافعي لواء القتل والإهلاك والإبادة في الجنس البشري. فدلنا هذا على أن الحيوان والإنسان ودياناته غالباً متعاونون على تطهير الأرض من ازدحام الأحياء.

ولعلك تقول: لماذا يكون الإهلاك والقتل؟

أقول: اعلم أن الأرض التي نحن عليها ليست أرقى عالم في هذا الوجود، بل الظاهر أنها عالم متأخر، بدليل أن الكشف الحديث دلنا أن هناك ما يقرب من ثلاثمائة مليون أرض، وتلك الملايين بعضها عوالم أوسع من أرضنا وألطف وأجمل وأبهى وأعظم بما لا حد له. وإذا كنا نرى أن أرضنا مع ضيقها وصغر حجمها قد حوت من أنواع الحيوان ما لا حصر له، فمنه الدود الذي ليس له إلاَّ حاسة واحدة، ومنها القرود المتمتعة بجميع مواهب الحواس، ومنها الإنسان وفيه الأنبياء والعلماء، وأنت لو نسبت الدود إلى الإنسان لم تجد هناك أي مناسبة، بل وجدت بينهما بوناً شاسعاً عظيماً مترامياً، فإذا كانت أرضنا مع ضيقها قد جمعت ما بين العقارب التي تسكن التراب، وبين الإنسان الذي يقطن في الأرض، ويركب متن الهواء، ويستخدم البخار والكهرباء، فما بالك بتلك العوالم الشاسعة؟ تلك العوالم التي لا يعرف مدى كمالها وجمالها.

أفليس من المعقول والمقبول أن يقال: إن هناك حياة تكون نسبة حياتنا إليها كنسبة حياة الدود إلينا، أوليس ذلك أقرب لعقولنا؟ أوليس العقل بطريق القياس يرى أن هناك من الارتقاء ما لا حد له، فإذا كان الارتقاء في أرضنا بلغ حداً عظيماً جداً.

فيا ليت شعري، أين الدودة التي في الصخرة وأين الإنسان؟ وبمثل ذلك نقول: أين حياة هذا الإنسان التي هي أشبه بالدود بالنسبة لحياة أخرى في عالم أرقى من عالمنا، فالعقل يرى أن أرضنا عبارة عن مزرعة تزرع فيها أنواع الحيوان، ثم ترتقي تلك المزارع انتقالاً مجهولاً لنا؛ وغاية الأمر أن نقيسه على ما تفعل بالزرع، فإن الناس يزرعون البزور ثم ينقلونها كما ترى في الأشجار عند رجال الحدائق والبساتين الذين يزرعون البزر في مواضع خاصة، ثم ينقلونها فتزرع زرعاً أرقى، ويكون اللاحق على مقتضى السابق والآخرة كالأولى، فهكذا هذه الحيوانات خلقت في الأرض خلقاً مؤقتاً لتنقل إلى حال أرقى، ونحن هنا لا ندري إلى أي جهة تصدر هذه الحيوانات.

فطرة العامة والنبوات

وهذا القياس الذي يخطر بالنفس هو بعينه ما جاء على قلوب الأنبياء وما غرس في فطرة البشر فإنك لا تدخل أرضاً ولا تأتي مملكة، إلاَّ سمعت صوت صدى هذا الموضوع، والإخبار بما هو غائب عن العيون، فترى كل أمة تؤمن أن للنفوس حالاً غير هذه الحال، ولم يشذ عن هذا إلاَّ أفراد في كل أمة خلقوا للبحث فتحيروا، وهؤلاء لا يؤثرون في المجموع، وإذا وجدنا قوماً زهدوا في الطعام تديناً وتزهداً فذلك لا يقدح في الفطرة العامة التي تطلب الطعام لبقاء الأشخاص. وليس وجود أناس يحرّمون النساء من أهل الديانات بمؤثر في الفطرة العامة الإنسانية، فإن فطرة اقتراب الجنسين عامة لبقاء النوع. هكذا هنا، إن الفطرة قاضية ببقاء الناس بعد الموت، وأن هناك حقائق لا بد منها، وأن أعمالنا تؤثر في ذلك المستقبل صحة وشرفاً. هذه عقيدة عامة في البشر كعقيدة الطعام والشراب، فإنكارها مكابرة، والفطرة العامة لا تكذب، هي أبداً صادقة، وإنّما الخلاف في تأدية العبارات والصور الظاهرة والقشور أما الحقائق فإنها لا تتغير؛ فالطعام والشراب، واقتراب الجنسين، والاعتقاد بحال بعد الموت، كل ذلك لم يتغير ولن يتغير، والفلسفة تقول ذلك.

فيا ليت شعري، أي فائدة من هذا الوجود ما لم يكن هناك ارتقاء وحال غير هذه، وإلاَّ كان ذلك كله ضلالاً ووبالاً.

أفي الإعدام رحمة ؟

ولما كان الأمر على ما ذكر، وكانت الحياة الدنيا مؤقتة، وكان التناسل يوجب أن يبقى الأبناء ويعدم الآباء، وأن كل جيل يحل محل الذي قبله، كان الإعدام حتماً لازماً. إن الحياة رحمة حياة الحيوان وحياة الإنسان، ولكن لو عاش الإنسان ٥٠٠ سنة لكانت الحياة وبالاً، والعيش نكداً، وأصبح على القدم ألف قدم، وأصبحت الحياة لا تطاق.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نقول: إذا كانت هذه الحياة مؤقتة في عالم غير متقدم بل هو متأخر، فالبقاء فيها أذى وشر، بل يجب الرحيل منها، فكان من الرحمة والحكمة أن يساعد الأحياء بعضهم بعضاً على التفاني والخروج من هذه الحياة بعد اكتساب الفضائل والتجارب، فكفى أن الحيوانات قد تربت وجربت على مقدار طاقتها، وهكذا الإنسان بالآلام والأمراض والديانات والتجارب يستعد لحياة أخرى، فيخرج من الأرض، فكما أن كل واحد يحافظ على صحته وحياته، هكذا يقوم غيره فيقتله ويفنيه لرحمته ولرحمة أهل الأرض، لتخلو لمن يأتون بعدنا.

عقائد الإنسان في أكل الحيوان وتحريمه وعاداته في ذلك

واعلم أن الإنسان منه من لا يأكل إلاَّ اللحم كقوم في الأقطار الشمالية، وهؤلاء يسكنون في أماكن ثلجية ولا يعيشون إلاَّ على حيوانات البحر وليس لديهم نبات، فما مثلهم إلاَّ كمثل الأسود والنمور، ومن الإنسان من لا يأكل إلاَّ نوع النبات ولا يذوق غيره، ومنه من يأكل الحيوان والنبات معاً كأكثر أهل الأرض.

ولما كانت الديانات لا تخرج غالباً عن مجاراة العادات، كان منها ما يحرم اللحم كالبوذيين، وعكسهم أهل الصين.

وجاء في بعض الجرائد في ٢٢ مايو سنة ١٩٢٥ أن الصينيين يأكلون الديدان الصغيرة والنمل والضفادع يشوونها ثم يفرمونها، والمفرومة منزلتها عظيمة جداً عندهم، ولهم فيها صناعات تبلغ أربعين صنعة، وكذلك الهر والكلاب والجرذان. اهـ.

ومنا ما يبيح لحم الإنسان كبعض ديانات المتوحشين، ومنها ما يجمع بين الأمرين، وجاء الإسلام بطريق وسط فلم يبح أكل الإنسان ونظر في الحيوان فما رآه مخلوقاً لإفادة أهل الأرض كالأسود والنمور حرّمه، وما ليس كذلك حلله فيقول: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾[الأعراف: ١٥٧]، ويقول أيضاً: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾[المائدة: ٥] فالطيبات حلال والخبيثات حرام. وقد جعل لذلك قانون وهو أن الطيبات ما استطابته النفوس الشريفة من المؤمنين أصحاب اللسان العربي، ولا عبرة بأهل البادية إلاّ ما ورد الشرع بتحريمه، وما استخبثوه فهو خبيث إلاّ ما ورد الشرع بتحليله.

وقد جاء في كتب الشافعية: أنه يحرم من السباع كل ما له ناب قوي يعدو به، وذكروا من ذلك الأسد والنمر والذئب والدب والفيل والقرد، ومن ذي الناب: الكلب والخنزير والفهد وابن آوى، وهو فوق الثعلب ودون الكلب، طويل المخالب فيه شبه من الذئب وشبه من الثعلب والهرة. ويحرم من الطيور ما له مخلب قوي، وهو للطير كالظفر للإنسان، يجرح به كالصقر والبازي والشاهين والنسر والعقاب وجميع جوارح الطير.

كيف وافق الإسلام الطبيعة

انظر أيها الذكي كيف وافق الإسلام الطبيعة، وكيف حرّم من الحيوان ما كان نافعاً بقاؤه ليطهر الأرض من الرمم والعفونات، وأباح ذبح ما ليس كذلك كالبقر والجاموس. أفلا تتعجب معي كيف اتفق الشرع والطبع، وكيف أصبحنا في زمان تظهر فيه مخبآت الحقائق وتنجلي للناظرين.

يحرّم الطيور الجوارح، ويحرّم الأسود، لماذا؟ لأنها جارحة، ثم لماذا هذا؟ يكون الجواب السكوت، ونحن نقول: لا سكوت، إن هذه الحيوانات نافعة لإزالة الجراثيم والحيوانات ورممها من وجه الأرض، هذا هو السبب.

فثبت إذن أن ذبحنا للحيوان ليس مخالفاً للطبيعة، بل هو مسارق لها، فإن الإنسان يذبح والحيوان يذبح، الإنسان يذبح بالحيوانات التي تدخل جسمه فتفترسه وتدخل فيه الأمراض، وليست الآلام التي يتحملها الإنسان بأقل من الآلام التي يتحملها الحيوان، الإنسان لا بد أن ينال حظه من الآلام أكثر من الحيوان، الحيوان يذبح مرة والإنسان يذبح كل يوم بأمراضه وهمومه وأفكاره.

ولذلك تجد بعض الناس يقتلون أنفسهم، ومن بقي اجتمعت عليه الحيوانات من داخله، فخربت هيكله تدريجاً، وكل يوم تذيقه أنواع العذاب وتقطع لحمه وعروقه وتؤلمه ألماً شديداً، ولكن ذلك كله رحمة واسعة لما قدمنا.

إن المتاعب تقوّي الروح، فإما أن يتعب الإنسان بالنظام العام ويتألم لحفظ الصحة والنظافة، وإلاّ فلا بد من تعب ونصب، فنحن والحيوان سيان في تحمل الآلام، وحركات المذبوح من الحيوان ليست شيئاً مذكوراً في جانب آلام الإنسان التي تعتريه كل آن، بل الحيوان متى قطعت أوداجه اعتراه الذهول فلا يحس بألم، وإنّما تلك الحركات عضلية لا أثر للألم فيها، وإنّما بألم الأحياء منها.

ليس من مات فاستراح بميت إنَّما الميت ميت الأحياء
إنَّما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء

النتيجة

إن الحيوان يألم والإنسان يألم، والذبح من آلام الحيوان أخف من آلام الإنسان بما لا يقدّر، وألم كل منها نعمة عليه تقوّي روحه، ولا بد لهما من حال بعد الموت، ولا ندري ما هي إلاَّ ما تصوره الديانات بصور عامة، والحيوانات الجارحة تأكل التي تأكل الحشائش، لتكون نعمة على سكان الأرض بمنع العفونات، والناس اختلفوا في أكل الحيوان كاختلاف الحيوان في أكل اللحوم، والإسلام عدل حرّم ما جعله الله لأكل اللحوم لتطهير الجو من العفونات، فإذن يكون ذبح الحيوان غير خارج عن الطبيعة، بل هو مساعد له على الخروج من الدنيا، ومن هذه الحياة على الأرض وهي من العوالم المتأخرة.

البوذية والمانوية وأبو العلاء المعري

ما أكثر الجهلاء في الأمم، فيا ليت شعري، إذا كانت هذه هي الحقيقة الناصعة، فأي حجة للبوذية الذين يحرّمون أكل كل حيوان لأنه تعذيب لها، وانظر لما كان يقوله أبو العلاء المعري، عرض عليه الطبيب دجاجاً، فقال: لماذا لم يصفوا لي شبل الأسد؟ أطلقوا سراحه، فوالله ما منعهم من وصف الشبل إلاَّ قوته وضعفنا، أفلست ترى أن هذه النظريات ضئيلة فاسدة؟.

فيا ليت شعري، كيف غفل هؤلاء عما نقتله من الحيوان كل يوم، ونحن أمرنا طبياً ألا نشرب ماء النيل حتى نغليه لقتل الحيوانات التي فيه، أفليس هذا قتلاً للحيوان؟ فإذا كانت شربة الماء يقتل لأجلها مئات الألوف وألوف الألوف، ولا ينكره أحد في الشرق والغرب، فكيف ننكر القليل مما نأكله؟ إن أكثر الناس جاهلون.

لم سميت هذه السورة باسم المائدة؟

وجوب درس علم الحيوان

اعلم أن هذه السورة حقيقة مائدة نصبها الله لعباده ليأكلوا منها ما يشتهون ويتزودوا ويتعلموا. لقد جعل الله الحيوان فيها على ثلاثة أقسام: حيوان يحرم قتله، وهو ما كان في الحرم، وما كان له مخلب من الطيور أو ناب من حيوانات البر. وقسم يحل أكله، وهو ما استطابته الأشراف من هذه الأمة، كالإبل والبقر والغنم. وقسم جاز قتله: كالكلب العقور والفارة. وهكذا بقية الفواسق الخمس الواردة في الحديث، فكأن الله جعل هذه المائدة منصوبة لنا ولم يترك الأمر سدى، بل أبان ما يؤلمنا وجوده كالفواسق الخمس الواردة في الحديث، وما يؤلمنا عدمه الذي سماه بالخبائث، لأنه ينظف جونا ويطهر أرضنا، وما ينفعنا أكله كالبهائم وبقية الطيور.

أوَلست ترى أن هذه المائدة التي نصبها الله لنا لا يصح الإغضاء عنها؟ وهل من الأدب أن ننظر إليها من بعيد كأنها ليست لنا؟.

كيف ساغ للمسلمين أن يناموا بعد الأولين السابقين من الأئمة الأعلام

لقد ظنوا أن الأئمة رضوان الله عليهم ما تركوا قولاً لقائل في جميع العلوم، ولكن فاتهم أن الأئمة اعتنوا أشد العناية بما هو أمسّ بالعبادة اتكالاً منهم على عقول الأمة في الباقي.

وإذا كنا نرى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول: إن الترتيب واجب في الوضوء مستنتجاً ذلك من ترتيب الأعضاء في القرآن، ويوجب النية في الوضوء مستنتجاً ذلك من آية في آخر القرآن: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

ونرى أبا حنيفة يقول: لا نية للوضوء لأنها لم تذكر في القرآن، ونرى أنهم اختلفوا في اثنتي عشرة مسألة في فرائض الوضوء، ومسح الوجه وجميع أجزائه قطعة قطعة، فما تركوا شعراً ولا بشرة ولا جفناً ولا عيناً ولا عنفقة إلا بحثوا ودققوا، فلماذا هذا كله؟ للطهارة، والطهارة مقدمة العبادة.

فانظر كيف كان جدهم واجتهادهم وحرصهم على الدين وعلى ارتقاء الإنسان في أموره الدينية، فهلا نظر المتأخرون فيما أودعه الله في القرآن، وحققوا كما حقق آباؤنا وأجدادنا؟ وهلا نظروا فيما حوته هذه المائدة المنصوبة في الأرض فوفوها حقها كما كان الأئمة رضوان الله عليهم يفعلون؟ حرضت السنة على قتل كل حيوان يؤذينا؛ فليبحث علماء الأمة في أنواع المكروبات القاتلة لنا قياساً على ما علم من الكلب العقور والفأرة وأمثالهما، ولو أنا وجدنا كلباً يعقر الناس لوجب علينا قتله.

هكذا يجب علينا أن نبحث في الكلاب المستترة تحت أجسامنا، وهي المكروبات والحيوانات الذرية الصغيرة، ولنخصص لها الأطباء، وديننا يأمرنا بذلك كما أمر نبينا صلى الله عليه وسلم في الفواسق الخمس.

وهكذا إذا وجدنا أنه أبقى بعض الحيوان في الحرم، وغيره أبقاه في كل مكان، وظهر الآن أن بقاءه لتنظيف الجو، فلنقم نحن بحراسة هذه الحيوانات، ولنبحث على أمثالها في الأرض، لنبحث على كل حيوان نافع لزرعنا ولنبقيه ولا نأكله.

حكاية

قد ذكرت في هذا التفسير أن الحكومة المصرية قد بحثت في أمر الطيور ومنعت قتل كثير منها لنفعها في الزراعة، وسبب ذلك أن المصريين القدماء كانوا قد درسوا أنواع الحيوان وجعلوا بعضها محفوظة لأنها قاتلة للحشرات الآكلة للزرع، فلما دار الزمان دورته، وتقلب الغرب والشرق، وجاء أهل أوروبا إلى بلادنا، أنسوا المصريين أخلاقهم وعوائدهم فانهالوا على الحيوانات التي كانت نافعة، فقتلوها صيداً ليتزينوا بريشها، فلما تنبهت الحكومة المصرية إلى ذلك أمرت بإحصاء الحيوانات الآكلة للحشرات، وأمرت بحفظها وهي هذه:

(١) عصفور سكسيكولا: هو عصفور ملون بالزرقة والصفرة والسواد.

(٢) العصفور المغني: هو أصغر من العصفور السابق.

(٣) أبو فصادة: هو كالسابق حجماً.

(٤) عصفور بيبت: تغلب على لونه الصفرة مع السواد.

(٥) عصفور آكل الذباب.

(٦) الوروار: هو في حجم الحمامة ذو منقار طويل، تغلب على لونه الخضرة.

(٧) الهدهد: هو معروف.

(٨) الكروان: هو كبير الحجم كالدجاجة، ملون بلون الشفق مع السواد.

(٩) الزقزاق الشامي: أصغر مما قبله قليلاً لكنه جميل الشكل.

(١٠) الزقزاق البلدي: يقرب من السابق، وللأول غرة ممتدة خلفه وتغلب عليه الخضرة من ظاهره والبياض من باطنه، والثاني على لون مختلط بياضاً وصفرة، والسواد في أسفله.

(١١) القنابر: وهي معروفة تقرب من شكل صغار العصافير.

(١٢) أبو قردان: وهو معروف أبيض اللون طويل الرجلين والمنقار كبير الحجم.

الدليل على أن هذه الحيوانات محرم أكلها

هذه الحيوانات هي التي يجب حفظها ليحفظ الزرع. ولعلك تقول: هل كل هذه الحيوانات نصّ على تحريمها القدماء؟.

أقول: اعلم أن هذه الحيوانات متى ثبت نفعها للزراعة صارت محرمة، وإن لم تكن مما استخبثته الطباع. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ في سورة النساء [الآية: ٢٩]، وقد قدمنا أن هذه الآية تحرّم علينا أخذ التجارة الفرنجية، إلاّ ما عجزنا عن عمله، وإلا إذا كان ذلك قتلاً لنا، وما مثل التجارة الفرنجية إلاّ كمثل الحلوى تعطى للأطفال وفيها السم فيموتون، أو كمثل الحب يرمى تحت الشبكة، والشبكة تقتنص الطير بسبب هذا الحب، أو كالصائد يحفر حفرة في الجبل ويغطيها بشيء من الحشائش والأعشاب، فيمر عليها الأسد فيسقط فيها.

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ في مسائل التجارة، هكذا هنا في الزراعة، لو أنا تركنا تلك الطيور يفتك بها الجهال بعد أن ثبت لنا نفعها لأنها تأكل الحشرات، فإن قتلها إبقاء للحشرات، وإبقاء الحشرات موت لزرعنا، وهلاك زرعنا هلاك لنا، فكأن بإباحة قتل الحيوانات أبحنا قتل أنفسنا، وهذا هو الجهل المبين.

فليقم في الأمة الإسلامية أقوام يخصصون بالعلوم المختلفة كل فيما يناسبه، وليكن للحيوان علماء من حشرات وأنعام حتى نعرف ما يضر وما ينفع، فهناك من المنافع والمضار ما نجهله جهلاً فاضحاً، وديننا يأمرنا بالبحث في ذلك. ألا ترى إلى قوله تعالى هنا: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]، وقال علماؤنا: تعليم الله لنا بالإلهام وبالعقل، فدل هذا على أن هناك علماء في الحيوان سيعرفه المسلمون.

ويا ليت شعري، لماذا يقول هنا: ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾؟ فكأن هذا تنبيه على أن الله سيعلمنا في الحيوان ما لم نعلم الآن، ومن ذلك التعليم ما تعلمه للحيوان الذي به نصطاد غيره.

فليكن في أمة الإسلام النائمة الآن علماء للحيوان وعلماء للنجوم، فإنا لا نعيش على هذه الأرض ونحن جاهلون ما فيها.

هذه المائدة حسية ومعنوية

فعلى هذا تكون المائدة التي نصبها الله للمسلمين ليست قاصرة على التزوج والتناسل والمآكل وما أشبه ذلك، فإنه لو كان الأمر كذلك لم يكن فرق بيننا وبين الحيوان، إننا خلقنا على الأرض ليكون التفاعل والتدخل بيننا وبين بعضنا، وبيننا وبين الحيوان موجباً لإظهار ما كمن في نفوسنا من الفطر والغرائز والأخلاق، وليس يمكن أن يتم هذا إلاّ بالإحساس بما هو مؤلم، وبالإحساس بما هو مستلذ؛

فيكون ألم وتكون لذة، وكلاهما ليس مقصوداً لذاته، كلا. وكما أن الفتى والفتاة يقترنان لداعي الشهوة، ثم يظهر في آخر الأمر أن تلك اللذة غير مقصودة وأنهما معاً يتحدان ويتعاونان ويجتهدان في تعليم الولد وتربيته والقيام بواجباته وحبه، وينسيان تلك اللذة ويفرغان من تلك الطفولية، وهما مدفوعان لحب الولد وبقائه، وكلاهما مجدّ في التفرغ لسعادته وبقائه، حريصين على تقدمه وارتقائه، ويعطيانه ما يملكان، ويورّثانه ما يكسبان.

فهكذا هذه المائدة التي أنزلها الله لنا في القرآن وأبرزها في هذه الدنيا للعيان، وفيها المآكل الحيوانية واللذات الحسية من اقتران الجنسين في أول هذه السورة لم تكن مقصودة لذاتها، بل يراد النظر في دقائقها والتحقق من عجائبها، والفهم لبواطنها ودرس العلوم التي أدمجت في أسرارها، ويرمز لذلك بقوله: ﴿ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾.

ولما أتم الكلام على الحيوان وأكله، والنساء، والتزوج بهن من المحصنات، شرع يطهرنا بالوضوء ويفتح لنا باب الصلاة، وكأنه يقول إن الصلاة بعد النظافة معراج تعرجون عليه لأفتح لكم كنوز هذه الأرض، فأروض عقولكم بالبحث في مائدتي والتفرج على أنواع حيواناتها وأسرارها وغرائبها، فتعرج أرواحكم إليّ وأنتم في الدنيا بالعلوم، وإذا صرتم إليّ كنتم في جواري لأنه لا يجاورني إلاّ العلماء، ولا يصل إلى ملكوتي إلاّ الفضلاء، فإذا وقفتم عند المآكل والنساء المذكورات في أول السورة وغفلتم عن العروج إليّ بالنظافة والصلاة لتشكروا نعمتي بمعرفتها، إذا فعلتم ذلك فأي فرق بينكم وبين الحيوان؟.

العلماء الذين سيكونون في أمة الإسلام في مستقبل الزمان

سيكون هناك طوائف لدراسة المخلوقات، وإليك بيانها:

(١) علم طبقات الأرض لدرس علوم كثيرة أخصها التاريخ الطبيعي للحيوان.

(٢) علم النبات. (٣) علم الحشرات.

(٤) علم الأنعام. (٥) علم الإنسان.

(٦) علوم السياسة. (٧) علوم المعادن.

(٨) علم الكواكب والفلك، وهكذا. (٩) علم الطب.

وسيكون هناك مجلس عام من هؤلاء العلماء، ويكون قرارهم معمولاً به في شؤون الأمة.

مثال ذلك:

(١) أن الحيوان النافع يحرم قتله.

(٢) وأن الحيوان الضار يجب قتله.

(٣) وتكون الأحكام الصادرة من هذه المجالس واجبة التنفيذ.

يا علماء الأمة الإسلامية ويا أمراءها، لقد رأيتم في هذه السورة أن هذه العلوم أصبحت واجبة، ودين الإسلام لا يزال بكراً ولم يدرس منه إلاّ القليل.

يا رجال الأمة، إن آباءنا رحمهم الله قد أدوا ما عليهم في ألف وثلاثمائة سنة، فهانحن أولاء قد جئنا اليوم، فلتكن الألف والثلاثمائة سنة المستقبلة للبحث في حقائق الكون التي سترت وكمنت

وحفظت لكم، حفظها لكم الآباء، حفظوا القرآن لكم، حفظوه في المصاحف كما تحفظ الأم الجنين في البطن وتخاف عليه، ويزعجها أن يمس بسوء.

هكذا آباؤنا حافظوا لنا على أمرين: أمر القرآن حتى سلموه لنا، وأمر التحقيقات الدينية، فأرونا كيف كانوا يحققون. ولقد بينت لكم هنا كيف كانوا يدققون في أقل المسائل، في غسل أنف أو غسل عين أو غسل جفن، كل ذلك لحرصهم وفضلهم في العلم وفي الدين، كأني بكم وقد صار فيكم محققون وأئمة في الفلك والنبات والحيوان وفي العلوم التي ذكرتها لكم، انظروا كيف كانوا يستدلون، انظروا كيف كانوا يبحثون. آن الأوان، وجاء الزمان، وظهر الحق، وسيكون الجيل المقبل من خير الأجيال علماً وعملاً.

أيها الأبناء الذين ستكونون بعدنا، انظروا كيف اختلف آباؤنا في آية واحدة، وهي آية الوضوء، وكيف وصلت فروض الوضوء إلى ١٦، وكيف أتوا بالأدلة والبراهين والأحاديث. فكيف إذا جئتم أيها الأذكياء وبحثتم في أمر الجمال الإلهي في الأرض والسماء، كعلم الحيوان الذي ذكرته لكم من سورة المائدة، وكيف ترتقي العقول بارتقائه، وكيف تكون في الكرة الأرضية أمم عظام.

إذا كان ذلك كله في آية في الوضوء، والوضوء مقدمة العبادة، فما بالكم إذا عرف المسلمون في أقطار الأرض أن العلم والفكر في مصنوعات الله عبادة حقة، وهي أرقى من العبادة العملية، العبادة العلمية مشرّفة للنفس، فالصلاة معراج، والوضوء مفتاح لذلك المعراج، ولكن بم يكون العروج؟ يكون بالعلوم؛ فإذا نصبنا سلماً وجعلنا له باباً، فالسلم هو الصلاة، والباب هو الوضوء، ولكن العروج على ذلك السلم لا يكون إلا بدرس العلوم من القادرين، والدراسة إما أن تكون للمنافع كالتي قدمناها لمقتضى هذه السورة، وإما أن تكون لارتقاء الروح مع المنافع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٦] الخ، ألم يقل الله لنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فلماذا لا نبحث ما في الأرض جميعاً؟ لماذا لا نبحث بحثاً تاماً؟ فإذا كان الله خلق لنا هذا كله، فلماذا تركناه وأضعناه؟ وعقولنا نامت جميعاً نومة واحدة حتى ملكنا الفرنجة، فليستيقظ المسلمون وليتعلم المخلصون.

فإذا تعاون آباؤنا على آية الوضوء فلتتعاونوا على ما هو اشرف من الوضوء، وما هو المقصود الأكمل، وهو المعرفة وعروج النفس إلى مقامات الكمال.

إن الله لا يجلس على مائدته إلا الأكابر، ولا أكابر إلا المفكرون؛ ابتدأ سورة المائدة بالحيوان وحله والنساء وحلهن، وختمها بمائدة عيسى ابن مريم، وأن الحواريين اطمأنت قلوبهم بها لما أكلوا منها.

إن الملك إذا مد سماطه لرعيته فتناولوا الطعام، فالعامة يفرحون بما أكلوا والخاصة لا يبالون بالطعام، وإنّما يتعرفون مجلس الوزراء وخواص الدولة وأكابرها، ولو أن أحد الفضلاء أكل على سماط الملك وحرم من التشرف بلقائه والتمتع بالشرف العظيم، لرجع كليل الطرف حسيراً، لعلمه أن الملك معرض عنه؛ فويل لمن ظن أن المائدة طعام وشراب وفاكهة وحسان، وإنّما المائدة الحقيقية شرف العلم والوقوف على أسرار هذا الوجود لا سيما الحيوان وأنواعه للانتفاع به ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ

مِمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾[يونس: ٥٨]. فويل ثم ويل لشيوخ حصروا تلاميذهم في دائرة ضيقة، وويل ثم ويل للتالين لكتاب الله وهم به جاهلون، وويل ثم ويل لشيوخ جهلوا وعلموا تلاميذهم أنواع الجهالات فصدوهم عن العلم وأنكروه؛ فليبك على نفسه من أضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم.

اعتراض على المؤلف وجوابه

قال لي عالم فاضل لما اطلع على هذا: إن من اطلع على كلامك هذا يرى أنك تحرّض على أكل اللحم والإكثار منه، لأنك جعلت أن الحيوان إن تألم من الذبح فألمه أقل من ألم الإنسان، وأبنت أن الحيوانات الذرية تفتك بأجسامنا فتميتنا، وجعلت أن نوع الإنسان وأنواع الحيوان خلقوا في نصب وتعب للارتقاء وتقوية الأرواح، وأن هناك عالماً أرقى، وأبنت أن الأحياء على الأرض مختلفون جميعاً من أضعف حياة إلى أقواها، ولا تكاد تحصي تلك الأنواع من الحياة، وأن العوالم التي مراها لا بد أن تكون فيها عوالم أوسع وأعظم وأشرف درجات كثيرة، كل هذا لا غبار عليه، إنّما إفاضتك القول في اللحم وأكله ينافي ما ذكرته في سورة البقرة، وأن أكل اللحم والإكثار منه مضر بالصحة، فأين هذا القول من ذاك المقال؟.

الإجابة

اعلم أني الآن أبحث في نظام هذه الدنيا وقراءة حيوانها واختلافه، وأن بعض المخلوقات يأكل الآخر، فأما كون اللحم مذموماً أو ممدوحاً فشيء آخر، وهذا يرجع إلى أحوال الشخص، فإن أراد صفاء النفس وقلة الأمراض فليقلل من اللحم، فأما المكثرون منه فهم معرّضون للأخطار كما قدمنا، وإذا ترك اللحم كان خيراً وأحسن تأويلاً.

واعلم أن الناس إذا أكلوا اللحم فإن البهائم المذبوحة المأكولة تتحول دائماً أجسامها إلى عفونات، وتلك العفونات تنقلب في الأجسام ذرات قتالة، ولها حياة أيضاً فتفتك بالناس وتقتلهم، ولكن أكثر الناس لا يشعرون أن أكثر الأمراض في الطعام، وأضر أنواعه اللحم، فإنه الذي يورث في الجسم العفونة التي تنقلب حيوانات فاتكة تفسد هياكلها.

هذا من العجائب

أليس من عجب أن نريح الحيوان بذبحه فيثيبنا على ذلك بإعدام حياتنا بعد دفنه في أجسامنا، نريحه بالذبح ونأكله، وهو يريحنا بأن يكون سبباً لأمراض تورث الموت أو تقربه لنخرج من هذه الأرض. وبعبارة أخرى، نعذب الحيوان بذبحه ونقطع حياته فيفعل معنا ما فعلناه معه، حذو القذة بالقذة ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾[الشورى: ٤٠]، أفلا ترى أن كل جزاء من جنس العمل؟.

يا عجبا كل العجب، نفني الحيوان فيفنينا، ونذبحه فيمرضنا، ونقتله فيقتلنا، هو الذي يدخل في الأجسام فيضع فيها أنواعاً من الأمراض كما نص عليه الأطباء في عصرنا الحاضر، ودلت عليه التجارب. إن العذاب بعد الموت يكون بنفس العمل، ونفس العمل هو الذي يفتك بنا إذ ذاك كما فتك بنا لحم الحيوان.

انتهى الكلام على المقدمة في تفسير آيات الأحكام الواردة في حديث ميسرة، وإنّما جمعتها هنا تيمناً بالحديث الشريف وتسهيلاً للمراجعة، وسأحيل عليها عند ذكر آياتها فيما سيأتي في تفسير السورة.

فلنبدأ في تفسير مقاصد السورة، فنقول:

المقصد الأول

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

أمر الله سبحانه وتعالى أن نفي بالعقود ونقوم بها، والعقود ما يعقده الناس بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن، وكذلك ما عقده الله من عهود الإيمان فيما أحل وحرم، وهكذا عقد اليمين، وعقد النكاح، وعقد العهد، وعقد البيع، وعقد الشركة.

مسألة: لو نذر أن يصوم يوم العيد، أو يذبح ولده، وجب الوفاء به عند أبي حنيفة لأجل هذه الآية: ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾، ولكن يصوم غير يوم العيد، ويذبح غير ولده حلالاً، والشافعي يمنع ذلك ويقول: لا ينعقد النذر. خيار المجلس في البيع عند أبي حنيفة غير جائز لقوله: ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾، فأين الوفاء مع الخيار؟ والشافعي يقول بخيار المجلس للحديث المخصص للآية.

وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾، اعلم أن الإبل والبقر والغنم والمعز والظباء وبقر الوحش، وحمر الوحش ونحوها، وهي بهيمة الأنعام حلال لنا، والبهيمة اسم لكل ذي أربع من الحيوان، وإضافتها إلى الأنعام، كثوب خز للبيان، أي البهيمة من الأنعام، وحل هذه البهائم إذا لم تحرم بالأسباب الآتية في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ الخ، وإذا لم تكن الوحشية منها كالظباء وبقر الوحش والحمر قد صدتموها وأنتم محرمون، وإلاَّ حرمت كما اتضح في المقدمة.

هذا معنى قوله تعالى مبيناً بعض العقود التي يجب الوفاء بها: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إلاَّ محرم ما يتلى عليكم في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ حال كونكم ﴿ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾، أي غير محلي صيدها وأنتم محرمون في حال الإحرام كما تقدم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ من تحليل وتحريم.

ثم إن الله حرم علينا أن نتهاون في الشرائع التي سنها وهي المسماة ﴿ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ جمع شعيرة؛ فالشرائع والشعائر بمعنى، ومنعنا أن نصد الناس عن الحج في أشهر الحج ﴿ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ وأن لا نتعرض للهدي، جمع هدية، وهو ما يهدى إلى الحرم من النسائك، فلا نغصبه ولا نمنعه أن يصل إلى محله، وكذلك لا نتعرض إلى الإبل والبقر والغنم التي اعتاد العرب أن يشدوا في أعناقها قلائد، جمع قلادة، من نعال أو لحاء شجر أو غيرهما، ليعلم به أنها هدي فلا يتعرض لها، وكذلك لا نتعرض لقاصدي البيت الحرام، وهي الكعبة، يطلبون فضلاً من ربهم ورضواناً. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ﴾ قاصدين ﴿ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ الكعبة ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ بالتجارة، حال من الضمير في ﴿ ءَآمِّينَ ﴾ ﴿ وَرِضْوَٰنًا ﴾ وأن يرضى عنهم، أي: لا تتعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيماً لهم. ثم إذا كان الصيد حراماً وقت الإحرام، فإن الحرمة تزول متى حل وانتهى أمر الإحرام، هذا معنى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ﴾ فهذا إذن، لا أمر للوجوب.

واعلم أن أهل مكة صدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن الوصول إلى مكة عام الحديبية لأداء العمرة، فأراد المسلمون الانتقام منهم، فقال الله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ أي ولا يحملنكم ﴿ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ﴾ شدة بغضهم ﴿ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ عام الحديبية ﴿ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾ عليهم بالانتقام، أي لا يحملنكم بغض أهل مكة على أن تعتدوا عليهم لصدهم لكم عن المسجد الحرام ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ على العفو والإغضاء ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ والبر حسن الخلق، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع الناس عليه ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فانتقامه أشد من انتقامكم من أهل مكة، وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ﴾ إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ قد سبق تفسيره في المقدمة.

ونزل يوم الجمعة بعد العصر في يوم عرفة، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء، فكانت عضد الناقة تندق، وبركت من شدة الوحي في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة، آية: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾، يقول الله: ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ في هذا الزمن وليس يوماً بعينه، كما يقال: يوم لنا ويوم علينا ﴿ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ يئسوا من رجوعكم عن دينكم، ومن تحليل هذه الخبائث كما يحللونها، ومن أن يغلبوكم ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ فلا تخافوا الكفار أيها المؤمنون أن يظهروا على دينكم، فقد زال الخوف عنكم بإظهار دينكم ﴿ وَٱخْشَوْنِ ﴾ وخافوا مخالفة أمري، ولقد كنت أنزل لكم الأحكام لأوقات خاصة، فكان كمالها وقتياً ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ بحيث يصلح إلى آخر الزمان بما فيه من الفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام، وبأنه لم يحجّ معكم في هذا العام مشرك، وخلا الموسم لرسول

الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين، وبأني أظهرت دينكم على الأديان، وبأن دينكم لا ينسخ ولا يزول، وأنه باق إلى يوم القيامة، وبأنكم آمنتم بكل نبي بخلاف الديانات كلها، وبأنكم سلمتم من عدوكم ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ بالهداية والتوفيق وإكمال الدين وفتح مكة وهدم منار الجاهلية ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ الإسلام الانقياد لطاعتي فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود.

قال أصحاب الآثار: إنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم لم يعمر بعد نزولها إلا إحدى وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً، ولم يحصل في الشريعة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل البتة، وكان ذلك جارياً مجرى إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن قرب وفاته، وذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزاً.

ومما يؤيد ذلك ما روي أنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على الصحابة فرحوا جداً وأظهروا السرور العظيم، إلاَّ أبا بكر رضي الله عنه فإنه بكى، فسئل، فقال: هذه الآية تدل على قرب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه ليس بعد الكمال إلاَّ الزوال، فكان ذلك دليلاً على كمال علم الصديق رضي الله عنه، حيث وقف من هذه الآية على سر لم يقف عليه غيره.

ومن عجب أن خطبة الوداع كانت مصرحة بهذا المعنى، ألم تر إلى قوله فيها: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب؛ فرب مبلغ أوعى من سامع»، وقوله: «لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»، وأخذ يوصي بالنساء وبالأرقاء وغير ذلك، فقوله: «لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا» أشبه بما في الآية.

وقد روي أيضاً أن عمر رضي الله عنه بكى بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية، وفهم كما فهم أبو بكر رضي الله عنه، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة.

وروى البغوي بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال جبريل: قال الله عزَّ وجلَّ: هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلاَّ السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه».

وهذا كقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٨-١٩]، ولقد فتح الكسائي همزة ﴿ إِنَّ الدِّينَ ﴾، وجعل البصريون ذلك بدلاً مما قبله، كقولك: ضربت زيداً نفسه، فيصير التقدير هكذا: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلاَّ هو العزيز الحكيم قائماً بالقسط أن الدين عند الله الإسلام، فعلى هذا كون الدين عند الله الإسلام هو عين إن الله واحد، حال كونه قائماً بالقسط في تدبير ملكه، وأصل الدين الجزاء، وتسمى الطاعة ديناً، لأنه سبب الجزاء، والإسلام أصله إما الانقياد، وإما الدخول في السلم وهو السلام، وإما الإخلاص.

وللآية وجه آخر في الإعراب، وهو أن «الدين» مفعول «شهد»، وقوله: أنه لا إله إلاَّ هو، أي لأجل أنه لا إله إلاَّ هو، فيصير نظم الآية هكذا: شهد الله والملائكة وأولو العلم أن الدين عند الله الإسلام، بسبب أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، حال كونه قائماً بالعدل في المخلوقات كلها، فتصير

وحدانيته وتوحيد أفعاله بالعدل في هذا النظام سبباً في أن الله شهد بأن الدين إنَّما هو الإسلام، وأن العلماء والملائكة شهدوا بذلك، أي لأنهم شهدوا الوحدة في هذا الوجود، والوحدة يصحبها العدل، لأن العدل وحسن النظام أثر وحدة الخالق جلَّ وعلا؛ فلما علموا ذلك شهدوا أن الدين إنَّما يكون الانقياد والإخلاص لمن نظم هذه الوحدة العجيبة والعدل المتقن، والنظام الكامل الذي يراه العلماء كأنه شخص واحد منتظم كامل، فإذا لم يعرف علماء الأمة ذلك فشهادتهم أن الدين هو الإسلام، فقدت سببها وهو معرفة حسن النظام في الطبيعة والفلك ونحوهما.

ولما كانت الآيات السابقة على هذه قد ذكر فيها المحرمات، ختمها بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾، ثم أبان بهذه الجمل الاعتراضية أن تجنب هذه المحرمات من جملة الدين الكامل.

وهنا شرع يقرر أن التناول منها اضطراراً جائز بأن كان الإنسان في مجاعة وليس مائلاً لإثم، فلا هو آكل فوق الشبع كما قال فقهاء العراق، ولا متعرض لمعصية وهو قول علماء الحجاز. وهذا معنى قوله: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾ مجاعة ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ ﴾ غير مائل ﴿ لِّإِثْمٍ ﴾ من أكل فوق الشبع أو معصية ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لا يؤاخذه بأكله.

ولما أتم الكلام على المحرمات أخذ يذكر ما أحل أكله فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ﴾ فأجابهم قائلاً: ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ ما لم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر منه، ومفهومه أن المستخبثات حرام، فالحلال والحرام تبع الاستخباث والاستطابة.

وقد تقدم في المقدمة أنه يجب أن تكون لجنة إسلامية تبحث في جميع الحيوان، فما نفعنا للزراعة حرمنا صيده كما حرمنا صيد الحرم، وما يضر أكله طبياً منعناه، وما خلق للمنفعة العامة تركناه كما أوضحناه، وإذا كانت الاستطابة والاستخباث يرجعان إلى طبائع أفضل رجال العرب، فلأن يكونوا أطباء خير وأبقى وأنفع.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ فقد تقدم تفسيره في المقدمة.

عجائب القرآن

زيادة إيضاح ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

يقول الله فيما تقدم: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ومعلوم هناك أن كون الدين عند الله الإسلام سببه أنه قائم بالعدل في الخلق والنظام، فلا بقاء لأمة بلا عدل ولا نظام، مؤمنة كانت أو كافرة، والحيوان والمعدن والسماوات والأرض لا قيام لها إلاَّ بحسن النظام، فأخذ يذكر هنا القسط والعدل في أفعال العباد، ليكون على وفق نظام الله، كما قال الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن: ٧-٨]، فهو هناك يقول: وزنت كل شيء ونظمته لأجل أن تعدلوا وتنظموا، وهنا يقول: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ فقوموا بالقسط والعدل الذي كان سبباً في أني شهدت وشهد العلماء والملائكة أن الدين هو الانقياد والإخلاص لمن أبدع النظام فتنظموا كما نظم وتعدلوا كما عدل، وتكونوا متخلقين بأخلاق الله.

المقصد الثاني

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

فأما قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فقد تقدم في المقدمة.

وأما قوله: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ من الصحة والمال والحياة وتسخير السماوات والأرض ومنها الطهارة والصلاة والأحكام الشرعية المذكورة، فإن الله يذكرنا بذلك كله ﴿ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ ﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فيما أخذ عليكم من الميثاق فلا تنقضوه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بما في قلوب عباده من خير أو شر.

واعلم أنه سبحانه ابتدأ السورة بطلب الوفاء بالعقود، وأخذ يذكر كثيراً منها، فمنها الحلال ومنها الحرام، ثم ختمها بتذكيرهم بالميثاق مرة أخرى.

ولما أتم الكلام على العهد والميثاق في الحلال والحرام في بهيمة الأنعام، أخذ يذكر معاملات الإنسان مع الناس، وأنه يجب أن يكون المرء عدلاً في شهادته، فلا يشهد لقريبه ولا على عدوه، بل الشهادة تكون على وجهها. وهذا قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ أي ولا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد، تشفياً بسبب ما في قلوبكم ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي العدل أقرب للتقوى، وبهذا أمر بالعدل. وإذا كان العدل يجب أن يكون مع الكافرين، فكيف يكون الأمر مع المسلمين؟ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا

تعملون ﴾ والتكرار لمزيد الاهتمام ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ دالّ على المفعول الثاني لـ﴿ وَعَدَ ﴾ ، ولما كان أحد الفريقين يذكر بعد الآخر أتبعه بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

ثم أخذ يذكر المسلمين نعم الله عليهم بالنجاة مما دبر لهم من الكيد . ذلك أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا بعسفان إلى الظهر معاً ، فلما صلوا ندموا على أنهم لم يفاجئوهم بالقتل مرة واحدة ، وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى العصر ، فرد الله عليهم كيدهم . وأيضاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خلفاؤه الأربعة قريظة لدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمري يحسبهما مشركين ، فقالوا : نعم ، وأكرموه ظاهراً ، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحى عظيمة يطرحها عليه ، فأمسك الله يده ، فنزل جبريل فأخبره فخرج . وأيضاً نزل النبي صلى الله عليه وسلم منزلاً وعلق سلاحه بشجرة ، وتفرق الناس عنه ، فجاءه أعرابي فسلّ سيفه ، فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : الله ، فأسقطه جبريل من يده ، فأخذه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك مني ؟ فقال : لا أحد ، أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى المقصد الثاني .

المقصد الثالث

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (١٤) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ

أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

اعلم أن هذا المقصد مملوء بالعجب، غاص بالحكم، ذكر أخبار بني إسرائيل إذ خرجوا من مصر، وكيف وعدهم الله أن يملكهم الأرض المباركة، وقد أرسلوا اثني عشر رجلاً منهم فرأوا الأرض المباركة، فرجعوا وفي أيديهم التمر، فلما رأوهم قد مدحوا تلك الأرض تركوا هذا الخبر، وجبنوا وأصغوا لأقوال المرجفين المخوّفين، وقالوا: لا طاقة لنا بقتال القوم، فأبقاهم الله أربعين سنة، كما سأنقله لك من نفس التوراة، فهؤلاء بنو إسرائيل عصوا ربهم وجبنوا عن الحرب ولم يوفوا بالميثاق، فلما عصوا أذلهم الله فأبقاهم أربعين سنة، ولم يدخل الأرض المقدسة إلاَّ أبناؤهم.

هكذا يكون حال المسلمين الذين أعطوا ميثاق الله بقبول القرآن، وأمروا في أول هذه السورة أن يفوا بالعهود، فقيل لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ الخ، وسرد العقود والعهود، ثم أخذ يذكر ما فعله بنو إسرائيل إذ أخذ عليهم العهد والميثاق، فخالفوا العهد، فخرجوا من الأرض المقدسة، وهكذا النصارى لم يفوا بعهودهم، فأوقع الفشل بينهم وجعلهم فرقاً متشاكسة، وألقى بين دولهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وذلك لأنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، مع أن المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة تحت رحمة الله، فلو شاء لأهلك الأرض ومن عليها بأي علة من العلل السماوية، أو كوكب يقترب منها فيهلكها.

ومن هو المسيح؟ ومن هي أمه؟ ومن هم أهل الأرض؟ وما الأرض التي هم عليها إلاَّ من المخلوقات المتأخرة التي ليست أعظم الخلائق ولا أكبر الأرضين، وكم في الكون من شموس وأراض قد تبلغ ثلاثمائة مليون أرض على حسب ما استنتجه الإنسان اليوم، فكيف يكون عيسى ابن مريم الذي هو في أرض ضئيلة ضعيفة إلهاً. إن هذا لعجب عجاب وجهل عظيم.

هذه هي ذنوب اليهود والنصارى معاً، ثم أخذ يقرعهم جميعاً، أي اليهود والنصارى، ويقول: أيها اليهود، أيها النصارى، كيف تدّعون أنكم أبناء الله وأحباؤه؟ وبأي وجه تقولون هذا القول؟ خبروني إن كنتم صادقين في قولكم، فلماذا يكون عقاب على الذنوب؟فالمحبون لا يعاقبون، ولقد قلت لكم إن من في الأرض جميعاً ليسوا شيئاً يذكر في جانب السماوات والأرض، أهل الأرض مغترّون، وأين أرضكم، ومن عليها؟ بل أنتم بشر من خلقي، فأغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء. لقد طال عليكم الأمد، وقست قلوبكم، وطالت الأيام على أديانكم، فهاأنا ذا أرسلت لكم رسولاً يبشركم وينذركم.

ثم ختم هذا المقصد بإتمام الكلام على عصيان بني إسرائيل لموسى، ولم يشأ أن يطيل الكلام على النصارى، لأن بني إسرائيل أصحاب التوراة وهم أصعب مراساً، فقال: اذكر يا محمد خبر موسى إذ قال لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، إذ أعطاكم نعماً لم يعطها أحداً من العالمين، كيف تجبنون وتخافون من دخول الأرض المقدسة؟ فقالوا: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ الخ الآيات. هذا ملخص موجز لهذا المقصد سأوضحه لك الآن من نفس التوراة.

ولعمرك ليس يريد الله من هذه الحكايات ولا الأحاديث سرد تاريخ اليهود ودخولهم الأرض المقدسة، ولم يرد قط سبحانه وتعالى أن يفهمنا ما فعله النصارى مجرد إخبار، فلم يقصد إلاّ أمر المسلمين تذكيراً لهم، يقول الله تعالى: أيها المسلمون، انظروا في أمر بني إسرائيل كيف جبنوا عن قتال الجبارين، فحرمتهم الأرض المقدسة، وتمتع بها أبناؤهم الشجعان. ويقول: كيف نظر الناس إلى المسيح نظر الإله؟ فمن هو المسيح؟ وما هي الأرض؟ ومن أنتم؟.

يقول الله: جعلت النصارى فرقاً بينها حرب شعواء، وقد حصل ذلك في أوروبا فقد اقتتلوا أجيالاً وتحاربوا أعواماً لأجل الدين والعقائد. وهذا معنى قوله: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ يقول الله إذا اختلف الناس في الأمور العظيمة والعقائد العالية، أوقعت الحرب بينهم كما فعلت في النصارى، وإذا عصوا ربهم وجبنوا، حرمتهم التمتع بالسعادة في الدنيا، كما حصل من اليهود، خافوا دخول الأرض المقدسة جبناً، فأوقفتهم بطور سيناء مدة طويلة لأربيهم، هكذا المسلمون لما اختلفوا في العقائد، ودخلت الشكوك بينهم، ذاق بعضهم بأس بعض، واقتتلوا على الخلافة والإمامة، ولما جبنوا سلطت عليهم الفرنجة لأهذبهم كما هذبت بني إسرائيل بالتيه وبقائهم به أربعين سنة. فلعمرك لم تكن هذه القصص لمجرد التاريخ، وماذا يهمّ المسلمين من ذلك؟ لا يهمّ المسلمين إلاّ التعقل والتفكر.

أيها المسلمون، كفوا عن السير الذي أنتم عليه، إن هذه القصص جاءت لكم أنتم فليقم منكم علماء، وليتركوا تلك البدع والجهالات، فلقد ظن قوم أنهم وصلوا للألوهية من طوائف المتصوفة، وآخرون أخذوا يتفاخرون بالدين أو بالطرق التي اتبعوها، وكل يدعي أنه أولى بالله، ولكن الله يقول على رؤوس الأشهاد: إني لن أعبأ بأرضكم ومن عليها، فاتركوا هذه الدعاوي واعلموا أنكم عبيد خاضعون، فاعملوا صالحاً ودعوا الكبرياء.

وإذا عرفت المقصود من هذا المقصد، فتعال أسمعك ما جاء في التوراة في هذا المقام:

قال في سفر العدد: الإصحاح الأول: وكلم الرب موسى في برية سيناء في خيمة الاجتماع في أول الشهر الثاني في السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلاً: احصوا كل جماعة بني إسرائيل

بعشائرهم. وهنا ذكر تعدادهم سبطاً سبطاً قبيلة قبيلة، ثم قال: هؤلاء هم المعدودون الذين عدّهم موسى وهارون ورؤساء بني إسرائيل اثني عشر رجلاً، رجل واحد لبيت آبائه، فكان جميع المعدودين من بني إسرائيل حسب بيوت آبائهم من ابن عشرين سنة فصاعداً، كل خارج للحرب في إسرائيل، كان جميع المعدودين ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين، ثم لم يعدّ اللاويين منهم.

وقال في الإصحاح الرابع والثلاثين: وكلم الرب موسى قائلاً: أوص بني إسرائيل وقل لهم إنكم داخلون إلى أرض كنعان، هذه هي الأرض التي تقع لكم نصيباً، أرض كنعان بتخومها الخ.

ثم سمى في هذا الإصحاح الرجلين اللذين يقسمان الأرض بين بني إسرائيل وهما: «العازار الكاهن ويشوع بن نون»، وهكذا رئيس واحد من كل سبط، وذكر من سبط يهوذا «كالب بن يفنة».

وقال في الإصحاح الذي قبله: إن هارون مات في السنة الأربعين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في الشهر الخامس في اليوم الأول من الشهر، وكان هارون ابن مائة وثلاث وعشرين سنة حين مات في جبل «هور».

وقال في سفر «التثنية» قال في الإصحاح الأول: ففي السنة الأربعين في الشهر الحادي عشر في الأول من الشهر، كلم موسى بني إسرائيل حسب كل ما أوصاه الرب إليهم، بعد ما ضرب «سيحون» ملك الأموريين الساكن في خشبون، و«عوج» ملك باشان في عبر الأردن في أرض موآب: قد جعلت أمامكم الأرض، ادخلوا وتملكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم. وهنا ذكر لهم أنه جعل منهم قضاة يقضون بينهم الخ.

ثم أخذ يوبخهم بكلام طويل، ملخصه: أن الرب قال: لا تخف، لا ترتعد، وادخل في أرض كنعان، فلما سمعتم ذلك مني قلتم: نرسل منا ١٢ رجلاً ليدخلوا تلك الأرض، فصعدوا الجبل وأتوا إلى وادي «أشكول» وتجسسوه، وأخذوا في أيديهم من أثمار الأرض ونزلوا به إلينا وردوا لنا خبراً، وقالوا: جيدة هي الأرض التي أعطانا الرب إلهنا، لكنكم لم تشاؤوا أن تصعدوا، وعصيتم قول الرب إلهكم، وتمرمرتم في خيامكم وقلتم: الرب بسبب بغضه لنا قد أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدي الأموريين لكي يهلكنا، إلى أين نحن صاعدون؟ لقد أذاب إخواننا قلوبنا قائلين: شعب أعظم وأطول منا، مدن عظيمة محصنة إلى السماء، وقد رأينا بني عناق هناك، فقلت لكم: لا ترهبوا ولا تخافوا منهم، وهكذا أخذ موسى يذكرهم أن الرب قط نظر لكم نظر رحمة في مصر، فهو لا ينساكم، فلم يفد الكلام فيكم، فسخط الرب عليكم وأقسم قائلاً: لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة التي أقسمت أن أعطيها لآبائكم، ما عدا «كالب بن يفنة» وعليّ أيضاً غضب الرب لسببكم قائلاً: وأنت أيضاً لا تدخل إلى هناك، يشوع بن نون الواقف أمامك هو يدخل إلى هناك فشدد الخ، وأما أطفالكم الذين لم يعرفوا الخير والشر فهم يدخلون إلى هناك وهم يملكونها وأما أنتم فتحولوا وارتحلوا إلى البرية على طريق بحر سوف.

ثم ذكر هنا أن موسى رحل بهم وبقي في البرية ثمانياً وثلاثين سنة حتى فني كل الجيل، وحينئذ أمر موسى بالحرب، ففعل، وقابلهم ملك يقال له «عوج»، وهو ملك باشان، فغلبه موسى وأخذ أرضه لبني إسرائيل.

ثم قال في الإصحاح الثالث من التثنية: وتضرعت إلى الرب قائلاً: يا سيد الرب، دعني أعبر وأرى الأرض الجيدة التي في عبر الأردن، هذا الجبل الجيد ولبنان، لكن الرب غضب عليّ بسببكم، ولم يسمع لي، بل قال لي الرب: كفاك لا تعد تكلمني أيضاً في هذا الأمر، إلى أن قال: لا تعبر هذا الأردن، وأما يشوع فأوصه وشدده، لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب، وهو يقسم لهم الأرض التي تراها.

تذكيرهم بالنعم

ثم قال: فاسأل عن الأيام الأولى التي كانت قبلك من اليوم الذي خلق الله فيه الإنسان على الأرض، ومن أقصاء السماء إلى أقصائها، هل جرى مثل هذا الأمر العظيم؟أو هل سمع نظيره؟ أو هل شرع الله أن يأتي ويأخذ لنفسه شعباً بتجارب وآيات وعجائب وحرب؟ مثل كل ما فعل لكم الرب إلهكم في مصر أمام أعينكم، إنك قد رأيت لتعلم أن الرب هو الإله ليس آخر سواه الخ. وهذا كله هو وغيره تذكير بالنعم وهو ما يقوله الله هنا: ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

حكمة هذه التجارب

في الإصحاح الثامن من التثنية

أفاد في هذا الإصحاح أن الأربعين سنة التي قضوها في القفر ليذلهم بالجوع والعطش وليأكلوا المنّ الذي لم يأكله آباؤهم، وذلك لفائدتين: الأولى أنهم يعرفون أنه ليس يعيش بالخبز وحده، بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيي الإنسان. وقال فيه: فاعلم في قلبك أنه كما يؤدب الإنسان ابنه قد أدبك الرب إلهك.

ثم وصف الأرض التي وعدهم بها وذكر جناتها وأعنابها وزيتها وعسلها وحديدها ونحاسها، ووصى أن لا ينسى الرب، وحذرهم من نسيانه إذا شبعوا، وليتذكروا أن الله هو الذي أخرجهم من أرض مصر في ذل العبودية، وحكم عليهم بالعطش والجوع في البرية، وسقاهم من الماء النابع من الحجر.

ثم قال: لكي يذلك ويجربك لكي يحسن إليك في آخرتك، ولئلا تقول في قلبك: مودتي وقدرة يدي اصطنعت لي هذه الثروة، بل اذكر الرب إلهك. انتهى ملخصاً مختصراً من التوراة.

لقد ظهر لك مقصود هذه الآيات من التوراة، فلأذكر لك تفسيرها اللفظي ومطابقتها للحقائق فأقول: قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي كما أخذ الميثاق على المسلمين فأولئك بالتوراة وهؤلاء في القرآن، كما في أول السورة، فهذه سورة العهود والمواثيق ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ شاهداً، هم الذين أرسلوهم لينقبوا ويفتشوا في أرض كنعان، من كل قبيلة واحد، وهكذا في كل أمر كان يؤخذ من كل سبط واحد، يقوم مقام إخوانه، وهذا شرحناه فيما تقدم من نفس التوراة ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهذا الميثاق وأمثاله أخذ على المسلمين، وفي هذه السورة ١٨ ميثاقاً جديدة لم تكن في السورة السابقة، وقوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ «ما»: زائدة للتأكيد ﴿ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ ولذلك ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ فحرفوا الكلام المنزل في التوراة وتركوا

نصيباً مهماً منها، ﴿خَآئِنَةٍ﴾ فرقة خائنة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لم يخونوا وهم الذين آمنوا، ثم قال: ﴿وَ﴾ أخذنا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا﴾ من غري بالشيء: لصق به ﴿ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بين فرق النصارى ومنهم نسطورية ويعقوبية وملكانية وفرق أخرى، كالبروتستانت والأرثوذكس اللتين ظهرتا بعد نزول القرآن، ومن المسيحيين من ينكر وجود المسيح، ومنهم من يرى أن هذه روايات وأباطيل، وكل هؤلاء من نفس النصارى تنصلوا من الدين، وقوله: ﴿مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كنعت محمد صلى الله عليه وسلم، وآية الرجم في التوراة، وبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم في إنجيل برنابا، وقد أخفي ذلك الإنجيل عمداً كما وضحناه في سورة البقرة، ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ فلا يفضحكم بإظهار ما كتمتموه عن شعوبكم ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ هو القرآن، ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ طرق السلامة من العذاب، ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الكفر، و﴿ٱلنُّورِ﴾ الإسلام، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بإرادته ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق هو أقرب الطرق، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، يعني أن الله قد حل في بدن عيسى، ويقولون الأب والابن والروح القدس إله واحد، وأنت تعرف أن هذه سرت للمسيحيين من الإنجيل الهندي، فإني رأيته بعيني رأسي وقد وازن المسيحيون بينه وبين بعض الأناجيل، فلم يجدوا إلاّ فرقاً يسيراً بلا تصرف فيه، وفيه التثليث والصلب، وقد كان تاريخه قبل المسيح بنحو أربعة آلاف سنة، وستراه مفصلاً في آخر هذه السورة، وقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي فمن يمنع من قدرته وإرادته؟ . بهذا بين عجز البشر واغترارهم بأنبيائهم، وأن الله له من في السماوات ومن في الأرض، وقد تقدم.

ثم أخذ يوبخ الطائفتين اليهود والنصارى إجمالاً بعد التفصيل فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الخ، يقول: إن اليهود قالوا إن الله أوحى إلى إسرائيل أني أدخل من ولدك النار، فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم ينادي مناد أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل فيخرجون. وقالت النصارى: إن المسيح ابن الله، والمسيح منهم، فقالوا: نحن أبناء الله لهذا السبب، والمسيحيون أيضاً لما سمعوا قول المسيح: أذهب إلى أبي وأبيكم، وأيضاً يقرؤون في صلواتهم: يا أبانا الذي في السماء، ليتقدس اسمك، ظنوا أن البنوة كبنوة الناس، وأن الأب ينيمهم على فراش الراحة، فقال الله لهم: كلا، هذه ديانات تغيرت ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي كراهة ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ الخ. وقد قيل كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة، وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة.

ثم قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ شرع يكمل قصص بني إسرائيل إذ خرجوا من أرض مصر ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ فأرشدكم وشرفكم، وقد تقدم ملخصه من التوراة منقولاً من سفر التثنية، ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي وجعل منكم ملوكاً ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما قال في سفر التثنية المتقدم من اليوم الذي خلق الله فيه الإنسان على الأرض، ومن أقصاء السماء إلى أقصائها، هل جرى مثل هذا الأمر العظيم، وهل سمع نظيره الخ، فهذا هو معنى

الآية هنا ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ ولقد عرفتها وهي ما بعد نهر الأردن التي منع موسى من دخولها ووعد بها فتاه ﴿ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ قسمها لكم ﴿ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ ﴾ ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة ﴿ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ ثواب الدارين ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ ﴾ لا تتأتى مقاومتهم، وقد تقدم إيضاحه في التوراة، ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي يخافون الله تعالى، وهما كالب ويوشع ﴿ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾ بالإيمان والثبات ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ ﴾ باب قريتهم ﴿ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ ﴾ كما جاء في الوحي لموسى.

وأما قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ فهو مفهوم، ويقصدون من قولهم: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ الاستهانة بالله ورسوله، فبث شكواه إلى الله، و﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا ﴾ أي الأرض التي وعدوا بها ﴿ مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ ﴾ لا يدخلونها حتى يفنى هذا الجيل الجاهل الشرير ﴿ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ يسيرون فيها متحيرين ﴿ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾.

لقد فسرت لك الآيات في هذا المقصد تفسيراً ينطبق على الحياة الاجتماعية الإسلامية، وقلت: إن المسلمين عاهدوا الله، وبنو إسرائيل عاهدوه أيضاً، فأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا موسى وجبنوا عن محاربة الكنعانيين، فحرمهم الله ولم يدخل البلاد إلا أبناؤهم، وهكذا النصارى تغالوا في الدين وتفاخروا بقربهم من الله فجعلهم فرقاً متشاكسين الخ، وأزيد الآن إيضاحاً للمقام فأقول: أيها المسلمون في أقطار الأرض، لك ينزل القرآن لمجرد التلاوة، احذروا احذروا وهذه القصص لا تقصد لغيرنا، ما لنا وللأمم السابقة إنّما قصصهم عبرة، والعبرة هنا أن بني إسرائيل قست قلوبهم وهكذا المسلمون قست قلوبهم وغلظت نفوسهم، فانكبوا على الفقه عاكفين، وظنوا أن مذاهبهم هي كل شيء في الدين، فنسوا جمال الله في الأرض والسماوات، وجهلوا خلق الكائنات فأذلتهم الفرنجة لأنهم جاهلون وقتلوهم لأنهم نائمون. ولما طغوا في العقائد وتفرقوا فرقاً، أرقع العداوة فيما بينهم كما حصل للنصارى، ثم زاد المسلمون المتأخرون فتغالوا في الإسلام، وجعلوا أن كل من انتسب إليه فهو ناج، ففعلوا كما فعل اليهود والنصارى، وكأنهم أيضاً يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، وهذا هو الغرور الباطل كما تقدم في سورة النساء: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ ﴾ [الآية: ١٢٣]، فهذه الآية التي هنا وهي آية النسخ، يراد بها أن لا يتغالى المسلمون في الاغترار بالدين، وإنّما لكل امرئ ما كسب وعليه ما اكتسب هذا هو القصد من الآيات.

وأيضاً يفيدنا الله قائلاً: أيها المسلمون، إذا رأيتم الأعداء حلوا بساحتكم، فاعلموا أن الذي يخرجهم إنّما هو الصبر والقوة والجلد والعزيمة، وأن يظهر جيل جديد يخرجهم، وأن من يعيشون في نعيم وترف أحكم عليهم بالهلاك والدمار. أما أولئك الذين يعيشون في شظف العيش فإنهم أقوياء البنية، يجدّدون نشاطهم ويرجعون مجدهم ويرفعون لواءهم. وكأنه يقول: أيها المسلمون، إذا رأيتم هذا الجيل خاضعاً للفرنجة، فربوا أولادكم على الشهامة والمروءة كما ربيت بني إسرائيل في الصحراء تقوية لأبدانهم، وتعويداً لهم على الاحتمال والصبر.

وإن شئت فاقرأ هذا المقام في سورة البقرة عند قوله: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [الآية: ٦١]، ثم ذكر أنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة، فاقرأ هذا الموضوع هناك فإنه مستوفى، ولكن هنا بعض زيادات نافعة، فافهم. اهـ المقصد الثالث.

المقصد الرابع

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير اللفظي لهذا المقصد

يقول الله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ يا محمد ﴿ نَبَأَ ﴾ قابيل وهابيل ﴿ ٱبْنَىْ ءَادَمَ ﴾ اللذين أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توءم الآخر، أي التي ولدت معه من بطن حواء، وكانت حواء تلد في كل بطن اثنين ذكراً وأنثى، فأما هابيل فرضي، وأما قابيل فسخط، لأن توءمه كانت أجمل من توءم هابيل التي حكم عليه أن يتزوجها، فحكم عليهما آدم أن يقربا قرباناً، فمن نزلت نار من السماء فأحرقت قربانه، فهو المقبول، وهو الذي يتزوج هذه الجميلة، فقبل الله قربان هابيل فابتلعته النار، فازداد قابيل سخطاً، ويقال إن ابني آدم رجلان من بني إسرائيل، وسواء كان هذا أو ذاك فإن الله أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلو علينا نبأهما ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي تلاوة ملتبسة بالحق ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ الظرف متعلق بـ﴿ نَبَأَ ﴾. وكان قابيل صاحب زرع، وقرّب أردأ القمح، وهابيل صاحب ضرع، فقرّب جملاً سميناً ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ ﴾ لأن قابيل غير مخلص النية ﴿ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ حسداً لقبوله عند الله، وزواجه بالحسناء ﴿ قَالَ ﴾ في جوابه: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فأنا بتقواي قبل قرباني، فلتجتهد مثلي ليقبل قربانك، ولا تعول على إزالة النعمة عني، لأن الله جعل الدنيا دار جهاد، فكن مثلي ولا تعزم على إهلاكي، وأنا قادر على إهلاكك، ولكني لا أفعل امتثالاً لأمر الله، والله ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فأنا وإن كنت أقوى منك يمنعني خوف الله من الإقدام على قتلك، فلا ضعف عندي وإنما هو ديني ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ ﴾ أي ترجع بعقاب ذنبي بقتلك لي وعقاب ذنبك بمعاصيك ﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ ﴾ سهلت ووسعت، من طاع له المرتع: إذا اتسع ﴿ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ديناً ودنيا، ولما قتله تحير في أمره ولم يدر ما يصنع به، ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا ﴾ أي غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر بمنقاره ورجليه ﴿ يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة ﴿ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ ليري الله أو الغراب قابيل كيف

يواري جسد أخيه هابيل، ولما رأى ذلك ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ﴾ كلمة جزع وتحسر ﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ ﴾ أي فأستر جيفته وعورته عن الأعين ﴿ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ لأنه ندم على قتل أخيه، لأنه لم ينتفع بقتله، وسخط عليه أبواه، ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أو بغير فساد في الأرض، كالشرك أو قطع الطريق ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾ من حيث إنه هتك حرمة الدماء، وأنه سنّ القتل وجرأ عليه الناس ﴿ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾ أي ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنّما فعل ذلك بالناس جميعاً ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴾ أي بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحات لكي يخافوا، أسرف كثير منهم في القتل وتباعدوا عن الاعتدال فيه.

سئل الحسن عن هذه الآية أهي لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والله الذي لا إله غيره ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا. اهـ التفسير اللفظي.

التفسير الحقيقي على مقدار الطاقة

بينما أكتب هذه الكلمات إذ حضر عندي فاضل من الأذكياء واطلع على ما كتبته فقال: لم أورد الله هذه القصة، وأنت تعلم أن عقول الناس ليس عندها متسع لمثل هذا؟ وما المناسبة بين ما تقدم وبين القصة؟ وما لنا ولآدم وبنيه ونحن في القرن العشرين؟ فما فائدتنا والمدنية الحاضرة قد رقت الأمم ونحن نرجع إلى أشياء كانت في القرون الأولى، ولا ندري ماذا فعل الزمان بها؟ وما فائدة ذكر الغراب وحسد ابن آدم؟ إن الشك والكفر يرفرفان على عقول جميع المتعلمين الأذكياء في البلاد الإسلامية، فإن لم تأت بجواب شاف فإني قلت لك الحقيقة ناصعة بيضاء، وأنت تعلم أن ديننا هو آخر الأديان، والله يظهره على الدين كله، أبمثل دفن الغراب يظهره على الدين كله؟ وهذا عصر الكهرباء والبخار والطيارات والعجائب والكشف الحديث، فأين المعارف وأين عجائب القرآن؟.

فقلت له: لو لم يكن في القرآن سوى هذه القصة لكفت في الإعجاز والسوق إلى ما فوق المدنية الحاضرة، إن هذه القصة لا تقنع بالمدنية الحاضرة، إنها ترمي إلى أشياء لم يعلمها البشر، وهي تشير إلى أن الناس نائمون، وبالفكر في أمثال هذا القول يستيقظون.

هذه الآية فتحت باب السعادة الإنسانية والمحبة الأخوية، والمودات الآدمية، والإخلاص، وإشراف القلوب، ونزع ما في الصدور، وارتقاء سائر نوع الإنسان مسلمين وغير مسلمين، ولكنها في الوقت نفسه توبخ المسلمين أشد توبيخ، وتقرعهم أعظم تقريع، وتطلب من النوع الإنساني أن يصل إلى منتهاه، وأن يرقى إلى أقصى مداه.

فقال ذلك الفاضل: إن ما تقوله لي الآن أشبه بأقوال الصوفية في هذا العصر الذين يمدحون الدين، ولا يأتون سراً من أسراره ولا نبأ من أحواله، وإنّما هي كلمات يتلقفونها، وأقوال يزخرفونها كابراً عن كابر، وإذا سألتهم: أين تلك العجائب؟ ظهر عجزهم وضلوا سواء السبيل، فأفصح ما قلت.

الإجابة عن السؤال

قلت: ألم يتقدم في هذه السورة الصيد حلاله وحرامه وحل النساء؟ قال: بلى، قلت: ألم يذكر فيها اليهود والنصارى وكيف تغالوا في الدين، وأن الإسلام قد جاء لإصلاح ما أفسده الزمان من العقائد والمغالاة في الدين بألوهية الأنبياء أو بغفران الذنوب مجاناً لانتساب الناس إلى الدين؟ قال: بلى، قلت: أولَم أقل إن المسلمين لم يذكر لهم هذا إلاَّ ليحترسوا من ذلك التفرق، وقد وقعوا فيه فتفرقوا واقتتلوا كما اقتتل النصارى، ورجعوا إلى التواكل واعتقاد الغفران لأجل الدين كما فعل أهل الكتاب؟ قال: بلى، قلت له: إن الله جاء بهذه القصة التي هي من جملة القرآن لتكون بلسماً يداوي به جراح الأمم الإسلامية في هذا الزمان وفي مستقبل الزمان.

هذه القصة قصها الله لهذا، فقال: وكيف ذلك؟ قلت: أنت تعلم أن الفطرة الإنسانية فيها غريزتان، لا ينفك الإنسان عنهما ولا يعيش إلاَّ بهما، إحداهما: أنه يحب أن يختص وحده بكل مكرمة ونعمة، فهو أبداً يحب أن يكون له السبق والفضل في كل شيء، في المال، في الجمال، في الملك، في الشهرة، في الجنة، في عالم الملائكة، في كل ما يسمعه أو يقرؤه. وثانيهما: أنه يحب من حوله ويودّ لو يكون معه قوم كثيرون ليساعدوه في أموره؛ فهو إذن بين متناقضين في الغريزة، أولاً الاختصاص، وثانياً الاجتماع، ولا اجتماع إلاَّ حيث يكون الناس لهم حياة، والحياة ذات مزايا كثيرة، فالإنسان لما كان روحاً عالية شريفة أحبّ الانفراد بالعلو، ولما كانت تلك الروح تنزلت إلى عالمنا الأرضي الضعيف ت\المتأخر، وسكنت هذه البنية احتاجت البنية إلى المساعدة من الأهل والأقارب وأهل الوطن وسائر أفراد الأمة وجميع الأمم، وهاتان الغريزتان أبداً تتجادلان في الإنسان، فإن غلبت الأولى وقع الإنسان في الظلم والحسد والكبر وأمثالها، وإن غلبت الثانية ربما أضر بنفسه وتنزل إلى المذلة والصغار، واستسلم للفقر والاحتقار، فإن اعتدلا اعتدل الإنسان وسار سيراً حسناً في حياته مع الناس أجمعين.

فالحاجة إلى اجتماعه بأبناء جنسه حملته على مزايا شريفة كثيرة، كالندم على ما يفرط منه لهم والحزن والكآبة عليهم، وكمساعدتهم في السراء والضراء وما أشبه ذلك، فهذه المزايا مغروسة في نفوسنا ثابتة لا يزحزحها فلسفة ولا يبعدها زخرف من القول وزور.

والعقل الإنساني هو الذي يتصرف في هاتين الغريزتين ببصيرته حتى لا تطغى إحداهما على الأخرى، فلا حب الانفراد يحمينا عن المساعدة الأخوية، ولا المحبة الأخوية تصدنا عن حفظ أنفسنا والعمل لإسعادها. قال: بلى، ثم ماذا؟ قلت: وأنت ترى أن هذا العقل المتصرف في هاتين الغريزتين ينظر فيما حوله، ويتعرف عجائب هذه الدنيا فيدرس نظامها ويتخذ لنفسه من كل شيء أحسنه، فإذا رأى النبات زرعه وجدّ في إنمائه، أو الحيوان اجتهد في تذليله، وتعلم من صناعاته، فنسج كالعنكبوت، وطار في الطيارات كالطيور، وسبح في البحر كالسمك، وصنع القناطر على البحار كما تصنع القرود من أنفسها بحيث تجتمع تحت شجرة على شاطئ النهر ويأتي أحدها ويتعلق بالشجرة ويمسك به، وهكذا يمسك بعضها ببعض فيصير منها شبه جسر طويل متصل بعضه ببعض، ثم يأتي أسفلها ويمد رأسه إلى جهة الشط الآخر، وتتجه جميع القردة المتصلة بعضها ببعض إلى الشط الآخر، فما أسرع أن يصل القرد الأسفل إلى شجرة من الجهة الأخرى من النهر، ويمسك بالشجرة ذلك القرد الذي كان أدنى، وهنا

تمت القنطرة التي تصنعها القردة محدبة بوضع هندسي ، ثم تمر القردة الصغار على هذه القنطرة وهن يتغامزن ويضحكن ويجرين فوق تلك القنطرة القردية ، فإذا انتهى المرور ثبت القرد الذي في الشطر الآخر في مكانه فوق الشجرة متمسكاً بها ، وأنزل يديه إلى القرد الذي تمسك بالشجرة الأولى في الشط الأول ، ومتى ترك الشجرة رأيت هذه القنطرة كلها أصبحت صفاً واحداً في الشط الثاني معلقاً في القرد الذي استمسك بالشجرة الثانية ، وحينئذ ما أسهل أن يجري كل واحد في الأرض الفضاء آمناً مطمئناً .

وإذا رأى الرياح والنمل والحشرات تلقح الزرع ولا علم لها به فليقم هو بالإلقاح ليزيد النماء والخير والبركات ، وإذا رأى الشمس والكوكب أضاءت له السبل ، فإنه يقلد الطبيعة ويأتي بالسرج التي توقد في منازله ، وهكذا يتعلم الإنسان مما حوله كل ما استعدت له نفسه من السعادة أليس كذلك؟ قال : بلى ، قلت : لننظر في الآية الآن ، أليست هذه الآية جاءت للبحث في الفطرة الإنسانية الخالصة من كل شائبة ، أليس قتل قابيل لهابيل راجعاً للغريزة الأولى؟ قال : بلى ، قلت : أليس استسلام هابيل لقابيل راجعاً للاستسلام للعاطفة الثانية وإنكار الذات كل الإنكار؟ قال : بلى ، وإني معجب بهذا القول ، وأول مرة سمعت هذا في تفسير هذه الآية ، قلت : أليس هابيل لما استسلم للعاطفة الثانية كان جزاؤه القتل من أخيه؟ قال : بلى ، وهذا لا يرضاه ديننا؟ وإن كان دين المسيح يرضاه ، ومع ذلك نرى المسيحيين تركوا هذا كله ، قلت : ألست ترى أن الغريزة والفطرة قد أوجبت عليه أن يندم ويحزن وقد حار في أمره؟ قال : بلى ، قلت : ولما لم يهتد إلى مسألة الدفن جاء له الغراب فأراه الدفن؟ قال : بلى ، قلت : أليس هذا هو فعل العقل وأنه يجب أن يسيطر إما بالتعليم وإما بما يحدثه الله للإنسان من الحوادث التي توقعه في النكبات ، فتنفتح بصيرته للفهم والتعقل فيدرك الحقائق ، وإذا رأى قابيل يبحث في الأرض وقت حزنه فقلده ودفن أخاه ، فكم رأى من غراب وحية وأسد ونملة ونخلة ، وهو يطلع على عجائبها كل يوم ولا يفكر ولا يعقل ما تفعل ، ولكن لما وقع في النوائب استعمل عقله فتعلم مما حوله وهو الغراب . قال : هذا كلام حسن وجميل ، قلت له : فلذلك قال الله إن عاطفة الانفراد لما تغلبت على عاطفة الاجتماع ، وأصبح الناس يقتل بعضهم بعضاً ، وغلب الظلم عليهم قديماً وحديثاً حتى نسوا عقولهم ، ولم يفكروا في أمرهم ، كتبنا فيما شرعنا في كل دين من الديانات أن القتل إثمه عظيم ، وأن حياة الإنسان شريفة .

قال : لم يقل الله ذلك ، فأوضح . قلت : ألست تعلم مما ذكرناه في أول سورة النساء أن الناس على وجه الأرض كأنهم شخص واحد؟ وأن بني آدم على ظهر الكرة الأرضية متضامنون وإن لم يعلموا ، متعاونون وإن لم يعرفوا؟ وعندي أنه لا فرق بين النحل وتلقيحها الأشجار وهي تجهل ذلك أثناء شربها العسل من الزهرات وبين الإنسان ، فإن كل أمة تخدم سائر الأمم وهي غافلة عما تفعله ، بل تحارب كل أمة الأخرى وهم جميعاً غافلون نائمون ، لا يعلمون أنهم بهذا ينقصون الثمرات التي هي خير للجميع ، قال : أوضح ، قلت : إنك ترى أن القطن في بلادنا المصرية لو حصل في بلاد الصين أو اليابان نكبة وفقر ، ولم تأخذ من قطننا ، أفليس ذلك يكون نكبة علينا؟ قال : بلى ، قلت : إذا لم نأخذ نحن معاشر المصريين الشاي الوارد من الصين ، أو البن الوارد من اليمن ، أو الثياب المصنوعة في أوروبا أفليست كل تلك الأمم تتأثر وتنقص ثمراتها بنسبة عدم شرائنا؟ قال : بلى ، قلت : أفلست ترى هذا

الإنسان المسكين تحارب كل أمة منه الأخرى وتقتل رجالها وهم لا يحفلون بتلك المساعدة الخفية؟ قال: بلى، قلت: فالفيلسوف في الصين والهند وفي أوروبا والمخترع من هذه الأمم يؤثر في أمته مباشرة وفي الأمم الأخرى إما مباشرة وإما بالواسطة؟ قال: وكيف ذلك؟ قلت: فالذي اخترع قطار السكة الحديدية والتلغراف والكهرباء وأمثالها أثر في أمته وفي الأمم الأخرى فعلاً، قال: نعم، قلت: لكن العالم والمدرس والمهندس وأمثالهم يؤثرون في أمتهم فينفعونها، وأمتهم عضو من سائر الأمم تفيد في المجتمع، قال: نعم، قلت: إذن العامل الصغير والفلاح والمزارع كل له عمل في أمته، وأمته لها فائدة في جميع الأمم إجمالاً، قال: هذا حق، قلت: هذا معنى الآية.

يقول الله: لما تخلى الإنسان عن عقله وترك الكبرياء والحسد يطغيان عليه تارة، فيقتل سواه وتارة أخرى يقع في التهلكة، ولا يستيقظ عقله للتفكر إلاَّ بعد ما يذوق من الشدائد كما اتفق لقابيل، أرسلت رسلاً وعلمت الإنسان بواسطتهم، لأن غريزة الإنسان قد يتركها لهواه، وتنوم الشهوات عقله تنويماً مغناطيسياً، فلا يستيقظ للفكر إلاَّ بعد حلول النوائب، ومما قلته في ذلك التعليم: أن من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً، لأن الإنسانية متضامنة وهو عضو منها ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، ومثل هذا يظهر في النابغين والمخترعين الذين يظهر فضلهم لسائر الناس وينفعونهم جميعاً، ولكن غير النابغين لا يتفطن لمنفعتهم للإنسانية إلاَّ الأقلون. فعلى ذلك يكون كل من قتل من الناس تعطلت منفعته عن العموم، وكل من بقي فمنفعته للعموم. قال: هذا حسن، ولكنه خفي على أكثر العقول.

قلت: فإذا قال في أول السورة إن من الصيد ما هو حلال ومنه ما هو حرام، وقال: أحللت لكم صنف كذا من النساء، فقد قال هنا: أيها الناس، أنا لم أخلقكم لأجل اللذات ولم تحيوا للشهوات، وإنّما هي مقدمات يراد بها الحياة، فإياكم أن تشغلكم شهوات الصيد عن عجائب الطبيعة وغرائبها البديعة، كما ترون في غرائز الغراب من آيات الله والحكمة، وكيف تعلمتم منه ومن غيره من الحيوان، فاحذروا أن يلهيكم أكل الحيوان وصيده عن الحكمة والعلم فيه، وكيف يلهيكم هذا وقد قلت لكم: إن ابن آدم دعا بالويل والثبور، وقال: كيف جهلت علم الطيور ولم أعرف حفر القبور.

فعلى عقولكم فلتبكوا، وعلى ضياع غرائزكم فلتحزنوا، وكأنه يقول: إذا أحللت لكم النساء فليس معناه أن تغفلوا عن العدل كما غفل قابيل فقتل أخاه لأجل امرأة، ولكن اعدلوا في أعمالكم لتنتظم جماعاتكم، وادرسوا علوم الطير والأنعام لتنالوا سعادة الحياة والممات.

وإذا قال الله: إن اليهود والنصارى أفرطوا وأسرفوا في عقائدهم، وقلنا نحن أيضاً: إن المسلمين قد لحقوهم فيما وقعوا فيه فذلوا، فقد قال الله هناك: أيها الناس، ارجعوا إلى العقل والتفكير وليرجع الناس لعقولهم ويفكروا. وكما أن قابيل تنبه إلى فعل الغراب بعد الآلام والندم، هكذا من أصابهم العطب ونزل بهم الشقاء من الأمم فليفزعوا لعقولهم وليفكروا فيما حولهم، وليتأملوا فيما خلقته لهم.

إن المسيحيين لما مسهم الضر بسبب عقائدهم العتيقة، جاء الإسلام فحدث وفعل واستنارت عقولهم بسببه، فأما الإسلام فإن أهله أصابهم الغرور وناموا نوماً عميقاً، فنبههم الله بالمصائب والكوارث، وقد جاء دورهم فليتنبهوا.

نداء لأمة الإسلام

هذا هو الذي انشرح له صدري يا أمة الإسلام. أقول لكم وأنا ملزم أن أقول لكم، أقول لكم: كيف يقول الله على لسان ابن آدم: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ كيف دعا ابن آدم بالويل والثبور لجهله، وكيف يقال ذلك، ألمجرد حكاية؟ كلا، هل يظن المسلمون أن القرآن يأتي لمجرد الفكاهة؟ كلا، ثم كلا، وانظر كيف يقول الله: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ الله هو الذي يقول بعثت غراباً يعلم ابن آدم ويريه كيف يواري سوءة أخيه.

أيها المسلمون إن الأمر عظيم، تضعضع المسلمون وضعفوا وما نجاتهم إلاّ بهذه القصة وأمثالها هذه القصة تقول: إن ابن آدم لما ندم على تفريطه وعقل وفهم عن الطير، وأنا أقول: الله يريد أن يعلمنا علم ما في الأرض والسماء، وما الغراب إلاّ ضرب مثل، وما الحكاية إلاّ رمز، رمز حقاً وليس القصد منها لفظها، وإذا كان شراح كتاب كليلة ودمنة والوزير الفارسي، وكذلك ابن المقفع يقولون إن الحكايات الخرافية التي فيها تكون تسلية للعامة وعلماً وحكماً وسياسة وفلسفة للخاصة، أفلا يكون كتاب الله تعالى أولى بهذا، فإذا كانت الخرافة تجعل رمزاً للحكمة والفلسفة، فما بالك بكتاب الله الذي قال إنه سيظهر على الدين كله؟ إذن المسألة أكبر مما نظن وأعظم مما نفهم، والمسلمون اليوم لهم حصن يلجؤون إليه، وملجأه وهو التفكر والتعقل والفهم وجميع العلوم أصبحت هي نفس الدين، ولم اختار الله الغراب في التعبير؟ الغراب من الحيوانات الفواسق التي ورد الشرع بجواز قتلها كما تقدم، فإذا كان ابن آدم إذا أخطأت فكرته يرجع إلى الحيوان، بل إلى أقل الحيوان احتراماً في الدين الإسلامي فكيف يكون الفكر في باقي الحيوان، وفي علوم الأمم وصناعاتها، نحن أمرنا الله أن نعرف علم الحيوان بل أدنى الحيوان، فما بالك بعلم الإنسان؟

فلأقل أنا أيها الأستاذ لك، ولتقل لي: يا ويلتنا، أعجزنا أن نعرف ما تعرفه الأمم التي حولنا فنواري سوءة أمتنا الإسلامية، فأصبحنا من النادمين؟ أعجزنا أن ندرس جميع العلوم ونعرف كل ما خلق الله ليرينا الله كمال غرائز الحيوان؟ ولكن الإنسان يخطئ، ولذلك نرى الإنسان يتعلم من الحيوان وتعلم ابن آدم من الغراب، فالحيوان غريزته كافية لحياته، والإنسان تدنس الشهوات غريزته، وبعد ذلك يتعلم من الطبيعة بتعليم الله.

هكذا يقول الله ﴿ لِيُرِيَهُۥ ﴾ فهو خلق لنا ما حولنا ليعلمنا، ولم يخلقه لنصطاد منه فقط، بل خلقه للتعليم، وكأن الله يقول: هل ذكرت في هذه السورة أن ابن آدم قال يا ويلتا على ضياع صيد، أو ضياع الشهوات، بل دعا بالويل للجهل بالأمور الطبيعية. هكذا يعلم الله بالقرآن ويرشد أمة الإسلام.

وإذا كان الله يعلمنا بالغراب، أفلا يعلمنا بما هو أقرب إلينا من الغراب وهم الأمم التي حولنا؟ هكذا يقول الله تعالى، يقول: لا تجهلوا ما حولكم مما علمته للأمم، وما خزنته في الطبيعة ورمز لذلك بتعليم الغراب.

قال صاحبي: ولكن الناس يقولون إن غرامك بالطبيعة وعلومها جعلك تلح في هذه الآيات وتأتي فيها بما هو بعيد عن الآية، فهل هذا كله يترتب على قول الله: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ قلت: فاسمع غيرها، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ

بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: ٧-١١]، فانظر كيف ذكر أن هذه الأشياء تكون تبصرة وذكرى وتكون رزقاً للعباد، وقدم التبصرة والذكرى على كونها رزقاً للعباد، وهذا يدل على عناية الحكمة الإلهية في القرآن أن يتفكر الناس في علوم الطبيعة والمخلوقات. فقال: ولكن هذه الفكرة مفهومة من سبعمائة وخمسين آية كما قلت أنت، فما الداعي إذن لاستخراجها من قصة كهذه؟ فقلت: المجاز أبلغ من الحقيقة، وهذه القصة متى عرفها المسلمون على الوجه الذي ذكرناه، وبالمنهج الذي سلكناه، ثاروا في وجه الجهالة وقاموا للعلم قومة رجل واحد، لأن الأمة ليست على بينة من هذا، فهذا القصص دلالته أفصح، ومنافعه أكمل، وتأثيره أشد، وفعله أوقع في النفوس، وأذهب للبؤس وأجلب للفهم، وأقرب للعلم، وأدعى لرجوع الأمة إلى كمالها ونهوضها إلى شرفها العظيم.

نداء إلى علماء الإسلام

حرام على علماء الإسلام أن يذروا الأمة تتخبط في ديجورها وحالك ظلامها، ألم يأن لكم أيها العلماء أن ترشدوا الأمة لكمالها؟ ألم يأن لكم أن تهدوهم إلى الصراط المستقيم؟.

انظروا كيف استنبط الإمام الشافعي رحمه الله تعالى من آية واحدة من القرآن واردة في غزوة من الغزوات وهي: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] ربع الدلائل الفقهية وهو القياس، وكيف جعل أبو حنيفة الاقتصار على الأعضاء الأربعة في آية الوضوء دليلاً على أنه لا يجب على الإنسان غيرها، وكيف جعل الشافعي الترتيب فرضاً، لأن الآية ذكرت الأعضاء على هذا النمط.

وانظروا كيف كانوا يدققون في كل صغيرة وكبيرة، فهل نام الدين بعدهم؟ وهل عموا وصموا فلم ينظروا في القرآن ليسدوا هذه الثلمة الإسلامية والحوادث الحربية والمصائب الأوروبية الواقعة على الأمم الشرقية، فإذا كان أئمتنا بهذه الدقة، فما بالنا أصبحنا نائمين؟ هل على الأعين غشاوة؟ أم في القلوب مرض؟.

عجب للمسلمين وأي عجب، كيف تمر عليكم أيها القوم هذه الآية؟ يقول الله: بعثت الغراب ليبحث في الأرض ويعلمكم، وأن ابن آدم تألم لجهله بما علمه الغراب، فكيف يمر هذا القول عليكم وأنتم نائمون؟ أين أنت يا أبا حنيفة وأين الشافعي ومالك؟ فليحضروا ليستنتجوا لنا من القرآن، فقد فترت الهمم وماتت الأمم، ولم يبق إلاّ الرمم.

لو كان الشافعي حياً وأبو حنيفة ومالك ورأوا ما نحن فيه، لاجتهدوا لنا في الدين ولألزمونا بقراءة نظام العالمين كما عرفونا الصلاة والركوع والسجود والزكاة وأكثر المعاملات. لو كانوا يعلمون أننا سنكون على هذه الحال لألفوا لنا في هذه الأمور كتباً كثيرة، ولكنهم ما كانوا للغيب بعالمين.

نعم ألفوا لنا في العبادات، فحفظوا أممنا في داخلها، فجزاهم الله خيراً، ولو أنهم اطلعوا علينا في هذا الزمان لأفهمونا أن علوم الكائنات أولى بالرعاية وأحق بالتعقل وأولى بالتفهم، والتوحيد أفضل من العبادات. نعم، ورد عنهم مثل هذا، ولكنه لم يكن له أبواب وفصول، والحق أن علوم الكائنات أفضل من العلوم الفقهية، لأنها دالة على الله عزَّ وجلَّ، ولأن فيها نظام الأمم وحياتها، فأصبح اليوم علم التوحيد مأخوذاً من الطبيعة، وحياتنا موقوفة على الطبيعة، وتفسير قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا

﴿يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متوقف على الطبيعة. فليقرأ المسلمون علم الكائنات ليقربوا من رب البريات، فذلك خير لهم وأحسن تأويلاً.

الخزائن الحديدية في القرآن

لقد خزن الله في باطن الأرض الفحم، واستخرجه الإنسان الآن، وخزن البترول والنفط والحديد والذهب، وخزن الكهرباء في الجو، والماء في الأرض وفي كل شيء، وكذا البخار، كل ذلك خزنه الله ولم يطلع عليه الناس إلاّ شيئاً فشيئاً، وليس الخزن معناه الاختفاء، كلا، بل يكون الشيء أمام أعيننا ولا نعقل له معنى، فالبخار كنا نراه وأنه يميل إلى الصعود، ولكنا ما فكرنا في منفعته، والسمك المسمى بالرعاد كنا نحس بكهربائيته، ولكنا كنا عنها غافلين، هكذا القرآن قد ظهر لعامة المسلمين والفقهاء السابقين منه الأعمال الشرعية والتكاليف الدينية، أما الحكم الكونية والعجائب الإلهية فقد كان المسلمون عنها غافلين، اللهم إلاّ أكابرهم، وما كان المسلمون لهم بمصغين ولا لقولهم سامعين.

وهاهي ذي آية الغراب وكيف ذكرها الله في القرآن، وقال في هذه السورة قولين في هذا المعنى: القول الأول: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]، والثاني قوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

فتارة يقول لنا: علموا الحيوان مما تعلمتم من الله، وكلوا مما أمسكن عليكم، وتارة يقول: تعلموا من الطير، ويقول ابن آدم: يا ويلتا، أبلغ الجهل بي والحمق أن أكون أدنى من الحيوان علماً، وأقل منه فهماً، وأنزل منه شرفاً.

ألست ترى أن هذه خزائن أودعت في القرآن، وأقفلها الله كما أقفل خزائن البخار والكهرباء ونحن نراها، فهذه الآيات تتلى والمسلمون نائمون، حتى إذا جاء الأوان، وساعد الزمان، وظهر نوع الإنسان، وبرع في الإتقان، فتح الله هذه الخزائن الحديدية المقفلة، وأرانا عجائبها وأطلعنا على جمالها وقال: قولوا لإخوانكم المسلمين: إن هذه العجائب من دينكم، والتفكر فيها أعظم عباداتكم ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، ولقد خزنا أمثال هذه القصة لأمثال المسلمين الآتين بعدكم، وهذا أوان مجدكم وإشراق شمسكم. فبينوا للناس تبييناً، وزينوا لهم ما زيناه وأظهروا لهم ما خزناه، فهذا أوانه، وليقم في كل أمة مصلحون، وفي كل إقليم مجددون، فانشروا العلوم وأبرزوها للعموم، وإذا كان بعض السابقين لم يكن لهم من هذا حظ عظيم؛ فلقد أذن الله ببلوغ المسلمين درجة الإتقان، وارتفاع الشأن، وقد كانوا بالجهل كصغار الأيتام، فلما أذن الله بانشراح القلوب للعلوم، صاروا أهلاً لنيل ما خبأه لهم، واستعدوا لاستثمار ما غرسه لهم، إذ صاروا بالفهم كالبالغين، إن الله لا يعطي إلاّ المستحقين، ويمنع من لا يشكرون النعمة، وليس يشكرها إلاّ من يعقلها، والله هو الولي الحميد.

فتح الخزائن القرآنية والتفرج على عجائبها الحكمية في الطيور

لقد كنت ألفت كتاباً سميته «جمال العالم» منذ ٢٢ سنة، وذكرت فيه من كل نوع من أنواع المخلوقات عجباً. فهاأنا ذا أيها اللبيب أقص عليك منه ما يناسب المقام، وأذكر عجائب بعض الطيور، لتتفرج على خزائن الله التي أذن بإظهارها وفتحها لأبنائنا المسلمين، الذين سيوقنون أن الدين الإسلامي

جاء لكشف الحقائق وإظهار الدقائق وإبراز العجائب، ولتعلم أن أعظم المخترعين وأكبر المفكرين وهم الذين ينفعون النوع الإنساني، سيكونون من المسلمين لإيقانهم أن العلوم الطبيعية قربى إلى الله تعالى، وهي علوم ترفع في الدنيا والدين، وأن كل مخترع ومدقق وكاشف ونافع للأمم جميعها بالعلم خليفة الله، وهم أولى بهذه الخلافة، فلأسمعك ما جاء في ذلك الكتاب.

الكلام على الطيور

فقال صاحبي: لقد اتضح لي وعرفت الحكمة وفهمنا الحيوانات وعجائبها، فأرجو أن تذكر كلاماً على الطيور وغرائبها، وما أودع فيها من الحكم، فقلت: إن الله قسمها قسمة عادلة كقسمة الحيوانات التي على الأرض، فجعل منها الآكلة والمأكولة، وترى الصقور والشواهين والبزاة والبوم والغربان قد خلقت لها المناقير الملتوية والمخالب المعقربة والريش الطويل في الأجنحة والأذناب، وهذا الأخير ليكون موازناً لأجسامها ليمكنها أن تديرها كدفة المركب وذيل السمكة، إذ لا يمكنها أن تستدير يمنة أو يسرة إلاّ بتحريكه ضد ما تريد. انظر كتابنا «جواهر العلوم» وحدب مناقيرها لئلا تصادم الرياح فتعوقها عن الطيران إذا كانت عريضة، وأعطيت حواس قوية حتى يمكنها أن ترى أقل شيء في الأرض على بعد عظيم، وتشم الرائحة من أبعد مكان، ولها من السرعة ما لا يخطر بالبال، حتى أن النسر ليطير في الساعة أكثر من مائة ميل، وقد يحمل الأرنب أو الحمل أو الطفل، ومع ذلك ربما لا يزيد وزن الطائر عن نحو اثني عشر رطلاً.

لطائف عن الطيور الجارحة

ولنذكر غرائب الخفاش والغراب والبوم ليكون مجلسنا هذا جميلاً، فلا نذكر فيه إلاّ ما جمل من الحديث، وليكون تذكرة للعقلاء وسلوة للحكماء وتنبيهاً للنبهاء، وليرى الشبان الأذكياء ما لم يكن ليخطر على بالهم من العجائب التي يراها الناس عامة، ولا يفقهون لها معنى، وكيف جعلناها وأعرضنا عن العلم فأعرضت المدنية ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾[طه: ١٢٤-١٢٧].

فإذا قرأت ما يأتي من غرائب الطيور وفطنت إلى ما سنذكره من الحكم ثم نظرت الأمة حولك كيف أعرضت وجهلت، تعرف سراً من أسرار القرآن، وكيف سمى هذا نسياناً، وظن العامة منا وكثير من الخاصة أن المدار على أن يقول: أعرف الله، بلسانه، وهو يجهل ما حوله من الكائنات ومنافعها ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾، ثم هدد فقال: ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾[سبأ: ٩] إشارة إلى الذلة التي تحيط بالجاهلين. ولنشرع فيما وعدنا فنقول:

الخفاش

لا يعدّ الخفاش من الطيور إلاّ تساهلاً، إذ لا ريش له، ثم هو لا يرى إلاّ ليلاً لقوة عينيه، فيجهر بصره نهاراً ويقوى ليلاً ليكون لصاً، وهذا النوع أعطي قوة على أن يطير، فلا يسمع ويبصر ليلاً وهو لا

يبصر، ومنه خفاش جثته كبيرة كالثعلب أو الكلب، حتى يسمى الكلب الطيار، فهذا وذاك كلاهما موجودان في العالم، وشاهدهما أهل هذا العصر ووصفوهما في الكتب ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٤]، ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]. ورب قارئ يقرأ هذا ويقول: أنا لا أصدق إلاَّ بما شاهدت، وهذا إنَّما هو من الغافلين، فإن هذا من آيات الله الدالة على صفته المشحونة بها الكتب في العصر الحاضر، الآتية بها الأخبار من أقاصي المعمورة ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [النجم: ٥٩-٦٢]. ونحن إذا تمادينا على الاستهزاء بهذه العجائب وأعرضنا عن ذكر الله بسببها، ذهبت منا مدنيتنا مع أن علماءنا السابقين وآباءنا الأولين كانوا هم السابقين لها، المعلمين لعلماء أوروبا، الهادي لهم إلى سبيل الفكر والعلم، والقرآن هو الهادي إلى ذلك.

ومن الخفاش نوع يعيش على دم الإنسان والحيوان، فيشرب دم الخيل والإبل والبقر والغنم، فإذا رأى إنساناً نائماً جاء بلطف وخفة وروّح على وجهه حتى يستغرق في نومه بتجديد النسمات عليه، ثم يضع منقاره في موضع مكشوف من جسده، ويمتص منه الدم، ولا يزال كذلك حتى يمتلئ ثم يطير بأسرع من لمح البصر ويترك النائم على شفا حرف هاو من الموت أو المرض.

وما أشبه هذا بالأمم الفاتكة بغيرها بطرق الخداع واستهواء العقول، فجلت صنعة الحكيم العليم الذي أتقن صنعه، وعلم الحيوان فوق علم الإنسان في كل فن من الفنون حتى السياسة، عجب من هذا الصنع الباهر والحكمة الظاهرة، فإلى متى يا قوم لا تقرؤون علم الحيوان ولا تذكرون الله إلاَّ قليلاً؟ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

حكمة الله في البوم

البوم حيوان قوي لا يظهر نهاراً، لأن له عينين كبيرتين واسعتين لا تقدر أن تحمل نور الشمس القوي، وإنَّما تقدر أن تنظر في الغلس وتبحث إذن عن الطعام، تعيش على الفيران الغيطية والمنزلية والسمك والحشرات، فإذا جاعت ولم تجد شيئاً من ذلك أكلت الطيور، صفت أجنحتها بحيث تطير بلا صوت، ولها أذنان قويتا الإحساس جداً بحيث تسمعان أقل حركة من حيوان صغير كالفأر على الحشيش، فإذا رأت فأراً على الأرض أو سمكة على سطح الماء أسرعت إليه في الحال نازلة في طبقة الهواء، وحينئذ تنقض عليه وتقتنصه بمخالبها، ثم تطير به وتزدرده كله عظاماً ولحماً، فإذا هضم اللحم في فمها وتخلص من العظم لفظت العظم.

إذا شاهدت عش بوم في جوف شجرة أو خربة فلتعلم أنك سترى آكاماً كبيرة من العظام التي أكل لحمها البوم، بل نفس تلك الأعشاش إنَّما هي آكام صغيرة من عظم يابس، البوم نافع عظيم للفلاح فيأكل الفيران التي تضر بالزرع. وقد قيل إن بومة واحدة قد تأكل قدر هرة خمس أو ست مرات.

حكي أن رجلاً له يمام مستأنس في برجه، فوجده ناقصاً، فأخذ بندقيته وتربص ليلاً، حتى إذا جاءت بومة ودخلت البرج، ولما خرجت وفي فمها شيء ظنه الرجل يماماً، وظنها سارقة له، ولما ضربها ووقعت صريعة وجد ما في فمها الفأر التي هي المفترسة على الحقيقة، فندم ولات ساعة مندم.

وفي بعض الجهات يستعملون البوم لصيد الطيور، وذلك أنهم يأتون بأغصان ويدهنونها بصمغ يسمى صمغ الطيور، يلتصق الشيء به كالغراء، ثم يربط البوم في حبل قريب من تلك الأغصان حتى لا يتمكن من الفرار في الحقل، ثم إن الطيور تكرهها كراهة شديدة، لأنهن يعلمن أنها في بعض الأزمان تقلق راحتهن وتحاول اقتناصهن، فإذا رأوها مربوطة ولن تقدر على أن تلحق ضرراً بهن، يذهبن في عدد كبير وجم غفير، ويلتففن حولها لينقرنها بالمناقير ويضررنها بأي وسيلة يقدرن عليها، وفي الحال تثب تلك الطيور على الأغصان المدهونة بالغراء أو تلمسها بأجنحتها، فيمسكهن حالاً ويقتنصهن الرجل سريعاً ويضعهن في القفص المعد لذلك، ويذهب إلى حيث يريد.

الغراب

هو من الملحقات بأكالة اللحوم، وضعه الله في الأرض ليساعد الفلاح على عمله في الحقول، ليأكل الدود والجرذان وغيرهما من هوام وحشرات. ومن العجيب أنه يعرف الخطر فيتقيه إلهاماً من الله تعالى، فيبني مساكن من الأغصان مجتمعة على الإحكام والإتقان في أعالي الأشجار، حتى لا يقدر الريح على إفساد أعشاشهن أو إيقاعهنّ عن أماكنها، ويخرجن لطلب الرزق زرافات، فإذا وقعن في حقل ليلتقطن ما أودع الله لهن من الحشرات والهوام، جعلن واحداً منهنّ حارساً متربصاً للأعداء محاذراً هجمات الفاتكين، فإذا نعق «غاق» علمن قرب خطر محدق بهنّ، فطرن في الهواء. ومن العجيب أن الناس في بلادنا لا يفهمون لهذا الطير معنى، ويؤذونه وقد يضربونه بالبنادق وهم يجهلون أنه صديقهم قاتل عدوهم اللدود، فهو يحسن وهم يسيئون.

وفي ظني أن كثرة الدود في بلادنا إنَّما جاءت من قلة الأشجار، ولو أن الناس غرسوا على الترع والجسور والخلجان أشجاراً لعششت فيها الطيور المختلفة وأبادت الدود والحشرات. إذ من المحقق أن الحشرات أصلها الدود، فكل حشرة تبتدئ بيضة فتنقلب دودة، حتى إذا أكلت ونامت نسجت عليها نسجاً حريرياً فكوّنته كتلة صغيرة أو كبيرة، وتسمى بلسان علماء الحيوان «شرنقة»، ويبقى فيها ذلك الحيوان نائماً، ثم تخلق له الأجنحة والأرجل فيخرقها ويطير، كما في دودة القز ودود القطن الذي يخرج منه أبو دقيق، وسنوضحه في هذا المختصر إن شاء الله تعالى، وستقف فيه على أن الطيور وضعت لأكل الحشرات والدود الضارة بالزراعات والأشجار في مساكنها، فمن قطعها فقد جنى على الزرع جناية لا يكفرها إلاَّ العلم بها.

الغراب والموازنة بينه وبين البوم والخفاش والفلاح في الحقل وأن هذه مملكة سياسية

لقد صدق علينا اليوم قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]. هذه آية الغراب نشاهده كل يوم ونسمع ذكره في القرآن، وأن بعض عباد الله تعلم منه و﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾، وحرم علينا أكله.

يا ليت شعري، ما الذي فيه من المنافع، وما الذي أودع مدبر الكون فيه من الحكم والمصالح، وهل له ارتباط بمعايشنا وأرزاقنا؟ نعم، إي وربي إنه لحق، وهل يذكر في القرآن إلاَّ لينبه النفوس الغافلة والعقول الخامدة؟.

اعلم أن الغراب من أعظم نعم الله على الفلاح وزرعه، فإنه يأكل الحشرات الصغيرة والديدان من الأرض التي لو بقيت لأضرت الزرع فهلك الحرث والنسل.

فانظر كيف جعل هذا الحيوان مساعداً على نمو نباتنا وبقاء حياتنا، كما جعل البوم آكلاً للفيران ليبقى الزرع محفوظاً إلى أجل مسمى.

فانظر كيف سلطهما الله على تلك الحيوانات المضرة بزرعنا، وانظر الحكمة في الشريعة المطهرة وكيف حرم أكلها على الناس لطفاً من الله بنا وبقاء لزرعنا، فضلاً عن ضررها بأجسامنا كما تشير إليه الآيات والأحاديث.

مقارنة بين سياسة الله تعالى في العالم
وسياسة الأمم وبرهان على وجوده وحكمته

هل لك أيها السيد الأخ أن تتأمل معي في أربعة أصناف كوّنت محكمة واحدة؟ تصوّر الغراب والبوم والخفاش والفلاح يتعاونون على إنماء الزرع، فترى الفلاح يحرث ويبذر ويسقي ويحضر الآلات لتنقية الحشيش، وهذا هو الوزير الأول لهذه المملكة، وهذا الوزير يعجز عن إبادة الجمود المجندة من الحيوانات التي تفتك بزرعه صباح مساء؛ فلما عجز عن ذلك أغاثه الله وأعانه البوم، فقد جعل الله معيشته على الفيران والحشرات وأشياء أخرى مما يضر بالزرع، فإذا أفلت شيء من هذه الحيوانات ولم يده البوم تلقاه الخفاش، فإنه لا مسوق طبعاً لأكل الفراش وغيره، وهذا لو ترك وشأنه لوضع بيضاً يبقى في الأرض زمناً ثم يخرج منه دود، وهو في الغالب عند ابتداء خروج النبات من الأرض فيهلكه، ومتى بقي شيء من ذلك وقد أفلت من البوم والخفاش، سلط الله عزَّ وجلَّ حيواناً نهارياً وهو الغراب فأكل ذلك الدود من الأرض.

فانظر كيف جعل لكل صنف من هذه الأصناف الأربعة، وهي: الإنسان والبون والخفاش والغربان، مساعداً للآخر في إنماء الزرع وهو لا يدري ما نتيجة عمله. ومن العجب أنك ترى أن الخفاش والبوم حيوانان ليليان أعدّهما الصانع الحكيم للهجوم على الحيوانات المبصرة السميعة القادرة على الطيران والجري، فوهبهما أعضاء وحواس تناسب الهجوم في الظلمة.

وانظر كيف كان الغراب حيواناً نهارياً، لأن معيشته غالباً من أكل الدود، وهو لا قدرة له على الجري ولا سمع له ولا بصر، فلم يكن من الحكمة أن يجعل ليلياً، وهكذا الإنسان.

وانظر كيف جهل كل صنف من هذه الأصناف عمل الآخر كما قدمنا.

ولا جرم أن الذي علم النتيجة من هذه الأعمال الليلية والنهارية هو الصانع الحكيم الذي دبر الكون وأتقنه، فظهر إذن أن الحقول كالممالك، فكما أن الملك أو الوزير يعطي كل عامل قسطه من العمل الذي يصلح له، فهكذا نرى أن كل حيوان ناطق أو غير ناطق قام بعمل يصلح له في الزرع.

وكما أن الملك أو الوزير يوعز إلى رئيس الأشغال أو الإدارة أو الحقوق أو المعارف بما لا يوعز به إلى الآخر، فهكذا نرى أن كل حيوان جبل على عمل برع فيه.

وكما أن رئيس من رؤساء الحكومة يعلم ما تحت إمرته تفصيلاً ويجهل سواه، فهكذا تلك الحيوانات والإنسان، كل يعلم ما استعد له ويجهل سواه.

وكما أن نتيجة جميع نظام الأمة موقوف على إرادة الملك أو الوزير، بحيث ينظران الأشغال والإدارة وغيرهما، وينسبان بعضهما إلى بعض، ويلاحظان النتيجة ويزيدان ما نقص وينقصان ما زاد، فهكذا الحكيم مدبر الكون رتب هذه الأصناف من الحيوانات وغيرها، وعرف مقدار ما تخرجه المزارع بعد ترتيبها وإحكامها، فالميزان العمومي في يد الله تعالى يخفض ويرفع، ويزيد وينقص، على حسب ما أراد في إخراج النتيجة والثمرة التي يختارها.

وكما أن رؤساء المصالح في الحكومات إذا لم يكن لها رئيس أكبر يجمعها وينظر شؤونها، مزقت كل ممزق ولم يكن لها نتيجة البتة. فهكذا هذه الحيوانات إن لم يضع مدبر الكون لها حدوداً، ولم يلهم كلاً رشده لم تحصل الثمرة المطلوبة، ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾[الواقعة: ٦٣-٦٤] يشير إلى أن الحرث إنَّما قصد لإنمائه، والنبات يحتاج لأمرين: جلب المصالح ودفع المضار، فبفعل الإنسان جلب المصلحة، وبالحيوان دفع المضرة، ولذلك قال: ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾[الواقعة: ٦٥].

ولما بلغ بنا المقال إلى هذا المقام، قال صاحبي: قد عرفت شيئاً من عجائب الطيور الجارحة وغرائبها، فهل لك أن تذكر لي شيئاً من عجائب الطيور غير الجارحة ليعرف من يطلع على مقالنا هذا كيف حال الطيور غير الجارحة مع الجارحة، ويقارنها بحال الحيوانات أكالة الحشيش مع المفترسة.

فقلت: إن الكلام على هذه الطيور يطول، ولنذكر كلاماً إجمالياً عليها فنقول:

تقسم باعتبار الماء والأرض والهواء إلى ثلاثة أقسام، كلها زينت بالريش القصير على أجسامها الطويل في أجنحتها وذيولها، ليكون كدفة السفينة يساعدها على الدوران بسرعة يميناً ويساراً في الهواء هذا مع ما لها من الألوان المختلفة والأصوات العجيبة المتباينة.

المائية

وانظر كيف ميز الله المائية عما عداها بزيت وضع في ريشها طبيعياً ليقيها غوائل البلل، وأرجل منسوجة نسجاً عجيباً لتساعدها على العوم في الماء كمجاديف السمكة والسفينة. فانظر وتأمل كيف وضع للماء ما يناسبه، من ذلك: النسيج بين الأصابع، ومن ذلك الزيت الدائم الذي يقي من البلل. ولم تكن هاتان الخصلتان إلاَّ في هذا النوع وحده، والبط والإوز من هذا النوع.

الهوائية

أما الطيور الهوائية فقد دبرها الله بصنعة تناسب الهواء والتسلق على غصون الأشجار، فجعل أجسامها صغيرة وأجنحتها طويلة، وصوّر الأصابع مستعدة أن تقبض بخفة على غصون الأشجار حتى في أثناء النوم، والعصافير والغربان من هذا النوع. فانظر كيف صغرت الأحجام لتستقل بالطيران في الهواء، وكيف طالت الأجنحة لتقوى على ذلك، وكيف فصلت أظافرها وجعلت صالحة للقبض على الغصون، كما نسجت في الطيور المائية لسهولة العوم في الماء.

الأرضية

أما الطيور الأرضية فأجسامها كبيرة، وأرجلها قصيرة قوية، وأظافرها صالحة للبحث في الأرض والدجاج نوع من هذا.

فتأمل يا سيدي كيف قويت أرجلها لكبر أجسامها، وكيف كانت أظافرها غير منسوجة كالمائية ولا صالحة للقنص على الغصون كالهوائية، بل مستعدة للبحث في الأرض لمناسبة المعيشة فيها. وهذه حكم عجيبة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١].

عجيبة

ذكر علماء الحيوان عن هذه الطيور عجائب لا يسع المقام ذكرها، نكتفي منها بمسألة واحدة: عن أحد العلماء أنه صاد خطافاً ضربه بالبندقية فوق سطح البحر، فوقع على الموج، فانتظر ذلك العالم حتى يأتي به إلى الشاطئ؛ وبينما هو كذلك إذا بأربعة من ذلك النوع أحدق اثنان منهن بالمجروح، كل واحدة أمسكت بطرف جناح وطارتا به قليلاً وتعبتا فنابت عنهما أختاهما، فحملتاه أمتاراً، وهكذا ما زلن يتناوبن الحمل بمرأى.

العصفور

وهل أتاك نبأ عصفور دوري أخبر عنه المستكشفون؟ وذلك أن فيه حكماً تخبرنا عن عجيب الإتقان في ذلك الصنع الباهر والحكمة الظاهرة. وذلك أن العصفور لا يبنى له عشاً، وإنّما يبحث عن أعشاش نوع آخر من جنسه يماثله حجماً، وينتهز فرصة غياب صاحب العش ويضع فيه بيضته، فإذا رجع صاحب العش لم يعرف الفرق بين العددين فيحضن الجميع، وأول فرخ يخرج من البيضة ذلك الفرخ الأجنبي فيفرح به صاحب العش ظناً منه أنه ابنه، وقد جرت عادة الله أن من تعب في شيء مستحسناً له أحبه، ثم ينمو هذا العصفور بسرعة حتى يضيق المكان إذ ذاك، وتبتدئ الفراخ التي في بيض صاحبة العش أن تنقر البيض بمناقيرها وتخرج واحدة بعد الأخرى.

فانظر كيف وضع الله في فهم ذلك العصفور الأجنبي أن يساعد أمه الحنون الجديدة ويبني عشاً آخر في أقرب زمن.

وانظر كيف جعل الله في ظهره فجوة أو حفرة فيها إخوته الصغار واحداً بعد الآخر، وينقلهن إلى العش الجديد؛ فتأمل ثم تأمل كيف ساعد أمه الجديدة على تربية أبنائها مكافأة لها على حضنه ثم استيطانه المكان الذي بنته، فلعلك إذا تأملت هذه الحكم العجيبة تسعى لنفع أمتك مثل ما علمك الأولون، وتجدد مجدها. انتهى ما جاء في كتاب «جمال العالم».

الحيوان كتاب مفتوح للناظرين كتبه الله بيده وسطره بحروف بارزة واضحة بهجة تسر الناظرين ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فقال تعالى هنا على لسان ابن آدم: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾، وقال في سورة النمل على لسان الهدهد مخاطباً النبي سليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[الآية: ٢٢]، وفي سورة البقرة يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[الآية: ٢٦]. ولقد سمى الله السور بأسماء الحيوانات كالأنعام والبقرة، وبأسماء الحشرات كالعنكبوت والنمل والنحل، فانظر كيف يقول الهدهد: أحطت بما لم تحط به، مخاطباً نبياً عظيماً مشيراً إلى أن الإنسان وإن عظم مقامه وارتفع شأوه جدير بأن يقرأ علم الحيوان وإذا كانت عناية الله عزَّ وجلَّ موجهة إلى أحقر الحشرات وهي البعوضة، وما هو أدق منها، فضرب بها الأمثال، ولم يكتف بذلك، بل سمى السور بأسمائها، فلا جرم أن الأمر لعظيم.

إن المسلمين بعدنا سيكونون أبعد مرمى مما نحن عليه، إن المسلمين اليوم نائمون لا يعلمون ما للحيوان وللحشرات من الأهمية العلمية، ولم يوجهوا هممهم إلى ذلك، وكم للحيوان من حكومات منظمات، فترى النمل يخدم كل واحد من الجماعة الآخرين، وهكذا النحل ومثلها كلاب البحر والغربان وغيرهما. إن دراسة الحيوان تفهمنا إلى أي اتجاه تتجه الحياة، وإن نظام الحياة الفردية موجه للمجموع.

إن سنة الله في الحيوان أن يخدم الفرد المجموع، بل لا سعادة له ولا كمال ولا لذة إلاّ بحسب غيره، والعمل له سواء أعلم ذلك أم كان من الجاهلين، فإذا تربى المسلمون تربية فردية كما هي الحال اليوم قادتهم الأمم إلى أسفل سافلين وأصبحوا في العذاب المهين، فليكن كل فرد عاملاً للمجموع قصداً، ولتكن وجهة تربيته لذلك، وإلا اضمحل وتفرق المجموع، وإن أردت زيادة التبيان فهاك حياة الحشرة المسماة فرس النبي وحياة العقرب.

فرس النبي والعقرب

إن الحشرة المسماة فرس النبي التي ترى على الأشجار وبين الأوراق خضراء متشاكلة لما هي فيه من الخضرة، والتي يغر ظاهرها أنها أشبه بالصالحين من هيئة منظرها، هذه الحشرة من الحشرات التي تعيش على صيد غيرها، وتفتك بما يمر بها من الحشرات، وصمتها وسكونها وهدوءها لأجل أن تغرّ ما يمر بها من الحشرات فتلتقمه على حين غفلة، هذه هي المسماة فرس النبي، وطريقة تناسلها أن يقترب الذكر من الأنثى وتحصل عملية الإلقاح، ولا يكاد الذكر يفرغ من تلك العملية حتى تنقض عليه الأنثى فتأكله وهو ساكن لا حراك له.

العقرب

العقرب حيوان معروف يتغذى من العناكب والجراد والصراصير والذباب.

تناسله: إذا أتى فصل الصيف خرج الذكر في الليل باحثاً عن الأنثى، فإذا لقيها بض بطرفيه المساكين على طرفي الأنثى المماثلة، فتريد الأنثى أن تتخلص منه وتفر من الذكر، فيذهب للبحث عنها ثم يسير بها مدة من الزمان لاوياً ذيله فوق جسمه المفرطح راجعاً القهقرى جاراً معه الأنثى حتى يدخلا معاً تحت حجر أو في شق في الأرض، ولا يدخلان ذلك المضيق إلاّ بعد دوام الرياضة مدة ساعات كأنهما يتغازلان، والذكر في أثناء تلك الرياضة يقرّب فمه من فمها، ومتى دخلا الشق أو المكان المختبئ حصلت عملية الإلقاح، ومتى تم التلقيح تنقض الأنثى على الذكر وتأخذ تنهشه وهو لا يزال حياً، حتى إذا أكلت الأعضاء العصبية الرئيسية مات وانتهى أجله، وفي بعض الأوقات يفلت الذكر من الأنثى بخلاف فرس النبي؛ فإن الذكر لا يفلت من الأنثى، بل لا بد من موته، هنالك ينمو البيض في رحم العقرب الأنثى، ثم تبيض نحو أربعين بيضة، وهي تشق غلاف كل بيضة تلدها، فتخرج العقارب الصغار وتنام على ظهر أمها أسبوعاً كاملاً، وهناك يتغير جلد الصغار وتعيش أيضاً أسبوعاً آخر على أمها، وقد صارت جلودها المتساقطة على أمها أشبه ببساط على ظهرها تنام الصغار عليه، ومتى تم الأسبوعان استقلت العقارب الجديدة ومضت تطلب الرزق، أما أمها فإنها غالباً تموت بعد مفارقة صغارها لها.

دود القز وتناسله

ويماثل ما تقدم دودة القز، فإن الفراش التي تنقلب إليه الدودة يتناسل بعد خروجه من الشرنقة، فيلقح الذكر منه الأنثى، ثم يموت الذكر وتموت الأنثى بعد أن تبيض، فهذه الحياة الطويلة للشرنقة إن هي إلاَّ تحضير لهذا التناسل.

طبيعة الإنسان لا تخالف طبيعة الحيوان في أن التناسل مقدمة الموت وأن حياة الفرد حياة للمجموع

قل لي بربك أيها الذكي المطلع على هذا الكتاب: ماذا يراد بحياة الفرد الإنساني؟ إنه يراد بها أن تكون فداء للمجموع وعضواً عاملاً فيها؛ فالفرد غذاء للمجموع ومقدمة له، وهاك البرهان:

لعمرك لئن رأينا ذكر العقرب وذكر فرس النبي يذهبان ضحية الأنثى، فتأكلهما عقب الحمل بحيث يلتحق المأتم بالعرس، واحتفال الجنازة باحتفال الزواج، ليظهرن ذلك في الإنسان أتم ظهور بعد البيان.

فقل لي رعاك الله: أيّ فارقة بين مغازلة الإنسان ومغازلة الحيوان؟نرى الديك الرومي «المالطي» يظهر للأنثى جمال ريشه وهو منتفخ معجب بنفسه ليعجبها جماله.

وهكذا نرى الطيور المغردة يغرد الذكر للأنثى ليسرها صوته فتحبه، ثم يكون الإلقاح، وهكذا ما مر في العقرب الذكر مع الأنثى، كل هؤلاء يحتال ذكرانها على إناثها لمسألة الإلقاح.

هكذا نرى الإنسان يغازل الحسان وينتهي الأمر بالزواج، ماذا بعد ذلك؟ لا يكون إلاَّ ما رأيت في العقرب وفي فرس النبي، أبناء يولدون، وأم رؤوم، وزوج يكدّ ويكدح ليلاً ونهاراً لإرضاء الزوجة وتربية أولادها، وهو وهي معاً قد أخذا يقبلان الأطفال بعد تقبيل كل منهما صاحبه، فأصبحا خاضعين خادمين لأولادهما لا يرضيهما إلاَّ ما يرضي الأولاد، ثم تتبرع الأم بما لديها من مال وحلي لابنتها، والأب يخرج عن ماله بطيب خاطر في حياته وبعد موته لأولاده، فلعمري أي فارقة بين العقرب وفرس النبي والإنسان؟ الذكر في الأولين افترسته الأنثى، لماذا؟ لأجل أن يكوّن قوة عظيمة لتربية البيض في بطنها، ثم إن العقرب تموت بعد استقلال صغارها، فهي لم تعش بعد الذكر إلاَّ لحفظ الأمانة التي استودعها إياها، فهي تحافظ على البيض وتربيه ثم تموت، والبيض في بطنها نما وكبر بفضل جسم الذكر الذي تحلل في باطنها وامتزج بجسمها.

أفلا ترى أن الرجل كذلك؟ جاد ذكر العقرب وذكر فرس النبي بجسمه لنمو أولاده وهو ما يملك، أما الإنسان فإنه يجود بماله وكسبه وكدحه وكده مدة حياته، ولا يزال جسمه في ضمور وولده في ظهور، وهو فرح فخور به، حتى يزول هو من الوجود ويبقى ابنه بعده إلى حين، هذه قضية الإنسان وقصته، مغازلة وعرس وزواج فولد فموت.

يظن الرجل أنه تزوج المرأة بحظ نفسه، وهي تظن كذلك، ولكن خاب فألهما، فما هما في ذلك إلاَّ مخدوعان، كما خدع العقرب وفرس النبي اللذان يجيء الموت للذكرين عقب الحمل، وهنا يكون الموت تدريجياً ويبتدئ بأول مولود، فترى كلاًّ من الأبوين يحنو عليه ويحبه ويود لو يقدم له كل ما يملك، ومهما طال الزمن فإن المسألة ترجع إلى فقد الأبوين وحلول الولد محلهما.

العرس واحتفال الزواج أشبه بالمأتم لأنهما أخوان، فالعرس يعقبه التناسل، والنسل يحل محل الأصل في حياته وبعد موته. إن من احتفل بالعرس فقد أخذ يهيئ الأسباب للجنازة، يتزوج ليلد، والولد يحل محل الوالدين، فالاحتفال بالزواج احتفال بالموت في الحقيقة، فصار الإنسان في ذلك كالعقارب أو فرس النبي كل يحتفل بالقران وبعد ذلك احتفال الموت، غاية الأمر أنه في الإنسان بطيء وفي الحيوان سريع، تغني المغنيات في العرس، وما هنّ إلاَّ داعيات للنادبات الصارخات بعد حين على العروسين، ذلك هو المبدأ والختام.

نتيجة ذلك كله أن الإنسان مخلوق للمجموع لا لنفسه، ومن خلق لمنفعة غيره فلا حظ له إلاَّ فيما خلق لأجله، فإذا رأينا المرأة تحنو على ولدها فذلك لغريزة حيوانية، وإذا نظرنا إلى ما هو أعلى من ذلك وجدنا القوّاد والأمراء والملوك يسهرون على الرعايا، ووجدنا الحكماء والعلماء يؤلفون لمن بعدهم، ووجدنا فوق ذلك الأنبياء يأتون بوصايا وشرائع لمن بعدهم، هؤلاء هم الذين فهموا الوجود.

طبيعة الوجود أن الفرد للمجموع، فمن كان للمجموع أشبه بالأم لأولادها، فذلك الذي هو جار على سنن الفطرة، ومن ليس كذلك فهو فاسق، هذا هو دين الإسلام وهذا هو الحق.

ويا ليت شعري، أيّ كارثة حلت بالإسلام وأيّ مصيبة أصابته، كيف تقاعدوا وتباعدوا فأخذتهم الأمم من كل جانب، ذلك لجهلهم بالقرآن وبسنن الله في الوجود وبتربية الأمم.

مات الذكر والأنثى من فراش دود القز بعد عملية الإلقاح والبيض كأنهما قد أتما ما عليهما في الوجود، هكذا يموت العالم فرحاً إذا أتم ما عليه للأمة من الإصلاح، وهكذا الحكماء والأنبياء، يقول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر]، نزلت هذه السورة فعرفوا منها أن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتهت لأنه خلق للدعوة وقد تمت، فماذا بعد ذلك إلاَّ الموت.

كل ذلك جار على هذا الناموس في الوجود، فالفرد خلق للمجموع، فالحيوان والنساء من نوع الإنسان يعملون للأبناء بالغريزة، والأنبياء بالإلهام يعملون للأمة، والعلماء والحكماء بالتعليم، على هذا فليكن تعليم الإسلام، وبهذا ارتقت أمم في الوجود. ولأذكر لك نموذج التعاليم الألمانية.

حكاية اليمامة

يمامة باضت في عشها في قصر ببرلين ثلاث بيضات فخرج لها منها ثلاث أفراخ، فاحترق القصر فأخذت تحول حول النار، ثم انقضت على أفراخها فاختطفت منها واحداً ثم وضعته بجانب شجرة، ثم رجعت كرة أخرى وخرجت ظافرة بالثاني بعد أن احترق بعض ريشها، وقد كان القوم من منظرها يائسين، فلما رجعت ثالثة لتأخذ الثالث وقد اشتد لهب النار لم ترجع، وماتت ضحية إنقاذ الثالث من أفراخها.

ذلك هو نوع من الحكايات التي يربون بها تلاميذهم ليعلموهم أنهم خلقوا للمجموع، والله يقول في القرآن على لسان ابن آدم: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾، والهدهد يخاطب سليمان عليه السلام بقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[النمل: ٢٢]. هكذا يجب أن يكون التعليم في الإسلام.

اعتراض على المؤلف وجوابه

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر عالم من أصدقائي واطلع على هذا وقال: أهكذا تكتب في التفسير؟ وهل هكذا سيرك فيه؟ فقلت: نعم. قال: إن هذا الأسلوب مخالف للحقائق بعيد عن الصدق والصواب.

فيا ليت شعري أيّ مناسبة بين الإنسان في الزواج والموت وبين العقرب؟ وكيف تدعي أن احتفال الزواج مقدمة لاحتفال الموت؟ وكيف تقول إن مغازلة ذكران العقارب لإناثها الذي جعل مقدمة لموت الذكر هو بعينه منازلة الرجال للنساء في الإنسان ويتبع ذلك الموت.

إن هذا القول أشبه بشعر أبي العلاء المعري القائل:

وشبيه صوت النعي إذا قيـ ـس بصوت البشير في كل ناد

ولعمري لئن صح هذا في الشعر لا يصح في تفسير القرآن المبني على الحقائق، فقلت: ليس ما قلته شعرياً، بل هو حقائق ثابتة، فقال: وأين هي؟ قلت: اعلم رعاك الله أن الحيوان على ثلاثة أقسام:

قسم يذر بيضه في العراء ويتكفل الله بتربيته وإخراج الذرية منه، وذلك كالذباب والناموس والجراد وما أشبه ذلك، ومن هذا دود القز.

والقسم الثاني ما يحافظ على صغاره ويتعهدها زمناً ما، وذلك في الطيور الجارحة وغير الجارحة فإنها أرقى من الذباب، فترى العصافير والحمام وجوارح الطير تحضن بيضها وتربي أولادها.

والقسم الثالث ذوات اللبن من السباع والأنعام والقرود والإنسان، فكل هذه تربي أولادها بعد حملها في بطنها مدة ما.

ثم انظر الحكمة العجيبة، انظر وتعجب كيف رأينا الموت يتبع طريقة التناسل:

(١) فإن كان الحيوان من أدنى الطبقات بحيث لا يقدر على تربية صغاره ولا حضن بيضه، كالجراد ودود القز، فهذا لا يبقى لتربية صغاره، لأن الفرع يقوم مقام الأصل، ولا حاجة للأصل في التربية، واعتبر هذا في فراش دود القز الذي يموت الذكر والأنثى منه عقب البيض، وترى أمثال الجراد والناموس ليس عندها غريزة حفظ الولد ولا حضن البيض، فلذلك ماتت وتركت بيضها، والله سبحانه وتعالى تولى تربيته فيهلك أكثره وما بقي يملأ السهل والجبل.

(٢) وإن كان الحيوان أرقى قليلاً كالعقارب، فإنا نرى الذكر عقب حفلة الزفاف تنتهشه الأنثى لبقائها وبقاء أولادهما، وهذه هي الثروة التي يملكها الذكر فقدّمها لنسله ولزوجه، فأما الأنثى فلا بد من بقائها حتى يستغني عنها أولادها، فلذلك تبقى حتى تبيض وتعيش أربعة عشر يوماً، ويستغني عنها صغارها ثم تموت، ذلك لأنها لا حاجة لبقائها، أليس هذا يدلك على أن بقاء الأصل إنّما يكون لمصلحة الفرع.

(٣) فإذا كان الحيوان أرقى كالحمام وكواسر الطير، فإنه يعيش ليحضن البيض ويعلم الولد، ويلد مراراً وتكراراً، ولا يموت عقب عملية البيض، لأن الحاجة ماسة لبقائه، هكذا الأنعام والدواب والقرد والإنسان، كل هؤلاء يعيشون متمتعات بالحياة. ألست ترى أن القاعدة العامة أن الأصل إنّما يكون بقاؤه لاحتياج الفرع إليه وأنه لو كان الإنسان وإخوته من الحيوان لا تحتاج الذرية إلى حياتهم، ما

عاش إنسان بعد وجود الذرية ، وأن حياته لابد منها لتربية الذرية ، وأن ذكر العقرب إذا مات عقب ساعة العرس يشبه الإنسان ، غاية الأمر أن موته بطيء وبقاءه مدة لحفظ ولده . هذه هي القاعدة العامة بقاء لحفظ الولد وموته للاستغناء عن الرعاية . ولا يضر هذه القاعدة أن من الناس من لا يلدون ، ومنهم من يموتون وقد تركوا ذرية ، وقد يموت الرجل والمرأة عن طفل صغير وما أشبه ذلك ، فإن هذه أحوال عارضة وقد جعل الله الناس أشبه بجسم واحد ، فإذا مات الأبوان فهناك مجموع الأمة يقومون بذلك النقص .

تبين من هذا أن حياة الرجال والنساء بعد حصول الذرية بما ركز في نفوسهما من القدرة على التربية ، وأن الحكمة الإلهية اقتضت أن لا تكون حياة إلاّ لعمل ، ومن خالف هذه الحكمة ضلّ وغوى . وإذا أعطي النمل قوة الادخار وهكذا النحل ، فذلك لأنه في حاجة إليها ، فألهم ذلك مع تربية الذرية ، وحرم من ذلك الجراد ، فلا ادخار ولا تربية للولد ، فإذن لم يعط هذه الغريزة لعدم الحاجة إليها .

هذا هو الصراط المستقيم ، فبنو آدم خلقوا متضامنين وفيهم غريزة حفظ الولد وحفظ المجموع كما في جبلة النمل والغربان ونحوهما ، فمن أعرض عن فطرته ولم يعمل للمجموع فهو ضالّ جهول لم يجر على فطرة الله التي فطر الناس عليها .

الله فطر الناس على حب التربية للذرية ، وعلى حفظ المجموع ومساعدته ، ولا معنى لبقائهم في الدنيا إلاّ لمساعدة الذرية ومساعدة المجموع ، ولولا هذا لم يكن لبقائهم فائدة ، كما لم يكن لفراش دود القز ، ولا لذكر العقرب بعد الإلقاح ، ولا لأنثاه بعد استقلال الصغار ، فائدة في الحياة .

إن المسلمين اليوم قد خالف كثير منهم فطرة الله ، فترى قوماً يحاربون مع أهل أوروبا ضد إخوانهم كما نراه في شمال أفريقيا ، يحارب قوم بدراهم معدودة مع الطليان ، وآخرون مع الإسبان والفرنسيين ضد إخوانهم في الدين . وهكذا نرى التربية والتعليم في نقص مستمر ، لذلك سلط الله على أكثر المسلمين غيرهم فأذلوهم حتى يستيقظوا . وهذا الكتاب إن شاء الله وأمثاله سيكونون من أسباب استكمال النهضة الإسلامية الحالية ، هذا كله داخل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَـٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ ﴾ .

كل ما ذكرته في هذا المقام من سر هذه الآية ، وكيف أصبح بعض المسلمين الآن لا يصنع ما صنعه الغراب الذي يواري سوءة أخيه . أما المسلم الساذج فإنه يكشف سوءة أخيه ويحارب مع عدوه فإذن صار الغراب أشرف وأرقى من بعض المسلمين اليوم .

إن في القرآن لسراً سيكشفه علماء بعدنا ، وهذا من مبادئ الكشف ، فقال صديقي : ولم خص الغراب بالذكر هنا؟ قلت : الغراب حاز الفضيلتين : فضيلة تربية الولد ، وفضيلة خدمة الجمهور ، فليس كذكر العقرب ولا كالجراد ، فهؤلاء لا تربي صغارها ، ولا كالحمام والدجاج اللاتي وإن ربت الصغار لا تحتاج إلى جماعة تعيش معها ، فالغراب يربي الأفراخ ويتصل بإخوانه ، إن هذا هو الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ ﴾ ، فإن مواراة سوءة الأخ لا تكون إلاّ بعد المحافظة على الذرية ، فهي تكون في الحيوانات الراقية ، والإنسان أرقى الحيوان فليكن نافعاً لنفسه ولولده ولأهل وطنه وأهل دينه ولسائر الناس إن كان من المفلحين . إن المسلم الصادق هو الذي يكون خليفة الله ، والناس جميعاً عباده ، فهو لهم خادم أمين .

خاتمة هذا المقال وجماله في السفينة والسمكة والمنطاد والمراكب الهوائية التي تعلمها الإنسان من الطير حوالي أوائل هذا القرن وأواخر القرن الماضي

ذلك كله في عجائب قوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ أي عجائب الآية التي نحن بصدد الكلام عليها والتي قد ذكرنا عجائب الطيور بصددها، وغرائب الحيوان، وكيف يموت إذا استغني عنه ويعيش إذا كان له منفعة، وكيف كان الحيوان عبرة للإنسان يريه ما استقر في فطرته وكمن في خلقته وعجائبه.

أقول هذه الآية الآن، وسأسمعك عجباً فيها وأيّ عجب، ذلك أن الله سبحانه وتعالى عبر فيها بلفظ «بعث»، وقال إن الغراب يرينا كيف نواري سوءة إخواننا فندفن الموتى كما دفن. التعبير بلفظ البعث عجب وأيّ عجب، بعث الله الأنبياء ويعث الله الطيور التي منها الغراب. إن لهذا التعبير رمزاً، الله بعث الطيور قبل بعث الأنبياء، إن الله بعث كل مخلوق في الأرض من طير وأنعام وحجر وشجر. بعثت هذه العجائب لنا قبل بعث الأنبياء، بعثت لنا فهي لنا مبعوثة، وأعمالها وأحوالها هي كتبها التي نقرؤها، فأعمالها صحف منشورة يراها الناس ولكن أكثر الناس لا يعقلون؛ ولما جهل الناس ما يرون بأبصارهم لأنهم في هذه الأرض من عالم منحطّ الإدراك ضعيف، ميّز الله منهم أناساً اصطفاهم فبعثهم ليسمعوا أقوالاً، والأقوال معبرات عن المعاني، والمعاني هي المقصودة، والناس للأقوال أفهم منهم للمحسوسات.

الأبصار ترى العجائب ولكن العقول غافلة، أما الأسماع فإنها تلقي إليها تلك المبصرات بعبارات سهلة فتفهمها إجمالاً. أنزل الله الكتب السماوية لتنبه الناس إلى ما يشاهدون ليتعقلوه، ولو أن الناس جميعاً واعون فاهمون لم يحتاجوا إلى الرسل، فالرسل أرسلوا ليسمعوا الخلق الوحي، ومتى سمعوا تيقظوا فأدركوا ففكروا ففهموا فاستخرجوا المجهول.

إن الله بعث لنا هذه العجائب التي رمز لها بالغراب، وبعث لنا الأنبياء ليدلونا عليها، بعث الله هذه المخلوقات من: طير وذرّ ونجم وشمس كلها مبعوثات، كما أنها مسخرات كلها منافع لنا وكلها كتب مقروءة، كل هذا نفهمه من آية الغراب، فالغراب وما شاكله كتاب نقرؤه، والعوالم المشاهدات كتب نقرؤها، والقرآن هو الذي يدلّ على ذلك، يقول: ﴿ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ الغراب يواري سوءة أخيه، والمسلم والإنسان عامّة عليه أن يواري سوءة أخيه، بل عليه أن يجدّ حتى يجد للإنسان مقاماً في الهواء ومنفذاً من هذه الأرض الضيقة.

ضاقت الأرض بأهلها، فإذا أرانا الغراب أن له مدنية وجماعة يعيش معها، وأنه يربي أولاده وأنه يحافظ على جماعته، وأنه يهيمن على الجمهورية الغرابية، وأننا إن قصرنا في دولتنا وجماعتنا فقد أصبحنا أقلّ من الغراب، وأمثال الغراب من كل جماعة تعيش في الهواء أو على الأرض أو في البحر. ففي البر الفيلة وحمار الوحش وأنواع كثيرة تعيش جماعات، وهناك الحشرات كذلك مثل النحل والزنبور والنمل، فهذه كلها تعيش جماعات وكلها ترينا كيف نحافظ على الجماعة والجمهورية، كلها تعلمت ذلك بفطرتها الغريزية ونحن نتعلمها منها بالفكر والعقل.

حكم الله علينا أن لا يكون رقينا إلاّ بالتفكر، وحكم على تلك الحيوانات أن يكون ارتقاؤها بالغريزة، فهي تعلمنا أن ننظم جماعاتنا ونرقيها.

هكذا نرى جماعات من السمك كالحيوان المسمى بـ «النمر» في البحر، وقد يكون طوله ثمانية أمتار، فإنه يعيش جماعات، ومثله الحيوانات المسماة بـ «حوت العنبر» وهو المسمى «كشلو» ذلك الذي يبلغ طول بعضه نحو ٣٠ متراً، ثم ينقضّ على النمر المتقدم ذكره فيأكله، وهذا النمر المذكور شرس الطباع جداً فتاك كالنمر المعروف، فيكون طعاماً لحوت العنبر، ذلك الحوت الذي تتعفن المواد التي يأكلها من أنواع السمك في بعض أجزاء الأمعاء فتصير عنبراً، ثم إن سلسلة الظهر المستطيلة تحيط بها مواد شمعية كثيرة بيضاء تقريباً، تتجمد في الهواء، ممتدة على جانب العمود الفقري وعند الرأس، فهذه المواد هي المسماة «منّ القيطس» وهي تستعمل في معاجين الزينة وفي صناعة اللؤلؤ الصناعي، ومن الواحد منها يستخرجون نحو عشرين طناً، ومعلوم أن الطن أكثر من عشرين قنطاراً. فانظر كيف كان هذا الحوت عظيم الجثة وعظيم المنفعة، وكيف استخرج منه العنبر إن كان مريضاً، والمنّ يوزن بمئات القناطير، وهذا الحيوان يعيش جماعات قوية البأس شكسة الطباع، وهي كلها تتنفس بالهواء ثم ترجع إلى قاع البحر مدة طويلة، وهي لا تترك ثأرها إذا قتل أحدها فتكسر أعظم السفن.

فهاأنا ذا ذكرت لك الجماعات في الجو وعلى الأرض وفي البحار، وكلها تعلمنا مما علمها الله، تعلمنا علماً أعظم من العلم الذي نعلمها إياه، فنحن نعلمها كيف تصيد لنا فنأكل، ولكنها هي تعلمنا كيف نعيش جماعات ونحب أبناء جنسنا.

وهذا هو السر في أنه قال: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا ﴾، ولكن لم يقل إني بعثتكم لتعليمها، بل قال: ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا ﴾[المائدة: ٤] الخ، فهي مبعوثة لتعلمنا، ونحن لسنا مبعوثين لها، بل بعلمها لنأكل مما تحضره لنا.

تبين لك أن تعليم النظام المدني والحب الأخوي ليس خاصاً بالغربان ولا بالطيور. فلم اختصت الطيور بأنها ترينا؟

علمت أن الجماعات والجمهوريات ليست خاصة بالطيور التي منها الغربان، بل رأيت أن الحيتان فيها الجماعات، والحشرات والدواب والأنعام كلها ذات جماعات ونظام عجيب جعله الله بفطرتها الغريزية، فيا ليت شعري، لم يقول الله ذلك في الطيور وحدها ويجعلها ترينا حفظ الأخ؟ مع أن حوت العنبر والنمل والفيل كل هذه لها جماعات منتظمات، وكلها ترينا حفظ الأخ ومنفعة الأخ والمحافظة على الأخ، فلم خصّ الطيور؟

أقول جواباً على ذلك: اعلم أن هذا السر لم يظهر إلاّ في هذا الزمان. هذا هو الزمان الذي تظهر فيه العجائب والغرائب. هذا هو الزمان الذي أذن الله فيه بإظهار الأسرار وجمال الأنوار والمناطيد والمراكب الهوائية. خصّ الله الغراب وهو من أنواع الطيور بأنه يرينا كيف يواري سوءة أخيه، وقال في سورة تبارك «الملك»: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾[الآية: ١٩]، فهنا يقول: ﴿ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾، وهناك يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾، فالطير هنا يرينا، وهناك يوبخنا الله قائلاً: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾ الخ، فهنا الإرادة وهناك

التوبيخ على عدم الرؤية، فالطيور أرتنا، ونحن يجب علينا أن نرى، أي: نرى عجائب صنع الحكمة الإلهية ولا جرم أن الذي نراه قسمان: قسم يختص بالنظر في العجائب الإلهية، إذ قال في موضع آخر: ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الملك: ١٩]، وقسم يختص بالمنافع الدنيوية كما قال هنا: ﴿ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ فإذن الطيور تنفعنا في علم معرفة الله تعالى لأنه رحيم وعليم، وتنفعنا في أن ننفع الناس كما ستر الغراب على أخيه، وكما فعل الله ذلك في الغراب والطيور، فعل في الزرع والشجر، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [ق: ٧-١١] فإذن الله خلق النبات والشجر لأمرين: التبصرة والرزق، وهكذا يقول في النار: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٣] فالنار تذكرة والطير تذكرة، والنار متاع للمقوين، والغراب يرينا منافع إخوانه، فننظر في أمر الطير فماذا نجد؟ نجد أن الأمم التي حولنا نظرت في أمره فصنعت المراكب الهوائية والمناطيد بتعليمه.

إذا قرأت أيها الذكي هذا سيأخذك أعظم الشك في قولي، وتقول: أيّ مناسبة لهذا الكلام؟ أقول لك: اعلم أنه لولا الطير ما طارت المراكب الهوائية في الجو بين لندن وباريس أثناء طبع هذا الكتاب، الكتاب الآن يطبع، والجرائد تقول: إن المراكب الهوائية تجري الآن بين باريس ولندن في زمن قليل، وقد جرت الطيارات بين طهران وأنقرة في اثني عشرة ساعة، كل ذلك في هذين اليومين.

وهكذا قد عوّلوا على إنشاء محطة في بلادنا المصرية لتكون نقطة الاتصال بين بلاد الشرق وبلاد الغرب للسفن الهوائية، الطيارات ملأت أقطار الأرض، الطيارات كثيرة في اليابان والصين وتركيا والعراق وأوروبا.

إن الله عزّ وجلّ بعث الحرب الكبرى التي ابتدأت سنة ١٩١٤، وانتهت سنة ١٩١٨، بعثها رحمة بالعباد، هذه الحرب قد نبهت الأمم للطيارات لتنفعهم في الحرب، إن الناس على الأرض أطفال جهال مغمورون في العداوات والشهوات. فهذه الحرب التي هي منشطة لهم، كانت هي أكبر عامل في ارتقاء الطيارات، وهانحن أولاء اليوم نحصد ما زرعنا. النوع الإنساني ابتكر الطيارات للحرب، ولكن الله يعلم أنها ستكون من أكبر نعمة في السلم. في زمن قريب جداً سيكون الجو محل السفر وتخلو الأرض للزرع. في زمن قريب جداً سيكون الانتقال في الجو بالمراكب الهوائية، ويحتقر الناس ما على الأرض من القطرات والسيارات والمركبات التي تسير بالكهرباء، كل هذا ستقوم مقامه السفن الهوائية ويشارك الناس الطير في الهواء، ويتمتعون بنعم لم يحلم بها السابقون. أتدري لم كل هذا؟ لقوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

وإيضاح ذلك أن علماء القرن التاسع عشر كانوا يطيرون بالمناطيد، والمناطيد ما هي إلاّ على قاعدة السفن، وبيانه أن كل ما هو أخف من الماء يعوم فوقه، وما هو أثقل منه يغرق فيه، فجميع السفن التي تجري في البحر لو أنك وزنتها لوجدتها تساوي وزن الماء الذي أزاحته من البحر فلذلك تعوم، وكما أنك ترى الفلين وأمثاله من الخشب يعوم على وجه الماء، هكذا تعوم السفن وتعوم السمكة. إن السمكة لها في باطنها منفاخ، فإذا أرادت أن تعوم نفخته فصارت أخف من الماء فتعوم، وإذا أرادت أن

تغوص في الماء قبضته فصغر حجمها فغارت، فهي دائماً في عوم وغوص، كل ذلك بهذا المنفاخ الذي هو آلتها الرافعة الخافضة المتحركة على القاعدة التي شرحها «أرشميدس»، فكل ما خف علا، وكل ما ثقل سقط فالسفينة والسمكة أختان متشابهتان السفينة كالسمكة، السفينة لولا خفتها لغرقت، ولولا أنهم يحسبون حجمها ووزنها ومقدار الماء الذي تزيحه حتى تكون أشبه بالسمكة في حال انتفاخ منفاخها لولا أنهم يفعلون ذلك لغرقت ولم تعم، وسواء في ذلك المراكب الشراعية والأساطيل الحربية.

المناطيد

سترى في سورة الملك إيضاح هذا المقام، وترى أن المناطيد عبارة عن مراكب هوائية جارية مجرى السفينة والسمكة، فكما أن السفينة والسمكة لا تعومان إلاَّ إذا كانتا أخف من الماء، هكذا هذه المناطيد لا تطير في الجو إلاَّ إذا كانت فيها غازات أخف من الهواء فترفعها كما رفعت السفينة والسمكة ولولا أنها كانت في ثقل الهواء أو أثقل منه لم تطر ولم ترتفع، فإذن لا فرق بين المناطيد والسفن، فهذه سفن في الهواء وتلك سفن في الماء، وتكون القاعدة واحدة، فلله ما أجمل العلم والحكمة.

إن المناطيد أشبه بالكرات التي يلعب بها الأطفال أيام الأعياد والمواسم، هذا هو سرها وعلمها.

إن المناطيد لم تخرج عن كونها أشبه بالريش الطائر في الجو وبالذرات الطائرات في الكوى، كل هذه إنَّما ارتفعت في الجو بسبب خفة أجرامها لا أقل ولا أكثر.

أنا في هذه الساعة أعتقد أنك فهمت المناطيد، وهذا الفهم توطئة لما هو أشرف وهو المقصود.

المراكب الهوائية

وهنا يظهر سر القرآن فأقول لك: لقد عرفت المناطيد، عرفتها لأنها ظهرت لك ظهوراً تاماً، وإن لم تكن اطلعت على أصول هذه العلوم، فهاأنا ذا الآن أنقلك إلى المقصود فأقول: إن المناطيد جرت في الهواء وأدرك الناس أمرها، ولكنهم بعد ذلك أنكروا وقالوا: لماذا نرى الطيور تطير؟ فيا ويلتى أعجزنا أن نطير كما تطير الطيور؟ إن الطيور أثقل من الهواء، لو وزنا عصفوراً لوجدناه أثقل جداً من الهواء الذي أزاحه بجسمه، بخلاف السفينة، فإن وزنها كلها بجيوشها وسلاحهم ودروعهم وما فيها من حديد وفولاذ وذخائر كل هذه إذا وزناها لا تزيد عن ثقل الماء الذي أزاحته السفينة، أما العصفور وأما الغراب وأما الحمامة فإننا نرى كلّا منها أثقل مئات المرات من الهواء الذي أزاحه.

الطير أثقل من الهواء فكيف يطير فيه؟ عامت السفينة وعامت السمكة لأنهما أخف من الماء، وهكذا المنطاد لأنه أخف من الهواء، أما الغراب وأما الحمام وأما العصفور فإنها أثقل من الهواء الذي حلت في مكانه أضعافاً مضاعفة.

هنالك قام أحد العلماء في هذا القرن، أي القرن العشرين، أيام تأليف هذا التفسير وقبله بقليل قام هذا العالم بعد أن مات عشرات الرجال في التجارب التي جربوها فلم تغن فتيلاً وذهبت تجاربهم وأعمارهم أدراج الرياح، ويئس الناس في أوروبا وأمريكا أن يلحقوا الطير في طيرانها، فإن هذا شيء خاص بها، والناس مستحيل عليهم أن يصلوا لمستواها، ولكن الفطرة الإنسانية توّاقة للعلا متعطشة للعلم والنظر، فقام العالم الذي سيأتي ذكر اسمه وأعماله مفصلاً في سورة تبارك «الملك»، وراقب الطيور وطيرانها وبحث ودقق وعرف بأي الأساليب قدرت الطيور أن تطير في الهواء وهي أثقل منه،

وخالفت سنة السمكة والسفينة والمنطاد. وهناك أظهر تجاربه ونجح قوم ومات آخرون، وانتفع الناس ببعضها في الحرب، وهاهي ذي آثارها ملأت الأقطار وأصبحنا نرى عالماً جديداً طائراً كما تطير الطيور.

هذا هو السر في قوله تعالى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ ﴾، إن الله بعث الطيور إلينا فأرتنا علماً جديداً لم يكن قبل تعليمها ما كنا نعلم الآن إلاَّ السفن، ولكن الطيور فتحت للإنسان أيام هذا التفسير علماً جديداً وهو علم الطيارات التي لم تكن من قبل، ولم تكن مقيسة على السمكة والسفينة ولا على المنطاد الجاريات على قاعدة «أرشميدس» الفيلسوف، بل على قاعدة الطير المعروف الذي أرانا ما لا يرينا الحوت في بحره، ولا الفيل والغزال على الأرض.

الحوت وإن عاش جماعات ونظمها وربى أولاده وعام بمنفاخه، لم يعطنا درس الطير الذي هو أثقل وأثقل من الهواء ثم هو يطير فيه. والفيلة لا تعوم في البحر ولا تطير في الهواء، فلا تعطينا إلاَّ نظم السياسة، وأما الغربان فإنها تربي أولادها وتنظم جماعتها وتحافظ على جمهوريتها، وهي فوق ذلك تطير وأجسامها أثقل من الهواء، ففاقت السمك وحيوان البر، فلذلك أرتنا وعلمتنا فعلاً.

يا ليت شعري، من ذا كان يظن أن الطير يعلم الناس علماً فوق علم السفن الهوائية؟ من ذا كان يعقل هذا؟ الطيور نراها، ولكن أين البصائر، أين العقول حتى قيض الله من عباده من فهموا أن الحيوان خلق ليرينا، فدرسوه وخبروه لا بكتاب نزل ولا بوحي؟ ولكن درسوه بعقولهم والمسلمون نائمون أجمعون أكتعون أبصعون ثملون.

لطيفة

لما وصلت إلى هذا المقام اطلع عليه أحد الأصدقاء ذوي الفكر والفهم، فقال: لقد أحسنت من وجه وأسأت من وجه، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أما الإحسان فظاهر، فإنك ذكرت أن الحيوان الذي لا يربي أولاده يموت لأنه لا معطل في الطبيعة، وأن الذي يربي أولاده يبقى كالدجاج والحمام، وفوق هذين ما يعيش جماعات كالحيتان، وفوق هؤلاء ما نقتدي به في أن نطير في الجو بطياراتنا مع ثقل الطيارات، وأن القرآن جاء بهذه المخلوقات لنستفيد منها في حياتنا ولنعرف بها ربنا، كل ذلك فهم من كلامك موضحاً بأدلة ساطعة، فهذا وجه الإحسان، أما وجه الإساءة، فإنك في كل ما دبّ ودرج وبأيّ مناسبة وفي أيّ حال تلصق بالقرآن وبالدين الإسلامي ما ليس منه، فلا تذر طيارة ولا منطاداً ولا برقاً «تلغرافاً» ولا كهرباء ولا صناعة ولا علماً إلاَّ ألصقته بالقرآن، والإسلام في نظرك سفينة نوح تأخذ من كل زوجين اثنين، إن هذا ما هو منك إلاَّ تطرف وزيادة، تريد رقي المسلمين فتنسب كل شيء للدين، هذا فنّ المركبات الهوائية حديث العهد، فما للإسلام ولهذا؟ إنك في هذا مغال كثير الغلوّ طويل النجاد.

الجواب

فقلت له: إن ما قلته إنَّما جاء من وجدانك لا من عقلك، قال: وكيف ذلك؟ إنك أنت تحكم بوجدانك، فإنك لشغفك برقي المسلمين تحشر كل شيء في دينهم، ولست على حق فيما تقول، فقلت: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣١] وبيّن لي

ذلك بطرق العلوم الدينية، فقلت: أوَتسكن للحقيقة إذا ظهرت؟ قال: نعم، أسكن لها وأنشرها، فقلت: إذن أبيّن ما تقول باختصار يكفيك فروض الكفايات.

أيها المفضال، أليست الواجبات قسمين: واجبات عينية، وواجبات هي فروض كفايات؟ قال: بلى، قلت: أليس فرض العين كالصلاة والصيام إذا تركه الإنسان أثم؟ قال: بلى، قلت: أوَليس فرض الكفاية كالصلاة على الميت وتجهيزه، الخ، إذا تركه أهل القرية أثموا جميعاً، وإذا قام بذلك جماعة سقط الإثم عم الباقين؟ قال: بلى، قلت: ألم يقل بعض العلماء كإمام الحرمين: إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين لأنه أعم نفعاً؟ قال: بلى، قلت: أفليست جميع العلوم والصناعات من فروض الكفايات؟ قال: ففي أي كتاب هذه؟ قلت: في جمع الجوامع، قال: الكلام هناك ليس مفصلاً، بل هو مجمل، قلت: ما تقول في الذي ذكره الإمام الغزالي في الإحياء؟ قال: ماذا قال؟ قلت: عقد فصلاً عنوانه «بيان العلم الذي هو فرض كفاية» وذلك في الجزء الأول، فقال: لا أتذكر هذا، فاذكر لي ما فيه، قلت: يقول: إن فرض الكفاية هو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، ومثل بأعلى ذلك كالسياسة، وبأوسطه كالحياكة والخياطة والفلاحة، وأدناه كالحجامة، وذكر الطب والحساب، قال: زدني، قلت: وقال بعد ذلك ما نصه بالحرف الواحد: «الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلاّ بالدنيا، والملك والدين توءمان» وقال أيضاً: «واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء، فإن شرهم على الدين أعظم من الشيطان، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق». وقد شنع أيضاً على العلماء بكثرة المجادلات والمشاحنات لا سيما بين الشافعية والحنفية، وزعموا أنهم ينصرون به الدين، ورتبوا في ذلك أنواع المجادلات، قال: وهم مستمرون عليه إلى الآن، ولسنا ندري ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار اهـ.

فقال صاحبي: ما ملخص ما يقصده الإمام الغزالي؟ قلت: ملخص ما ذكره أن علم الدين الحقيقي هو معرفة السماوات والأرض وجمال الله تعالى وعجائبه مثل ما كتبنا في هذا التفسير، وأيضاً قراءة العلوم التي هي فرض كفاية، وإنّما ذمّ علماء زمانه لاقتصارهم على علم الفقه، وقال: إنّما انكبوا عليه وتركوا ما عداه لأنهم به يتوصلون إلى تولي القضاء والوصية على الأيتام والتصدر والعظمة في الدنيا، ولا يبالون بتهذيب النفس ولا بما ذرأ الله في الأرض والسماوات، فلا يهتمون بأمر المصالح العامة والصناعات التي تحتاج إليها الأمة، ولا يكملون أنفسهم، فهذا هو السبب في أنه جعلهم شراً من الشياطين.

فقال: عجباً ذلك كان في زمان الدولة العباسية والإسلام قوي الشوكة، فما بالنا نحن الآن ونحن على ما كان عليه أسلافنا فلا علوم ولا صناعات، فقلت له: إذن أنت اقتنعت بهذه الأدلة ووافقتني، قال: نعم، إنك بينت القول على أساس متين من كلام الأئمة، قلت: ومن قول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] كما فصلته في بعض المقالات فلا أطيل به.

ثم قلت: ألست ترى معي أن علم المراكب الهوائية وغيرها من علوم الكهرباء والمغناطيس أصبحت اليوم لا بد منها للناس؟ قال: بلى، قلت: إذن هي فرض كفاية؟ قال: بلى، قلت: إذن فهم

الناس أن القرآن ورجال الإسلام مجمعون على أن هذا وأمثاله فرض كفاية، وأنا وأنت مسؤولون وجميع الأمة عن كل صناعة وعلم حظي به قوم في أوروبا وهو نافع، ثم جهلناه نحن. هذا هو الذي يجب نشره الآن وتعميمه في أنحاء المعمورة.

وأنا لم أقل إن أهل أوروبا استنتجوه من القرآن، بل استنتجوه بعقولهم، ولقد بعث الله الغراب وغير الغراب لهم كما بعث لنا، وأراهم الغراب وغير الغراب كما أرانا، ولكن هم رأوا ونحن ما رأينا وهذا عار على أمة الإسلام أن تجهل عقلها وتجهل دينها، فأنا لم ألصق بالقرآن يا صاح علماً ولا صناعة، وإنّما أنا متبع لا مبتدع، فقال: لقد أحسنت كل الإحسان وأجبت بما شفى صدري، وعلمت اليوم أن الذين يقولون فيك ما قلته الآن جهال لم يقرؤوا مقالة تامة من كلامك، فقلت: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهانحن ذكرنا الطيور والحيوانات بمناسبة الغراب وجماعاتها وارتفاعها في الجو، وتعلّم الإنسان منها في أيامنا الحاضرة، فقال: لم أعقب الله مسألة ابني آدم والغراب وحديثه بمسائل السرقة والقتل والإفساد في الأرض وما أشبه ذلك؟

قلت: الأمر واضح، فإن القصة مسوقة لتعلم الإنسان من الحيوان العطف على الإخوان، وهؤلاء السارقون والقاتلون ضارون بالمجموع ومثلهم الكاسلون والجاهلون. فكل هؤلاء يعاقبون بما في الآيات، ويعاقبون أيضاً بالذل في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة. تمّ الكلام في هذا المقام، والحمد لله رب العالمين. اهـ المقصد الرابع.

المقصد الخامس

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (٣٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ (٣٧) وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٤٠) ﴾

ذكر الله في المقصد السابق أنه من قتل نفساً فقد آذى الناس جميعاً ونقص مجموع النوع الإنساني، لأنهم متضامنون على اختلاف أجناسهم وأديانهم وأوطانهم، فهم أمة واحدة كما قال في معنى آية أخرى: «كان الناس أمة واحدة ففسقوا، فأرسلنا لهم الأنبياء».

هكذا هنا قال: من قتل نفساً بلا سبب فقد جنى على بني آدم كلهم، ومن أحيا نفساً بشفاعة أو عفو أو نفع الأمم بعلومه أو صناعاته، فقد تعدّى عمله ونفعه للناس أجمعين، فعمل الفرد نافع للمجموع، وشرّه راجع للمجموع، والرسل قد جاؤوا للناس بالبينات ولكن أكثر الناس لا يزالون سفاكين للدماء، قطاعين للطرق، مسرفين في القتل والنهب.

فإذا كان هذا النوع الإنساني هذا دأبه لا يرجع كثير منهم عن الغي بالحكمة والعلم والموعظة الحسنة، وهي هنا المحبة العامة والمنفعة لسائر الناس، وغفل أكثرهم عن هذه الحكمة العالية، وأخذ كل يحارب أخاه جهلاً وغفلة وتباعد عن طرق العقل والفهم، فلم يبق إلاّ العقاب الدنيوي، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ بالمخالفة والإسراف في القتل والنهب والسلب وقطع الطرق واللصوصية، ولو كانت اللصوصية في بلد كبير ومصر عظيم، وقوله: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ أي مفسدين أن يفعل بهم واحد من أربعة: إما القتل وحده، وإما القتل ثم الصلب بعده تشهيراً لهم، وإما أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى، وإما أن ينفوا من الأرض. هذا كله إذا لم يتوبوا قبل القدرة عليهم، فإن تابوا قبل القدرة عليهم فالعفو عنهم حسن.

فهذه خمسة أمور: العفو إذا تابوا قبل القدرة، والقتل، أو القتل مع الصلب، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أو النفي من الأرض. واعلم أن الحاكم مخير بين هذه الأربعة يفعل ما يراه أصلح. وقال أبو حنيفة: النفي من الأرض المراد به السجن، وبعض العلماء يقول: القتل إذا قتلوا قصاصاً، والقتل مع الصلب إن قتلوا وأخذوا المال، وقطع الأيدي والأرجل إن أخذوا المال ولم يقتلوا، والنفي من الأرض إذا أخافوا الناس.

وفي هذا المقام أحاديث كثيرة وردت بسبب نزول هذه الآية، ولكن نذكر منها ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك: «ذلك أن ناساً من عكل وعرينة قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ـ يعني أهل ماشية ـ ولم نكن أهل ريف ـ أي لسنا من أهل الأرض التي فيها زرع وخصب ـ والجمع أرياف، والمعنى أنهم قوم يعيشون في البادية ويشربون ألبان المواشي، واستوخموا المدينة ـ أي لم توافق أمزجتهم ـ فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم بذود ـ الذود من الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة ـ وراع، وأمرهم بأن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة ـ وهي أرض ذات حجارة سود، وهي هنا اسم لأرض بظاهر المدينة معروفة ـ كفروا بعد الإسلام وقتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث الطلب في أثرهم فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم». اهـ. وقد اختلف العلماء في هذا الحديث اختلافاً كثيراً، ورجح بعضهم أن هذا حصل قبل نزول الآية، فلما نزلت ظهر الحكم الذي يعمل به النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون.

والحاصل أن هذه المسألة محل اجتهاد ينظر القاضي ما هو أصلح. هذا كله في قطاع الطرق من المسلمين، أما الكافر فإنه متى أسلم سقط عنه كل شيء قبل القدرة عليه وبعدها.

واعلم أن الأمم الأوروبية اليوم قد ذهبت في التعذيب والتنكيل حداً بعيداً جداً، فهم لأجل السياسة والجشع يرسلون الطيارات لقتل الأنفس البريئة، ويـنزلون الصواعق على الأطفال الصغار

والشيوخ الكبار، كما حصل في الهند وبلاد الغرب، لا لذنب جنوه ولا لإثم اقترفوه، بل للدريهمات يطلبونها بما يقتضيه أمر الحكومات الفرنجية، فيشوهون الوجوه ويفقؤون الأعين، ويعملون ما لا يخطر على بالنا. وترى أهل إسبانيا وفرنسا ينصبون المشانق ويصلبون الناس عليها ظلماً وبهتاناً وإذلالاً وتعذيباً.

ولقد أخبرني أحد شبان المغاربة المراكشيين أن إسبانيا تأتي إلى جهة من جهات البلاد وتحضر عشرات الرجال من رؤساء العشائر وتذبحهم ذبحاً سريعاً، فيقال لها: لماذا تفعلين ذلك؟ فتقول: لأن بلادكم فيها قوم يكرهوننا، ليذلوا النفوس ويخيفون الأمة.

هذا عمل الأوروبيين، فأما الإسلام فهو الذي حدد العقاب وحرم الظلم، وآخر عقاب لأعظم جان أن يصلب هو أو يقتل أو تقطع يده ورجله أو يعفى عنه. فأما قتل الأطفال والعجائز والنساء كما يفعل أهل أوروبا فذلك شر مستطير وجهل كبير، ولا بد أن الله سيغير هذه الأمم بأمم أشرف منها، فكفى فقد عمرت الأرض بالاختراعات وأكثرت فيها الفساد بالظلم ولا يبقى في الأرض إلاّ المصلحون فإذا كان شرهم أكثر من خيرهم فلا بد من زوال مجدهم بالتدريج، أو لعل الله يهديهم على أيدي الحكومات الشرقية الراقية المستقبلة فيعيشون معهم بسلام، ولذلك قال بعدها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ أي ما تتوسلون به إلى ثوابه، والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، من وصل إلى كذا تقرب إليه ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة فتذودون عن بلادكم كل غاصب ومحارب من أوروبا مثلاً، وتعذبون وتذلون كل مفسد في بلادكم من اللصوص والحكام المرتشين وتعلمونهم.

وهكذا يجب أن تهذبوا أنفسكم فتصلح الأفراد وتصلح الأمم ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ بالفوز والكرامة والوصول لله تعالى، لأن ما في الأرض من المواد الجسمية والأعمال الدنيوية والصناعات الإنسانية والأموال الذهبية والفضية، وكل ما اقتناه الإنسان من الأحوال المادية لا ينفع الإنسان إذا اعترته المنية وأقيمت عليه القضية، ولو قدّم الفداء أو لاذ بالشفعاء، وكيف يكون ذلك وأنتم أيها الناس في الأرض هكذا تصنعون؟.

أليس الذي قطع الطريق وأخاف الناس هكذا عاملتموه؟ فيقتل وليس له شفيع، ويصلب وما له من مغيث، وتقطع الأيدي والأرجل وهو حسير، ويحبس أو يغرب من البلاد وهو ذليل. كل ذلك يلقاه وماله لا يغنيه، وأهله وأصدقاؤه وشفعاؤه عنه لا يدفعون. كل هؤلاء لا ينفعون ولا يشفعون، ولا فدية بمال مقبولة ولا رحمة عليه ملموسة.

هكذا أيها الناس أفعل يوم القيامة، فلا ينفع المال ولو كان ملء الأرض ذهباً، وكيف يقبل عندي، وأنا لم أرد إلاّ تهذيب النفوس وارتقاءها إلى مقام الصدق وموقف الحق والشرف الأسمى والمقام الأعلى كما تفعلون في حكوماتكم ونظام مدنكم، وهذا قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ ﴾ ثبت ﴿ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾، والمقصد من هذا أن تعذيب الأجسام سواء أكان في الدنيا أم في الآخرة يقصد منه تهذيب النفوس، فأما الفدية ونحوها فإنها لا تؤدي إلى الغرض المقصود من الكمال.

فحكومات الآخرة والدنيا على طراز واحد، فالحكومة الفاضلة العادلة هكذا تفعل، وحكومات الله المستقبلة هكذا فعلها، ولا يقصد منها إلاّ تهذيب النفوس، فإذا قام المسلمون وهذبوا النفوس بالعلم والعرفان قام التهذيب مقام التعذيب، والتعليم مقام الإيلام، والحكمة مقام المحكمة، والعلم مقام الألم.

واعلم أن الذين لم يتهذبوا في الدنيا يحسون بألم في نفوسهم، فترى من اعتاد كثرة الكلام أو شرب الخمر يريد كل منهما أن يخرج من عادته وأن ينسلخ من خلقه، فيرى نفسه عاجزاً عن الانسلاخ بائساً يائساً حزيناً يقول: ما لي وللخمر، وما لي ولكثرة الكلام، وما لي لعداوة الناس، وما لي وللتفاخر بالزينة، وهكذا ما يحس به كل امرئ على وجه الأرض.

وهكذا هذه الأخلاق تلازم الروح بعد فراقها الجسد وتتمنى لو تخلص من الأخلاق التي لازمتها والأحوال التي لصقت بها، هذا هو قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي مقيم مع نفوسهم لا يفارقها كما لا يفارق الظل الشخص؛ فالأخلاق هي منشأ العذاب في الدنيا والآخرة، والتهذيب يمنع التعذيب، فالعذاب من الصفات التي لصقت بنفوسنا من سوء الأخلاق، ولذلك نرى الزاهدين في الدنيا تجلهم جميع الشعوب من أهل الأرض. فافهم.

ولما كان قطع الطرق والسرقة متشابهين في أن كلاًّ منهما شر صادر من النفوس الإنسانية الصغيرة الضعيفة المتأخرة التي لم تعرف أن الإنسانية كلها يؤذيها ما يؤذي واحداً منها، وأن عيونهم في غطاء عن الذكر، أردفه بقوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وقد تقدم تفسير هذه الآية في المقدمة، ثم أردفه بأن ملك السماوات والأرض قائم على النظام التام فيعذب من لا يعقل ليصل إلى العقل والحكمة، ويغفر لمن أقلع عن المعاصي وهو قادر على كل شيء، وبهذه القدرة التامة يصرف العوالم وينقلها من حال إلى حال، تارة باللين والكلام العذب حكمة وديناً، وتارة بالقمع والقهر والشدة، ويجعل النشأة الآخرة منظمة نظاماً بديعاً متابعاً كما يشاهد في نظام الدنيا ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣]، فهو يأمر بعقاب من لا يعقلون، فإذا ماتوا يوضعون في المراكز التي استعدوا لها خفضاً ورفعاً، وهذا قوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

لطيفة

ذكر السماوات والأرض في كل مقام حكمة بالغة، فتارة يذكران لمعرفة الله، وتارة للوحدانية، وتارة للعلم، وتارة للقدرة، وهكذا مما ذكرناه سابقاً، وتارة يذكران كما هنا لنظام المخلوقات، وتدرجها في سبل السعادات وطرق الوصول إلى المعالي كما نشاهد في الدنيا، إن الأعلى يرى الأدنى أنه في عذاب كما يرى الناس أن الحيات أدنى منهم والدود، فتكون كل مرتبة بالنسبة لما هو أرقى منها معذبة متألمة، وترى الزبالين والكناسين يرون أنفسهم في عذاب بالنسبة للملوك والأمراء، ويقول الأمراء: إنا منعمون وهم معذبون، ولكن هؤلاء أيضاً بالنسبة لعوالم أرقى منهم، كالدود بالنسبة للإنسان.

فهذه المراتب نشاهدها في نظام السماوات والأرض ونراها عدلاً، يقول الله هنا: إن عذابي في الآخرة أشبه بهذا تقريباً لعقولنا وتدريباً لنفوسنا على التفكر والحكمة والعلم والنظر، وأن نرى أن الحيوانات الدنيئة كالديدان والميكروبات بالنسبة للإنسان ذليلة حقيرة، ويراها الإنسان معذبة بهذه الحياة.

هكذا تكون الحياة الأخرى، فعذابها أشبه بما نراه من الدرجات، فإذا كان الذر والحيوانات الدنيئة تراها معذبة مهانة في القاذورات في قاع البحار وفي أقصاها، محرومة من الهواء اللطيف والزرع والشجر والجمال والحواس الباهرة الظاهرة، ونرانا نحن في ضوء الشمس، وحولنا الشجر والزهر والزرع والحدائق والفواكه والأنوار والجمال والبهجة.

لاشك أننا أسعد منها حالاً، بل نحن في جنة وهي في نار، وأيّ زمهرير أشد من هذا، فهاهنا ظهر العذاب ورتبت الدرجات سواء أكان بين الناس أنفسهم أو بينهم وبين الحيوان، ولكن جميع الناس على وجه الأرض غافلون لا يرقبون أنفسهم ولا يفقهون هذه النظرية المحسوسة المعقولة المفهومة، فالعذاب والدرجات موجودتان في الدنيا، ويريد الله منا أن نفهم درجات الآخرة من درجات الدنيا، وهذا معنى قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾[العنكبوت: ٢٠]، نقول: قد سرنا ونظرنا فرأينا درجات لا تعد ولا تحصى بين الأحياء من أقل ذرة إلى أعلى نبي، وكل واحدة أقل مما بعدها وأرقى مما قبلها، وشاهدنا سعادة وشقاء بنسبة بعض الدرجات إلى بعض، قال الله بعدها: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾[العنكبوت: ٢٠] فما معنى ينشئ النشأة الآخرة، معناه على مقتضى النظام والدرجات من كثافة إلى لطافة، فيكون أعلانا عند مليك مقتدر، وأدنانا لا يزال في الأخريات عند الحيوان ومجاوراً للمادة وهو محروم من الصعود إلى العلا، أشبه بالعقارب والحيات الملازمة للتراب المحروم من الصعود إلى الهواء كالطير أو من العقل والحكمة والبصيرة العالية كالإنسان.

استبصار

لعلك يصعب عليك ما ذكرته، فإياك أن يصعب عليك فهمه، فالقرآن هو الذي أوضحه، ألم يقل: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[الواقعة: ٥٨-٦٢] فما معنى قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ ﴾ إن النشأة الأولى منظمة مرتبة درجات بعضها فوق بعض في المولدات وفي نشأة الإنسان، هكذا يقول: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٢١] فكأنه يقول إن الآخرة درجات كالدرجات التي تنظرونها في هذا العالم، ولكنها أوسع نطاقاً لأنه عالم لطيف، واللطيف يسع ما لا يسع الكثيف، ويقول: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾[الملك: ٣]، فعلى ذلك يكون عالم الآخرة على نظام الدنيا ترتيباً وترقية وإن خالفه هيئة وجمالاً؛ فعالم الآخرة والدنيا نظام واحد ودرجات متناسقات، قال الشاعر:

الجهل لا يلد الحياة مواته — إلاّ كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة وإنَّما — أخطاه عنصرها فمات وليدا

فانظر لدود خلق من الرمم فإن له حياة على مقدار ما خلق فيه، فإذا وازنتها بعوالم السباع والضبع والإنسان لم تعترض على الحكيم في صنعه، فهو جواد أعطى على مقدار الاستعداد.

هذا هو الوجود وهذه هي الدنيا، وكذلك الآخرة فهي تناسق ونظام واستعداد، وحكيم يعطي على مقدار الاستعداد، والجنة والنار على هذا المنوال.

هذا هو معنى ذكر السماوات والأرض في هذا المقام، فلهما في كل مقام تفسير. بهذا فليفسر القرآن للمسلمين في مستقبل الزمان، والقرآن جاء لشرح الطبيعة التي خلقها الله قبل أن ينزل القرآن، إن شرح الطبيعة هو كل شيء.

فيا ليت شعري، لماذا يذكر الله السماوات والأرض بالتكرار، أقول لهذا يكرر ولهذا يذكر، وهكذا فليفهم، فالمسلم في المستقبل هو الذي يدرس هذه الكائنات ويدرك هذه الدرجات ويعرف هذه الحكمة ويبصر طرق السعادات. أما المسلمون النائمون فهم في الجهالة هائمون وعلى الدعوات متكلون وبالغرور يعيشون، وخلقوا وكأنهم ما هم مخلوقون ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. انتهى المقصد الخامس.

المقصد السادس

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ

فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

هذا المقصد فيه حكم أهل الكتاب إذا تحاكموا إلينا، وهل نحكم عليهم، وبماذا نحكم، وهل نخير بين أن نحكم وبين أن لا نحكم أم نحكم ولا نتريث؟.

وفيه أيضاً الوعيد الشديد والذم والتقريع والإهانة لمن يأخذون الرشوة في الأحكام.

وفيه أيضاً توصية القضاة والحكام وتوجيه هممهم إلى العدل والإنصاف لأنهم أمناء الله في الأرض. فلا يخشون شريفاً لشرفه، ولا يستهينون بضعيف لفقره، بل يحكمون بالحق ولا يخافون لومة لائم.

وكل ذلك في هذا المقصد مذكور لأسباب أوجبته، وأحوال ألزمته، وحوادث لأجلها نزلت هذه الآيات وسيقت مع آي التنزيل، وذكر فيها أحكام التوراة والإنجيل، وأن اليهود أعرضوا عنها إعراضاً لأغراض شهوية وأمور دنيوية، وأحوال جاهلية، وأن الأنبياء ينزلون إلى أهل الأرض رقباء على عباده؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه السورة أخذ يحاسب اليهود على تعطيلهم أحكام التوراة وتجافيهم عما أمروا بإقامته من الأحكام وآذوا بمخالفته الأنام، فهاك ما روي في هذا المقام:

ذلك أن رجلاً وامرأة من أشراف اليهود بخيبر زنيا وكانا محصنين، وكانا حدّهما الرجم عندهم في التوراة، فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما، فأرسلوا رهطاً منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تجدون في التوراة من شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فأمر بهما النبي صلى الله عليه وسلم فرجما». اهـ المقصود.

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه». ومعنى هذا أن اليهود كانوا يجلدون الزاني أربعين جلدة بحبل مطلي بقار، ثم تسود وجوههما، ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار، ويطاف بهما أنحاء البلد، وقد جعلوا ذلك مكان الرجم المذكور في التوراة. وهذا كله بسبب أنهم كانوا إذا زنى شريف تركوه، وإذا زنى وضيع رجموه، فاصطلحوا على أمر يجري على الشريف والوضيع، لأن الزنا بسبب ذلك التهاون كثر في الأشراف ففعلوا ما تقدم. هكذا قال ابن صوريا للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو من أحبار اليهود وأعلمهم.

ولقد كان أهل خيبر لما أرسلوا قومهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصوهم فقالوا لهم: إن أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا، والتحميم: هو تسويد الوجه كما تقدم بالحمم وهو الفحم.

وهل يجب علينا الحكم بين أهل الكتاب؟

(١) من العلماء من أوجب الحكم بينهم إذا ترافعوا إلينا، ومنهم ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والسدّي.

(٢) ومنهم من قال: نحن مخيرون إذا ترافعوا إلينا بين الحكم وعدمه، وهذا رأي الحسن والشعبي والنخعي والزهري، وبه قال أحمد.

(٣) وقال الشافعي: يجب الحكم بينهم ولا تخيير، وإنّما التخيير في الحكم بين المعاهدين الذين بينهم وبين المسلمين عهد إلى مدة، فتكون الآية الآتية الدالة على التخيير مخصوصة بالمعاهدين.

أما إذا كان المترافعان ذمّيّين أو أحدهما ذمّيّ فالحكم بينهما واجب، لأنا مكلفون بالمحافظة عليهم والذبّ عنهم. وكل ذلك منشؤه آيتان: الآية الأولى: ﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾. والآية الأخرى هي: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾.

وروي أيضاً أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد، عرفت أنّا أحبار اليهود، وأنّا إن اتبعناك اتبعك اليهود كلهم، وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ الخ.

وروي أيضاً أن بني قريظة والنضير، وهما حيان من اليهود، كان بينهم دماء قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بعث وهاجر إلى المدينة تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت بنو قريظة: إن بني النضير يعطونا سبعين وسقاً من تمر في القتيل منا، وإذا قتلنا منهم أخذوا منا الضعف، وهكذا أرش جراحاتنا على النصف من أرش جراحاتهم، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعدل، وأن لا فضل لأحدهما على الآخر، فغضبت بنو النضير وقالوا: لا نرضى بحكمك، فإنك لنا عدوّ، وإنك ما تألو في وضعنا وتصغيرنا، فأنزل الله: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾. هذه هي أسباب النزول التي وردت في هذا المقصد وآياته المختلفة.

والمهم في هذا المقام كله الحكم بالعدل في سائر الأحوال وعدم التحيز لفريق دون آخر، والرشوة والمحاباة، ولو كانت المحاباة أمراً عظيماً كدخول أمة بأسرها في الإسلام، فإن اليهود حاولوا أن يفهموه صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون في الإسلام إذا حكم لهم، فلم يرض. وعلى حكام المسلمين أن يقتفوا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالوا بأمر، بل يكونون خلفاءه ويحكمون على البر والفاجر، والعالم والجاهل، والغني والفقير، والشريف والوضيع.

هكذا يجب أن يكون الإسلام والمسلمون، والآيات لهذا أنزلت، فالقرآن اليوم لنا نحن، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من اليهود وبني قريظة والنضير فإنهم في العالم الباقي، والقرآن اليوم يقرأ لنا والأوامر لنا والعلم، فلنأخذ به ولنتبعه. ولنفسر الآيات فنقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ أي لا تهتم بموالاتهم الكفار ولا تبال بهم، فإني ناصرك عليهم وكافيك شرهم.

واعلم أن الآية المتقدمة ذكر فيها أن الله له ملك السماوات والأرض، فله تعذيب من يشاء والمغفرة لمن يشاء، وقد قلنا إن ذلك على حسب المراتب والأحوال والاستعداد، فلا عذاب ولا نعيم

إلاَّ على مقتضى الدرجات ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾[الفرقان: ٢٠] فالناس فتنة لبعضهم، كل لكل فتنة، والله بهذا يختبر العباد ويرقيهم إلى مقام الإسعاد، فلذلك ذكر عقبها الأمر بعدم الحزن مراعاة للمراتب والدرجات الخلقية، فكأنه يقول: يا محمد، أنا رتبت الدرجات، وهذه الدرجات لا محالة تجمع بين الأشقياء والسعداء، فمن عرف الحقائق لا تخفى عليه الدقائق، فكيف تحزن على المنافقين أو تأسى على القوم الكافرين؟ فإذا رأيت المنافقين يخادعون، واليهود جمهورهم للكذب سماعون، فلا تحزن عليهم ولا تهتم بشأنهم فقد أريناك نظام الدرجات.

فكيف تحزن لهؤلاء المنافقين المسارعين في الكفر ﴿ مِنَ ﴾ المنافقين ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ وهم اليهود ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ لم يحضروا مجلسك وهم أهل خيبر الذين تقدم ذكرهم في الأحاديث السابقة ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ أي يميلون الكلام الذي وضعه الله في التوراة عن مواضعه، تارة بإهماله، وتارة بتغيير وصفه، وتارة بحمله على غير المراد منه ﴿ يَقُولُونَ ﴾ لمن جاؤوا يتحاكمون عند النبي صلى الله عليه وسلم منهم ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا ﴾ أي إن أفتاكم محمد بالمحرّف وهو الجلد والفضيحة للزاني والزانية ﴿ فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ﴾ قبول ما أفتاكم به لأننا أرسلناكم ليسهل الأمر عليكم اتباعاً للأسهل من الأحكام لا طلباً للحقيقة، مراعاة لذوي الوجاهة عندنا وضناً بحياتهم ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ ﴾ ضلالته أو فضيحته ﴿ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ لأن درجاتهم النفسية في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى غير صالحة للرقي كما تقدم عند قوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[البقرة: ١٠٧] مرتب الدرجات فيعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، فهؤلاء من الذين لم يصلوا لدرجة الكمال النفسية ﴿ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾ هوان بالجزية والخوف من المؤمنين على حسب درجتهم في الحياة ﴿ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو النار ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي اليهود، وكرره بالتأكيد ﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ الحرام كالرشا، من سحته: إذا استأصله، لأنه مسحوت البركة، مثل كعب بن الأشرف ونظرائه كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم، وفي الحديث: «لعن الله الراشي والمرتشي» أخرجه الترمذي وأبو داود.

قال الحسن: ذلك في الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلاً أو يبطل عنك حقاً ﴿ فَإِن جَآءُوكَ ﴾ يعني اليهود ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ﴾ وهذا إما وارد في اليهوديين الزانيين، وإما في الرجلين من قريظة والنضير، وقد تقدم كل ذلك ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ بالعدل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ فيحفظهم ويعظم شأنهم.

ثم أخذ في التعجيب منهم فقال: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ بالرجم وإنما طلبوا ذلك فراراً من الحق وعدولاً عن العدل وتجاوزاً عن النصفة، وإلاَّ فكيف يحكمونك فتحكم بينهم على مقتضى التوراة ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ يعرضون عن حكمك ﴿ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ اليهود ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بكتابهم بإعراضهم عنه أولاً وعما يوافقه ثانياً ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى ﴾ يهدي إلى الحق ﴿ وَنُورٌ ﴾ يكشف عما استبهم من الأحكام ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل

﴿ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ هذه صفة مدح بها النبيين تنويهاً بشأن المسلمين وتعريضاً لليهود الذين حادوا عن جادة أسلافهم في أخذ الربا وقد نهوا عنه وأكلوا أموال الناس بالباطل كشأن المسلمين اليوم وكثير من قضاتهم وحكامهم، فلا فرق بينهم وبين أولئك اليهود في شيء، ولذلك مزقت البلاد شر ممزق، ألا لا فرق بين حكام المسلمين في العصور المتأخرة في قضائهم الغاشّ وأفعالهم المنكرة وأحوالهم المحزنة، وبين أولئك اليهود في بلاد العرب الذين دالت دولتهم ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[النحل: ٢٦]. أقول هذا وأنا أعتقد أن هذه الآيات أنزلت لأجلنا نحن، فأولئك اليهود قد ماتوا وخلفهم قوم آخرون ولا يدينون بكتابنا، وإنّما ذكرهم الله عبرة لنا وتعليماً وتنبيهاً، وإلاّ فما معنى قوله: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ فكان أنبياء بني إسرائيل لما كانوا على الهدى مسلمين.

فأما الأمة الإسلامية اليوم وقد حاد القضاة عن الحق والعدل وتنكبوا طرق الشرع القويم وزاغوا عن الحق، فهؤلاء القضاة ليسوا على سنن الإسلام ولا طريق الهدى ولا جارين على منهج الإسلام. وعلى ذكر القضاة أذكر هنا حادثة واحدة لقضاة مصر:

جاء أحد الولاة في مصر وقال لمن له الأمر الشرعي في البلاد: إنكم تقضون بمذهب أبي حنيفة، والفتاوى يناقض بعضها بعضاً، فهل لنا أن نجعل لنا قانوناً واحداً مناسباً لأحوال الأمة من المذاهب الإسلامية كما فعل المسلمون في الأستانة وفيها خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال ذلك الشيخ: كلا، افعلوا ما تشاؤون، فاضطر الوالي أن يأتي بالقانون الفرنسي فجعله شاملاً عاماً في جميع البلاد، وذلك بفعل هذا الشيخ الشره، لأن هذا الشيخ خاف أن يشترك مع مذهب أبي حنيفة الذي هو يعرفه مذاهب أخرى، وهذا مما يجعل علماء المذاهب الأخرى يشاركونه في الصيت والذكر والشهرة والفتوى، وتزول تلك الأبهة والعظمة والهيبة الكبرى من النفوس، ويقاسمه العلماء سطوته وهيبته ونفوذه ونقوده، إن ذلك هو التلاعب بالدين، وهو أشبه بما جاء عن اليهود وأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه. فهذا أنكر مذاهب ثلاثة لأجل خبز يأكله ومال يكنزه، فبهذا الشيخ وأمثاله ذهبت هيبة الإسلام وضلت الأحكام.

وأنا لا أحدثك عن شهاد الزور الذين يقبلونهم وهم يعلمون أنهم مزورون، ولا عن الرشا ولا عن التهاون في الأحكام فذلك شائع ذائع. فهل هذه صفة علماء المسلمين الذين هم كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يحكمون بالتوراة ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ الزهاد والعلماء السالكون طريق أنبيائهم، وهو معطوف على «النبيون» ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ بسبب أمر الله إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف ﴿ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ رقباء لئلا يبدّل كما فعل كعب بن الأشرف ومن حذا حذوه، الذين لم يحفظوا كتاب الله وليسوا عليه رقباء، فلذلك يبدل.

وهكذا أمر بعض علماء الإسلام لما تقهقرت الأمم الإسلامية، فإنهم قد زاغوا عن طريق الجادة وأجازوا الفتاوى المتناقضة على مقتضى الأقوال المختلفة، والله لا يرضى ذلك لأنه صادر عن هوى. فليس هؤلاء شهداء على القرآن ولا رقباء فكأنهم غيروه، وليس التغيير للفظه بل التغيير في مقصود الأحكام وذلك يؤدي إلى انهيار الأمة وضياعها بما تهاونوا في الدين القويم.

ثم خاطب الله الحكام قائلاً: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ يقول للحكام لا تخشوا غير الله في حكوماتكم، وإياكم والمداهنة فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستهيناً به منكراً له ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره فكفرهم لإنكاركم، وفسقهم بالخروج عنه وظلمهم بالحكم على خلافه، والظلم والفسق قد ذكرا في الآيات الآتية هنا.

ثم أخذ يسرد أحكاماً من التوراة فقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي أن النفس تقتل بالنفس ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ أي إن العين مفقوءة بالعين، والأنف مجدوع بالأنف، والأذن مصلومة بالأذن، والسن مقلوعة بالسن ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذات قصاص، أي: حكومة عدل، وهذه قاعدة عامة ذكرها بعد الأربعة التي خصصها بالذكر.

يقول: ليس هذا خاصاً بالأربعة، فالجروح على وجه العموم قصاص فيما يمكن أن يقتص منه كاليد والرجل والذكر والأنثيين. فأما ما لا يمكن القصاص فيه كرضّ في لحم أو كسر في عظم أو جراحة في بطن، يخاف منها التلف، ففيها الأرش والحكومة العادلة.

لطيفة

هذه شريعة التوراة وردت فيه، وقد أجمعت الأمة على صحة الاستدلال بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ الخ على هذه الأحكام، ولا جرم أن هذا من شريعة من تقدّم من الأمم، فنحن إذن متعبدون بشريعة من قبلنا، أي إننا متعبدون بما صح من شرائع من قبلنا بطريق الوحي لا من طريق كتبهم المبدّلة ونقل أربابها، وهذا مذهب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي وعن أحمد في إحدى الروايتين عنه.

وقال قوم كابن الحاجب من المتأخرين: إننا متعبدون بما لم ينسخ من الأحكام الباقية قبل شريعتنا لكنهم لم يعتبروا قيد الوحي، فإن الوحي واجب التنفيذ سواء وافق شرع من قبلنا أم لم يوافقه.

وقال آخرون كالأشاعرة والمعتزلة والآمدي: ليس شرع من قبلنا شرع لنا.

وهذا الخلاف بينهم لا يتناول هذه الأحكام التي أجمعت الأمة عليها، وهي أن الجروح قصاص مع التفصيل المتقدم ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي القصاص، أي فمن عفا عنه ﴿فَهُوَ﴾ أي التصدق ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ للمتصدق يكفر الله به ذنوبه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ وأتبعناهم على آثارهم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ مفعول ثان عدى إليه الفعل بالباء ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ هذه الجملة حال ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عطف عليه، وهكذا قوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ عن حكمه أو عن الإيمان به إن كان مستهيناً به. وهذا يدل على أن الإنجيل قد نسخ أحكاماً من التوراة وهو بها مستقل، ويجب العمل به على متبعيه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ ورقيباً على سائر الكتب المنزلة، لأن القرآن مصدّق لجميع الكتب السماوية

وفي قراءة بالبناء للمجهول أي هومن عليه وحفظ من التحريف، والحافظ هو الله والحفاظ في كل عصر ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة، وهي الطريق إلى الماء شبه به الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ طريقاً واضحاً في الدين، من نهج الأمر: إذا وضح.

واعلم أن هذه الآيات أبانت أن شريعة محمد وشريعة موسى وشريعة عيسى عليهم الصلاة والسلام متباينات، وهناك آيات أخرى تقدمت وستأتي أن الشرائع متفقات كما في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾[الشورى: ١٣] الخ، فآيات الاتفاق راجعة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفعل الفضائل العامة واجتناب الرذائل.

فأما الاختلاف بين هذه الديانات ففي الفروع كطرق العبادات وبعض الأحكام التي تتغير بتغير الأزمنة، لأن الله جبل هذا العالم على الاختلاف ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعة متفقة على شريعة واحدة ودين واحد لا اختلاف فيه ﴿وَلَٰكِن﴾ أراد أن يختبركم، فكما غاير بين صوركم وأخلاقكم وأوطانكم وأحوالكم، غاير بين شرائعكم ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ يختبركم ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة، هل تعملون بها أم لا، وهل تذعنون لها معتقدين أن اختلافها مقتضى الحكمة الإلهية بنظركم الثاقب وفهمكم لما تشاهدون من نظامنا العجيب الدالّ على الحكم في الاختلاف في المشاهدات الحسية التي يترتب على اختلافها الآثار النافعة ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فابتدروها انتهازاً للفرصة فلا تشغلوا الفكر فيما يوقعكم في الشك والريب كالاختلاف المذكور، فلا تقولوا: لا نبالي بالشكوك التي تجول بخواطرنا، ولنسر في ديننا، ولا نسأل عن هذا الاحتراق في أفئدتنا الناجم من الشكوك المؤلمة، بل يجب الفكر في أسبابه لأننا إنّما نختبركم لتظهر آثار قواكم الفكرية وعجائب عقولكم، فعلى أولي الألباب منكم أن يعكفوا على الفكر في كل ما اشتبه لأننا خلقنا عقولكم لهدايتكم، فالكتب السماوية جاءت لفتح باب الفكر، وبالفكر فيما التبس تكون الهداية ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ وكيف ترجعون إليه ناقصين بلهاً متحيرين، فهو عليم بالمقصرين منكم والمبادرين ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فينزل المقصرين عن درجة المبادرين ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي أنزلنا إليك الكتاب وأن تحكم بينهم أي والحكم بما أنزل الله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي يضلك أحبار اليهود فتحكم لهم وتقضي على خصومهم من اليهود على أن يؤمنوا بك فيتبعك عامة اليهود كما تقدم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي ذنب التولي عن حكم الله الذي هو بعض ذنوبهم الكثيرة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ متمردون في الكفر ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وهو الميل والمداهنة في الحكم ومتابعة الهوى كما يريد بنو النضير. وقد تقدم هذا في مقدمة هذا المقصد ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني أيّ حكم أحسن من حكم الله إن كنتم موقنين أن لكم رباً وأنه سبحانه عدل في أحكامه. اهـ المقصد السادس.

المقصد السابع

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

التفسير اللفظي

يروى أن عبادة بن الصامت قال: إن لي أولياء من اليهود كثيراً عددهم شديدة شوكتهم، وإني

أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم ولا مولى لي إلاّ الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبيّ ابن سلول للنبي: لا أبرأ من ولاية اليهود فإني أخاف الدوائر ولا بد لي منهم.

وأيضاً لما اشتد الأمر على طائفة من الناس في وقعة أحد وتخوفوا إن يدال عليهم الكفار، قال رجل من المسلمين: أنا ألحق بفلان اليهودي وآخذ منه أماناً إني أخاف أن يدال علينا اليهود، وقال رجل آخر: أنا ألحق بفلان النصراني من أهل الشام وآخذ منه أماناً.

وأيضاً كان أبو لبابة بن عبد المنذر قد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة حين حاصرهم استشاروه في النزول وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا؟ فجعل أصبعه في حلقه مشيراً إلى أنه الذبح وأنه يقتلكم.

هذه هي الأسباب التي ذكرها المفسرون الأجلاء لنزول هذه الآية التي تراد لتهذيبنا اليوم، وتعليمنا كيف نكون أمة عزيزة الجانب موفورة المنزلة باتحاد الكلمة وهي: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ أنصاراً وأعواناً على أهل الإيمان بالله ورسوله. ألا ترون أيها المؤمنون أن بعض اليهود أعوان بعض عليكم؟ وبعض النصارى أعوان بعض عليكم، فكيف تتخذون منهم أولياء؟ إن من يتخذ منهم أعواناً فإنه منهم، وهو يكون ظالماً لنفسه ولأمّته بمعاونته أعداءهم، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

ثم أخذ يفصل ذلك بنحو ما تقدم في الأحاديث فقال: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ نفاق ﴿ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي في موالاتهم ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ من دوائر الإيمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وإظهار دينه على الأديان كلها وإظهار المسلمين على أعدائهم من الكفار واليهود والنصارى وفتح مكة وفتح قرى اليهود كخيبر وفدك ونحوهما من بلادهم ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ مثل أن يقطع أصل اليهود من أرض الحجاز ويخرجهم من بلادهم بلا كلفة وتعب، كما ألقي الرعب في قلوبهم فأخلوا ديارهم وخربوها بأيديهم وحملوا إلى الشام ﴿ فَيُصْبِحُواْ ﴾ أي يصبح المنافقون المذكورون ﴿ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ على ما أبطنوه من الكفر والشك وعلى موالاة هؤلاء ولذلك تحقق ما ذكر.

واعلم أن «عسى» من الله واجب، لأن الكريم إذا أطمع في خير فعله، وهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به ورجائها له. وهنا يخطر سؤال فيقال ماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ فقال: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ﴾ أي يقول المؤمنون بعضهم لبعض تعجباً من حال المنافقين وفرحاً بما منّ الله عليهم من الإخلاص ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾ أي بطل ما كانوا يعملون من الخيرات لأجل ما أظهروه من النفاق وموالاة اليهود ﴿ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾ دنياهم بافتضاحهم لموالاتهم من هزمهم الله، وفي الآخرة أيضاً بإحباط ثواب أعمالهم.

الكلام على الردة

اعلم أنه قد ارتد من العرب في أواخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث فرق: بنو مدلج، وبنو حنيفة، وبنو أسد. وسبع فرق في عهد أبي بكر رضي الله عنه: فزارة، وغطفان، وبنو سليم، وبنو يربوع، وبعض تميم وكندة، وبنو بكر بن وائل، وفرقة واحدة ارتدت في خلافة عمر بن

الخطاب وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم. هؤلاء هم الذين ارتدوا من العرب في زمان النبوة وبعدها إلى زمن عمر رضي الله عنه.

قتال أهل الردة

أما الفرق التي ارتدت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن بني مدلج كان رئيسهم ذا الحمار الأسود العنسي، تنبأ باليمن واستولى على بلاده، ثم قتله فيروز الديلمي ليلة قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من غدها، وأخبر الرسول في تلك الليلة فسر المسلمون وأتى الخبر في أواخر ربيع الأول.

وأما بنو حنيفة: فهم أصحاب مسيلمة الكذاب، تنبأ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد: فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك». فأجاب رسول الله: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»، فحاربه أبو بكر بجند من المسلمين، وقتل كما سيأتي.

وأما بنو أسد: فهم قوم طلحة بن خويلد، ولقد تنبأ فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً، فهرب بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه.

هذه هي الفرق التي ارتدت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما الفرق السبع التي ارتدت في زمن أبي بكر رضي الله عنه، فاعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قبض ارتدّ عامّة العرب إلاّ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من بني عبد القيس، فإنهم ثبتوا على الإسلام ونصر الله بهم الدين.

ولما ارتدّ من ارتدّ من العرب ومنعوا الزكاة همّ أبو بكر بقتالهم، وكره ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال عمر: كيف نقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ودمه إلاّ بحقه وحسابه على الله»، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً أو قال عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها.

وقال أنس بن مالك: كره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال مانعي الزكاة، وقالوا هم أهل القبلة، فتقلد أبو بكر سيفه وخرج وحده، فلم يجدوا بدأ من الخروج على أثره.

وقال ابن مسعود: كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه في الانتهاء.

وأثنى أبو حصين على أبي بكر لبسالته، وقال: إنه أفضل من ولد بعد النبيين لقتاله أهل الردة.

ولقد أرسل خالد بن الوليد في جيش كبير إلى بني حنيفة باليمامة وهم قوم مسيلمة الكذاب، فأهلك الله مسيلمة على يد وحشيّ غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة.

والفرق السبع التي ارتدت في زمن أبي بكر لما حاربها رجعت إلى الإسلام بجيوش من الصحابة ومن معهم. وأما التي ارتدت في زمن سيدنا عمر فهي «غسان» قوم جبلة بن الأيهم تنصروا وساروا إلى الشام.

من هم القوم الذين يحبون الله ويحبهم الله

هم الصحابة الذين قاتلوا أهل الردة وأهل اليمن، وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل اليمن كما أثنى على الصحابة، إذ قال: «أتاكم أهل اليمن، هم أرقّ أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية». وكذلك الأنصار الذين هم قسم من الصحابة وقوم من اليمن، منهم ألفان من النخع، وخمسة آلاف من أهل كندة وبجيلة، وثلاثة آلاف من أخلاط الناس جاهدوا يوم القادسية مع عمر، وكذلك الفرس، لأنه عليه الصلاة والسلام سئل عن القوم الذين يحبهم ويحبونه، فضرب يده على عاتق سلمان وقال: هذا وذووه.

هؤلاء هم الذين وردت الأحاديث المختلفة بأنهم الذين يحبهم الله ويحبونه وأن ذلك معجزة، فإن ردّة العرب ورجوعهم للإسلام ونصر الله للمسلمين بجنوده، كل ذلك كان مغيباً.

واعلم أن ما في هذه الأحاديث ليس حاصراً لمن يحبهم الله ويحبونه، فإن معنى حب الله العبد: إرادة الهدى والتوفيق له في الدنيا، وحسن الثواب له في الآخرة. ومعنى محبة العباد له: إرادة طاعته والتحرز من معصيته، وليس ذلك خاصاً بهؤلاء، بل إن الأمم الإسلامية كلما خمدت أمة جاءت أمم، حتى إنك لترى التتار الذين جاؤوا من بلادهم وأزالوا الدولة العباسية على يد أبناء جنكيز خان، وقتلوا الخليفة العباسي وحكموا الإسلام، هم الذين أسلموا بعد ذلك، وهم في بلاد الروسيا الآن وعلى نهر فولجا وغيره، ويبلغون عشرات الملايين.

كذلك يوجد أمم أسلمت في جزائر الهند الشرقية نحو ٦٢ مليوناً من جاوة وما والاها من البلدان، وكذلك في الصين وفي السودان، ولا يزال الإسلام ينتشر للآن.

أفليس هؤلاء من يحبهم الله؟ نعم، يحب الله من صلح من هذه الأمم وقام بالأمر خير قيام.

وكذلك أسلم في زماننا من عظماء الإنجليز اللورد هدلي، وقد قابلته فرأيته رجلاً عظيماً بعد ما قرأت رسائله في الإسلام خصوصاً بعد ما زار الأقطار الحجازية وأدى فريضة الحج، فكل هؤلاء داخلون في المحبة المذكورة.

فالله بهذه الآيات يقول لنا: كلما ارتدت أمة عن الإسلام دخلت فيه أمة أخرى، لأن الإسلام وحي أراد الله بقاءه ليكون من الموازين التي ينصبها الله للعدل وللحياة في الأرض، فهذا هو قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ومعنى ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم، جمع ذليل لا ذلول، فإن جمعه ذلل، وقوله: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أي شداد متغلبين عليهم من عزّه إذا غلبه. وقوله: ﴿ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ صفة أخرى لقوم، وقوله: ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ عطف على «يجاهدون»، فهم جامعون للمجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينه، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي المتقدم من الأوصاف ﴿ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ يمنحه ويوفقه له ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ كثير الفضل عليم بمن هو أهله.

ولما أتم الكلام على الردة المذكورة في غضون النفاق لمناسبتها له ولقربها منه لاقتراب المنافق من مراتب الكافرين، وازدلافه إلى دركات المرتدين، أخذ يتكلم على النفاق والموالاة، ومن الذين نواليهم فقال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾.

لما أسلم عبد الله بن سلام قال: «يا رسول الله، إن قومنا بني قريظة والنضير هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا، فنزلت فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبد الله بن سلام: رضينا بالله رباً، وبرسوله نبياً، وبالمؤمنين أولياء».

واعلم أن الآية عامة، ولا سبب من الأسباب الواردة يخصصها، فهو يقول: إن أهل معونتكم وموالاتكم هم المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم متواضعون لا متكبرون عليكم، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾، ثم أبان أن من اتبع هذا الفريق فإنه فائز لأنهم هم الغالبون، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ يعني فإنهم هم الغالبون، لكن وضع الظاهر موضع المضمر تعظيماً لشأنهم.

ثم أخذ يشرح الموضوع زيادة إيضاح لأهميته فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾. والمعنى أن أهل الكتاب الذين اتخذوا الدين هزؤاً ولعباً، والكفار وهم عبدة الأصنام، لا يجوز للمسلمين أن يتخذوهم أنصاراً وأولياء، وهذا على قراءة النصب، بعطف «الكفار» على «الذين اتخذوا دينهم»، وقرأ بالجر أبو عمرو والكسائي ويعقوب، فيكون الذين اتخذوا الدين هزواً ولعباً من أهل الكتاب ومن عبدة الأوثان وهم الكفار معاً، وعلى كل من القراءتين لا تجوز موالاتهم.

روي أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أحرق الله الكاذب، فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام، فتطاير شررها في البيت فأحرقه وأهله.

وروي أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادّونهما، فنهى الله عن موالاة هؤلاء جميعاً.

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي بترك ما نهاكم عنه، وقوله: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي بوعده ووعيده وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ لأن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهزؤ به والعقل يمنع منه.

ثم إن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن يؤمن به، فقال: «أؤمن ﴿ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾» [البقرة: ١٣٦] فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام: لا نعلم ديناً شراً من دينكم، فقال الله له: ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ ﴾ هل تنكرون منا وتعيبون؟ يقال: نقم منه إذا أنكره، وانتقم إذا كافأه ﴿ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي لا تنكرون منا إلاّ إيماننا بالله وما أنزل إلينا من القرآن وما أنزل إلى الأنبياء واعتقاد أن أكثركم فاسقون. وهذا على حدّ قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فلول من قراع الكتائب

فهل الحق ينكر، أو الخير يعاب؟ آمنا بالأنبياء الذين أرسلهم الله، فنقمتم علينا واعتقدنا أنكم فاسقون خارجون عن سنن الحق بتحريفكم في دينكم وكفركم بديننا وهذا صدق، فكيف تنكرون وتعيبون ذلك؟ وكيف تقولون لا نعلم ديناً شراً من دينكم ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ جزاء وثواباً عند الله، والمثوبة في الخير كالعقوبة في الشر ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ

عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ﴾ بدل من « شر » أي بشرّ من أهل ذلك ، وهؤلاء هم اليهود أبعدهم الله من رحمته ومسخ بعضهم قردة وخنازير وهم أصحاب السبت ، إما مسخاً جسمياً وإما مسخاً معنوياً بأن صاروا مقلدين كالقرود وذوي شهوات كالخنازير ، بسبب المعاصي التي ارتكبوها بمخالفة التوراة ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ معطوف على صلة « من » ، أي أطاع الشيطان فيما سوّل له . وفي معناه العجل الذي عبده الكهان والأحبار والرهبان الذين اتبعوهم فيما أحلوا وحرموا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الملعونون ﴿ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ وإذا كان مكانهم شراً فهم أولى بالشر ﴿ وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي قصد الطريق المتوسط بين غلوّ النصارى وقدح اليهود ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ أي اليهود ، فإنهم نافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عامّة المنافقين ﴿ وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ من الكفر ، وفيه وعيد لهم ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي من اليهود أو المنافقين ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ ﴾ أي ما يختص بهم من الحرام ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ ما يتعدّى إلى غيرهم ﴿ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ أي الحرام ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ لبئس شيئاً عملوه ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ « لولا » إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض . يقول الله : هلاّ ينهاهم هؤلاء العلماء الزاهدون والعابدون عن قول الإثم وأكل الحرام ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ وهذا توبيخ لهم وتقريع أشدّ من تقريع العامّة الذين قرعهم على عملهم ، وهؤلاء قرّعهم على صنعهم ، والصنع لا يكون إلاّ بعد التروي .

وهؤلاء العلماء قد أمسكوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قصداً وعمداً للمحافظة على رئاستهم وأخذ الأموال بالباطل ، والعالم أولى بالعقاب من الجاهل . فالعلماء أقرب الناس إلى العذاب في كل أمة متى قصروا عن النصيحة للأمم .

ولقد كان اليهود أغنياء ، فلما كانت أيام النبي صلى الله عليه وسلم قل مالهم ، فقالت اليهود : إن الله ممسك مقتر ، وهذا قوله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ فهو مجاز ، إما عن البخل أو الفقر ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ دعاء عليهم بالبخل والنكد ، أو بالفقر والمسكنة ، أو بغلّ الأيدي حقيقة ليكونوا أسرى في الدنيا ويوم القيامة ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ثنى اليد مبالغة في نفي البخل وإثبات الجود ﴿ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ أي يرزق كما يريد ويختار ، فيوسع على من يشاء ويقتر على من يشاء ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ فترى النصارى مختلفين مذاهب دينية وعقائد .

وهكذا اليهود وذلك موجب لتفرق الكلمة ، فكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بالتخاذل ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ أي للفساد ، وهو اجتهادهم في الكيد وإثارة الحرب والفتن وهتك المحارم ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فلا يجازيهم إلاّ شراً ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ ما ذكرناه من المعاصي ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ بإذاعة ما فيها من نعت محمد صلى الله عليه وسلم والقيام بأحكامهما ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي سائر الكتب المنزلة ﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن

تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي لوسع الله عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض أو بكثرة ثمر الأشجار وغلة الزرع ونموّه ووفرته ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ متوسطة في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس ما يعملونه، وفيه تعجيب، أي: أسوأ عملهم، وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض والإفراط في العداوة. انتهى التفسير اللفظي.

لطائف

اللطيفة الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

اللطيفة الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ الآية.

اللطيفة الثالثة: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾.

اللطيفة الرابعة: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾.

اللطيفة الأولى

ليس المقصد من اليهود والنصارى خصوصهما، وإنّما ذلك يراد به أن يحفظ كيان الدولة ولا يفرق الجمع بالتخاذل والاتفاق السري مع الأعداء من أي دولة ومن أي دين، وإلاّ فقد جاء التتار من جهة المشرق وأزالوا دولة العرب، واتحد معهم الوزير العلقمي سراً، وذهبت الدولة لهذا الغدر.

فهل كان يجوز لذلك الوزير، ذلك لأنهم ليسوا يهوداً ولا نصارى بل هم مجوس. كلا، لا تجوز موالاتهم، قال الشاعر إذ ذاك:

يا أمة الإسلام قومي واندبي وابكي على ما تمّ للمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وهذا الوزير كان شيعياً، وأوراد بذلك النكاية في أهل السنة الذين هم سنيون. ثم إن التتار خربوا الديار وفتكوا بالأمة فتكاً شنيعاً بسبب موالاة الوزير لهم وانشقاقه على المسلمين.

وأيضاً إذا عاهدنا أمّة كتابية فإنا نفي بعهدهم، وكذلك أهل الذمة ندافع عنهم ونحوطهم بعنايتنا، وإذا عاهدنا قوماً فلنف بعهدهم ونحارب معهم على أي دين كانوا، وجاء في سورة الممتحنة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩]. فالقرآن يرجع فيه للعقل وللتفصيل والبحث والتنقيب. فأما العمل بالآيات بدون بحث فإنّما هو فعل الغافلين.

اللطيفة الثانية

يقول الله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ الخ، وأنا أورد حكاية لمناسبة هذه الآية، فأقول:

الحكاية: توجهت يوماً إلى أحد أصحابي بدكانه جهة باب الخلق بالقاهرة، فسلمت عليه فرد السلام، وقد رأيت رجلاً معمماً جالساً معه، فقال: أنا أحب أن أعرفك بفلان المبشر، فقلت: كلنا مبشرون، فقال ذلك الضيف: وهل يبشر إلاّ بابن الله الوحيد؟ فقلت: كلمني بالعقل وليكن حكماً،

إما أن تقولوا إن العالم ليس له إله، وإما أن تقولوا له إله، فقال: وكيف ذلك؟ قلت: إذا كان الله يترك العالم بلا هاد ولا مرشد مئات الألوف من السنين، ثم يأتي في آخر الزمان ويقول لهم: هذا هو ابني الوحيد يهديكم، أفليس ذلك معناه البخل والجمود؟ والإله الذي يترك عباده هكذا سبهللاً ثم يتذكرهم آخراً ليس بكريم. وإذن يكون هذا ليس بإله، فالإله متصف بأجمل الصفات وأبهاها، فقولكم هذا معناه أنه لا إله في العالم. فلما سمع ذلك مني اتجه بالكلام إلى جهة أخرى وقال: ما الذي فعله نبيكم وليس كل فضل له إلاَّ في فصاحة القرآن بالإيجاز، مع أن امرأ القيس قال:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وهذا في الإيجاز لا ينقص عن القرآن.

فقلت له: إذا كان هذا هو البلاغة في نظرك، فاسمع مني «العالم منظم» وهذه الجملة على إيجازها تجمع التوراة والإنجيل والقرآن وجميع الكتب السماوية وسائر الديانات، فهل أنا بقولي هذه الجملة الجامعة الآن أصبحت فوق النبيين؟ قال: كلا، قلت: إذن لا معنى لهذا القول، فقال: إن نبيكم علمه رجلان، قلت له: أنتم أخذتموها من قول الكفار: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[النحل: ١٠٣] وأنا أقول لك: أي نبي لم يتعلم؟ ألم يتعلم موسى؟ ألم يتعلم عيسى؟ أليس كل نبي لا بد له من طريق يسير فيه؟ أفليس يسأل الناس عنها؟ أفليس له ظئر ترضعه ومربية؟ قال: بلى، قلت: هذا تعليم، ثم قلت له: ألست ترى أن المعلمين في المدارس المصرية وفي الأزهر يتعلمون؟ قال: بلى، قلت: ومعلموهم لم يكن لهم نظير في العلم أيام النبي صلى الله عليه وسلم، قال: نعم، لأنهم كانوا جاهلية، قلت: فإذا كان الأمر كذلك، وأن المدار على التعليم فلماذا لم نكن جميعاً أنبياء؟ يا فلان، أنا أقول الحق، إن هذه المحاورات التي يقولها المبشرون إنَّما جعلت لأكل الخبز، وإلاَّ فبالله إذا أراد الناس الحق فلماذا ينكر النصارى على نبينا هدايته للناس؟ أليس يأمرهم بفعل الطاعات وترك المعاصي؟ قال: بلى، قلت: أليس المسيح جاء ليهذب الناس فكرهه أتباع موسى وكفروه؟ قال: بلى، قلت: أنا أشهد أن أكثر المتدينين لا يريدون إلاَّ الخبز والملبس والشهوات.

وهكذا قال علماؤنا المفكرون: إن علماء الدين في أكثر الأمم عقولهم أقرب إلى عقول العامة يسعون للخبز. انظر يا فلان، ألسنا نقرأ كلام «شكسبير» الإنجليزي، و«روسو» الفرنسي، وجميع علماء الأمم يقرأ بعضهم كلام بعض بسرور، فما بال القسيسين من النصارى يكرهون من جاء بعدهم ليهدي الناس إلى الحق. والحق أقول، إن هذا لأجل الخبز، والإنسانية ضائعة في هذه المجادلات والمحاورات. فقال صاحب الدكان: يا فلان، إن هذا المبشر يصلي سراً صلاة إسلامية، وهو في الجهر يعيش مع المبشرين ويأكل من صناعة التبشير، فوافق المبشر على ذلك.

اللطيفة الثالثة

حكاية مع شاب هندي

قابلني منذ أيام شابٌ هندي، فرأيته لابساً ملابس قطنية مغزولة باليد، منسوجة بنسج غليظ الخيطان، ومن هذا النسج قلنسوته على رأسه وثيابه على جسده، فقلت له: أهذا صناعة بلادكم؟ فقال: نعم. فقلت له: أنت اليوم في مصر، فهل يمنع أن تلبس كالمصريين؟ فقال: لو فعلت ذلك لكنت

خارجاً عن الوطنية والعهود التي أخذت علينا . فقلت له : وكيف ذلك؟ قال : أخذ علينا العهد الوطني أن لا نلبس إلاَّ ما نسجه الهنديون وغزله الوطنيون بعد الثورة الهندية . فقلت له : حدثني عنها . فقال : إن الهنود الوثنيين ليس بينهم رابطة لاختلافهم أدياناً ، حتى إن كل جماعة منهم تبلغ ١٥ مليوناً في المتوسط لها دين خاص بها ، ولما أراد الرئيس غاندي «الزعيم الهندي» هو والرؤساء المسلمون الثورة ، لم يجدوا باباً يلجونه إلاَّ مدرسة كره الإسلامية ، فقالوا للتلاميذ ابدؤوا بالإضراب ، فأضربوا فاتبعهم جميع الوثنيين ، وكان ما كان من هذا الميثاق الوطني ، وليس عندنا رئيس يخالف الميثاق ولا مرؤوس ، فقال قائل : إن الرؤساء في مصر قد يخطئون في أعمالهم ، فقال : ليس عندنا كذلك ، بل الشعب واقف لهم بالمرصاد ، قال تعالى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ فأعجبني حسن بيانه ، وأيقنت أن هناك روحاً في الإسلام استجدت لم تكن من قبل ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج : ٤٠] ، وهذه الحكاية تقدمت ولكن هنا زيادة تناسب المقام .

اللطيفة الرابعة : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾

اعلم أن هذه القاعدة طبيعية إلهية ، لقد خلق الله أنواع الحيوان ، وسلط الآساد على الغزلان ، ولكنه قلل من نسل الصنف الأول وأكثر من نسل الصنف الثاني حتى يبقى ما هو مأكول لقلة ما هو آكل ، وهكذا يجعل في نوع الإنسان قوانين لبقائه وشروطاً لحياته .

ألا ترى أنه يحدث بين الدول تصادماً واختلافاً ، وهذا الاختلاف لولاه لأهلك بعض الأمم بعضاً ، فيقولون : يجب حفظ التوازن ، ومتى حفظ التوازن لا تستبدّ إحدى الدول بالأمم الصغيرة . فلذلك نجد أمم أوروبا تجتمع من جهة على إضعاف أهل الشرق ، ومن جهة أخرى لا تسمح واحدة منها لأخرى بابتلاع بلاد كثيرة ، خيفة أن تكبر عليهن وتعظم ، ومع ذلك تراهم دائبين في إيقاع الفتن والشرور والعداوات بين الأمم الشرقية ، ليدوم لهم العز والسلطان ، ويسودوا في بلادنا ، والرؤساء في بلادنا يوالونهم ، وهم يملؤون قلوبهم حباً للجشع والشره ، فهذا هو إيقاد نار الحرب وذلك إطفاؤها . انتهى المقصد السابع .

المقصد الثامن

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟

وَحَسِبُوٓاْ ... وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

التفسير اللفظي

اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد شجّ رأسه وكسرت رباعيته، وهذا قد تقدم في غزوة أحد، وهكذا أيضاً تقدم حديث الأعرابي الذي أراد قتله بالسيف فسقط من يده وهو تحت الشجرة، ثم تناول السيف صلى الله عليه وسلم فأسلم الرجل بعد أن تمكن النبي صلى الله عليه وسلم من قتله فلم يقتله.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بعثني الله برسالته فضقت بها ذرعاً، فأوحى الله تعالى إليّ: إن لم تبلغ رسالتي عذّبتك، وضمن لي العصمة فقويت».

وعن أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية، فأخرج رأسه من قبة أدم، فقال: انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس». وهذا قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي جميع ما أنزل إليك، ولا تراقب أحداً، ولا تخف مكروهاً، ولا تبال باستهزاء اليهود ولا بكراهة المنافقين الجهاد، ولا باستثقال اليهود حكم الرجم الذي حكمت به، وهو موافق للتوراة ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرت ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ فما أدّيت الرسالة، لأن كتمان البعض يضيع ما أدّى منها، كما تبطل الصلاة بترك ركن فيها، ويموت الحي بقطع رأسه أو قلبه أو عضو رئيس أياً كان من أعضائه، وإن خفت الناس فقد حفظتك منهم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهذا عدة من الله وضمان أن يعصم روحه من تعرض الأعادي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ لا يمكنهم مما يريدون بك. وهكذا كل من كتم شيئاً من الدين، فإنه لم يبلغه، ويكون ترك البعض كأنه ترك الكل.

ألا ترى أن رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع بن حرملة لما قالوا: يا محمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها حق؟ أجابهم قائلاً: بلى، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق، وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس، فأنا بريء من أحداثكم، قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا، فإنا على الحق ولا نؤمن لك ولا نتبعك، فهاهو ذا يقول لهم: قد كتمتم، فكتمان بعض الدين لم يجز في الإسلام كما لم يجز فيما قبله، وهذا هو قوله تعالى بعد ما تقدم: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ دين يعتدّ به ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ومن إقامة الدين الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿ فَلَا تَأْسَ ﴾ لا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الخ، تقديره: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ـ مما أمامهم ـ ولا هم يحزنون ـ على ما فاتهم ﴿ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ ﴾ كذلك، وإنما أفرد الصابئين دون الأديان لأنهم أشد إنكاراً للأنبياء، يقولون إننا لا نتبع إلاّ الملائكة، فأما البشر فإنهم متساوون، ويزعمون أن الملائكة هم الذين يعلمونهم، فقيل لهم: من لقنكم هذا؟ فقالوا: هذا شرع إبراهيم، قيل لهم: فإبراهيم إذن نبيكم، فثبت أن البشر يكونون واسطة بين الناس وبين الملائكة، والمحاورة هناك مبسوطة في كتاب «الشهرستاني».

ومعنى هذه الآيات أن من آمن من أيّ دين وعمل صالحاً فإن الله يجازيه على ذلك خيراً بالجنة وبالنجاة من النار، وقد تقدم نظيرها في سورة البقرة، ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ﴾ ليذكروهم ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ ﴾ منهم ﴿ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ فقوله: «كذبوا» جواب «كلما»، وجملة «كلما» صفة رسلاً ﴿ وَحَسِبُوٓا۟ ﴾ أي بنو إسرائيل ﴿ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي أن لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم ﴿ فَعَمُوا۟ ﴾ عن الدين وعن الدلائل والهدى ﴿ وَصَمُّوا۟ ﴾ عن استماع الحق كما فعلوا حين عبدوا العجل ﴿ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ثم تابوا فتاب الله عليهم ﴿ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ﴾ كرة أخرى ﴿ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ بدل من الضمير ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيهم.

ثم أخذ يشرح حال النصارى بعد الفراغ من أمر اليهود، فقال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ هو ظاهر التفسير، إلى قوله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾ أي أحد ثلاثة، أي يقولون إنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم: أب وابن وروح قدس، وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالأب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وقالوا إن الكلمة هي كلام الله اختلطت بجسد المسيح اختلاط الماء باللبن، وقالوا: إن الأب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد.

ونقل المفسرون قولاً ثانياً: أن الثلاثة الله ومريم وعيسى، آلهة ثلاثة، والألوهية مشتركة بينهم، وكل واحد منهم إله، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ ولم يوحدوا ﴿ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي ليمسنّ الذين بقوا على الكفر منهم ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ ﴾ أي أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ ﴾ كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ﴾ ويفتقران إليه افتقار سائر الإنسان والحيوان.

فبهذا تبين ما عنوا به من الرسالة والصدق، ولهما مشاركون من نوع الإنسان، فأين الألوهية؟ وتبين أيضاً النقص الذي يساويهما مع أصغر المخلوقات، وهذا موجب للعجب من تصديق الألوهية، وهذا قوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لأتباع المسيح ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ ﴾ وكل ما جاء على يده بتمليك الله له لا من نفسه، فإذا كان هكذا في مشاركة المخلوقات له في النقص والكمال وليس له من نفسه ضر ولا نفع فكيف تعبدونه؟ وقوله: ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ ﴾ أي شيئاً لا يملك وهو عيسى عليه السلام ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بالأقوال والعقائد فيجازي عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي غلواً باطلاً، فترفعوا عيسى عليه السلام إلى أن تدعوا له الألوهية ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ عن طريق الشرع الحنيف، يعني أسلافهم وأئمتهم الذين ضلوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم في شريعتهم ﴿ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾ شايعهم على بدعهم وضلالهم ﴿ وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ضلالاً عقلياً أخلاقياً ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ﴾ أي لعنهم الله في الزبور والإنجيل على لسان داود وعيسى، فأهل أيلة لما اعتدوا في السبت لعنوا فيه ومسخوا قردة وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى أصبحوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بأوفى بيان ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكرات التي فعلوها ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ تعجب من سوء فعلهم ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي أهل الكتاب ﴿ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ ﴾ يوالون المشركين ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ لبئس شيئاً قدموه ليردوا عليه يوم القيامة، والمخصوص بالذم قوله: ﴿ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أن غضب عليهم، وقوله: ﴿ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾ أي في

الآخرة ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ ﴾ يعني نبيهم كموسى وعيسى ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ لأن دين الأنبياء لا يرضى بالشرك ﴿ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ خارجون عن دينهم ومتمردون في نفاقهم.

ثم أخذ يوازن ما بين النصارى واليهود مع المسلمين والمشركين، فقال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ لأنك ترى أن دين المسيح يأمر بالمسامحة والعفو والمغفرة وحب العدو والصديق والإحسان إلى الغريب والقريب، ولكن اليهود على خلاف ذلك، بل هم لا يريدون إلاّ أمتهم وحدها، وهم قديماً وحديثاً لا يريدون إلاّ أنفسهم ولو أضروا الناس بذلك، ثم أيد مودّة النصارى بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ﴾ أي علماء وعباداً ﴿ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فهم متواضعون؛ فالتواضع والإقبال على العلم والإعراض عن الشهوات كلها خصال محمودة، وإن كانت في كافرين.

نزلت هذه الآية حين هاجر المسلمون من إيذاء الكفار بمكة، كعثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والزبير، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي حذيفة، وغيرهم، وجميعهم ١١ رجلاً وأربع نسوة، وكان ذلك سراً في رجب في السنة الخامسة من البعثة، وهي الهجرة الأولى، ثم خرج جعفر بن أبي طالب وغيره، وهي الهجرة الثانية، حتى صاروا اثنين وثمانين رجلاً سوى النساء والصبيان، فوجهت قريش وفداً على رأسهم عمرو بن العاص ومعهم هدايا للنجاشي وبطارقته ليردوهم إلى قومهم، فقال عمرو بن العاص: قد خرج فينا رجل سفّه عقول قريش وأحلامها وزعم أنه نبي، وقد أرسل إليك رهطاً، فنسألك أن تردّهم إلى قومنا، فأحضر النجاشي المسلمين، وقال: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: يقول هو عبد الله ورسوله وكلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم العذراء، ويقول في مريم: إنها العذراء البتول، ثم طلب منهم ما جاء في ذلك فقرأ جعفر سورة مريم وهو والقسيسون والرهبان يسمعون، فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق، فلم ينل عمرو بن العاص شيئاً من المسلمين، ورجع بخفي حنين من عند النجاشي، وبقي القوم عنده إلى سنة ست من الهجرة، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان لما مات زوجها، فزوّجها له والمهر أربعمائة دينار، وأمر النجاشي أن يبعث إليها نساؤه مما عندهن من دهن وعود، فوردت أم حبيبة إليه صلى الله عليه وسلم وهو يحاصر خيبر، وكذلك جعفر وأصحابه وسبعون رجلاً عليهم الثياب الصوف، منهم ٦٢ رجلاً من الحبشة وثمانية من الشام، وسمعوا سورة يس من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك جاء ثمانون رجلاً، ٤٠ منهم من نصارى نجران، و٣٢ من الحبشة، وثمانية من روم أهل الشام فآمنوا. ففي هؤلاء وأمثالهم نزلت هذه الآية وما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ من الذين شهدوا بأنه حق وبنبوته، ولقد أرسل النجاشي ابنه أزهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم في ٦٠ رجلاً من أصحابه، وكتب إليه يقول: أشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت

ابن عمك جعفراً، وقد بعثت إليك ابني أزهى، وإن شئت أن آتيك فعلت، والسلام عليك يا رسول الله فغرق ابنه في البحر مع أصحابه ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي وأيّ شيء حصل لنا حال كوننا غير مؤمنين بوحدانية الله، والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ ﴾ عن اعتقاد ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي الذين أحسنوا النظر والعمل واعتادوا الإحسان في الأمور كلها ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وهو ظاهر التفسير. انتهى المقصد الثامن.

المقصد التاسع

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٨٨) لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (٩٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

لما كان مدح النصارى وتواضعهم وإنصافهم ربما جرّ المسلمين أن يفعلوا كما فعلوا، ويتركوا النساء ويكونوا رهباناً. لاسيما أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف القيامة لأصحابه يوماً وبالغ في إنذارهم، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين، وأن لا يناموا على الفراش، وأن لا يأكلوا اللحم والودك، ولا يقربوا النساء والطيب، ويرفضوا الدنيا، ويلبسوا المسوح، ويسيحوا في الأرض، ويجبوا مذاكيرهم، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «اللهم إني لم أومر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، ونزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الإفراط في كسر الشهوات كما لا يحب المفرطين في الشهوات بفعل الحرام ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حلّ لكم وطاب مما رزقكم الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ هو ما يبدو من المرء بلا قصد، كقولك: لا والله، وبلى والله، وإليه ذهب الشافعي، وقيل الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن، وإليه ذهب أبو حنيفة ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ أي كفارة نكثه، أي الفعلة التي تستره وتذهب إثمه ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي أن الكفارة بأحد أمور ثلاثة:

الأمر الأول

(١) إما أن يطعم عشرة مساكين بأن يغدّيهم ويعشيهم، عند أبي حنيفة.

(٢) أو يعطي لكل مسكين مدّ طعام، وهو رطل وثلث بالبغدادي من غالب قوت البلد، عند الشافعي، وكذا سائر الكفارات، وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ومالك وغيرهم.

(٣) أو مدّين من بر وهو نصف صاع لكل مسكين عند عمر وعلي وعائشة، وبه قال أهل العراق.

(٤) أو مدّين من الحنطة كما تقدم، وهو نصف صاع، ومن غيرها صاع، وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد.

(٥) أو مداً من البر لكل مسكين، ونصف صاع من غيره مثل التمر والشعير.

(٦) وجوّز أبو حنيفة إخراج القيمة في الكفارة كالدراهم والدنانير وإخراج الدقيق والخبز كذلك فمذهبه أوسع المذاهب في هذا. هذا هو الأمر الأول.

الأمر الثاني من الكفارات: الكسوة

(١) وهو إما ثوب جامع كالملحفة عند النخعي.

(٢) أو ثوب واحد مما يقع عليه اسم الكسوة، إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء عند ابن عباس والحسن وعطاء وطاووس والشافعي.

(٣) أو ما تجوز به الصلاة: فللرجل ثوب وللمرأة ثوبان: درع وخمار، وهو أدنى ما يجزئ في الصلاة، وهو قول مالك.

(٤) أو قميص وإزار ورداء، وهو قول ابن عمر.

(٥) أو ثوبان، وهو قول سعيد بن المسيب وابن سيرين.

الأمر الثالث من الكفارات: العتق

فيجب إعتاق رقبة مؤمنة وأجزأت الكفارة عند أبي حنيفة، هذه هي الثلاثة التي يخير بينها الحالف.

والنوع الرابع: الصوم

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ ﴾ الكفارة ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي فإذا عجز من لزمته الكفارة في اليمين عن الإطعام والكسوة والعتق، وجب عليه صيام ثلاثة أيام، ومتى كان عنده قوته وقوت عياله يومه وليلته وفضل ما يطعم عشرة مساكين لزمته الكفارة بالإطعام، وإن لم يكن عنده هذا القدر جاز له الصيام.

وقال أبو حنيفة: يجوز له الصيام إن لم يكن عنده من المال ما تجب فيه الزكاة.

وقال الحسن: إذا لم يجد درهمين صام، وقال سعيد بن جبير ثلاثة دراهم.

والتتابع في الصوم إما واجب عند ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وأبي حنيفة وأحمد، وأحد قولي الشافعي، وإما لا يجب والتتابع أفضل عند الحسن ومالك، والقول الثاني للشافعي ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ وحنثتم ﴿ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ بأن تضنوا بها ولا تبذلوها لكل أمر أو بأن تبروا فيها ما استطعتم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلكم البيان ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أعلام شرائعه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمة التعليم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ ﴾ الأصنام التي نصبت للعبادة ﴿ وَٱلْأَزْلَٰمُ ﴾ تقدمت في أول السورة ﴿ رِجْسٌ ﴾ قذر تعاف عنه العقول ﴿ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ أي الرجس ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وغيرهما وخصهما بالذكر لعظم قدرهما ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ هذا أبلغ حث على الانتهاء جاء بصيغة الاستفهام وهي أبلغ في الأمر.

واعلم أن الكلام على الخمر والميسر قد تقدم بأوسع بيان في سورة البقرة، فارجع إليه إن شئت ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ فيما أمرا به ﴿ وَٱحْذَرُواْ ﴾ ما نهيا عنه ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وإذا كان عليه البلاغ فقد أداه، فإذن أنتم أضررتم بأنفسكم.

فصل : في المطعومات

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ مما لم يحرم عليهم ﴿ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ في أنفسهم ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ﴾ بينهم وبين الناس ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾ بينهم وبين الله ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء .

ولما كان عام الحديبية ابتلى الله المؤمنين بالصيد ، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون ، فنزل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ فالذي تناله أيديهم الفرخ والبيض وما لا يقدر أن يفرّ من صغار الصيد ، والذي تناله الرماح كبار الصيد كحمر الوحش . وذلك الابتلاء كما ابتلى أصحاب السبت بصيد السمك فيه ، ولكن عصم الله المسلمين فلم يصطادوا ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ فصاد في حالة الإحرام بعد النهي ﴿ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الدنيا فيوجع ظهره وبطنه عند ابن عباس ، وهذا قول أكثر المفسرين .

وأما قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فقد تقدم تفسيره في مقدمة السورة . قال تعالى : ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ﴾ أي صيرها وسمى البيت كعبة لتكعبه ، وقوله : ﴿ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ عطف مبين للكعبة وفيه المدح ﴿ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ ﴾ الخ . ومعنى كون الكعبة قياماً للناس أنها انتعاش لهم ، أي : أنها سبب انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ، ويربح التجار عنده ويتوجه إليه الحجاج والعمار ، والشهر الحرام في هذا المقام ذو الحجة ، لأن الحج يؤدى فيه . والمراد بالهدي : ما يهدى إلى الحرم من الأنعام ، والقلائد ، أي : النعم التي تهدى وتقلد بنحو النعال أو لحاء الشجر أو غيرها ، وهي من عطف الخاص على العام .

ومحصل القول : إن الله عزّ وجلّ يمنّ علينا معاشر المسلمين ، يقول : إني جعلت لكم بيتاً تأتون إليه من كل فج عميق تحجون وتأمنون فيه على أنفسكم ، وفيه تؤدون المناسك وتهدون النعم المقلدة بالقلائد وغير المقلدة ، وكما جعلت لكم البيت الحرام حرماً وملجأ ومأمناً حرمت الشهر وأمرت بالكف عن القتال فيه ولو على سبيل الندب بعد النسخ .

من نظر إلى حال المسلمين اليوم في الهند والصين وبلاد جاوة والملايو والروسيا والحجازيين والنجديين وأهل البربر والسودانيين ، علم أن الكعبة حصن لهم وملجأ : مكان يتعارف فيه المتناكرون ويجتمع فيه المتفرقون .

ومن اطلع على أحوال الحجاج في تأدية المناسك ، كالطواف والوقوف بعرفة وغيرها ، ورأى كيف يلقح المصري فكر الهندي ، والمكي عقل الجاوي والمليزي والصيني والياباني ، عرف كيف أصبح المسلمون في أقطار الأرض على نمط متقارب ومبدأ يكاد يكون واحداً . فللكعبة والحج سر مكنون ، والكعبة شمس تشرق أنوارها على المسلمين ، فكم بزغت من تحت أستارها الأنوار ، واستضاء بإشراقها كوكب سيار ، واستنار بنورها بدر التمام . فإن بزغ في الهند كوكب طلع نوره في مكة المكرمة ، ومنها يشع على المسلمين بما ينقل الحجاج عن الحجاج ويذكر الصادرون أخبار الوارد .

ومن الآثار المشهودة والنفحات المحمودة والعجائب المعدودة، ما آنسته في إحدى السنين، إذ لقيني عالم صالح فاضل من علماء مكة صانها الله وحرسها، ولقد كنا تعارفنا قبل اللقاء بما كان يلقى إلينا من الأنباء من الحجاج الواردين والشيوخ الصالحين، فلما التقينا تعارفت الأشباح كما تعانقت من قبل ذلك الأرواح وتناجت النفوس، وأخبرني أن ذلك التعارف القلبي بسبب ما قرأه في نظام العالم والأمم من الآراء العلمية الموافقة للشريعة الإسلامية الغراء، وباحثني حفظه الله في عجائب الماء، وكيف يحلل إلى الأكسوجين والأودروجين، ورأيته مسروراً بذلك وفرحاً. وقد قال: لا سعادة للإسلام إلاّ بتطبيق العلوم الطبيعية على الآيات القرآنية، فحمدت الله عزّ وجلّ إذ جمع بين القلوب وأطلع على كل أرض من بلاد الإسلام كوكباً يضيء وبدراً مشرقاً. ولقد قابلت مثله من أكثر الأقطار وهم جميعاً متحدو الأفكار وإن تناءت الديار.

أليس ذلك من آثار البيت الحرام؟ فلولا تعارف الحجاج عند تأدية المناسك ما عرفت ذلك العالم ولا عرفني. ومن ذا الذي كان يخبرني خبره ويعرفني قدره؟ ذلك من آيات الله.

ولقد كنت كتبت نحو ذلك في كتاب «القرآن والعلوم العصرية» منذ أربع سنين، وقد قرأه العالم الإسلامي وانتشر والحمد لله، ولكني ما كنت أعلم أن ذلك الاجتماع يحصل في أيام حياتي؛ فهأنا ذا أقول لك أيها الذكي: لقد تجلى الحق وسطع وظهرت آيات الله الكبرى، فقد اجتمع المسلمون في هذه السنة في مكة المشرفة أيام عيد الأضحى، أي أثناء طبع هذا التفسير، وشكلت لجنة مؤلفة من علماء الهند وتركيا والأفغان والشام وفلسطين ومصر والسودان المصري وغير المصري، وبلاد الروسيا وجاوة وجميع العالم الإسلامي سنة ١٣٤٤ هـ. وهذا أول مجلس إسلامي اجتمع فيه المسلمون من سائر الأقطار يتشاورون في أحوال المسلمين وجزيرة العرب، وذلك بدعوة من الأمير ابن السعود.

ومن هذا تستدل على أن هذا التفسير ذو حظ عظيم، لأنه ينشر أيام النهضة وانقلاب الأحوال الإسلامية من الانحطاط إلى السؤدد والرقي والسعادة والحمد لله رب العالمين. وهذا من السر المكنون الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ الخ.

أليس هذا من العجب؟ ومن ذا الذي كان يعلم هذه الأسرار قبل ظهورها إلاّ مبدعها وخالقها، فلذلك قال بعدها: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ولطالما كنت أقرأ القرآن متفكراً في المعنى أيام الشباب، فإذا وصلت هذه الآية تعجبت من قوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ الخ، وأقول في نفسي: هل كون الكعبة محل نسك وحج وعبادة يحتاج إلى هذه العناية أو تعوزه هذه الرعاية؟ وما المناسبة لذكر علمه ما في السماوات والأرض لذكر الكعبة وجعلها انتعاشاً للناس في أمر دينهم ودنياهم. فلما أن فهمت ما أبنته لك علمت أن القرآن مفعم بالأسرار مملوء بالحكم، ولن يفهم الناس منه إلاّ على مقدار ما آتاهم الله من العلم.

ولتعلم أن ما ذكرناه من آثار الكعبة قطرة من بحر أو ذرة من جبل، فإنك لو تصفحت ما يجري في الأمم والممالك من تقلبات السياسة وتقلب القلوب ونشر الأخبار بواسطة الحجاج لقضيت العجب العجاب. ولسوف يرقى المسلمون بالمعارف والعلوم، وتكون الكعبة مشرق شمسها ومصب أنهارها، ومن يعش يره.

ثم أخذ يرغب في الطيب من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها، وينفر من الخبيث من ذلك كله، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ فالفرق بين الأشياء بالجودة والرداءة لا بالكثرة والقلة، فالمحمود القليل خير من المذموم الكثير ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ فلا تأخذوا الخبيث وإن كثر وآثروا الطيب وإن قلّ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ راجين أن تبلغوا الفلاح.

الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ ﴾ الخ

اعلم أنه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زاغت الشمس وصلى الظهر، فقام على المنبر فذكر الساعة، فذكر فيها أموراً عظاماً، ثم قال: من أحب أن يسألني عن شيء فليسأل، فلا تسألوني عن شيء إلاّ أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا، فأكثر الناس البكاء وأكثر أن يقول سلوا، فقام عبد الله بن حذافة البيهمي، فقال: من أبي؟ فقال: أبوك حذافة، ثم أكثر أن يقول سلوني، فبرك عمر على ركبتيه، فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، فسكت، ثم قال: عرضت عليّ الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر.

ولقد روي أن أم عبد الله بن حذافة قالت لعبد الله بن حذافة: ما سمعت بابن قط أعقّ منك، فأمنت أن تكون أمك قارفت بعض ما تقارف أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟ فقال عبد الله ابن حذافة: لو ألحقني بعبد أسود للحقته. وأيضاً قد كان قوم يسألون رسول الله استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟. وأيضاً لما نزلت: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾[آل عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فسكت، فقالوا: يا رسول الله، أكلّ عام؟ قال: لا، ولو قلت نعم لوجبت. ومما قال: «إنّما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، إذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

وأيضاً كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك، فنزلت هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ أي لا تسألوا عن أشياء إن تظهر لكم تغمكم، وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم، فمن سأل عن الحج، هل يأمن أن يقول له: نعم، يجب في كل سنة، فلا يطيقه الناس ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي عما سلف من الأسئلة ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل بالعقوبة ﴿ قَدْ سَأَلَهَا ﴾ الضمير للمسألة التي دل عليها «تسألوا» ﴿ قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴾ أي بسببها حيث لم يأتمروا بها، وقوله: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ تقدم تفسيرها في مقدمة السورة. ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ لقصور عقلهم ﴿ أَ ﴾ حسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ﴿ وَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ تفسيره ظاهر.

الكلام على قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الخ

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ ولا تضعونها موضعها ولا تدرون ما هي، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على

يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح، وزاد أبو داود فيه: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون أن يغيروا ولا يغيرون إلاّ يوشك أن يعمهم الله بعقاب»، قال ابن مسعود: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما قبل منكم، فإن ردّ عليكم فعليكم أنفسكم.

واعلم أن هذا لا يصح إلاّ إذا كان من أمرناه بالمعروف أقوى منا، فإن قدرنا على تأديبه بالقوة أدّبناه. ثم قال: إن القرآن نزل منه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آي وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير، ومنه آي يقع تأويلهن في آخر الزمان، ومنه آي يقع تأويلهن يوم القيامة، وهو ما ذكر من الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة لم تلبسوا شيعاً ولم يذق بعضكم بأس بعض، فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر إلى آخر كلامه. ويقصد بذلك أن القول إذا لم ينفع يترك، وهذه لا نرضاها، فإن المسلمين قد اتكلوا على مثل هذه الشبهة من أمثاله وهو من العظماء، ومثل هذا القول يجب أن لا نأخذ به، بل علينا الجهاد باللسان والقلم، والتحيل في توصيل الآراء إلى الناس كافة.

واعلم أن الأمة كلها كأنها نفس واحدة، فإذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فقد نفعنا هذه النفس التي نحن كجزء منها. وقد علمت فيما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الآية: ٣٢] أن الأمة كلها فضلاً عن الناس أجمعين يؤثر فيها جهل فرد واحد منها أو فقهه أو كسله، فنقص واحد نقص للمجموع. ويوافق هذا القول ما نقل عن عبد الله ابن المبارك، قال: هذه الآية أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الله تعالى قال: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني أهل دينكم بأن يعظ بعضكم بعضاً، ويرغبه في الخيرات، وينفره عن القبائح والمكروهات، والذي يؤكد ذلك أن معنى قوله: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي احفظوا أنفسكم، وهذا أمر بأن نحفظ أنفسنا، ولا يتم ذلك إلاّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول مؤلف الكتاب «التفسير»: هذا هو القول الحق، وإياك أن تلتفت إلى قول في أيّ مسألة من تفسير القرآن لا توافق الحقائق، فما كل من قال أجاد، وما ضلّ أكثر المسلمين إلاّ بالاتكال على أقوال بعض المتقدمين. وهذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ أي لا يضركم ضلال من ضل إذا اهتديتم، ومن الاهتداء أن ينكر المنكر، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من رأى منكم منكراً واستطاع أن يغيره فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»، والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. انتهى المقصد التاسع.

المقصد العاشر

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا

مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قد تقدم تفسير هذا المقصد في مقدمة السورة.

المقصد الحادي عشر

﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾

التفسير اللفظي

قوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ ﴾ على حذف مضاف، والتقدير: اسمعوا خبر يوم يجمع الله الرسل ﴿ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ أي أيّ إجابة أجبتم ﴿ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ بما كنت تعلم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ

عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ فتعلم ما نعلم مما أجابونا وأظهروا لنا، وما لم نعلم مما أضمروا ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ بدل من «يوم يجمع» والمقصود أنه يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم، وقوله: ﴿إِذۡ﴾ ظرف لـ«نعمتي» ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ قوّيتك بجبريل عليه السلام أو بالكلام الذي يحيا به الدين أو النفس حياة أبدية، ويطهره من الآثام ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ﴾ أي كائناً في المهد، و«كهلاً» أي تكلمهم في الطفولة والكهولة على حد سواء في كمال العقل والتكلم ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الكتابة وهي الخط ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ الفهم والاطلاع على أسرار العلوم ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ أي وعلمتك التوراة والإنجيل ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ﴾ أي تجعل وتصوّر من الطين كصورة الطير فتنفخ ﴿فِيهَا﴾ أي في الطير لأنها تكون مؤنثة ﴿فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ أي وتشفي الأكمه، وهو الأعمى المطموس البصر، ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ معلوم ﴿وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ﴾ من قبورهم أحياء ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك إذ كففت بني إسرائيل الخ ﴿إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ استمروا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝١١٠ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ ألهمتهم وقذفت في قلوبهم، فهو وحي إلهام، كما أوحى إلى أم موسى عليه السلام ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ «أن» هنا مفسرة ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ تفسيره ظاهر، واذكر ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ﴾ أي هل إذا سألته ينزل علينا مائدة، المائدة الخوان الذي عليه الطعام، ولا يسمى مائدة إن لم يكن عليه طعام، إنما يقال خوان أو طبق، وأصلها من ماد يميد إذا تحرك، كأنها تميد بما عليها من الطعام ﴿قَالَ﴾ عيسى للحواريين ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي اتقوا الله ولا تسألوا ما لا ينبغي أن يسأل عنه في الإيمان بالأنبياء، لأن المحسوسات لا تؤدي إلى العقائد وثبوتها كما حصل في بني إسرائيل إذ رأوا كثيراً من الآيات وكانوا بها يكفرون.

فهذه المائدة لا تفيدكم يقيناً، والمفيد لليقين إنما هو البحث والعلم والتنقيب، لأن عالم الحس لا سلطان له على القلوب إلاّ ظاهرياً، فإن كنتم مؤمنين ومصدقين فلا تسألوها واتقوا الله ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال على كمال قدرة الله ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ في ادّعاء النبوّة ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ حتى إذا استشهدتنا فنشهد عن عيان لا سماع للخبر، وفرق بين الخبر والمشاهدة ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ لما رأى أنهم لا يقلعون عنه ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا﴾ العيد يوم السرور العائد ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي فنتخذ ذلك اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً نعظمه ونصلي فيه نحن ومن يجيء من بعدنا، يقال: إنها نزلت يوم الأحد، وقيل: تكون المائدة عيداً يأكل منها أول طائفتنا وآخرها ﴿وَءَايَةٗ﴾ عطف على «عيداً» ﴿مِّنكَۖ﴾ صفة لها ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ المائدة ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير من يرزق، لأنه يرزق ويعطي بلا عوض ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إجابة لسؤالكم كما أجيب سؤال من في السماوات ومن في الأرض، ولكن ذلك يكون على مقدار حالهم ومقتضى سؤالهم، وإن كان ذلك لا يتفق مع مصلحتهم كما أعطى الغبي مالاً والجاهل ضياعاً وقرى ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ

أُعَذِّبُهُۥٓ ﴾ أي لا أعذب ذلك العذاب ﴿ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لأني أعذب العلماء أكثر من الجهلاء إذا فرطوا، وأنتم على حسب أخلاقكم وقوتكم رأيتم أن المائدة مقنعة لكم دالة على حقية النبوة، وأنا لا أخلط العالم المشاهد وأخرق نواميسه إلاّ لحكمة، فإذا لم تتم الحكمة ولم تؤمنوا فاللوم عليكم، وهل يكون العذاب معجلاً في الدنيا أم يؤجل للآخرة؟ احتمالان عند العلماء، وهل نزلت المائدة؟.

قال الحسن ومجاهد: كلا، لأنهم خافوا فلم تنزل، فيكون معنى ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ إن سألتم بعد هذا الإنذار والتخويف، وأكثر المفسرين على أنها نزلت.

ونقل المفسرون أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة. ثم قام فتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا شوك تسيل دسماً، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة: على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله، أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما، ولكنه اخترعه الله بقدرته، كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويردكم من فضله، فقالوا: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال: يا سمكة احيي بإذن الله، فاضطربت، ثم قال لها: عودي كما كنت، فصارت مشوية، فقالوا: يا روح الله، كن أول من يأكل منها، فقال: أنا آكل منها؟ يأكل منها من سألها، فخافوا أن يأكلوا منها، فدعا لها أهل الفاقة والمرض والبرص والجذام والمقعدين، فقال: كلوا من رزق الله لكم الشفاء ولغيركم البلاء.

ويقال: إنها بعد أن مكثت أربعين يوماً يأكل منها الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء، وتبقى منصوبة حتى يفيء الفيء، فإذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون إليها حتى تتوارى عنهم وكانت تنزل يوماً ويوماً لا تنزل، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها، وقالوا: ترون المائدة تنزل حقاً من السماء، فأوحى الله إلى عيسى: أني معذب من كفر على مخالفة ما شرطه عليهم. وهناك كلام كثير في مسخ أناس يعدّون بالمئات ونحو ذلك، وقد كتبت أهم ما جاء في الروايات.

لطيفة في تحقيق هذا المقام

لما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه أحد أهل العلم الذين لهم قدم صدق في العلوم العصرية فقال: (١) كيف يذكر في القرآن مثل هذا؟(٢) وما مثل هذه الحكاية إلاّ كما نقرؤه في «ألف ليلة وليلة» من الذي يخترعه العقل البشري شارحاً للنفس وجالباً للأنس. ثم بعد هذا ما فائدة هذا القول لنا معاشر المسلمين؟ وأي فائدة لنا في أن عيسى طلب أن تنزل مائدة من السماء؟ فقلت: إن القرآن ليس فيه شيء من ذلك، بل ليس فيه أن المائدة نزلت، بدليل اختلاف المفسرين كما رأيت؛ فالقرآن لم يذكر تلك الحكايات ولم يعلمنا ما جاء فيها، بل جاء الأمر مطلقاً ولم يقيده ولم يبين ما المائدة المطلوب نزولها من السماء، فأما كونها كحكاية «ألف ليلة وليلة» فليس يضرنا في شيء، لأن القرآن لم يذكر هذه الحكاية، قال: هذا حق، ولكن القرآن نفسه نزل فيه: ﴿ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ونزول

المائدة سواء أكان خبزاً أم ملحاً أم أفخر ما يأكله الملوك ، فذلك لا يمنع غرابتها ، فأما طهي الطعام ونظام الأكل وبهجة المائدة فهذا ليس يفرح به إلاّ الجهلاء ، ولكننا لا نفرق بين هذه الأمور ؛ فالمائدة هي المائدة فتصريح القرآن بذلك هو الذي يحتاج للبحث .

وكيف يعقل أن المائدة تنزل من السماء ، وإذا كان ذلك غير ممكن من الطبيعة البشرية فهو غير ممكن من الأنبياء ، فإني قرأت لك ولغيرك أنه لولا الناس يرون رؤيا صادقة أو يسمعون بها ممن حولهم ما صدّقوا الأنبياء ؛ فبناء على هذا كيف نصدّق شيئاً ليس في قدرتنا الحصول عليه من أنفسنا ، فكيف يأتي أنبياؤنا بأشياء ليست في فطرنا ، حتى تبرز على يد أحد من الناس ، فنأنس به ونقول : إنه ممكن في الفطرة البشرية ، والأنبياء بامتيازهم نبغوا فيه فصار معجزة لهم ، إن كل شيء أحتمله إلاّ هذه المائدة وتعقلها . فقلت له : إن الإخبار بالغيب بسبب الرؤيا الصادقة كما قلت في الفطر الإنسانية مع اختلاط الحق بالباطل فيه . هكذا نرى أن فطرنا الإنسانية فيها مبدأ ما جاء في القرآن على لسان المسيح ، قال : وكيف ذلك؟ قلت : نحن في هذا المقام نلجأ إلى عالم آخر . قال : وما هو؟ قلت : علم الأرواح . قال : إن هذا العلم لا أصدقه . قلت له : قل ما تشاء ، ولكن قولك هذا يشاركك فيه سائر الجهلاء ، فإني كنت في البلاد القروية وأنا بالجامع الأزهر أسمع من الفلاحين هذا القول ، ويقولون عن أمور هذه الآخرة والجنة والنار وما أشبهها : هذه أشياء أنتم كبرتموها لأجل وعظنا ، فهذا الإنكار لا فرق فيه بين المتعلم والجاهل الآن ، والذي يجب أن يكون هناك فرق ، بحيث يقول العالم : أنا لا أصدق ولا أكذب حتى أقف على الحقيقة .

هذا هو العقل والحكمة ، فأما إنكار المتعلمين فإنما هو رياء ليظهروا أمام الناس أنهم فلاسفة ، والإنكار الآن هو الباب الأعظم لظهور الناس بمظهر العظماء والحكماء ، وهم في أنفسهم ربما صدّقوا بأخسّ الأشياء . فهذا الفريق من الناس ضرره عظيم ، بل يجب عليهم أن يتعلموا ، قال : أنا معك في إظهار التوقف لا الإنكار . قلت : إذن أنت تتوقف في علم الأرواح؟ قال : نعم ، قلت : حسن ، وهل تظنّ أن أحداً منا يعرف جميع العلوم؟ قال : كلا ، قلت : أفلسنا كل يوم نسمع كلام الأطباء في الوباء والذرات الحية التي تفتك بأجسامنا ونحن لم نشاهدها ، وكذلك في علم الفلك يقولون : هناك نجوم لا تقل عن مائتي مليون ، ونحن لا نقول لهم كذبتم ، قال : بلى ، قلت : فهاهنا علماء الأرواح الذين ظهروا في أوروبا ، وقد قدّمت الكلام عليهم في سورة البقرة ، فتقرأ كلامهم وأنا معك ، إننا لا نوقن به ، ولكننا نطلع عليه حتى نبحث فيه بأنفسنا فيما بعد ، ويكون ذلك الكلام معرضاً للبحث منا ، لا أننا نقلدهم ، قال : هذا كلام حسن .

قلت : اقرأ ما نقلته عنهم في سورة البقرة ، فإن الجمعية الإنجليزية الرسمية الروحانية قررت هذا العلم وأنه صحيح ، وأنا أطلب أن يبحث المسلمون فيه فيما بعد ، قال : حسن ، قلت له : انظر ما نقلته في كتاب «الأرواح» الذي ألفته ، وتأمّل كيف جاء فيه أن للأرواح سلطة على المادة الأصلية لا تدركونها بعد ، وبفعل إرادة الروح تستطيع أن تضم العناصر الأصلية بعضها إلى بعض وتصوغ منها شكلاً على حسب ما تريد ، وفيه هناك أن الأرواح تقدر أن تصوغ أغذية وفواكه وأدوية ، وهذه الأدوية قد يبرأ بها العليل وتصيغ أطعمة .

وقد ضربت الأرواح مثلاً لذلك لما سألوها، فقالت: إن علم الكيمياء كل يوم يأتي لكم بالعجب العجاب، وللأرواح آلات غير آلاتكم، وهي الإرادة منهم وقدرة الله فوقهم، وقالوا: إن الروح كلما كان أرقى كان أقدر على الصنعة في المادة، وكلما كان أدنى كان أعجز.

وهذا ملخص مما نقل عن المعلم «ألان كاردك»، وروى العلامة «وللأس» الإنجليزي أن الآنسة «نيشول» أحضرت زهوراً وفواكه داخل غرفة محكمة الغلق، وكانت في منزلي، فبعد أن تناولنا الشاي لأننا كنا في فصل الشتاء، دخلنا حجرة صغيرة مغلقة بإحكام، وما مكثنا برهة من الزمان حتى لاح على المائدة التي جلسنا حولها كمية وافرة من الزهور منها شقائق النعمان والخزامى والأقحوان الأصفر وخلافها من الزهور الربيعية، وكل أوراقها غضة مكللة بالندى الرطب، قال: فيبستها كلها وحفظتها باعتناء بعد أن علقت عليها شهادة ممضاة من الحضور.

ثم قال: ومثل هذا الحادث تكرر مراراً في ظروف مختلفة في مئات المرار، وفي بعض الأوقات يكون مع الزهور ثمار يطلبها الحضور. وفي بعض الجلسات طلب بعض الحضور إحضار دوار الشمس، ففي زمن قليل انحطت على المائدة هذه الزهور، وعلوّها ستة أقدام، وجرثومتها مكسوّة بكومة من التراب.

أنا لا أطيل في نقل هذا فهو في كتاب الأرواح الذي ألفته في ذلك نقلاً عم علماء أوروبا. ثم إن «وللأس» هذا قرين «داروين» الإنجليزي صاحب المذهب المشهور، وكان معتقداً لمذهبه كما يعتقد علم الأرواح، ويرى هذه الزهور والفواكه في منزله، ولو كان في بلادنا المصرية هيئات منظمة لدوّنت ما جاء على يد رجل من بلاد الصعيد، فقد شاهدت مئات من القضاة والمحامين والعلماء والمديرين ما جاء على يديه من فاكهة ومآكل ونقود وغرائب لا يعدّ بجانبها ما ذكره الأوروبيون شيئاً، وقد مات في أوائل هذا القرن، فقال صاحبي: أنا أنظر لهذا نظر من يريد أن يبحث بعد، فقلت له: إذن على مقتضى هذا تكون أرواحنا في قدرتها ـ بإذن الله ـ متى طارت من البدن أن تكون فعالة في المادة، قادرة على أفعال فيها على حسب طاقتها بإذن الله، قال: ممكن، قلت: والدليل على اقتراب هذا من الصحة أن النفوس البشرية يسرها جداً الروايات والخرافات التي فيها تنطلق النفس من الحبس، وتسيح في سماء الخيال، غير مراعية قانون الأجساد التي حكمت عليها بالحبس في هذه الأرض، فإنك تجد العامة والجهلاء الذين هم أقرب إلى الفطرة إذا سمعوا الأشياء التي لا يكون لها نظير عندهم، بل بطريق الخيال والوهم يفرحون بها فرحاً ويصدّقون بها طرباً.

ولعمري كيف يفرح الإنسان بما ليس من طبعه، وكما لا يفرح الإنسان بأكل المر والحريف الشديد، والحار القوي، والبارد الشديد، هكذا لا يفرح بما ينافي طبعه، فالعامة والجهلاء والأطفال يفرحون بالأحاديث التي لا تسير على النواميس المعروفة في الأرض، لأن أرواحهم مستعدة لذلك بعد خلاصها من هذا الجسد. فإذا جاء المسيح وطلب مائدة من السماء سواء أنزلت كما يقوله أكثر المفسرين أم لم تنزل كما قاله أقلهم، فنزولها معجزة له، ولو نزلت على يد ساحر أو منوّم مغناطيسي لم تعتبر معجزة كما نص عليه العلماء أن خوارق العادات لا تكون معجزات إلاّ إذا قرنت بدعوى النبوة، وكانت حال صاحبها تدل على ذلك.

قال : إذا سلمت لك ما ذكرته ، وإننا ننظر في أقوال هؤلاء العلماء نظر الباحثين ، وهب أننا بحثنا فوجدنا هذه الأشياء لها وجود ، وأن الأرواح هي كما تقول ، فما علاقة المسيح بعلم الأرواح ؟ قلت : إن المسيح إنسان ، وله روح ، بل هو الذي أطلق عليه أنه مؤيد بروح القدس ، ولم يقل هذا القول لي ولا لك ، قال : نعم ، قلت : فهل هناك ما يمنع أن روحه الكبيرة تعطى قوة أن تفعل فعل الروح التي فارقت الجسد لشدة علوّها وقوّتها وسلطانها على الجسد ، قال : ليس هناك مانع والكلام الآن مقبول .

ثم قال : إذا صح هذا فلم حذر الله من نزول المائدة؟ قلت : نعم ، إنك إن قرأت علم الأرواح تجد فيه أنها لما سئلت أجابت أن الله لا يرضى بخلط العالم الروحي بالجسمي ، وليس يحصل هذا العمل إلاّ نادراً جداً لأغراض خاصة ، فإن أهل الأرض لا بد أن يعيشوا على النمط المعروف ، لا لأنهم يأكلون وهم نائمون ، بل إنهم خلقوا ليجدّوا ويتعبوا ، ولو أن الطعام أعطي لهم بلا عمل لكان ذلك عليهم وبالاً ، ولضاع المقصود من وجودهم ، ولماتوا وهم لم يزيدوا ارتقاء ورقياً .

قال : ولكن أليس ذلك يكون برهاناً ؟ قلت : البراهين الحسية لا تفيد العقول البشرية إلاّ قليلاً . ألا ترى أن بني إسرائيل لما رأوا العصا بلعت الحيات آمنوا ، ولما رأوا عجل السامري كفروا؟ قال : بلى ، قلت : وأما سحرة فرعون فإنهم لما رأوا أن موسى عليه السلام جاء على يديه ما هو فوق طاقتهم ، آمنوا وصبروا وماتوا صرعى الحقيقة وهم فرحون . فهذه المائدة لا تفيد مادياً ولا معنوياً ، قال : وما فائدتها لنا نحن المسلمين؟ قلت : من فوائدها أننا حركنا الهمم لعلوم سوف تدخل في الأمة الإسلامية بعد انتشار هذا التفسير وهي علوم الأرواح ، ومتى انتشرت يحصل هناك شكوك وأوهام وأكاذيب ، فيظهر حينئذ حكماء وعلماء يزيدون الناس علماً ، وكلما حصل الأخذ والردّ زاد الناس علماً وارتقى النوع الإنساني وكان المسلمون أعظم ارتقاء فإن الشكوك والأوهام مفاتيح المعارف ، فأما العقول الخامدة التي لم تحركها الشكوك والمشوّقات ، فإنها أسرع إلى الفناء وأقرب إلى الهلاك .

ومن فوائدها أننا لا نعوّل إلاّ على المعقولات ، ولا نجعل علومنا كعلوم العامة الذين لا يحققون الأمور ، فكأن هذه القصة تحث المسلمين أن يكونوا مفكرين لما علمت في عصا موسى وسحرة فرعون ، وأن العلم يورث اليقين ، فأما هذه المعجزات الظاهرة فإنها لا تفيد إلاّ العامة والجهلاء وقتاً ما ، ألم تر إلى قول الله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[الإسراء : ٥٩] وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[العنكبوت : ٥١] ، فالمدار في شريعتنا الغراء على التعقل والتفكر .

وهذه القصة قد وردت هنا للردّ على أولئك الذين ألحفوا في المسألة ، فقال لهم الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[المائدة : ١٠١] فأورد هذه القصة ، لأنه كان من جملة أسئلتهم أنه يأتي لهم بآية ، فقال لهم هذه ليريهم أن ذلك يصبح امتحاناً من الله .

قال صاحبي : والله لقد أشبعت هذا القول في هذا المقام ، وأنا واثق أن السير في التفسير على هذا المنوال يكون معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وإلاّ فكيف ترى أن تكون قصة المائدة لحكمة علمية ، وآية إلهية ، وفكرة قدسية ، وعجائب ربانية ، فبذلك فليفرحوا المفكرون ، وفيه فليتنافس المتنافسون .

ثم قال : لقد قال علماء الصوفية إن المائدة هاهنا عبارة عن الحقائق والمعارف ، فإنها غذاء الروح ، كما أن الأطعمة غذاء البدن ، قالوا : فلعلهم رغبوا في حقائق لم يستعدّوا للوقوف عليها ، فقال

عيسى عليه السلام : إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع على الحقائق ، فلم يقلعوا عن السؤال ، فسأل لأجل اقترابهم ، فبيّن الله تعالى أن الإنزال سهل ولكن فيه خطر ، فإن السالك إذا كشف له ما هو فوق مقامه لا يحتمله ولا يستقر له ، فيضل ضلالاً بعيداً ، قلت له : هذا مقبول ، ولا فرق بين عالم الأرواح وعالم الأجساد ، كلاهما إذا أعطيناه في الدنيا بلا استحقاق كان خطراً علينا ، وكم من مريد سالك فتح عليه باب من أبواب الكشف فكان ذلك وبالاً عليه فألهاه عن الارتقاء ، وما مثل أهل الكشف إلاّ كمثل أهل المال كلاهما أعطي قوة ، فإذا ظن المكشوف له أنه في مأمن من غارات الامتحانات فهو مخدوع مغرور . فالله يمتحن أرباب القوة وأرباب المال وأرباب العلم وأرباب الجمال وأرباب الكشف ، وكم عند الله من درجات ، وكم من مفتوح عليه أصبح بهذا الفتوح شيطاناً رجيماً . فقول الصوفية حق ، ولا فرق بين الحسيات والمعنويات في هذا المقام ، فليخبر المكشوف له بالغيب وليقل ما يشاء ، فليس هذا كل شيء ، وما ذلك إلاّ من القوى التي أودعها الله فينا وخبأها إلى أمد معلوم ، حتى تظهر بعد حفظها لنا ، فأما إذا أسرفنا فيها فإن ذلك يكون كالإسراف في المال ، ولنقف بالأدب مع الله ، والله هو الولي الحميد . انتهى الكلام على مائدة عيسى عليه السلام .

إذن فلنرجع إلى تفسير آخر السورة ، فنقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾

هذه صورة خطاب الله عزّ وجلّ وجواب المسيح عليه السلام له يوم القيامة ، حين يجمع الرسل ويسألهم عن أممهم فيقولون : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ، فيكلون العلم لله عزّ وجلّ .

ولقد قال في الآية السابقة : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ وقد بيّن لكم الرسول مناسككم وعباداتكم وأخلاقكم ، فعليه البلاغ ، وعلينا الحساب . فيسأل عيسى عليه السلام قائلاً : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي متوصلين بنا إلى عبادة الله عزّ وجلّ ، فإن مريم والمسيح في العبادة أنقص مرتبة من رتبة الله عزّ وجلّ ، وعبادتهما توصل لعبادته عندهم . هذا معنى ما قاله البيضاوي رحمه الله ، فأجابه المسيح عليه السلام أحسن إجابة بأربع جمل :

الجملة الأولى : دالة على آدابه وأخلاقه الفاضلة وشمائله وسجاياه ، وهي : هل يتسنى لي الكذب أو يليق بي وأنا عبدك ونبيك أن أتطاول لمقامك وأدّعي الألوهية؟ وهل يسامي العبد سيده؟ والمربوب الرب؟ والمخلوق الخالق؟ وإذا قبح الكذب على الناس فأقبح به على رب الأرباب ، والعالم بما في الألباب ، فهذا بعض معنى قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ .

الجملة الثانية : الاستشهاد بعلمه والاحتجاج باطلاع الرب العليم على ما نطق به المسيح ، فقال : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ .

الجملة الثالثة: تقرير للثانية وإثبات لها واعتراف بالقصور في العلم، فقال: ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ ﴾.

وأكدها بالرابعة فقال: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ في السماوات والأرض وما بينهما.

ثم أخذ يشرح ما قاله بأقصر عبارة، فقال: ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ ﴾ وهو عبادة ﴿ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ ﴾، ثم شرح المراقبة منه وهو حي، فقال: ﴿ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ ﴾ أي رقيباً أمنعهم من ذلك القول، أو كنت مشاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته بما تنزل عليه من الآيات، وما تنصب له من الدلالات، وما تبعث من رسلك بالكتب والآيات ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ مراقب له مطلع عليه ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ ﴾ فالصادقون في الدنيا في العلم والعبادة يتبين صدقهم يوم القيامة، ويجازون عليه ﴿ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ﴾ هذا ظاهر واضح.

تأمل هذه المحاورة التي قصها الله عزَّ وجلَّ مما سيكون في يوم القيامة بينه وبين سيدنا عيسى عليه السلام، وتأمل كيف يقول إني راقبتهم في الدنيا وأنت إذ توفيتني، والتوفي أخذ الشيء وافياً، فالموت توفٍّ، والرفع إلى السماء توفٍّ، والمراد هنا الرفع فقط ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾.

وارجع إن شئت المزيد إلى إنجيل برنابا، فقد شرح حال النصارى في حياة المسيح عليه السلام، وكيف كانوا يعبدونه، وكيف كان يتبرأ منهم، وكيف رفع الأمر لقيصر الروم ليصدَّ الناس عن عبادته، وكيف كان يبكي ويقول ما معناه: «ستظلم الأرض بعدي» وكيف استغاث ورفع صوته صارخاً، وقال: يا أخي، يا مسيا، وكيف سأله برنابا: من مسيا؟ وكيف أجابه بقوله: محمد حبيبي رسول الله.

فمن أراد استيفاء هذه المعني كلها فليقرأ إنجيل برنابا المذكور الذي كان سراً مكتوماً عند بابا رومة ببلاد إيطاليا من أيام سيدنا المسيح إلى أن أظهره عظيم من عظماء الإنجليز وأسلم، وأسلم كثير من الناس معه.

ويا حسرة على المسلمين الغافلين، فإن هذا الإنجيل لم ينتشر بيننا إلاَّ قريباً، وقد طبع في «مجلة المنار»، فليعلم المسلمون هذا الإنجيل وليقرؤوه وليعلموا غرائب القرآن وبدائعه. ولن يفهمك هذه الآية حق فهمها إلاَّ الاطلاع على ذلك الإنجيل فإنه أقرب إلى التنزيل، وقد تقدم في سورتي البقرة وآل عمران من هذا الإنجيل مقتطفات شتى.

لطائف

اللطيفة الأولى

اعلم أن الله عزَّ وجلَّ في هذا المقام برَّأ المسيح عليه السلام من كل ما ألصقه به النصارى من الألوهية، ذلك أنهم لما رأوا صفات عالية وأخلاقاً سامية وشمائل غالية، قدّسوه تقديساً وعظموه ورفعوه إلى مقام الألوهية؛ ذلك لما في طباع البشرية من الضعف وقصور النظر. وما مثلهم في ذلك إلاَّ كمثل من يعشق رسول حبيبه جهالة وغباوة.

هكذا ترى الناس في الإسلام وفي الديانات الأخرى إذا شاهدوا ذا صفات حميدة جميلة دينية أغرموا به ونسوا دينهم الذي ما أحبوا هذا الصالح إلاَّ لأجله، ذلك الجهل مشاهد في أمتنا الإسلامية، ترى كثيراً من تلاميذ رجال الطرق يجعلون شيوخهم فوق كل شيء، ويجعلون الحب خالصاً لهم، مع أن الحب يجب أن يكون لله عزَّ وجلَّ خاصة. وإذا تغنى أولئك الجهلة بكرامات أولئك الشيوخ فهم لا يصلون في كراماتهم إلى مقام السيد المسيح الذي خلق الله على يديه طيراً من الطين ونفخ فيه وكان طيراً بإذن الله. فإذا كان المسيح عليه السلام مع هذه المزايا يقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦ﴾ الخ ويتبرأ مما نسبوه إليه، فكيف يكون هؤلاء الشيوخ.

إن الله عزَّ وجلَّ ذكر هنا أنه أكرم المسيح بمزايا، منها خلق الطير، ثم أتبع ذلك كما سأوضحه في أول سورة الأنعام إن شاء الله بأنه خلقنا معاشر بني آدم من طين، كأنه يقول: ثكلتك أمك أيها الإنسان أتغرم بالمسيح لأني خلقت الطير على يديه؟ ولا تغرم بي أنا، وأنا خلقتك أنت من الطين، فإذن أنا خلقت من الطين من هو أفضل من الطير، وهو أنت، فكيف تنساني وتذكره أو تعبده؟

هكذا أيها المسلم الجاهل كيف تنساني بشيخك ولو كان ولياً وهو لم يعط ما أعطي المسيح؟ وكيف تكون أقصر نظراً من النصارى جاوزوا الحد في حب المسيح، وأنت أيها المسلم ربما نسيت نبيك وربك بشيخك.

اقرأ ما في السماوات وما في الأرض، فذلك هو المطلوب منك، تلك آثاري، ومن أحب أحداً درس آثاره ونطق بأخباره، فما معجزات الأنبياء ولا كرامات الأولياء في جانب مخلوقاتي وبدائع سماواتي وغرائب حكمتي إلاَّ كما يأخذه منقار الطائر إذا شرب من البحر.

إن العامة من المسلمين ومن المسيحيين لغفلتهم لا يرفعون نظرهم إلى عجائب ربهم التي أشار إليها هنا في آخر السورة، فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾، وابتدأ سورة الأنعام بذكر أن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الآية: ١] إذن فما خلق الطير على يدي المسيح وما كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء. أيها الناس لا يصدنكم أفضل المخلوقات عن النظر في عجائب خالقكم القدير. هذا ويناسب هذا المقام ما جاء في إنجيل برنابا من صفحة ١٧٨ وما بعدها.

قال المسيح عليه السلام

حكاية إيليا «إلياس»

حدث في زمن النبي إيليا أن إيليا رأى رجلاً ضريراً حسن السيرة يبكي، فسأله قائلاً: لماذا تبكي أيها الأخ؟ أجاب الضرير: أبكي لأني لا أقدر أن أبصر إيلياء النبي قدّوس الله، فوبخه إيلياء قائلاً: كفّ عن البكاء أيها الرجل لأنك ببكائك تخطئ، أجاب الضرير: ألا فقل لي أرؤية نبي الله الذي يقيم الموتى وينزل ناراً من السماء خطيئة؟ أجاب إيليا: إنك لا تقول الصدق، لأن إيليا لا يقدر أن يأتي شيئاً مما قلت على الإطلاق، فإنه رجل نظيرك، لأن أهل العالم بأسرهم لا يقدرون أن يخلقوا ذبابة واحدة، فقال الضرير: إنك تقول هذا أيها الرجل لأنه لا بد أن يكون قد وبخك إيليا على بعض خطاياك فلذلك تكرهه، أجاب إيليا: عسى أن تكون قد نطقت بالحق، لأني لو أبغضت إيليا أيها الأخ لأحببت

الله ، وكلما زدت بغضاً لإيليا زدت حباً في الله ، فاغتاظ الضرير لذلك غيظاً شديداً وقال : لعمر الله إنك لفاجر ، أيمكن لأحد أن يحب الله وهو يكره نبي الله؟ انصرف من هنا لأني لست بمصغ إليك فيما بعد ، أجاب إيليا : أيها الأخ ، إنك لترى الآن بعقلك شدة شر البصر الجسدي لأنك تتمنى بصراً لتبصر إيليا بنفسك ، فأجاب الضرير : ألا فانصرف لأنك أنت الشيطان الذي يريد أن يجعلني أخطئ إلى قدّوس الله ، فتنهد حينئذ إيليا وقال بدموع : إنك لقد قلت الصدق أيها الأخ ، لأن جسدي الذي تودّ أن تراه يفصلني عن الله ، فقال الضرير : إني لا أودّ أن أراك ، بل لو كان لي عينان لأغمضتهما لكي لا أراك ، حينئذ قال إيليا : اعلم أيها الأخ أني أنا إيليا ، أجاب الضرير : إنك لا تقول الصدق ، حينئذ قال تلاميذ إيليا : أيها الأخ ، إنه إيليا نبي الله بعينه ، فقال الضرير : إذا كان النبي فليقل من أيّ ذرية أنا وكيف صرت ضريراً؟ أجاب إيليا : إنك من سبط لاوى ، ولأنك نظرت وأنت داخل هيكل الله إلى امرأة بشهوة على مقربة من المقدس ، أزال إلهنا بصرك ، فقال حينئذ الضرير باكياً : اغفر لي يا نبي الله الطاهر ، لأني قد أخطأت إليك في الكلام ، وإني لو أبصرتك لما كنت أخطأت ، فأجاب إيليا : ليغفر لك إلهنا أيها الأخ ، لأني أعلم أنك فيما يخصني قد قلت الصدق ، لأني كلما ازددت بغضاً لنفسي ازددت محبة لله ، ولو رأيتني لحمدت رغبتك التي ليست مرضية لله ، لأن إيليا ليس هو خالقك بل الله ، ثم قال إيليا باكياً : إني أنا الشيطان فيما يختص بك لأني أحوّلك عن خالقك ، فابك إذن أيها الأخ إذ لم يكن لك نور يريك الحق من الباطل ، لأنه لو كان لك ذلك لما احتقرت تعليمي ، لذلك أقول لك : إن كثيرين يتمنون أن يروني ، ويأتون من بعيد ليروني وهم يحتقرون كلامي ، لذلك كان خيراً لهم لخلاصهم أن لا يكون لهم عيون ، لأن كل من يجد لذة في المخلوق أياً كان ، ولا يطلب أن يجد لذة في الله فقد صنع صنماً في قلبه وترك الله ، ثم قال يسوع متنهداً : أفهمتم كل ما قاله إيليا؟ أجاب التلاميذ : حقاً لقد فهمنا وإننا لحيارى من العلم بأنه لا يوجد على الأرض إلاّ قليلون من الذين لا يعبدون الأصنام . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

بينما أنا أكتب هذا إذ دخل عليّ صديق لي فاطلع على هذا التفسير فقال :

س ــ أيها الأخ ، نزل القرآن لوعظنا وإرشادنا وهدايتنا إلى الصراط المستقيم ، فما الفائدة الواضحة في هذه الآيات القرآنية؟ .

ج ــ الفائدة الأولى : أن الله سيجمع الرسل ويسألهم قائلاً : بماذا أجبتم؟ توبيخاً لأممهم وتقريعاً لتابعيهم ، فيتبرأ الأنبياء مما أحدثت أممهم بعدهم ، ويردّون العلم إليه جلّ جلاله .

الفائدة الثانية : ما حكاه الله من سؤال المسيح عليه السلام وأنه لا يكذب على الله ، وأن الله أعلم بهم ، وأنه كان يراقبهم في حياته ، فلما رفع إلى السماء تخلى عن ذلك ولا علم له بهم الخ .

الفائدة الثالثة : أن الأنبياء لا يسألون عما أحدثت الأمم بعدهم ، والأمم معاقبة على ظلمها مؤاخذة بجهلها .

س ــ هذه قواعد عامة ، فعلم الله بالأشياء وتوبيخ الأمم عما أحدثت ، وتنصل الأنبياء من ذلك أمور عامة ، وأنا أريد عظة للأمة الإسلامية بحيث يفقهها الفقهاء والفلاحون وسائر الطبقات .

ج ـ اعلم أن الله عزّ وجلّ وسعت حكمته وعلمه الدنيا والآخرة، ولقد علم جلّ جلاله وعزّ كماله أن المسلمين بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم سيغير سفهاؤهم من شريعتهم ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾[المائدة: ١٣] فقص القصص الذي سمعته عن النصارى ونبيهم، ليتعظ المسلمون بذلك، وليستيقظوا وليعلموا أن الذنب واقع عليهم، والجرم محيط بهم، والإثم ما غلّ في أعناقهم إذا غيروا الشريعة وبدّلوا تلك الحنيفية البيضاء، والسنة السمحة الغراء.

س ـ هذا ما كنت أبتغيه وأتربصه منك وأرتجيه، فقل لي: ماذا فعل المسلمون قديماً وحديثاً؟ وبماذا عذبهم الله عزّ وجلّ؟ وما الدواء لهذا الداء؟.

ج ـ اعلم أن أمتنا الإسلامية قد حدث فيها مثل ما كان في دين اليهود والنصارى من الفرق سواء بسواء، كما روي عن وهب بن بقية عن خالد بن عبد الله عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». وإن كان في الحديث مقال.

س ـ وهل علم ذلك العلماء؟.

ج ـ نعم، ذكر هذه الفرق الإسلامية الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي رضي الله عنه.

س ـ هل تتذكر بعض هذه الفرق حتى أستدل بها على باقيها؟ وهل تذكر لي أثراً سيئاً في الأمة الآن مما اختلقه أهل الضلال وافتراه أهل العصيان، فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل؟.

ج ـ أذكر منهم قوماً يقال لهم السبئية.

س ـ ما أخبارهم وبماذا خرجوا عن الإسلام؟.

ج ـ السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذي غلا في سيدنا علي كرم الله وجهه، وزعم أنه كان نبياً، ثم غلا في ذلك وزعم أنه إله، وتبعه قوم من جهلة الكوفة. فلما رفع خبرهم إليه كرم الله وجهه أمر بإحراقهم، وقال مثل هذا القول رجل يهودي اسمه عبد الله بن السوداء، أراد أن يفسد على المسلمين دينهم فقال إنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصياً، وأن علياً وصيّ محمد صلى الله عليه وسلم وأنه خير الأوصياء، كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الأنبياء. فلما سمع منه ذلك شيعة علي، قالوا له كرم الله وجهه: إنه من محبيك، فرفع قدره وأجلسه تحت درجة منبره، ثم بلغه أنه غلا فيه وعدّه إلهاً، فهمّ بقتله لولا مخافة أن يشمت أهل الشام. فلما قتل سيدنا علي كرم الله وجهه تغالى ابن السوداء في هذه الدعوة وقال للناس: والله ليتبعنّ لعلي في مسجد الكوفة عينان، تفيض إحداهما عسلاً والأخرى سمناً، ويغترف منهما شيعته، ولم يرد بذلك ابن السوداء إلاّ تضليل المسلمين ليقولوا في سيدنا علي كرم الله وجهه ما قالت النصارى في المسيح، فنشأت الفرقة المسماة السبئية من الرافضة. ولما قتل سيدنا علي قال ابن سبأ: إن المقتول لم يكن علياً، وإنّما كان شيطاناً تصور للناس في صورة علي، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى ابن مريم، قال: وكما أن اليهود والنصارى رأوا شخصاً مصلوباً يشبه عيسى وليس عيسى. هكذا كذبت الناس في قولهم قتل علي، وما قتل علي،

وإنّما شبه لهم. ولقد زعم بعضهم أنه كرم الله وجهه في السحاب وأن الرعد صوته، ومن سمع صوت الرعد من هؤلاء قالوا: عليك السلام يا أمير المؤمنين، وقد زعموا أنه هو المهدي المنتظر ينزل في آخر الزمان من السماء ويملك الأرض بحذافيرها.

س ـ إذن هذه الفرقة أشبهت النصارى، والنبي صلى الله عليه وسلم بريء منهم، ولكل امرئ منهم يوم القيامة شأن يغنيه، فهل تذكر فرقة أخرى؟.

ج ـ قلت: نعم، «البيانية» أتباع بيان بن سمعان التميمي، زعموا أن الإمامة صارت من محمد ابن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد، ثم صارت من أبي هاشم إلى بيان بن سمعان بوصيته إليه حتى ادعى هو أنه المذكور في القرآن في قوله: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران:١٣٨] فقال: أنا البيان وأنا الهدى والموعظة، وزعم هذا الفاجر أنه يعرف اسم الله الأعظم. فلما وقع في أسر خالد ابن عبد الله في زمان ولايته بالعراق، قال له خالد: إن كنت تهزم الجيوش بالاسم الذي تعرفه، فاهزم به أعواني عنك، ثم قتله وصلبه، فهذه الفرقة كافرة، والنبي صلى الله عليه وسلم بريء منها.

س ـ زدنا من هذا. فقلت:

ج ـ وهناك فرقة تسمى الزيدية، يقولون بإمامة زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في وقته وإمامة يحيى بن زيد بعد زيد، وكان زيد بن علي قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة، وخرج بهم على والي العراق، وهو يوسف بن عمر الثقفي عامل هشام بن عبد الملك على العراقيين. فلما التقى الصفان واختلف القنا وكاد يحتدم وطيس الهيجاء بينه وبين يوسف بن عمر الثقفي قالوا له: إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك علي بن أبي طالب، فقال سيدنا زيد رضي الله عنه ورفع درجته في أعلى عليين: «إني لا أقول فيهما إلاّ خيراً، وما سمعت أبي يقول فيهما إلاّ خيراً، وإني خرجت على بني أمية الذين قاتلوا جدي الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار، ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم رفضتموني». ومن يومئذ سموا رافضة ولم يثبت معه إلاّ مائتا رجل ثبتوا حتى قتلوا عن آخرهم، وقتل زيد رضي الله عنه ثم صلب، وهكذا قتل ابنه يحيى بجهة جوزجان حين خرج على نصر بن بشار والي خراسان. فانظر كيف غرّ هؤلاء القوم ذلك السيد العظيم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أسلموه لعدوه، وانتحلوا قولاً ما أنزل الله به من سلطان، وكيف اختلقوا الأسباب وجعلوا ذم العمرين أجراً لنصره. أفلا يبرأ رسول الله من أولئك الجاهلين ويكل أمرهم إلى الله يوم الدين ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩].

س ـ لقد أطلت في سؤالك وإني خفت أن أكون أثقلت كاهلك وحملتك فوق طاقتك، ولكن المقام يحتاج لشرح فزدني من هذه الأخبار، فما أشبه هؤلاء بالكفار.

ج ـ ليس يحضرني من الفرق الضالة الآن إلاّ فرقة اسمها «الكيسانية» وإمامهم المختار بن أبي عبيد الثقفي، دعا الناس إلى إمامة محمد ابن الحنفية، واستولى على عرش الكوفة، وقد قتل من رجال الكوفة كل من قاتلوا سيدنا الحسين رضي الله عنه. ومن العجيب أن هذا الرجل يدعو الناس لإمامة محمد ابن الحنفية، ويملك الكوفة والجزيرة وبلاد أرمينية، ثم يضله قومه ويغره شياطين الإنس والجن،

فيقولون له : أنت حجة هذا الزمان، فيدّعي النبوة ويزعم أنه يوحى إليه، وصار يسجع كما تسجع الكهان، ومن خطبه ما يأتي : الحمد لله الذي جعلني بصيراً، ونوّر قلبي تنويراً، والله لأحرقن بالمصر دوراً، ولأنبشن بها قبوراً ولأشفين بها صدوراً الخ .

ألا تتعجب كيف كانت هذه المصائب منصبة على أمتنا الإسلامية؟ وكيف يضل هذا الكافر الناس ولا يخاف الله رب العالمين؟ ولما أن سمع محمد ابن الحنفية بهذا خاف من جهة الفتنة في الدين، فأراد القدوم إليه بالعراق ليصير إلى الذين اعتقدوا إمامته التي دعا لها المختار .

فلما سمع المختار ذلك خاف من قدومه العراق وذهاب رياسته وولايته فقال لجنده : أنا على بيعة المهدي، ولكن للمهدي علامة، وهي أن يضرب بالسيف ضربة، فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدي، وانتهى قوله هذا إلى ابن الحنفية فأقام بمكة خوفاً من أن يقتله المختار بالكوفة . أليس أمثال هذا أحق ببراءة الرسول؟ ومثلهم في الإسلام كمثل الذين ذكرهم الله في سورة المائدة من الفرق الضالة .

س ـ لعله آن الأوان أن تطلعني على آثار تلك الضلالات اليوم .

ج ـ إن المسلمين اليوم تفرقوا فرقاً وذاق بعضهم بأس بعض بالبدع المنكرة التي قذفت في قلوبهم ، والأقاويل التي خيمت بظلامها على عقولهم، وباضت طيورها في أعشاش أدمغتهم وأخرجت فراخ الجهل المخجل . ألا ترى كيف فعل المهدي بالسودان وتبعه الخليفة التعايشي؟ وكيف أفتى بحل نساء المصريين وبناتهم إلى أوغادهم بلا عقد يعقدونه ولا كتاب ولا سنة، مدعياً أن من لم يؤمن ببيعته فهو من الكفرة الفجار والجهلة الأشرار . ولئن سألته بماذا استحللت الحرام واستعبدت الأنام وفعلت الآثام؟ قال لك : ذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم وجبريل والخضر الجليل .

أوَليس المهدي السوداني أشبه بالمختار بن عبيد في دعوته؟ بلى، المهدي توغل في الضلالة فدعا لنفسه وافترى إثماً على ربه . والتعايشي الجهول كان وارث دعوته والقاسم بملكه، حتى طاحت البلاد ونعب بها الغراب وذهبت الآمال وضاعت الأموال وقطعت الرؤوس وزهقت النفوس، واستحال الدرهم والدينار إلى فلوس، وكان ما كان من استئصال القبائل، وصار الرجال هناك قلائل؛ لا حول ولا قوة إلاّ بالله . لولا البدع المنكرة ما تناكر الفارسي والتركي، ولا تقاطع المراكشي والأفغاني، ولا تدابر العربي والتركي . لقد قال العلامة «دوارد براون» الإنجليزي : لقد قدمت تقريراً ضافياً عن حال المسلمين من فرس وترك وشيعة وسنيين، أيتحدون أم يبقون مختلفين؟ فكتبت : ألا طمع في اجتماعهم ولا محيص من تفرقهم إذ يقولون سنيون وشيعيون، ولله في خلقه شؤون .

هذا، ولقد قرأت بعض ما كتبه السياحون الفرنسيون بمراكش، وكيف يملكون البلاد بلا ضرب ولا جلاد، فاتفقت كلمتهم وأجمع رأيهم على أن المسلمين لا يخضعهم إلاّ استمالة شيوخ الصوفية وإرضاء أمرائهم . فمتى أخذ شيوخهم باللين والشدة والوعد والوعيد، وأغدقت عليهم النعم كما يهددون بالنقم لانت شرّتهم، وأمكن أن تسام الأمة الخسف، فإنهم في لجة الجهل غارقون، وفي عذاب جهنم الضلال تائهون، فكان ما كان من توالي الآلام على بلاد الإسلام، فلولا الجهالة ما هلك المسلمون . وبلغنا أن الكتاني هناك من كبار الصالحين آذاه الفرنسيون كثيراً لأنه يحافظ على بلاده .

س ـ دع ذكر الأمم والممالك واذكر حكاية صغيرة يعرفها الفلاحون ويفهمها المزارعون الذين يعقلون .

ج ـ نعم. المسألة الأولى: قابلني منذ ٢٠ سنة مزارع صغير من قريتنا «كفر عوض الله حجازي» فقال: ماذا ترى في أمرنا؟ فقلت: ماذا؟ فقال: امرأتي في حاجة إلى ثوب تلبسه، ولست أملك إلاّ عنزاً تساوي ٤٠ قرشاً، وقد قام الناس إلى مولد سيدي أبي مسلم الكبير، فإن أرضيت أبا مسلم أعريت زوجتي، وإن كسوتها أغضبت أبا مسلم رضي الله عنه. فقلت: أأنا أكرم أم أبو مسلم؟ قال: أبو مسلم قلت: فإذا تصدّقت عليّ الآن فهل تراني أقبل منك؟ قال: كلا. قلت: إذن أبو مسلم وهو أكرم مني، غني عن صدقتك، وتفكر في الأمر من وجه آخر: إذا كان أبو مسلم حياً وألقيت له هذه المسألة، أفتراه مع غناه وفقرك يقبل عطاءك أم يعطيك؟ قال بل يعطيني. قلت: فهل أبو مسلم الكريم بعد أن لقي مولاه وتنعم بالحور العين والولدان وحظي بلقاء النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه، تنزلت درجته وترك الله وجماله والحور والولدان والنبي والإخوان، ثم بحث عن الفلاحين المساكين الذين لا يجدون ما ينفقون؟ فقال: هذا كلام حق، ولكن أخاف أن يقتل أولادي ويخرب داري ولكن «من قلد عالماً لقي الله سالماً» وقد وضعتها في رقبتك، وسأكسو زوجتي إن شاء الله بثمن العنز. فقلت: إذن اهتديت، فإن سوّلت لك نفسك الخوف، وقذف الشيطان في قلبك الرعب، فقل لأبي مسلم إن فلاناً هو الذي أغراني وكسوت زوجتي بثمن عنزي.

المسألة الثانية: قال لي عمي الشيخ محمد شلبي رحمه الله تعالى: هل لك أن أريك عجيبة؟ قلت: نعم. قال: يا أبا حمودة. قال: نعم. قال له: احلف إنك ما سرقت من حديقتنا العنب. قال له: بماذا أحلف؟ قال: بالله. فحلف. فقال: احلف بأبي مسلم. قال: لا. فقال: لماذا؟ فقال: إن الله واسع رحيم، وأبو مسلم ضيق الصدر فأخاف أن يبطش بي ويقتل أولادي.

المسألة الثالثة: قابلني هذا العام أحد أهل العلم بقريتنا، فقال: أقصّ عليك قصصي مع زوجي؟ قلت: نعم. قال: زرت أمس أنا وهي أمس ضريح السيدة نفيسة رضي الله عنها، فطلبت مني ريالاً كنت نذرته، فأبيت أن أعطيها، ولجت في طلبها ولججت في منعي، فلما أن خيم الظلام وضرب النوم الخيام، وأخذ الكرى بمعاقد الأجفان، جاءتني السيدة رضي الله عنها وأرضاها، وأخذت تعدو ورائي عدواً حثيثاً، وتقول: أيها الملعون كيف تظن أن لا بركة فيّ فلا تدفع الريال إليّ، ووالله لأعذبنك حتى تصدّق بكرامتي وتخضع لسطوتي. قال: وما زالت تطاردني حتى انفلق عمود الصباح، وقال المنادي: حي على الفلاح. قال هذا وكان أربعة رجال حاضرين من متعلمي قريتنا والأميين. فقلت: يا فلان، أيهما أقرب إلى دار الكرامة وأبعد عن دار اللؤم والقبح؟ ومن الذي صار أقرب معرفة بربه وأبعد عن مقارفة ذنبه؟ أنحن الأحياء أم أولئك الذين صاروا في جوار مولاهم؟ فقال: بل أولئك الذين في جوار مولاهم. فقلت: إذن السيدة رضي الله عنها صارت عارفة بربها الآن أكثر من الأحياء. قال: نعم. قلت: لو أن رجلاً جاءني وأبلغني أن رجلاً عظيماً أخذ يذمّني ويضرب بكلامي عرض الحائط ويقول: أنا لا أعبأ بآرائه ولا أصدق ما يقول. لو أني بلغت هذا لكبرت نفسي أن تهتم بمقاله أو تعير أذناً لكلامه، وأنا أمامك على ما ترى في الدنيا دار اللؤم والجهل، فكيف بمن شرف قدرها وعظم سرها وعلا نسبها وقربت من ربها، فهل تتنزل عن مقامها الرفيع في جنة الفردوس مع الذين أنعم الله عليهم، وتجري وراءك تقول: صدّق بكرامتي؟ ومن أنت حتى تبحث عنك سيدة أكثر المؤمنات. وكيف يظن الفلاح

المسكين أن السيد البدوي رضي الله عنه والرفاعي والدسوقي يتنزلون من سماء عظمتهم، ويهرولون وراءه في الغيطان ليلتقطوا منهم دراهم، أو ليفرحوا بالتفافهم حول أضرحتهم في الموالد المعروفة. فلما سمع الحاضرون كلامي أمّنوا عليه وقالوا: والله إنا لفي ضلال مبين. وكيف يتجاوز ساداتنا الأولياء أغنياء التجار والعظماء وناظر النظار والوزراء والمأمورين وأصحاب القصور الشاهقة ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾[آل عمران: ١٤] ثم يجرون وراء من لا يملك قوت يومه وليس عنده من نقير ولا قطمير.

س ـ إذن النبي صلى الله عليه وسلم سيتبرأ من هذه الأعمال يوم القيامة ويقول: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[المائدة: ١٠٩] وهو بريء من كل ما سطرته يد الجهل في أدمغة الجاهلين الذين يقولون: إن الأولياء يغضب بعضهم من بعض ويكره بعضهم بعضاً، ويقلدهم الناس في ذلك وهم برآء مما يتقوله الجاهلون. وعلى ذلك ضلَّ الناس في مسألة الزار، إذ يقولون: إن الشيوخ حضروا أو غابوا كما ضلوا بأفعال المغاربة الدجالين والجهلة النصابين.

ج ـ اللهم إنا نبرأ إليك من الكتمان، ونقول نحن نصحنا للأمة وكلمنا الخاصة كما أوضحنا للعامة، فمن عقل فاز، ومن جهل فإنه من حزب الشيطان ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[المجادلة: ١٩].

س ـ فما الدواء لهذا الداء وماذا يصنع المسلمون؟

ج ـ الرجوع لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

س ـ هذا كلام عام وما ابتدع مبتدع إلاَّ وقال: إني أتبع الكتاب، وادعى أنه على منهج السنة، فائتنا بقول فصل.

ج ـ يجب على المسلمين في أقطار الأرض أن يعمموا التعليم، وينظروا فيما خلق الله عزَّ وجلَّ من العوالم العجيبة، ويتفكروا ويتأملوا وينتفعوا بما أودع في هذا العالم من الصنائع المحكمة والعجائب المبدعة. اهـ.

خاتمة السورة

معجزات القرآن في آخر الزمان

هل لك أيها الذكي أن أحدثك عن هذه الآيات وعجائبها؟ وكيف يقول الله لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[المائدة: ١١٦] وكيف يجمع الله الرسل ويسأل عيسى ابن مريم خاصة، فيبرأ عيسى مما فعل النصارى. الله أكبر ظهر السر في هذا العصر وتبين أن الأناجيل منقولة عن كتب الهند، فمنها ما نقل عن كتب كرشنة والخرافات الشائعة حوله.

ومنها ما نقل عن كتب «بوذا» أن هذا لعجب عجاب. إن هذا التفسير حظه عظيم، فقد جاء في زمن انكشاف الحقائق. ألا ترى إلى ما جاء في كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» وكيف كانت الحقائق التي فيه منقولة عن ثمانية وأربعين كتاباً مؤلفاً باللغات الإفرنجية مثل كتاب «ألن الهند» ومثل كتاب «أمبرلي تحليل الإيمان» ومثل كتاب «الأديان القديمة» الخ. فهل لك أن أطلعك ناقلاً من الكتاب على أن الأناجيل منقولة خرافاتها بالحرف من خرافات الهنود مصداقاً لهذه الآيات، إذ تبرأ المسيح من أكاذيبهم، وبقي علينا أن نبين مصادر تلك الأكاذيب. جاء في الكتاب ما نصه:

مقابلة النص الصريح بين كرشنة ويسوع المسيح

وهو مقابلة ما يقوله الهنود الوثنيون عن كرشنة بما تقوله النصارى عن يسوع المسيح

أقوال الهنود الوثنيين في كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
كرشنة (هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الآب والابن وروح القدس).	يسوع المسيح هو (المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الآب والابن وروح القدس).
١ ـ ولد كرشنة من العذراء ديفاكي التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها.	١ ـ ولد يسوع من العذراء مريم التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها.
٢ ـ قد مجد الملائكة ديفاكي والدة كرشنة ابن الله وقالوا: يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة.	٢ ـ فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيها المنعم عليها الرب معك.
٣ ـ عرف الناس ولادة كرشنة من نجمه الذي ظهر في السماء.	٣ ـ لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه في المشرق وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته.
٤ ـ لما ولد كرشنة سبحت الأرض وأنارها القمر بنوره وترنمت الأرواح وهامت ملائكة السماء فرحاً وطرباً ورتل السحاب بأنغام مطربة.	٤ ـ لما ولد المسيح رتل الملائكة فرحاً وسروراً وظهر من السحاب أنغام مطربة.
٥ ـ كان كرشنة من سلالة ملوكانية، ولكنه ولد في غار بحال الذل والفقر.	٥ ـ كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه «ملك اليهود»، ولكنه ولد في حال الذل والفقر بغار.
٦ ـ لما ولد كرشنة أضيء الغار بنور عظيم، وصار وجه أمه ديفاكي يرسل أشعة نور مجد.	٦ ـ لما ولد يسوع المسيح أضيء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عيني القابلة وعيني خطيب أمه يوسف النجار.
٧ ـ ومن بعد ما وضعته صارت تبكي وتندب سوء عاقبة رسالته فكلمها وعزاها.	٧ ـ وقال يسوع المسيح لأمه وهو طفل: يامريم أنا يسوع ابن الله وجئت كما أخبرك جبرائيل الذي أرسله أبي إليك وقد أتيت لأخلص العالم.
٨ ـ وعرفت البقرة أن كرشنة إله وسجدت له.	٨ ـ وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له.
٩ ـ وآمن الناس بكرشنة واعترفوا بلاهوته وقدموا له هدايا من صندل وطيب.	٩ ـ وآمن الناس بيسوع المسيح وقالوا بلاهوته وأعطوه هدايا من طيب ومر.
١٠ ـ وسمع نبي الهنود نارد بمولد الطفل الإلهي كرشنة، فذهب وزاره في «كوكول» وفحص النجوم فتبين له من فحصها أنه مولود إلهي يعبد	١٠ ـ ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيردوس الملك إذ المجوس من المشرق قد جاؤوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود

أقوال الهنود الوثنيين في كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
١١ ـ لما ولد كرشنة كان «ناندا» خطيب أمه ديفاكي غائباً عن البيت حيث أتى إلى المدينة كي يدفع ما عليه من الخراج للملك .	١١ ـ ولما ولد يسوع كان خطيب أمه غائباً عن البيت ، وأتى كي يدفع ما عليه من الخراج للملك .
١٢ ـ ولد كرشنة بحال الذل والفقر مع أنه من عائلة ملوكانية .	١٢ ـ ولد يسوع بحالة الذل والفقر مع أنه من سلالة ملوكانية .
١٣ ـ وسمع «ناندا» خطيب ديفاكي والدة كرشنة نداء من السماء يقول له : قم وخذ الصبي وأمه فهربهما إلى «كاكول» واقطع نهر جمنه ، لأن الملك طالب إهلاكه .	١٣ ـ وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحلم كي يأخذ الصبي وأمه ويفر بهما إلى مصر لأن الملك طالب إهلاكه .
١٤ ـ وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنة الطفل الإلهي وطلب قتل الولد ، ولكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها كرشنة .	١٤ ـ وسمع حاكم البلاد بولادة يسوع الطفل الإلهي وطلب قتله ، ولكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها يسوع المسيح .
١٥ ـ واسم المدينة التي ولد فيها كرشنة «مطرا» وفيها عمل الآيات العجيبة ولم تزل محل التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان القائلين عن كرشنة إنه ابن الله وإنه الله إلى يومنا هذا .	١٥ ـ واسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح في مصر لما ترك اليهودية هي «المطرية» ويقال إنه عمل فيها آيات وقوات عديدة .
١٦ ـ كانت ولادة القديس «راما» قبل ظهور كرشنة في الناسوت بزمن قليل ، وقد سعى «قانسا» ملك البلاد في إهلاك القديس «راما» وإهلاك كرشنة أيضاً .	١٦ ـ كانت ولادة يوحنا المعمدان قبل ولادة يسوع المسيح بزمن قليل ، وقد سعى الملك «هيردوس» في إهلاك يوحنا ، كما سعى في إهلاك الطفل يسوع المسيح ، وكان يوحنا مبشراً بولادة يسوع المسيح .
١٧ ـ وربي كرشنة بين الرعاة ، ولما جيء به إلى «مطرا» كان في احتياج عظيم فأتي له بمعلم خبير ، وفي وقت قليل فاق على أستاذه في العلوم وأعياه في المسائل العلمية السنسكريتية الدقيقة .	١٧ ـ وأرسل يسوع المسيح إلى عند المعلم ذاخوس كي يعلمه ، فكتب له أحرف ألف باء وقال ليسوع : قل ألف ، فقال الرب يسوع : أخبرني أولاً عن معنى حرف الألف ومن بعده أقول الباء ، فتهدد المعلم يسوع بالضرب ، فقام يسوع وفسر معنى الألف والباء وأخبره عن الحروف المستقيمة والحروف المنحنية والحروف المثناة والتي لها نقط وحركات والتي ليس لها نقط ، ولماذا وضعت في هذا الترتيب : أي بعض الحروف قبل غيرها ، وطفق يخبره عن أشياء لم يسمع بها المعلم من قبل ولم يقرأها في كتاب .

أقوال الهنود الوثنيين في كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
١٨ ـ وفي أحد الأيام كان كرشنة سائراً مع قطيع من البقر فاختاروه ملكاً عليهم، وذهبت كل بقرة إلى المكان الذي عينه لها هذا الملك.	١٨ ـ وفي شهر آذار جمع يسوع الأولاد ورتبهم كأنه ملك عليهم، وإذا مر بهم أحد كانوا يأخذونه غصباً ويأمرونه بالسجود للملك.
١٩ ـ وفي أحد الأيام لسعت الحية بعض أصحاب كرشنة الذين يلعب معهم فماتوا فشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعاً من الموت وعادوا أحياء.	١٩ ـ وبينما كان يسوع يلعب لسعت الحية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم، فلمس يسوع ذاك الصبي بيده فعاد إلى حال صحته.
٢٠ ـ وسرق بعض أصحاب كرشنة مع عجولهم وأخفاهم السارقون في غار، فخلق كرشنة أصحاباً وعجولاً مثلهم في الشكل والهيئة.	٢٠ ـ وأخفى الأولاد الذين كانوا يلعبون مع يسوع أنفسهم في فرن، فبدّلوا إلى هيئة جداء، أي جديان، فناداهم يسوع تعالوا إلى هنا أيها الأولاد لنلعب فأعيدت تلك الجداء إلى هيئاتهم الأولى صبياناً.
٢١ ـ وأول الآيات والعجائب التي عملها كرشنة شفاء الأبرص.	٢١ ـ وأول الآيات والعجائب التي عملها يسوع المسيح هي شفاء الأبرص.
٢٢ ـ وأتي إلى عند كرشنة بامرأة فقيرة مقعدة ومعها إناء فيه طيب وزيت وصندل وزعفران وزباد وغير ذلك من أنواع الطيب، فدهنت به جبين كرشنة بعلامة خصوصية وسكبت الباقي على رأسه.	٢٢ ـ وفيما كان يسوع في منزل عتيا في منزل سمعان الأبرص تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن فسكبته على رأسه وهو متكئ.
٢٣ ـ كرشنة صلب ومات على الصليب.	٢٣ ـ يسوع صلب ومات على الصليب.
٢٤ ـ لما مات كرشنة حدثت مصائب وعلامات شر عظيم وأحاط بالقمر هالة سوداء وأظلمت الشمس في وسط النهار وأمطرت السماء ناراً ورماداً وتأججت أشعة نار حامية، وصار الشياطين يفسدون في الأرض وشاهد الناس ألوفاً من الأرواح في جو السماء يتحاربون صباحاً ومساء، وكان ظهورها في كل مكان.	٢٤ ـ لما مات يسوع حدثت مصائب جمة متنوعة، وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى تحت، وأظلمت الشمس من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة، وفتحت القبور وقام كثير من القديسين وخرجوا من قبورهم.
٢٥ ـ وثقب جنب كرشنة بحربة.	٢٥ ـ وثقب جنب يسوع بحربة.
٢٦ ـ وقال كرشنة للصياد الذي رماه بالنبلة وهو مصلوب: اذهب أيها الصياد محفوفاً برحمتي إلى السماء مسكن الآلهة.	٢٦ ـ وقال يسوع لأحد اللصين اللذين صلبا معه: الحق أقول لك، إنك اليوم تكون معي في الفردوس.
٢٧ ـ ومات كرشنة ثم قام من بين الأموات.	٢٧ ـ ومات يسوع ثم قام من بين الأموات.
٢٨ ـ ونزل كرشنة إلى الجحيم.	٢٨ ـ ونزل يسوع إلى الجحيم.

أقوال الهنود الوثنيين في كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
٢٩ ــ وصعد كرشنة بجسده إلى السماء وكثيرون يشاهدونه صاعداً.	٢٩ ـ وصعد يسوع بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً.
٣٠ ـ ولسوف يأتي كرشنة إلى الأرض في اليوم الأخير، ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب، وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتهتز وتتساقط النجوم من السماء	٣٠ـ ولسوف يأتي يسوع إلى الأرض في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب، وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر أيضاً وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.
٣١ـ وهو أي كرشنة يدين الأموات في اليوم الأخير.	٣١ ـ ويدين يسوع الأموات في اليوم الأخير.
٣٢ ـ ويقولون عن كرشنة إنه الخالق لكل شيء ولولاه لما كان شيء مما كان فهو الصانع الأبدي	٣٢ ـ ويقولون عن يسوع إنه الخالق لكل شيء ولولاه لما كان شيء مما كان فهو الصانع الأبدي
٣٣ ـ كرشنة الألف والياء وهو الأول والوسط وآخر كل شيء.	٣٣ ـ يسوع الألف والياء والوسط وآخر كل شيء.
٣٤ ــ لما كان كرشنة على الأرض حارب الأرواح الشريرة غير مبال بالأخطار التي كانت تكتنفه، ونشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأعمى وإعادة المخلوع كما كان أولاً ونصرة الضعيف على القوي، والمظلوم على ظالمه. وكان إذ ذاك يعبدونه ويزدحمون عليه ويعدّونه إلهاً.	٣٤ ـ لما كان يسوع على الأرض كان يحارب الأرواح الشريرة غير مبال بالأخطار التي كانت تكتنفه، وكان ينشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأخرس والأعمى والمريض، وينصر الضعيف على القوي، والمظلوم على ظالمه. وكان الناس يزدحمون عليه ويعدّونه إلهاً.
٣٥ ـ كان كرشنة يحب تلميذه أرجونا أكثر من بقية التلاميذ بكثير.	٣٥ ـ كان يسوع يحب تلميذه يوحنا أكثر من بقية التلاميذ.
٣٦ ــ وفي حضور أرجونا بدلت هيئة كرشنة وأضاء وجهه كالشمس ومجد العليّ اجتمع في كرشنة إله الآلهة فأحنى أرجونا رأسه تذللاً ومهابة وتكتف تواضعاً وقال باحترام: الآن رأيت حقيقتك كما أنت، وإني أرجو رحمتك يا رب الأرباب فعد واظهر عليّ في ناسوتك ثانية أنت محيط بالملكوت.	٣٦ ـ وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم، وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالثلج، وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائل: هذا هو ابني الحبيب الذي سررت له اسمعوا ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جداً.
٣٧ ــ وكان كرشنة خير الناس خلقاً وخلقاً وعلم بإخلاص ونصح، وهو الطاهر العفيف مثال الإنسانية، وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل البرهميين، وهو الكاهن العظيم برهما، وهو العزيز القادر ظهر لنا بالناسوت.	٣٧ ـ وكان يسوع خير الناس خلقاً وخلقاً وعلم بإخلاص وغيرة، وهو الطاهر العفيف مكمل الإنسانية ومثالها، وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل التلاميذ، وهو الكاهن العظيم القادر ظهر لنا بالناسوت.

أقوال الهنود الوثنيين في كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
٣٨ ـ كرشنة هو برهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسراره العجيبة الإلهية .	٣٨ ـ يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره في الناسوت سر من أسراره العظيمة الإلهية .
٣٩ ـ كرشنة الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس عند الهنود الوثنيين القائلين بألوهيته .	٣٩ ـ يسوع المسيح الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس عند النصارى .
٤٠ ـ وأمر كرشنة كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يترك أملاكه وكافة ما يشتهيه ويحبه من مجد هذا العالم ويذهب إلى مكان خال من الناس ويجعل تصوره في الله فقط .	٤٠ ـ وأمر يسوع كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يفعل كما يأتي : «وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء ، فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية »
٤١ ـ وقال كرشنة لتلميذه الحبيب أرجونا إنه مهما عملت ومهما أعطيت الفقير ومهما أكلت ومهما قرّبت من قربان ومهما فعلت من الأفعال المقدسة الصالحة فليكن جميعه بإخلاص لي أنا الحكيم والعليم ليس لي ابتداء وأنا الحاكم المسيطر والحافظ	٤١ ـ فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئاً فافعلوا كل شيء لمجد الله .
٤٢ ـ قال كرشنة : أنا علة وجود الكائنات فيّ وفيّ تحلّ وعليّ جميع ما في الكون يتكل وفيّ يتعلق كاللؤلؤ المنظوم في خيط .	٤٢ ـ من يسوع وفي يسوع وليسوع كل شيء «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » .
٤٣ ـ وقال كرشنة : «أنا النور الكائن في الشمس والقمر ، وأنا النور الكائن في اللهيب ، وأنا نور كل ما يضيء ، ونور الأنوار ليس فيّ ظلمة » .	٤٣ ـ ثم كلمهم يسوع قائلاً : «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة » .
٤٤ ـ قال كرشنة : «أنا الحافظ للعالم وربه وملجئه وطريقه » .	٤٤ ـ قال له يسوع : «أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي الآب إلاّ بي » .
٤٥ ـ وقال كرشنة : «أنا صلاح الصالح وأنا الابتداء والوسط والأخير والأبدي وخالق كل شيء وأنا فناؤه ومهلكه .	٤٥ ـ وقال يسوع : «أنا هو الأول والآخر ولي مفاتيح الهاوية والموت » .
٤٦ ـ وقال كرشنة لتلميذه الحبيب : لا تحزن يا أرجونا من كثرة ذنوبك ، أنا أخلصك منها فقط ثق بي وتوكل عليّ واعبدني واسجد لي ولا تتصور أحداً سواي ، لأنك تأتي إليّ إلى المسكن العظيم الذي لا حاجة فيه لضوء الشمس والقمر اللذين نورهما مني .	٤٦ ـ وقال يسوع للمفلوج : ثق يا بني ، مغفورة لك خطاياك . يا بني أعطني قلبك . والمدينة لا تحتاج إلى شمس ولا إلى قمر ليضيئا فيها الحروف سراجها .

هذا شيء قليل من كثير اكتفينا به حباً بالاختصار .

مقابلة النص الصريح بين بوظا ويسوع المسيح

وهو مقابلة ما يقوله الهنود الوثنيون عن بوظا بما تقوله النصارى عن يسوع المسيح

أقوال الهنود الوثنيين في بوظا ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
١ ـ ولد بوظا من العذراء مايا بغير مضاجعة رجل.	١ ـ ولد يسوع المسيح من العذراء مريم بغير مضاجعة رجل.
٢ ـ كان تجسد بوظا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا.	٢ ـ كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم.
٣ ـ لما نزل بوظا من مقعد الأرواح ودخل في جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقي وظهر بوظا فيه كزهرة جميلة.	٣ ـ لما نزل يسوع من مقعده السماوي ودخل في جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقي وظهر يسوع فيه كزهرة جميلة.
٤ ـ وقد دل على ولادة بوظا نجم ظهر في أفق السماء ويدعونه «نجم المسيح».	٤ ـ وقد دل على ولادة يسوع نجم ظهر في المشرق قال دوان: ومن الواجب أن يدعى «نجم المسيح».
٥ ـ ولد بوظا ابن العذراء مايا التي حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد أي في ٢٥ كانون الأول.	٥ ـ ولد يسوع ابن العذراء مريم التي حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد أي في ٢٥ كانون الأول.
٦ ـ لما ولد بوظا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المجد للمولود المبارك قائلين: «ولد اليوم بوظا على الأرض كي يعطي الناس المسرات والسلام ويرسل النور إلى المحلات المظلمة ويهب بصراً للعمي».	٦ ـ لما ولد يسوع فرحت ملائكة السماء والأرض ورتلوا الأناشيد حمداً للواحد المبارك قائلين: «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة».
٧ ـ وعرف الحكماء بوظا وأدركوا أسرار لاهوته، ولم يمض يوم على ولادته حتى حياه الناس ودعوه إله الآلهة.	٧ ـ وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا أسرار لاهوته، ولم يمض يوم على ولادته حتى دعوه إله الآلهة.
٨ ـ وأهدوا بوظا وهو طفل هدايا من مجوهرات وغيرها من الأشياء الثمينة.	٨ ـ وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا من ذهب وطيب ومر.
٩ ـ لما كان بوظا طفلاً قال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعاً.	٩ ـ لما كان يسوع طفلاً قال لأمه مريم: أنا ابن الله.
١٠ ـ كان بوظا ولداً مخيفاً، وقد سعى الملك بمبسارا وراء قتله لما أخبروه أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقي حياً.	١٠ ـ كان يسوع ولداً مخيفاً، سعى الملك هيرودس ورأى قتله كي لا ينزع الملك من يده.

أقوال الهنود الوثنيين في بوظا ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
١١ ـ لما أرسل بوظا إلى المدرسة وهو ولد أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل، وفاق الجميع في الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسة والتنجيم والكهانة والعرافة.	١١ ـ لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه يوسف: لقد أتيتني بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم.
١٢ ـ لما صار عمر بوظا اثنتي عشرة سنة دخل أحد الهياكل وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ثم يوضحها لهم حتى فاق كافة مناظريه.	١٢ ـ لما صار عمر يسوع اثنتي عشرة سنة جاؤوا به إلى الهيكل «أورشليم» وصار يسأل الأحبار والعلماء مسائل مهمة ثم يوضحها لهم وأدهش الجميع.
١٣ ـ ودخل بوظا مرة أحد الهياكل فقامت الأصنام من أماكنها وتمددت عند رجليه سجوداً له.	١٣ ـ وكان يسوع ماراً قرب حاملي الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجوداً له.
١٤ ـ ويصلون نسب كوتاما بوظا من أبيه صدودانا في أناس كلهم من سلالة ملوكانية إلى ماها سماطا وهو على زعمهم أول ملك صار في الدنيا والحوادث والأنساب المذكورة في كتاب بيدرازا البرهمي توجد في أنسابه غير أنه لا يمكن تحقيق الحوادث ونسبتها مع غيرها وسبب ذلك هو أن مؤرخي البوطيه أدخلوا فيها أسماء قبائل واخترعوا أسماء تمكنهم من إعلاء نسب حكيمهم عدا من اعتبارهم إياه إلهاً.	١٤ ـ ويعدون سلالة يسوع من أبيه يوسف في أشخاص مختلفين وكلهم من سلالة ملوكانية إلى آدم أبي البشر، وكثير من الأسماء والحوادث المذكورة في سلالته مذكورة في التوراة كتاب اليهود وليس بالإمكان تحقيق حكاياتهم مع بعضها بعضاً، ويظهر لنا أن المؤرخين النصارى قد اخترعوا أسماء قصد إعلاء نسب حكيمهم علاوة على قولهم بألوهيته.
١٥ ـ لما عزم بوظا على السياحة قصد التعبد والتنسك وظهر عليه مارا، أي الشيطان كي يجربه	١٥ ـ لما شرع يسوع في التبشير ظهر له الشيطان كي يجربه.
١٦ ـ وقال مارا، أي الشيطان لبوظا: لا تسرف حياتك في الأعمال الدينية لأنك بمدة سبعة أيام تصير ملك الدنيا.	١٦ ـ وقال ـ أي إبليس ـ له ـ أي ليسوع: أعطيك هذه ـ أي الدنيا ـ جميعها إن خررت وسجدت لي.
١٧ ـ فلم يعبأ بوظا بكلام الشيطان بل قال له: اذهب عني.	١٧ ـ فأجابه يسوع وقال: اذهب يا شيطان.
١٨ ـ ولما ترك مارا، أي الشيطان تجربة بوظا أمطرت السماء زهراً وطيباً ملأ الهواء طيب عرفه.	١٨ ـ ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه.

أقوال الهنود الوثنيين في بوظا ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
١٩ ـ وصام بوظا وقتاً طويلاً .	١٩ ـ وصام يسوع وقتاً طويلاً .
٢٠ ـ وقد عمد بوظا المخلص وحين عمادته بالماء كان روح الله حاضراً وهو لم يكن الإله العظيم فقط ، بل وروح القدس الذي فيه صار تجسد كوتاما لما حل على العذراء مايا .	٢٠ ـ ويوحنا عمد يسوع بنهر الأردن وكانت روح الله حاضرة وهو لم يكن الإله العظيم فقط ، بل والروح القدس الذي فيه تم جسده عندما حل على العذراء مريم ، فهو الآب والابن والروح القدس .
٢١ ـ ولما كان بوظا على الأرض في أواخر أيامه بدّلت هيئته وهو إذ ذاك على جبل بنداقا أي الأصفر الميض في سيلان ونزل عليه بغتة نور أحاط برأسه على شكل إكليل ، ويقولون إن جسده أضاء منه نور عظيم وصار كتمثال من ذهب برّاق مضيء كالشمس أو كالقمر ، وحينئذ تحوّل إلى ثلاثة أقسام مضيئة ، وحينما رأى الحاضرون هذا التبدل في هيئته قالوا : ما هذا بشر ، إن هو إلاّ إله عظيم .	٢١ ـ لما كان يسوع على الأرض بدّلت هيئته وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور .
٢٢ ـ وعمل بوظا عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره .	٢٢ ـ وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره .
٢٣ ـ وفي صلاتهم لبوظا يأمل المؤمنون به دخول الفردوس .	٢٣ ـ وفي صلاتهم ليسوع يأمل المؤمنون بألوهيته دخول الفردوس .
٢٤ ـ لما مات بوظا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية أي بقوة إلهية .	٢٤ ـ لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء القبر بقوة غير اعتيادية أي بقوة إلهية .
٢٥ ـ وصعد بوظا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض .	٢٥ ـ وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما أكمل عمله على الأرض .
٢٦ ـ ولسوف يأتي بوظا مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها .	٢٦ ـ ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها .
٢٧ ـ وسيدين بوظا الأموات .	٢٧ ـ وسيدين يسوع الأموات .
٢٨ ـ بوظا الألف والياء ليس له ابتداء ولا انتهاء وهو الكائن العظيم والواحد الأزلي .	٢٨ ـ يسوع الألف والياء ليس له ابتداء ولا انتهاء وهو الكائن العظيم والواحد الأبدي .

أقوال الهنود الوثنيين في بوظا ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
٢٩ ـ قال بوظا فلتكن الذنوب التي ارتكبت في هذه الدنيا عليّ ليخلص العالم من الخطيئة .	٢٩ ـ يسوع هو مخلص العالم وكافة الذنوب التي ارتكبت في العالم تقع عليه عوضاً عن الذين اقترفوها ويخلص العالم .
٣٠ ـ قال بوظا : أخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها واعترفوا بذنوبكم علانية .	٣٠ ـ قال يسوع : أخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها واعترفوا بذنوبكم علانية .
٣١ ـ ويصفون بوظا أنه ذات من نور غير طبيعية ، والشرير مارا ـ ويدعونه أيضاً الحية ـ ذات مظلمة غير طبيعية .	٣١ ـ ويصفون يسوع أنه ذات من نور غير طبيعية ، شمس برّ وعدوه الشيطان الحية القديمة .
٣٢ ـ وفي أحد الأيام التقى أناندا تلميذ بوظا وهو سائر في البلاد بالمرأة متانجي وهي من سبط الكندلاس المرذولين قرب بئر ماء فطلب منها قليلاً من الماء فأخبرته عن سبطها وأنه لا يجوز له أن تقترب منه لأنها من سبط محتقر، فقال لها : يا أختي إني لم أسألك عن سبطك وعن عائلتك ، إنَّما سألتك شربة ماء ، فصارت من ذلك الحين تلميذة بوظية .	٣٢ ـ وفي أحد الأيام قعد يسوع قرب بئر ماء بعد ما سار مسافة حتى كاد ينهكه التعب ، وبينما هو قاعد قرب البئر عند مدينة السامرة ، أتت امرأة سامرية لتملأ جرتها من البئر ، فقال لها يسوع : اسقيني شربة ماء . فقالت له المرأة السامرية : أنت يهودي وكيف تطلب مني شربة ماء ، فإن اليهود لا يستحلون معاملة السامريين .
٣٣ ـ قال بوظا إنه لم يأت لينقض الناموس ، كلا ، بل أتى ليكمله وقد سرّه عد نفسه حلقة في سلسلة المعلمين الحكماء .	٣٣ ـ وقال يسوع : لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل .
٣٤ ـ وبحسب تعليم بوظا يجب أن تكون كافة أعمالنا مع أهلنا وجيراننا بالمحبة والحسنى .	٣٤ ـ قال يسوع : «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم» .
٣٥ ـ وفي أوائل أيام بوظا التي علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة بينارس وعلم فيها فتبعه كوندنيا ثم تبعه رجال آخرين ، وصاروا جميعهم تلامذة له ، ومن ذلك الحين صار أينما علم وكرز يتبعه رجال ونساء كثيرون ويصيرون من أتباعه وتلاميذه	٣٥ ـ وفي أوائل أيام يسوع التي علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة كفر ناحوم وعلم فيها فتبعه بذلك الحين أربعة رجال صيادين ، وصاروا تلاميذ له ، ومن هذا الحين صار أينما كرز يتبعه رجال ونساء كثيرون يؤمنون به .
٣٦ ـ وقال بوظا للذين صاروا تلامذة له كي يتركوا الدنيا وغناهم وينذرون عيشة الفقر والفاقة .	٣٦ ـ وقال يسوع للذين صاروا تلاميذ له كي يتركوا غناهم وينذرون عيشة الفقر والفاقة .

أقوال الهنود الوثنيين في بوظا ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
٣٧ ـ وجاء في كتب البوظية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوظا آية كي يؤمنوا به .	٣٧ ـ وجاء في كتب النصارى الدينية المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع علامة أي آية ليؤمنوا به
٣٨ ـ لما اقترب انتهاء أيام بوظا على الأرض وعلم الحوادث المقبلة التي ستقع قال لتلميذه أناندا ما يأتي : «يا أناندا متى أنا ذهبت لا تظن أنه لم يعد لبوظا وجود ، كلا ، فالكلام الذي قلته والفرائض التي افترضتها تكون خلفاً عني وهي لك كذاتي أنا» .	٣٨ ـ لما اقترب انتهاء أيام يسوع على الأرض أخبر عن الحوادث التي ستقع من بعده وقال لتلاميذه : «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به ، وهاأنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» .
٣٩ ـ وجاء في التعاليم البوظية بأن إنفاق الإنسان لما له من أعظم الصعوبات ومن ينفق غناه هو أشبه بمن يهب روحه ، لأن النفس تبخل بالمال وتتمسك به ، وأما هو فقد وهب ونذر حياته شفقة وحنواً لخير الناس ، فلماذا تتمسك بغناء الدنيا الزهيد . ولما تخلص بوظا من حب المشتهيات الدنيوية وملذاتها نال المعرفة الإلهية وصار الرأس فليعمل الرجل الحكيم الهاجر للذات الدنيا الخير مع كل أحد حتى تقديم نفسه فداء عن الغير عندها يصل إلى المعرفة الحقيقية .	٣٩ ـ وإذا واحد تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ قال له يسوع : إن أردت أن تكون كاملاً فأذهب ربع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني . لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لايفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون .
٤٠ ـ وكان قصد بوظا تشييد مملكة دينية أي مملكة سماوية .	٤٠ ـ ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات .
٤١ ـ وقال بوظا : «الآن أحببت إدارة دولاب الشريعة العظيم» ، ومن أجل هذا فإني ذاهب إلى مدينة بينارس لأهب نوراً للتائهين في الظلام وأفتح باب الحياة للإنسانية .	٤١ ـ من بعد تجربة الشيطان ليسوع ابتدأ يسوع بتأسيس مملكة دينية ومن أجل هذا الغرض ذهب إلى مدينة كفر ناحوم ، ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله ، الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً ، والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور .
٤٢ ـ وقال بوظا لتلميذه الحبيب أناندا : يا أناندا إن كلامي حق لا ريب فيه فلا يزول قطعياً ولو وقعت السماوات على الأرض وابتلع العالم وجفت البحار واندك جبل سومر وصار قطعاً .	٤٢ ـ الناموس أعطي لموسى ، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا . الحق أقول لكم السماء والأرض تزول ولكن كلامي لا يزول .

أقوال الهنود الوثنيين في بوظا ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
٤٣ ـ قال بوظا : لا يوجد شيء أعظم فعلاً في الإنسان من الاشتهاء والهوى الشهواني ، ولحسن الحظ والسعادة لا يوجد سوى اشتهاء شهواني واحد ، ولو كان يوجد اشتهاء آخر لما كان على الأرض رجل يتبع الحق فاحترسوا من تحقيق بصركم في النساء ، وإن كنتم مجتمعين معهن فاجعلوا اجتماعكم كأنكم غير حاضرين معهن ، وإذا كلمتموهن فاحترسوا على قلوبكم .	٤٣ ـ وقال يسوع : « قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه .
٤٤ ـ وقال بوظا : « الرجل العاقل الحكيم لا يتزوج قط ، يرى الحياة الزوجية كأتون نار متأججة ، ومن لم يقدر على العيشة الرهبانية يجب عليه الابتعاد عن الزنا » .	٤٤ ـ فحسن للرجل أن لا يمس امرأة ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا ، لأن التزوج أصلح من التحرق .
٤٥ ـ ومن جملة التعاليم البوظية قولهم : « إذا أصاب الإنسان حزن وآلام ويؤس وقنوط فإن ذلك يدل على أنه ارتكب آثاماً وهذه الآلام جزاء عليها » . وإذا لم يكن ارتكب شيئاً من الآثام في هذا الدور الحاضر من حياته لا بد وأن يكون قد ارتكبه في أحد الأدوار السابقة من ظهوره أي في أحد أدوار تقمصه .	٤٥ ـ وفيما هو مجتاز رأى إنساناً أعمى منذ ولادته ، فسأله تلاميذه قائلين : يا معلم ، من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى .
٤٦ ـ كان بوظا يعلم أفكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم ، ويقدر على معرفة أفكار المخلوقات كلها .	٤٦ ـ كان يسوع يعلم أفكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلها .
٤٧ ـ وجاء في كتاب الصومادیفا حكاية منسوبة لأحد القديسين البوظيين أنه قلع عينه ورماها لأنها أشككته .	٤٧ ـ قال يسوع : « فإن كانت عينك اليمين تعثرك فاقلعها وألقها عنك » .
٤٨ ـ لما عزم بوظا على التنسك كان راكباً جواداً يدعى « كنتاكو » ففرشت الملائكة طريقه بالزهر . اهـ .	٤٨ ـ لما كان يسوع داخلاً إلى أورشليم راكباً على حمار فرشت الجموع الطريق بأغصان النخيل . اهـ .

تَمَّ الجزء الثالث من تفسير الجواهر ، ويليه الجزء الرابع ، أوله تفسير سورة الأنعام

فهرست الجزء الثالث

من تفسير الجواهر